

دراسات في السياسة والاقتصاد

7 الهيئة الأمريكية: نموذج التطوير الواحد ..... د. سيد أبو حنيف أحمد

28 الأملح الصهيونية في بلاد العروبة ..... د. محمد أحمد صالح حنين

68 التحولات السياسية والاقتصادية في الكويت والوطن العربي ..... د. علي أحمد عطية

109 المساءيل العربية وبرنامج الإنعاش ..... أ. محمد الطويل يوسف أحمد

133 الفكر النقابات: منظمة التجارة العالمية ..... د. أحمد طاهر نجار

145 عرض كليات الاقتصاد السياسي لبلدان ..... د. عباس المحزون



أفاق نقدية

157 تقويم أخطار الثورات الدولية الخطيرة ..... د. عادل موسى

167 دور برنامج بين الكادبة العراقية والوزعالية العنصرية ..... أ. عبد الكريم درويش

219 حسن الأعداء والتنافس بين القديم والحديث ..... أ. عبد الله أحمد الأحمير

283 أسفار الترحل والهجرة وسمجياتها ..... د. نجدة إدريس

383 تحليل مفاهيم البناء وبناء الضامير ..... د. سمير شريف استياني

## تقديم

### هذا

صاحب كتاب ضمن خطة محاور مجلة عالم الفكر محاور «الاقتصاد والاقتصاد السياسي». واعتقدنا ان الكتابة في هذين الموضوعين لن تكون مشككة، لأهميتهما في الواقع، حيث العولة والخصخصة المعاصرة، ولأنهما مجالان مهمان في حياة الشعوب وخاصة في العالم العربي. والتفاجؤ كانت لنا لم نجد من يكتب في بعض الموضوعات الاقتصادية والسياسية من الشخصيين، على الرغم من محاولاتنا حيث عدد منهم على المعاصرة في هذا المحور من الجامعات العربية وخارجها. والتفاجؤ الكثيرون ومنهم من قبل محاور العدد بفترة وجيزة، كما ان بعض المبعوث قد وصل إلى المجلة متأخرا. ولكن لابد من صدور العدد أو استبدال محاور أخرى. فكلنا نراي أن الموضوعات التي أسهم بها أصحابها في هذا المحور جيدة ومهمة. وتتناول أمورا أساسية في مجال الاقتصاد والعلوم السياسية. نقدمها للقارئ على أمل أن تستكمل الجوانب الأخرى في هذين المجالين، خصوصا المجال الاقتصادي، في أعداد قادمة. يتناول هذا المحور في المجال السياسي دراسات متنوعة تبدأ بدراسة من «الهيمنة الأميركية : نموذج القطب الواحد وسيناريوهات النظام العالمي الجديد»، وركز الباحث فيها على واقع النظام العالمي الجديد ومستقبله، من خلال هيمنة القطب الواحد المتمثل في الولايات المتحدة الأمريكية. وهي البحث الثاني دراسة حول «الأطماع الصهيونية على مصادر المياه العربية»، وهو موضوع الحاضر والمستقبل في النزاع العربي - الإسرائيلي. كما أنه الخطر حلقه في هذا النزاع. ويتناول البحث الثالث محاولة لدراسة «التحديات السياسية والاجتماعية لدى طلبة جامعة الكويت». لمعرفة مدى ثقافة هؤلاء الشباب حول القضايا والتحديات الأساسية التي تواجه

مجتمعاتهم والعالم العربي. ثم تأتي بحوث المجال الاقتصادي، التي كنا نطمح إلى أن تغطي أهم الموضوعات في مجال أساسي ومهم، وخاصة في العالم العربي الذي يمر بمرحلة محاسن في عصر التحولات التي يشهدها العالم. وطرحنا دراسة أهمية «الصناديق العربية للتنمية ودورها» تسوراً ركز على خصائص دعم المشروعات من طريق هذه الصناديق وحرصاً ذلك الدعم، وعلى الدور الذي لعبته في التنمية الاقتصادية والاجتماعية في العالم العربي. إضافة إلى ما مثّلته هذه الصناديق من تعزيز للشعائر الاقتصادية العربية.

ثم هناك دراسة أخرى حول منظمة التجارة العالمية وأثار اتفاقياتها في مجال الصناعة في الكويت. ملخصها أن القطاع الصناعي في دولة الكويت سيتأثر، بشكل مباشر أو غير مباشر، بالاتفاقيات الدولية المتعلقة بمنظمة التجارة العالمية، وأن الالتزامات تجاه المنظمة تشكل تحديات كبيرة، ولب الدراسة حول كيفية تنظيم الفوائد من تلك الاتفاقيات وتخفيف المخاطر والسياسات.

كما أن لدينا في هذا العدد، وفي المجال الاقتصادي، مراجعة جيدة لكتاب جيد سبق أن صغر عن سلسلة «عالم المعرفة» بالكويت بعنوان «الاقتصاد السياسي للبطالة» يشتمل على لجنة البطالة، وتطبيقاتها في الفكر الاقتصادي، وكيفية الخروج من مأزق البطالة في البلدان النامية.

هذه دراسات المحور بشقيه السياسي والاقتصادي، والأهميتهما لا بد من تناول قضايا أخرى تتعلق بهما في أعداد قادمة، خصوصاً المجال الاقتصادي، فالاقتصاد قضية أساسية في حياة المجتمعات، التي يقاس تقدمها بمدى التطور الاقتصادي فيها.

رئيس التحرير

# الهيئة الأمريكية : نموذج القطب الواحد وسيناريوهات النظام العالمي الجديد

د. سعيد أبو شيف أحمد<sup>(\*)</sup>

## ملخص

شاع استخدام مصطلح النظام العالمي الجديد كإهم سلاح فترة ما بعد الحرب الباردة، واستخدم بكثافة الرئيس الأمريكي السابق، George Bush، في محاولة منه لعرض التأييد الدولي الواسع لعملية حرب الخليج.

<http://ArchiveData.Sakhril.com>

وشهدت بدايات العقد الأخير من القرن العشرين «انفجاراً معرفياً» تمثل في سيل الكتابات الأكاديمية والصحافية التي تناولت المفهوم، على حين شهد النصف الأخير من هذا العقد «ثورة نسبية» في الكتابات الأكاديمية والسياسية التي تناولته. ربما كان عامل رد الفعل، وما يمكن استشرافه من أن حجم الدعاية والتوظيف للمفهوم في فترة حرب الخليج كان أكبر مما حوى المفهوم من إمكانات حقيقية لبدايات عصر جديد، يشتر به الذين تنوّه وعملوا على شيوعه.

فالنظام الدولي اليوم يعيش مرحلة تاريخية مهمة من التحولات والمستجدات السريعة والمتلاحقة ذات أبعاد عديدة، تترك آثارها الواضحة في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وفنضيا الحرب والصراع، وهي العلاقات الدولية عامة.

وتهدف هذه الدراسة إلى تحليل موضح واتجاهات الهيئة الأمريكية في ظل السيناريوهات المستقبلية للنظام العالمي الجديد، من خلال استعراض الأدبيات الحديثة، التي تناولت المفهوم منذ منتصف التسعينيات، وهي على قلتها النسبية تمثل مصدا جيداً لأهم الاتجاهات الفكرية في دراسة الموضوع.

(\*) قسم العلوم السياسية - جامعة طرابلس - ليبيا



ونستخدم الدراسة مفهوم الاتجاهات الفكرية بمعنى «مجموعة الأفكار والرؤى والتصورات والانتقادات التي طرحها المفكرون والباحثون حول موضوع» النظام العالمي الجديد». وذلك من خلال عرض رؤية باتورامية أولية للاتجاهات الفكرية الرئيسية، التي سادت منذ ولادة النظام العالمي الجديد في النصف الأول من التسعينيات، وتشخيص واقع اتجاهات النظام العالمي الجديد في صورته الراهنة، واستعراض وتحليل السيناريوهات المستقبلية لاتجاهات النظام العالمي الجديد على النحو التالي:

## أولاً : اتجاهات النظام العالمي الجديد في أواخر التسعينيات

### وبداية

أدت ولادة النظام العالمي الجديد مع بداية التسعينيات من القرن العشرين إلى ردود أفعال متباينة. وبالمراجعة السريعة لأدبيات النظام العالمي نتضح لنا أن هناك ثلاثة اتجاهات فكرية رئيسية: أولاً يقول بوجود نظام عالمي جديد، وثانياً ينفي وجود هذا النظام. وثالثها يرى أن هذا النظام لا يزال قيد التشكيل والتطور، وسوف نعرض لهذه الاتجاهات بصورة موجزة على النحو التالي:

يذهب أصحاب الاتجاه الأول إلى التأكيد على وجود هذا النظام بصورة قاطعة<sup>(١)</sup>. وإلى أن هناك من المفكرات التي تحمل على وجود النظام العالمي الجديد، والذي يبدو مستقلاً عن النظام العالمي القديم، وتشكل فيه التغيرات في اتجاه الحرب الباردة، وزوال الاتحاد السوفييتي، وبرز دور الولايات المتحدة كقوة عظمى وحيدة في عالم ما بعد الحرب الباردة، وتشعيم دور الأمم المتحدة باعتبارها تجسد الشرعية الدولية، وتنامي مجموعة من المشكلات والتحديات الدولية الجديدة التي تتطلب تعاوناً دولياً من أجل مواجهتها مثل: مشكلات تلوث البيئة والإرهاب والخدرات، وإزاحم مكانة القوة العسكرية، وإزاياد مكانة القضايا الاقتصادية على أجندة الاهتمامات الدولية، واتساع نطاق التحول الديمقراطي، وإزاياد حدة الاستقطاب بين الشمال والجنوب<sup>(٢)</sup>.

ورشة الاتجاهات فرعية داخل هذا الاتجاه، فهناك من يركز على الجوانب الإيجابية للنظام العالمي الجديد<sup>(٣)</sup>. وهناك من يقر بوجود النظام العالمي الجديد، إلا أنه ينفذ الأسس التي يستند إليها هذا النظام باعتباره يسعى لتحقيق مصالح قوى معينة<sup>(٤)</sup>.

ويخلص أنصار هذا الاتجاه إلى أن وجود النظام العالمي الجديد لا يحمل بالضرورة وعوداً بعالم أكثر أمناً وعدلاً، أو كونه أفضل من القديم، وأن كل ما يوحي النظام العالمي الجديد به هو وجود فروق عميقة وجوهريّة في أسسها وقيادتها عن النظام العالمي السابق عليه.

وأصحاب الاتجاه الثاني ينكرون ويشككون بوجود نظام عالمي جديد ويؤكدون أن هذا النظام، وعلى رغم كل ما جرى في المساحة الدولية من تحولات ملحوظة خلال السنوات

الأخيرة، لم يتكون بعد، وإن الحديث عن مثل هذا النظام هو مجرد وهم وخدعة<sup>(1)</sup>. وثمة اتجاهان فريحيان داخل هذا الاتجاه، أولهما ينكر وجود نظام دولي جديد، استناداً إلى حالة الفوضى وعدم الاستقرار التي انتابت العالم في أعقاب الحرب الباردة، وفي تقديره أن ما يحدث الآن هو أقرب إلى حالة من «الفوضى الدولية الجديدة»، والتي سوف تستمر، حتى يتم التوصل إلى ترتيبات دولية جديدة وترسيخها في صيغة نظام عالمي جديد<sup>(2)</sup>.

وثانيهما يرى أنه على الرغم من وجود متغيرات دولية جديدة، إلا أن ما يعرف بالنظام الدولي الجديد ليس جديداً في مضمونه أو أهدافه، وإنما هو أقرب إلى الترتيبات الجديدة التي يستعدها النظام العالمي القديم ليعيد بها تأكيد دوره في ظروف متغيرة<sup>(3)</sup>.

على حين يتذهب أنصار الاتجاه الثالث إلى القول إنه من السابق لأوانه الحديث عن نظام عالمي جديد، بالمعنى العلمي الدقيق، فهو لا يزال قيد التشكيل والتطور، ولم تستقر معالمه بصورة واضحة بعد. وإن المرحلة الراهنة من مراحل تطور النظام الدولي تمثل مرحلة انتقالية تشهد اندثار بعض أسس وقواعد النظام الدولي القديم، الذي تبلور في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية من ناحية، ومن ناحية ثانية بزوغ أسس وقواعد «النظام الدولي الجديد»، وإنها سوف تستغرق بعض الوقت، وتقسم بمسألة من الفوضى الدولية، وما يكتنفها من غموض واضطراب ومظاهر لعدم الاستقرار في مناطق عديدة من العالم<sup>(4)</sup>.

وبناء على ما سبق يمكن إدراك صورة من الملاحظات المهمة الأولى، أن هناك رؤى واتجاهات متعددة بشأن صياغة أسياس النظام العالمي الجديد. منذ أوائل التسعينيات - والتي ما زالت تصاع - حتى الآن، سواء من حيث التعرف أو السمات أو المنطلقات الفكرية للبحث عن هيكل أو تحديد القوى الفاعلة في النظام العالمي الجديد.

وينطلق الاتجاه الراض للنظام العالمي الجديد من منطلقات فكرية مختلفة. فالبعض يرى أن هذا النظام العالمي الجديد يعادي العرب والمسلمين ودول الجنوب عامة، والبعض الآخر يرى أن هذا النظام الجديد ما هو إلا استمرار للنظام القديم، ولكن في ظروف دولية جديدة. ولعل ذلك يرجع في تقديرنا إلى عمق التحولات الدولية وسرعة حدوثها وتداخلها.

الثانية، أنه على الرغم من تعدد الاتجاهات الفكرية بخصوص النظام العالمي الجديد، إلا أن هناك اتفاقاً عاماً بين الباحثين والمفكرين في مجال العلاقات الدولية على وجود متغيرات وتحولات جديدة، جعلت العالم يتعد تدريجياً عن النظام الدولي السابق الذي تبلور في أعقاب الحرب العالمية الثانية، والذي استند إلى نظام القطبية الثنائية الذي انهار مع انهيار الاتحاد السوفييتي، ودخل العالم مرحلة جديدة، وهو ما يمثل الاتجاه الغالب في الفكر.

ومن ثم ينطلق أنصار هذا الاتجاه من نظرة واضحة إلى عمق التحولات والمتغيرات السريعة والمتلاحقة، والتي تترك آثارها الواضحة في الحياة السياسية والاقتصادية

والاجتماعية، وقضايا الحرب والسلام، وعلى العلاقات الدولية بصفة عامة في ظل الثورة العلمية والتكنولوجية الهائلة في وسائل الاتصال والعلوم،

الثالثة: تشير التراجعة النظرية لدراسات والبحوث التي ركزت على هيكل النظام العالمي الجديد - إلى أن الاهتمام انصب على دراسة مفهوم القوة، وعناصرها، ومدى قدرتها على التأثير في سلوك الدول - ودور القيادة والعوامل الداخلية في توجيه السياسة الخارجية للدول<sup>(1)</sup>، ويقصد بهيكل النظام «توزيع القدرات في هذا النظام، وبالتالي ترتيب الوحدات المكونة له بعضها بالنسبة إلى البعض الآخر، وانعكاسات مثل هذا التوزيع على سلوك الوحدات الدولية، وقدرتها إحداها أو البعض منها على السيطرة على توجهات القاطنين الآخرين».

فقد استخدم «Bosener» اصطلاح القدرة Capability ليشير إلى عناصر القوة (عسكرية - اقتصادية)، واصطلاح التأثير Influence ليشير إلى القدرة على تغيير سلوك الآخرين. كما أوضح Krasthammer أن عالم ما بعد الحرب الباردة ليس عالمًا متعدد الأقطاب، بل هو عالم القطب الواحد<sup>(2)</sup>.

على حين يذهب انصار تعدد مراكز القوى في هيكل النظام الدولي الجديد إلى القول بأنه لا توجد دولة واحدة تملك تتفوق في جميع عناصر القوة، كما أشار Buzan إلى أن اصطلاح القوى العظمى أصبح اصطلاحاً في نظام في ظل نظام تعدد مراكز القوى<sup>(3)</sup>. وفي تقديرنا أن أي هيكل أو نظام دولي لا بد أن يمتلك قوى فاعلة إزامية لتحقيق وظائف هذا الهيكل أو هذا النظام. كما أن عدم القدرة على الإلزام يؤدي إلى تهمز القوى الفاعلة في النظام، مما يؤثر في بنيانه وهيكله. وهذا يعني أن هناك ارتباطاً بين هيكل وبنیان النظام الدولي ومدى قدرة النظام على أداء الوظائف المنوطة به.

وبالرغم من انقسام الآراء أو تناقض المواقف حول هيكل النظام العالمي الجديد في أوائل تسعينيات القرن العشرين - إلا أنه استقطب بوصفه ظاهرة في طور التكوين، اهتمام الباحثين في مجال العلاقات الدولية. وربط بينهم اهتمامهم بجملة المتغيرات التوسعية المتلاحقة التي شهدها ويشهدها النظام الدولي، والتي تعدت نطاق التوسيمات وتجاوزت حدود الدول والأقاليم، وإن هذا الانقسام والتناقض يعودان في تقديرنا - بالدرجة الأولى - إلى عدم وجود هيكل مؤسس معن النظام الجديد حتى هذه اللحظة، كما أنه لتعريف على مدى استقرار أي هيكل أو بنيان لنظام ينبغي تحليل عوامل الاستقرار أو عدم الاستقرار في النظام، ومتغيرات التوازن داخله، ومدى القدرة على تعبئة وتوظيف الموارد واستخدام التكنولوجيا، وقدرته النظام العالمي على احتواء عوامل الاضطراب فيه.

## ناتياً : اتجاهات النظام العالمي الجديد في ضوءه المرافقة نموذج القطب الواحد : اتجاه الهيمنة الأمريكية

### The Unipolar Moment and American Hegemony

شهد العالم ظاهرة فريدة وباندرقة، تمثلت في تشكل دولة عظمى واختلافها من التاريخ، في الوقت الذي تابع فيه ظاهرة تاريخية أخرى بالقدر نفسه من الندرة، وهي تعاظم نمو دولة عظمى أخذت في التفرد بالثامن العالمي. فمع انحسار وتشكك الاتحاد السوفييتي والشيانه بهيمومه الداخلية، كانت الولايات المتحدة الأمريكية تحقق أكبر قدر من الانتشار العالمي، وتحقق أكبر قدر من التجامعات والانتصارات السياسية والعسكرية، وتستغل التحولات الدولية لتزيد من حضورها وصمودها الدولي كدولة وحيدة تتمتع بمواصفات ومقومات الدولة العظمى كلها Super State.

الواقع أن الظروف والمستجدات العالمية هي التي ساهمت بمهاجمة مباشرة في بروز المتجدد للولايات المتحدة كدولة عظمى وحيدة في العالم المعاصر. وعملت الدولة الأمريكية على ترسيخ الانطباع بأنها قد كسبت المواجهة السياسية والمقاتلية مع الاتحاد السوفييتي السابق لمصلحتها، كما أخذت تروج عبر وسائلها الإعلامية والدعائية المنظمة أن هزيمة الاشتراكية تعني انتصاراً مباشراً للرأسمالية والفكر الليبرالي، الذي اعتبر في هذه المرحلة الرائجة الفكر الذي يتمتع بكل مزاياه، العقلية، العلمية، الاجتماعية، بما يتضمنه ذلك من بروز أطروحات مثل نهاية التاريخ والأيدولوجيات، أو Fe Karyev، لذلك أخذت الولايات المتحدة للتصرف من موقع إدارة العالم وتقرير شؤونه السياسية والأستراتيجية، خاصة أن أيدولوجيتها هي الآن من دون منازع، وأكثر ثباتاً من أي وقت مضى، وحلفها العسكري والسياسي هو أكثر تماسكاً واختلافاً بقوته، كما أن مواردها وإمكاناتها ما زالت تتصدر موارد وإمكانات كل الدول الأخرى في العالم.

فالاقتصاد الأمريكي ما زال هو الأشجع عالمياً من حيث الحجم، فإجمالي الناتج القومي للولايات المتحدة يتجاوز 6 تريليونات دولار، وهو ما يوازي حوالي 25% من إجمالي الناتج العالمي (وفقاً لتقديرات البنك الدولي في عام 1996)، وهو يزيد على ضعف الاقتصاد الياباني الذي يعد ثاني أكبر اقتصاد في العالم، كما أن منظمة الاقتصاد الأمريكي تتجسد في كافة المجالات الاقتصادية، بما في ذلك المجالات الزراعية، حيث تنتج الولايات المتحدة محاصيل زراعية تكفي لإطعام نصف سكان العالم.

بالإضافة إلى ذلك، فإن الولايات المتحدة الأمريكية هي الدولة الأولى في العالم من حيث عدد المليارديرات، وعدد رجال الأعمال، وعدد الكبراء الذين يتقاضون أعلى الرواتب في العالم. وهي الدولة الأولى في العالم من حيث الاستهلاك للفرد، الذي يشكل حوالي 27% من

إجمالي الناتج المحلي الأمريكي، كما أنها الأولى في العالم من حيث عدد الشركات. للتعبئة  
الجنسية حيث تمتلك 165 شركة من أصل 500 شركة في العالم.

مصادر تمويل القوات المسلحة الأمريكية			
مؤشرات مختلفة	الولايات المتحدة	العالم	نسبة الولايات المتحدة
عدد السكان	280 مليون نسمة	6000 مليون نسمة	4.6 ٪
المساحة	9.8 ملايين كم <sup>2</sup>	136 مليون كم <sup>2</sup>	7.2 ٪
إجمالي الناتج القومي	6 تريليونات دولار	22 تريليون دولار	27 ٪
معدل النمو الاقتصادي	3.7	3.9	-
إجمالي الدين	5 تريليونات دولار	-	-
الميزان في الميزانية	180 مليار دولار	-	-
إجمالي الإنفاق العسكري	275 مليار دولار	350 مليار دولار	27.4 ٪
نسبة الإنفاق العسكري	3.9 ٪	1.6 ٪	-
عدد القوات المسلحة	1.4 مليون جندي	2.4 مليون جندي	29.4 ٪
عدد الأطباء	600 ألف طبيب	6 ملايين طبيب	10 ٪
عدد الممرضين	1.4 مليون ممرض	2.4 مليون ممرض	29 ٪
مقوسات مع القوات	26 وحدة	100 وحدة	-
مقوسات مع القوات	26 وحدة	100 وحدة	-

المصدر: برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، تقرير التنمية البشرية لعام 2003

Ruth Lager Svard, World Military and Social Expenditures 2003

الواقع أن هذا التفوق الأمريكي العالمي لا يستند فقط إلى القدرات الاقتصادية طعسب، بل يستمد فعاليتها وربما مشروعيتها من القوة العسكرية والنووية التي تملكها الولايات المتحدة، وهي قوة مطلقة وجبارة وتعد - بكل تأكيد - أضخم من القوة العسكرية لأي دولة أخرى في العالم. فعند القوات المسلحة الأمريكية يتجاوز مليوني جندي مجهزين بأحدث الأسلحة، كما أن الجيش الأمريكي هو الجيش الوحيد في العالم القادر على خوض معركتين حربيين في الوقت نفسه، وفي موقعين مختلفين من العالم والخروج منتصرا في كليهما.

ويرجع ذلك في تقديرنا إلى الإنفاق العسكري الأمريكي الضخم، والذي لا يضاهيه إنفاق أي دولة أخرى في العالم، فبالولايات المتحدة هي الدولة الوحيدة في العالم القادرة على تخصيص ما يزيد على 270 مليار دولار سنويا للأغراض العسكرية، (بحسب تقديرات المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية IISS عام ١٩٩٥). ولا تقتصر القدرات العسكرية الأمريكية على الأسلحة التقليدية، بل إن الولايات المتحدة هي أساسا قوة نووية، ولا توجد دولة أخرى في العالم تملك قدرات نووية تماثل أو تقارب ما يحوونها، فهي الأولى في العالم من حيث عدد الرؤوس النووية التي تقدر بحوالي ١٥ ألف رأس نووي، وهي الأولى من حيث عدد الصواريخ الاستراتيجية العابرة للقارات، والتي تصل إلى ١٠٠٠ صاروخ، وهي أيضا الأولى من حيث عدد القواصات النووية، الذي يقدر بحوالي ٧٠٠ قواصة نووية، وهي الأولى من حيث عدد القاذفات الاستراتيجية البعيدة المدى التي يزيد على ٥٠٠ قاذفة إستراتيجية، كما أنها الدولة الوحيدة في العالم التي تملك بيرماغيم - مخبر التجويف الذي يوفر للولايات المتحدة من دون غيرها من دول العالم، حماية فئدة أي هجوم نووي من الخارج.

هذه القدرات النووية والعسكرية والاقتصادية الأمريكية الضخمة مدعومة بقدرات تكنولوجية وبشرية متقدمة، ومدعومة من مؤسسات سياسية واسعة ومقتلة، بالإضافة إلى قدراتها الإعلامية والدعائية الواسعة والمؤثرة التي لا تجاريها أو تنافسها أي دولة أخرى في العالم اليوم.

وهي تقديرنا أن كل هذه المعطيات القاذية والموضوعية تجعل من التفوق الأمريكي حقيقة عالمية معيشة. وتجعل من الولايات المتحدة الدولة الوحيدة التي تتمتع بمعظم، إن لم يكن بكل، مواصفات القوة العظمى Super Power التي أصبحت تفسر بالشأن العالمي في الوقت الحاضر. ولكن إلى متى ستظل الولايات المتحدة الدولة العظمى الوحيدة والهيمنة على العالم؟ وإلى متى سيستمر النظام العالمي الجديد على أحاديته الرافعة؟

فعلى الرغم من تأكيد الباحثين والفكرين على أنه بالهدار الاتحاد السوفييتي ونهاية الحرب الباردة تركت الولايات المتحدة على قمة النظام الدولي وحيدة منفردة لتستقر العالم بلا منافس أو منازع. ومع إقرار البعض من أنصار هذا الاتجاه أمثال Barry Posen and

Andrew Ross لتراجع الوضع الاقتصادي للولايات المتحدة أمام القوة الاقتصادية لكل من اليابان وأوروبا، إلا أنهم يؤكدون على إمكان تغيير هذا الوضع وتحسينه لتكريم هيمنة الولايات المتحدة على العالم<sup>(١٠٠)</sup>. على حين يرى بعض الباحثين أنه إذا كان التطور والنمو الاقتصادي داعماً للهيمنة، فإن مؤشرات النمو الاقتصادي ليست هي مصلحة الهيمنة الأمريكية في المدى المنظور. فسرعة إنتاجيتها الصناعية في حقبة التسعينيات تقل ٢ مرات عن اليابان، وموتون عن أوروبا الغربية، فضلاً عن أن ميزانها التجاري يزداد عجزاً يوماً بعد يوم<sup>(١٠١)</sup>.

ويؤكد بعض الباحثين على تراجع الناتج الإجمالي الأمريكي من (٢٥٠) من إجمالي الناتج العالمي عام ١٩٥٥ إلى حوالي (٢٢٥) فقط عام ١٩٩٦، كما تراجعت نسبة ما قدمته الولايات المتحدة من معارف وتكنولوجيا جديدة في العالم عام ١٩٩٧ من (٢٧٥) إلى حوالي (٢٢٦) فقط في عام ١٩٩٦. وهي ضوء ذلك يتبعاً العديد من المحللين والباحثين بالولايات المتحدة، عاجلاً أم آجلاً، إلى الصف الثاني من الأمم الكبرى، أو تحولها إلى دولة متوسطة القوة<sup>(١٠٢)</sup>.

وعلى الرغم من ذلك، فإن الباحثين والمحللين الأمريكيين يؤكدون على أن العامل الأساسي الداعم لاستمرار هيمنة الولايات المتحدة على العالم هو قوتها العسكرية، التي يجب أن تضخم وتزداد لتضمن لها الهيمنة والسيطرة العالمية. ودللوا على مشكلاتهم هذه بما حدث في حرب الخليج وقدرتها هي السيطرة على مقاييد الأمور في العمليات العسكرية.

وهي اعتقادنا أن الرؤية المتكاملة لأشكال الأزمات الكبرى الخارجة لاتجاه الهيمنة الأمريكية تؤكد على أن الولايات المتحدة أن تستطع العمل على عامل عسكري كثيراً لفرض هيمنتها العالمية، لكنها تواجه مجموعة كبيرة من التحديات على مستويين<sup>(١٠٣)</sup>.

أولهما: المستوى الداخلي. ويمثل في المشاكل الداخلية التي ربما عاقبتها عن الاستمرار في المنافسة كالمشكلات الاقتصادية والتعليمية، وعلى راسها انشغال الباحثين والمحللين الأمريكيين بوجود تلك المشكلات، إلا أنهم لم يقدموا مقترحات لحلها، وإنما شرموها في تقديم الحلول البديلة والكفيلة بتفصيل الهيمنة الأمريكية على العالم، وذلك من دون الشك في دورها العسكري. فضلاً عن الدعوة للاستمرار في نشر الثقافة الأمريكية: ثقافة الديمقراطية وحقوق الإنسان، بالإضافة إلى ضرورة الاستمرار في جذب الدول إلى تلك الثقافة لتضم إلى المعسكر الأمريكي. وهذا في نظر كل من Snow and Brown في دراسة حديثة لهما كفيلاً باستمرار الهيمنة الأمريكية على العالم حتى في المدى البعيد<sup>(١٠٤)</sup>.

ونعتقد أن رؤية أنصار هذا الاتجاه تتوافق مع رؤية الإدارة الأمريكية لوضع الولايات المتحدة في ظل النظام العالمي الجديد، حيث عمدت إلى توظيف ما أسماه الرئيس الأمريكي الأسبق Richard Nixon بـ «الفرصة الماسحة» التي أفوضها الانهيار السوفييتي للبدء في تنفيذ مشروعاتها الكبرى في أمريكا العالم.

وبعد هذا التشروع بمثابة المحور الأساسي لحركة رؤساء الإدارات الأمريكية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، يقول الرئيس الأسبق «George Bush» الأب في أوائل التسعينيات «إن القرن القادم ينتمي له أن يكون أمريكا»<sup>(1)</sup>. هو امتداد لقول الرئيس «Roosevelt» في الأربعينيات إن فترتنا هو أمريكا العالم<sup>(2)</sup>. ولا يختلف عنها الرئيس «Nixon» الذي يقول يجب على أمريكا أن تقود العالم<sup>(3)</sup>. وعلى الرغم من أن إدارة الرئيس السابق «Bill Clinton» لم تستطع بصورة مكثفة مثلما كانت الحال مع إدارة الرئيس الأسبق «George Bush» إلا أن هذا لا يعني أنها تخلت عنه. كما أن الإدارة الحالية الجمهورية الرئيس «George W. Bush» سوف تشهد احتمالاً مكثفا لهذا الوضع العالمي للولايات المتحدة الأمريكية على الساحة الدولية.

ثانيهما: على المستوى الخارجي، وتتمثل في شيوع أسلحة الدمار الشامل، ليس على مستوى أعضاء النادي الذي فحسب، بل على مستوى دول كانت في عداد الدول النامية. ففي دراسة حديثة Thore Delpech من انتشار الأسلحة النووية والنظام العالمي الجديد، يشير العلاقة ما بين التنمية الاقتصادية وامتلاك القوة النووية، ويرى أن العصر الحالي شهد خروجاً على المكثف، ففي الماضي كانت القوى النووية مقصورة على النادي الذي من الدول الغنية المتقدمة، ولكن كيف استطاعت دول مثل عشرة اقتصادات كالعهد وباكستان ترتب أولوياتها الاقتصادية بحيث تفرش على الجميع دخولها النادي الذي كاسر واقع<sup>(4)</sup>، ويرى بعض الباحثين أن الظهور النووي القوي لكل من الصين، ثم الهند وباكستان أخيراً، يمثل تحدياً قوياً للنظام العالمي الجديد الذي تقوم الولايات المتحدة وأن النظام العالمي الجديد لا يزال يعاني من الحرب الباردة<sup>(5)</sup>.

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

وعلى الرغم من ذلك فقد أوضح أحد الباحثين أن انهيار الاتحاد السوفييتي جعل الولايات المتحدة الأمريكية التي يؤيدها حلفاؤها الغربيون، هي القوة المهيمنة في العالم، وأن دور القوى الغربية لا يتعدى قيامها بتنفيذ التوجيهات الأمريكية، ومن ثم فهي الدولة الوحيدة التي تتمتع بالقدرة التي تمكنها من القيام بدور حاسم في أي صراع تختار أن تشارك فيه، وفي أي مكان في العالم<sup>(6)</sup>.

ورفضاً لهذا الاتجاه فإن الولايات المتحدة عليها مسؤولية المحافظة على الاستقرار الدولي، وقيادة تحرك عالمي نحو تحقيق الديمقراطية، إلا أن هناك العديد من الباحثين يرون من الصعوبة يمكن استمرارية القطبية الواحدة. قائمة متغيرات موضوعية، تحتاج إلى فترة من الزمن كي تبلور مخرجاتها، تحول دون ذلك منها<sup>(7)</sup>.

(1) حالة عدم الاستقرار الدولي، لقد أدى انهيار القطبية الثنائية إلى اختلال القواعد والضوابط التي تحكمها في السلوك الدولي، وبالتالي في طبيعة التوازنات الدولية والإقليمية واتجاهاتها. وقد أظهرت هذه الاختلالات بروز قائمة مشاكل عالمية جديدة من دون حل، كما أن



إعادة هيكل الخريطة الجغرافية والسياسية لعالم الجنوب، خدمة لمصالح غربية أو أمريكية، أدى إلى حالة من عدم الاستقرار الدولي.

ومن هنا يمكن القول إن النظام العالمي الجديد، بمفهومه الأمريكي، لم يستطع إقامة عالم مستقر آمن، إنما تميز بسياسات القوة والمتعاضة القومية، والتوترات الإثنية والعرقية.

(ب) التصاع دائرة الرفض الدولي للقطبية الواحدة، فالانظمة الأمريكية نحو الهيمنة العالمية تواجه برفض قد يكون صريحاً أو ضمني، فغياب قوة دولية عظمى قادرة وإلحاحية هي التصدي صراحة للسياسات الأمريكية على غرار السلوك السوفييتي، لا سيما خلال مرحلة الحرب الباردة، جعل العديد من الدول يعاني لخطر القوة الأمريكية، فعلى سبيل المثال، طرخت الحكومة الكندية في اتفاقية التبادل التجاري الحر بينها وبين الولايات المتحدة على الإدارة الأمريكية استبعاد كل الصناعات الثقافية والإعلامية، وفي فرنسا هناك إجماع على التغلغل كل الإجراءات الكفيلة بحماية اللغة والثقافة الفرنسية من التأثير الأمريكي، كما أن مقاومة فرنسا ودفاعها عن الحقوق الثقافية هي مقاومة حقيقية وشرسة للأمركة، ولذلك يدرك بعض المفكرين والباحثين أنه لا الحلفاء الأقرب للولايات المتحدة، ولا الأمم المتحدة وأجهزتها سيقبلون في المستقبل قرارات وتدابير الولايات المتحدة، على غرار ما حصل إبان الاستعداد للحرب الخليج الثانية.

وقد التصع ذلك بجلاء، في عملية نقل السفارة، وعلى ذلك يمكننا القول إن حالة التحكم الأمريكي في معضلة التفاعلات الدولية لم تحل دون أن يكون نطاق الرفض للقطبية الواحدة في التصاع مستمر، وإن كان بوتائر بطيئة.

(ج) الاختلالات الهيكلية الأمريكية: تشير بعض الدراسات إلى أن الدولة الأمريكية التي تتربع حالياً على قمة الهرم الدولي، أضحت بحاجة إلى إعادة بناء، بيد أن اختلالاتها الهيكلية تطوي على أثار لا تجعلها تمتلك القدرة على فرض نظامها الدولي على العالم، كما يؤكد ذلك عدد من المفكرين والسياسة والباحثين الأمريكيين وعلى رأسهم Paul Kennedy<sup>(1)</sup>، وكذلك Zbigniew Brzezinski<sup>(2)</sup>.

وهي اعتقادنا أنه على الرغم من وجود هذه الصعوبات والتحديات، إلا أن هناك العديد من الخطوات التي تؤكد على أن الهيمنة الأمريكية ستبقى مسلطة خلال القرن الحادي والعشرين، وأن القيادة الأمريكية للعالم ستظل مرتبطة بالقدرات والإمكانات الأمريكية الشاملة، وثاني في مقدمة هذه القدرات الثورة العلمية والتكنولوجية الثالثة التي تمثل أهم الأسلحة المستقبلية التي ستبني على الزراعة الأمريكية العلمية والعسكرية والمعلوماتية للعالم خلال العقود القادمة.

## ثالثاً: المبادئ ومكان المستقبلية للنظام العالمي الجديد

هناك إجماع بين الباحثين والفكرين في مجال العلاقات الدولية منذ منتصف التسعينيات على الفهم العام للنظام العالمي الجديد. بمعنى تداعي النظام الدولي القديم، وتفسير هرم السلطة والقوة والقواعد التي تحكم العلاقات بين الدول، في ظل نظام توجد فيه العديد من الوحدات الدولية إلى جانب الدول. لكن هناك بعض الإشكاليات والتعقيدات المطروحة على صعوبة التنبؤ بمستقبل واتجاهات تطور النظام العالمي الجديد. تجعل من سيناريوهات المستقبل مهمة علمية شاقة، خاصة أن الظاهرة لا تزال في طور التشكيل والتكوين.

وإذا كانت معظم الدراسات والكتابات التي تناولت النظام العالمي الجديد قد أشارت إلى جملة التناقضات التي تجعلها الصورة الراهنة للنظام، كالتهميش على المؤسسات الاقتصادية الدولية، وعلى الأمم المتحدة من قبل قوة عظمى وحيدة، والآثار السلبية المباشرة وغير المباشرة لسيطرة الشركات المتعددة الجنسية والتجمعات الاقتصادية العملاقة على نسبة كبيرة من الاقتصاد العالمي. إلى جانب التسمي إلى تعقيل ونشر التهم والمفاهيم الثقافية والسياسية الغربية.

وهي تقديرونا، فإن هذه التناقضات والعلاقات ترد إلى النشوء في نمط فريدة وتحليل التحولات الجارية من ناحية، ومن ناحية أخرى إلى التباين في المنطلقات الفكرية بين السيناريوهات المستقبلية التي يحاول بعض العلماء والفكرين في مجال العلاقات الدولية صياغتها واستشراف تطوراتها.

حينما اتجه بعض الباحثين إلى الاهتمام بوضع الجغرافيا الاقتصادية في النظام العالمي الجديد، اتجه فريق ثانٍ إلى دراسة مدى إمكان بحث نموذج توازن القوى، وأهم فريق ثالث بالتركيز على نموذج صدام الحضارات، واتجه فريق رابع إلى دراسة نظرية الفوضى في النظام العالمي الجديد. وأهم فريق خامس بدراسة مدى تحقيق نموذج الفرية العلمية، وأخيراً اتجه فريق سادس إلى التركيز على تطور النظام العالمي الجديد لتحقيق الأقطاب المتضادة.

وسوف نراجع هذه التصورات المستقبلية للنظام العالمي الجديد في نقاط ست. نتناول كل منها وجهات النظر المختلفة حول الرؤى والاتجاهات السابقة على النحو التالي:

### ١- نموذج أقطاب الجغرافيا الاقتصادية الثلاثة

#### The Three Bloc Geo-Economics Model.

ويرى أنصار هذا النموذج أنه ظهر مع بداية حكم الرئيس الأمريكي (Bill Clinton) ليمرر رؤية لنظام عالمي جديد، تحمل فيه الجغرافيا الاقتصادية محل الجغرافيا السياسية. ومن أهم

سماته أنه يقلل من أهمية القوة العسكرية لتحل محلها القوة الاقتصادية لتحكم مجال التفاوض العالمي بين الدول<sup>(39)</sup>.

الواقع أنه على الرغم من تساوي الدول في السعي إلى الحفاظ على أمنها القومي سواء كانت دولة عظمى أو دولة صغيرة، فإن Geoffrey Kemp يؤكد على أهمية الجغرافيا الاقتصادية كمباراة مركزية Central Game في فترة الحرب الباردة في السياسة والعلاقات الدولية<sup>(40)</sup>.

وعلى الرغم من سيطرة بعض المذولات مثل نهاية التاريخ ل Fukuyama<sup>(41)</sup>، ونهاية الأيديولوجية على دأريسي توجهات النظام الدولي، إلا أن بعض الآراء والدراسات الحديثة ترجح استبعاد هذه المذولات أو على الأقل - تأجيلها - لتحل محلها الرؤية الاقتصادية للأحداث والوقائع، لتؤدي في النهاية إلى انتشار الدول الديمقراطية ذات الدخل المرتفعة، ولتحقق مقولة Karl Deutsch عن المجتمع الأمني المتعدد Pluralistic Security Community، أي أن هذه المراكز المتعددة ذات التوجه الرأسمالي تمثل مجموعة من الدول يتقني فيها توقيع أو استبعاد أي منها لاستخدام القوة العسكرية في علاقات بعضها ببعض.

ويذهب النصار هذا النموذج إلى أن تطور النظام العالمي الجديد سيؤدي إلى انقسام العالم إلى ثلاث كتل اقتصادية عملاقة متنافسة تشمل:

اليابان: تقود منطقة الباسيفيكي بما فيها كوريا واليابان والصين، وتعد كل من اليابان والصين أبرزها وأكثرها نفوذاً وتأثيراً، وتتميز العلاقات بين دولها الأساسية بالانسجام وتنبؤها فيما ثقافي وديني وأخلاق إضافة إلى ارتباطها بشبكة مصالح اقتصادية متبادلة، ساعد على نموها السريع حرص الصين منذ السبعينيات على إدخال اقتصادها ضمن الاقتصاد العالمي، وكذلك اقتصاديات حافة المحيط الباسيفيكي، على الرغم من وجود بعض الاختلاف في المصالح والتوجه السياسي الخارجي لبعض دولها - إلا أن اليابان تعد من الدول القليلة التي دخلت الثورة الصناعية الثالثة، ويتفاعل قدرتها الاقتصادية مع القدرة العسكرية الصينية لتصبح اليابان مؤهلة لقيادة كتلة اقتصادي آسيوي - ما زال في طور التشكيل - فريد في تأثيره وإمكاناته.

الولايات المتحدة: تقود المعسكر الغربي والأمريكيتين بشكل أكثر تحديداً، خاصة بعد اتفاق التجارة الحرة (NAFTA) وإعادة هيكلة اقتصاديات دول أمريكا اللاتينية.

ألمانيا: تقود المعسكر الأوروبي الذي يشترط أن يضم روسيا وبعض جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابقة، وربما بعض دول شمال أفريقيا،

وفي هذا الإطار يذهب Harkavy إلى القول بأن الدول النامية في أفريقيا وآسيا والشرق الأوسط تدخل في إطار الاستعمار الجديد لتلك المحاور الثلاثة السابقة<sup>(42)</sup>.

ويرى أنصار هذا النموذج التجارة على أنها تيار لا يسير ما بين الأمم والدول بقدر ما هو تيار يسير ما بين المؤسسات والشركات الدولية<sup>32</sup>.

وهي اعتقادنا أن هذا النموذج يعطي للاقتصاد والجغرافيا والثقافة والديمقراطية أهمية خاصة في احتمالات توزيع القوى في كل النظام العالمي الجديد. ومن ثم - وفقاً لهذا النموذج - يتوقع أغلب الباحثين أن يكون المحور الذي تقوده الولايات المتحدة هو الأضعف على الإطلاق، وأن يكون المحور الأوروبي الذي تقوده ألمانيا هو الأقوى على الإطلاق.

فالمحور الأوروبي، كما يتوقع Lester Thurow، لتوافره له مقومات زراعية وصناعية عالية، وببجته بسرعة نحو تطوير صناعاته التكنولوجية، وسوف يتمتع الأوروبيون مع الوقت بأعلى المستويات التعليمية في العالم، مما يؤهلهم لدخول القرن الحادي والعشرين بمستوى تعليمي أعلى من الولايات المتحدة. كما يلاحظ استمرار اليابان في الارتقاء بمستواها التعليمي والتكنولوجي. وعلى الرغم من صغر حجم السوق المحلي الياباني، إلا أن بعض الباحثين يؤكدون على إمكان نجاحها في التغلب على تلك المشكلة بالتوسع في الأسواق الآسيوية<sup>33</sup>.

وينقد نموذج أقطاب الجغرافيا الاقتصادية الثلاثة، ليس فقط تركيزه على العوامل الجغرافية، وإنما كذلك لتجاهله إمكان بروز محور اقتصادية أخرى غير تلك التي أشار إليها، فهناك الهند والبرازيل وغيرها من الدول الصاعدة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن أوروبا ما زالت تواجه العديد من الصعوبات والتحديات، فهي ما زالت تفتقر التعدد الألماني والرومي، والتغارب الألماني - الفرنسي، فضلاً عن زيادة مشكلة الأقليات ونموها، وتصدر الصراعات القومية، في يوسلافيا السابقة خاصة، وكل هذه التناقضات تشكل في إمكان أن تصبح أوروبا هي القطب الأخرى في المرحلة القادمة.

## ٢- إحياء نموذج تيار القوى

### The Reinvigorated Balance Of Power Model

ينطلق أنصار هذا النموذج مما ذهب إليه «Paul Kennedy» من أن الدول تتحرك صعوداً أو هبوطاً في ضوء نوعية قدراتها، مقارنة مع قدرات غيرها، فضلاً عن مدى استعدادها الذاتي لتوظيف هذه القدرات ضمن إطار بيئة دولية محددة<sup>34</sup>. فوفقاً لمقولاتهم فإن عامل الأمن هو السعي الأول لكل دول العالم، كما جعلت نهاية الحرب الباردة من عودة تعدد الأقطاب وتوازن القوى شيئاً ممكناً.

وهذا النموذج يؤكد على وجود قوى رئيسية أربع هي الولايات المتحدة، وروسيا الاتحادية، والصين، وأوروبا<sup>35</sup>.

ويذهب كل من Lamorne Barber إلى ترشيح الصين للقيادة الدولية في القرن الحادي والعشرين، ويشهدان عما يمكن أن يسمى «بالهيمنة الصينية» Hgemonic of China

## الهبة العربية

باعتبارها أقل الدول الأربع في مستويات الوصول إلى القمة مع اقتصاد سريع النمو، الذي يمكن أن يترجم بسهولة إلى قوة عسكرية فعالة<sup>37</sup>.

ويذهب أنصار هذا النموذج إلى أن التحالف الأمريكي - الصيني سيتطلب بل ويطلق على جميع التحالفات الكبرى: كالتحالف الأوروبي - الأمريكي، والتحالف الأمريكي - الروسي.

في اعتقادنا أن هذا النموذج يتجاهل دولة مثل الهند كقوة مساعدة في مواجهة الصين، كذلك فإنه يتجاهل دور الأمم المتحدة التي على رغم تراجع دورها في التسعينيات، خاصة في المسائل الأمنية، إلا أنه لا توجد مؤسسة دولية أخرى، كما ذهب Barnett، لها القدرة نفسها على التشجيع وإرساء المبادئ والشرعية الدولية. ومن هنا فإنه يتجه لإبراز دور الأمم المتحدة كلاعب في العلاقات الدولية في ظل النظام الحالي الجديد. هذا النظام الذي يحتاج في الوقت نفسه إلى قوة بشرية ترسي قواعده، ومن ثم نجد هذه القوة مصدرها هي الأمم المتحدة<sup>38</sup>.

إلا أننا نعتقد أن دور الأمم المتحدة كمؤسسة دولية قادرة على إرساء مبدأ «الثواب والعقاب» قد انتابه بعض الضعف أو التلاشي في بعض الأحيان مع الممارسات العملية، فقد ينظر إليها على أنها تقوم على مبدأ المعيار المزدوج Double Standard لأن القوى الكبرى المسيطرة في النظام العالمي ستكون كتلة بتوفير تلك القواعد وهنا مفهوم القوة ومصالحها - فعلى سبيل المثال ثم تفعيل دور حلف (NATO)، خارج الأمم المتحدة خاصة في أحداث كوسوفو<sup>39</sup>.

كما نعتقد هذا النموذج على أن القوى الرئيسية المنظمة في النظام العالمي الجديد قد تكون أكثر من ذلك بإضافة اليابان وروسيا البرازيل، فبهر أن أهمية هذا النموذج تكمن في توضيح عدم اقتراد أي قوة أو دولة منها باستهلاك ناصية هذه القوة بمفردا في النظام العالمي الجديد.

## ٣ - نموذج تصادم الحضارات

## The Clash Of Civilization Model

يتوقع أنصار هذا النموذج أن الصراع القادم في النظام العالمي الجديد ليس سراعاً بين دول بلدر ما هو صراع بين حضارات. وقد ظهرت بوادر هذا النموذج أو الاتجاه الفكري في مقالة كتبها المفكر الاستراتيجي الأمريكي «Samuel Huntington» في المجلة الأمريكية Foreign Affairs بعنوان «صدام الحضارات» عام 1993. وانتشرت جدلاً كبيراً في أوساط الباحثين والفكرين على مستوى العالم<sup>40</sup>.

وحدد Huntington مجموعة من الحضارات التي حدث - ويحدث أن يحدث - بينها صراع وهي: الحضارة الغربية، والحضارة اليابانية، والحضارة الإسلامية، والحضارة الهندية، وحضارة أمريكا اللاتينية، والحضارة الأفريقية<sup>41</sup>.

وفي اعتقاد Huntington أن هذه النظرية - أو النموذج - تقوم على أن الصراع في العالم «الجديد» لن يكون أيديولوجيا أو اقتصادية، بل سيكون- وببقي أن يكون- قائما على الثقافة والإيمان والأسرة والمعتقد. ومثل الكثيرين من المفكرين الغربيين رأى هي المسيحية والإسلام عداءا تقليديا ومناصلا، غير أن بعض الكتابات العربية والإسلامية لا تذهب إلى رأي Huntington. بل أنه صراع بين الأديان وخاصة بين المسيحية والإسلامية. وإنما هو حوار حضاري عميق دار بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية المسيحية في عصر الحروب الصليبية وما أعقبها. وقد أحدث تحولات، بدرجة أو بأخرى، لدى كل طرف بعد ما حدث التفاعل الحضاري بين الغرب والغرب<sup>(1)</sup>.

وهكذا يرى أنصار هذا النموذج أن المصدر الأساسي للنزاعات في النظام العالمي الجديد لن يكون مصدرا أيديولوجيا أو اقتصاديا في المقام الأول، بل ستكون الانقسامات الثقافية والحضارية هي المصدر الأساسي للنزاعات في العالم.

ونعتقد أن هذا التوصيف المستقبلي للصراع الحضاري بين الأمم والشعوب كما ذهب إليه Huntington يجعل المحور البارز للسياسة العالمية قائما على وجود أو خلق علاقات غير متكافئة بين الغرب وشعوب العالم الأخرى. لذا فإن السعي لاستقبال حضارة الغرب أو الانضمام إلى توصيفاتها قد يصطدم في النهاية، في رأي بعض الباحثين، بعقبات ثقافية وحضارية لا حصر لها. بل ينبغي أن نغير من اتجاه هذا الاتجاه وعلى رأسهم Hazzar Michael على أن صراع الحضارات والمستقبل هو صراع حضاري وثقافي، وأنه صراع بين حضارات متنافسة، فالتنافس - من وجهة نظره - بين الحضارات حقيقة قائمة وأن الصراع قائم لا محالة، وأن هذا الصراع قد يكون أكثر شدة وعنفا بين الحضارات المختلفة قياسا على ما هو حاصل بين المجموعات في الحضارة الواحدة ذاتها<sup>(2)</sup>.

وبعض النظر عن معتويات هذه النظرية التي لاقت رواجا بين الباحثين، إلا أننا نعتقد أن Huntington أراد تقديم خريطة جديدة لإدارة الأزمان في العالم «الجديد» تسعى لتحقيق سيادة الحضارة الغربية على الحضارات الأخرى بمحاولة تحقيق التكامل السياسي والاقتصادي والعسكري، والتحولولة دون استغلال الحضارات الأخرى للاختلافات القائمة بين بلدان الحضارة الغربية، ودمج دول أوروبا الغربية والوسطى في الاتحاد الأوروبي وحلف (NATO)، وتشجيع غروب أمريكا اللاتينية وانعازها للغرب، وتقعيد القوة العسكرية التقليدية وغير التقليدية لدول الحضارة الإسلامية والصينية، وقبول روسيا لأن تكون مركزا للأرثوذكسية وقوة إقليمية ذات مصالح مشروعة في أمن حدودها الجنوبية.

## ١ - مناطق العالم ومناطق الحروب : نظرية الفوضى

### Zones Of Peace Turmoil Chaos Theory

يذهب كل من Wildavsky و Singer إلى أن العالم في نظامه الدولي الجديد منقسم إلى مناطق مختلفة الملامح. فهناك مناطق تسودها الحروب والتزاعات والفقر. وأخرى يسودها السلام والديموقراطية والرخاء<sup>(١)</sup>. وأن مناطق السلام والأمن والديموقراطية كما يذهب Sorensen Hans هي في الأساس الولايات المتحدة وغرب أوروبا وكندا واليابان وهي تمثل حوالي 25 من سكان العالم. وأن مناطق الفقر والتزاعات والحروب هي دول الاتحاد السوفييتي السابق وأغلب دول آسيا وأفريقيا وربما أيضا أمريكا اللاتينية<sup>(٢)</sup>.

وهي اعتقادنا أن هذا الوضع لا يتغير بسهولة. ومن ثم فإننا نتوقع استمرار الأمن والسلام والديموقراطية في هذه الدول ذات الرخاء. واستمرار الحروب والفقر والتزاعات في المناطق الأخرى. كما أننا لا نشاطر الرأي لدى أنصار هذا الاتجاه منهم Joseph Leppold القول بأن الديمقراطيات لا يحارب بعضها بعضا. أما مناطق الحروب والصراعات فهي المناطق الأكثر فقرا في العالم. وهي المناطق ذات الأخطار والأمراض الفتية<sup>(٣)</sup>.

ففي الحقيقة أن الصراعات التي يشهدها الجنوب قد تساعد نظرا إلى ما أشار إليه Harkavy وكذلك Hoffman من انتشار قيام القوى العظمى بدور في تهدئة الصراعات الإقليمية. فعلى الرغم من أن تدخل الموضح للعظمى خلال الحرب الباردة، ترتب عليه في بعض الأحيان تساعد هذه الصراعات. فإنه ترتب على سلوكيهما أيضا ضبط سلوك الدول التابعة لكفنا القوتين في أحيان أخرى. بالإضافة إلى ذلك هناك عدد آخر من التهديدات التي يفرضها الجنوب على النظام العالمي الجديد. فقد أشار Clapham إلى الفقر بصفته المصدر الرئيسي للفوضى العالمية. فضلا عن ظاهرة زيادة الهجرة من الجنوب إلى الشمال. وما يرتبط بها من توترات سياسية واجتماعية في الشمال. فضلا عن أن هناك العديد من المشكلات، مثل المخدرات وثلوث البيئة، التي قد تؤدي إلى صراعات بين الدول للتقدمية وبعض دول الجنوب. كذلك هناك ظاهرة الصعوبة الإسلامية، والتي على الرغم من أنها قد تمثل قوة دفع نحو اندماج بعض دول الجنوب، إلا أنه يمكن اعتبارها أيضا بميزة قوى للتفكك في النظام العالمي الجديد<sup>(٤)</sup>.

ومن هنا لا يستطيع الباحث الاتفاق مع الآراء التي قواسمها أن النظام العالمي الجديد، استطاع أن يؤسس عملا مستقرا وأمانا، فالاستقرار والأمن استمر في الأهم الأغلب من نصيب معظم دول الشمال. وإن كان الوضع يختلف في دول الاتحاد السوفييتي السابق ويوغسلافيا كما يرى Khan Mujib<sup>(٥)</sup> ربما كان إدراكنا لحالة الانقسام الراعنة واحتمالات استمرارها في عالم الجنوب.

## ٥ - نموذج القرية العالمية

### The Global Village

وانصار هذا النموذج يرون أن النظام العالمي الجديد سوق يجعل المجتمع الدولي بمنزلة قرية إعلامية صغيرة تتلاقى فيها الحدود القومية، ويرى على السطح المجتمع العالمي Global Society كنتيجة مباشرة لذلك من خلال انتشار أدوات ووسائل الاتصال المتقدمة، التي تجعل من القيم ونمط الحياة الغربي أسلوب الحياة العالمي<sup>(١١)</sup>.

في الواقع يرى كثير من الباحثين أن هناك عددا من الاعتبارات تعمل على تأكيد هذا الاتجاه وتعمل على ظهور التحديات الدولية التي تواجه المجتمع الدولي والتي تتعدى حدود الدولة، كقضايا الفقر والخطرات وتلوث البيئة والانفجار السكاني. وقد يدفع ذلك كله إلى ظهور ما يمكن أن يسمى «Global Government» التي يراجع فيها دور الدولة القومية<sup>(١٢)</sup>.

كما يرى بعض الدراسات أن سعي النظام الدولي «الجديد» لتحقيق المجتمع العالمي يتطلب سلطة مركزية مؤسسية لاتخاذ القرار وعضوية دولية، إلا أن الجهود المبذولة لإنشاء مثل هذا الكيان فشلت حتى الآن. فالأمم المتحدة لا تستطيع التصرف باستقلالية عن الدول الكبرى التي تحركها. كما يرى أصحاب هذا التوجه ضرورة توافر قواعد دولية عامة. وكذلك مؤسسات دولية ومعلية طوعية لتحل محل الدولة القومية Nation State. وأن الحراك الأساسي لهذه التغيرات هو الثورة التكنولوجية والمعلوماتية، التي تعطي الأفراد من الحد من سلطة الدولة وتدخلاتها<sup>(١٣)</sup>.

وهي استنادا إلى الإطار الفكري لنموذج القرية العالمية Global village والمجتمع العالمي Global society ينتقد صامعيل المساسين لم يوضع في الحسبان الأول، أن السلطة الخاصة لا تزال جزءا من سلطة الدولة، إلا إن الأولى لا تتحرك إلا في الجزء الذي تسمح به الدولة، ذلك أن الدولة تملك أدواتها التشريعية التي تعيد بها - إن شئت - من نفوذ السلطة الخاصة.

الثاني، أن انتقال السلطة ليس (معادلة صفرية Non-Zero-Sum game) بمعنى أن زيادة نفوذ وسلطة الأفراد داخل الدولة لا تعني بالضرورة فقدان الحكومة للسيطرة على الأمور والأفراد داخل الدولة. فالحقيقة غير ما يدعيه انصار ذلك النموذج، فالدولة لا تعطي، لكن فقط، بتفويض دورها ومقدار تدخلها في الهيئات التابعة لها كالقضا، والتشريع.

ولا يتوقع أن يختفي دور الدولة في ظل النظام العالمي الجديد، ولكن سوف يطرأ تغير جوهري ومفوس في الوظائف الأساسية والتقليدية للدولة، باعتبار أن بعضا من وظائفها ومهامها بدأت تسلم للشركات متعددة الجنسية والمؤسسات والمنظمات الدولية.



## الجمعة العربية

كما أن أبرز ملامح النظام العالمي الجديد أنه يقوم أساساً على إنتاج المعلومات وتداولها من خلال آلية غير مسبقة هي الحاسبات الإلكترونية ومجتمع تكنولوجيا المعلومات<sup>13</sup>. هذا فضلاً عن أن الكونية أو العولمة Globalization متصبة هي الأساس في مجتمع المعلومات القادم، معالجة الأزمات الكونية المتعلقة بالنقص في الموارد الطبيعية، وتدمير البيئة، والانفجار السكاني، والفجوات العميقة الثقافية والاقتصادية بين الشمال والجنوب، ومن ثم فإن تنمية شبكات المعلومات الكونية باستخدام الحواسيب الإلكترونية والأقمار الصناعية ستؤدي إلى تحسين وسائل تبادل المعلومات وتعمل الفهم العالمي للفرد، الأمر الذي من شأنه أن يتجاوز المصالح القومية والثقافية والمصالح الأخرى المتباينة في «مجتمع القرية العالمية».

وهي نقدينا أن المفكرين والباحثين في كل مكان يعون اليوم وعياً تاماً أن الحياة البشرية في طريقها إلى تغيير جذري نوعي. ومع تقدم التعليم والاتصال يتزايد تقارب وهي المفكرين ووعي الناس، وربما كان ذلك ما سيميز الوعي الإنساني في القرن القادم، وبالتالي سيزداد الوعي الإنساني والتغير الاجتماعي تطابقاً في المستقبل.



## ٦ - نموذج الأقطاب المتضامنة

## Incipient Bipolarity Model

ويرى النصار هذا النموذج أنه من الطموحية يمكن التفكير في إمكان عودة نظام الثنائية القطبية مرة أخرى في ظل الهيمنة الأمريكية على العالم، إلا أن ذلك لا يعني بالضرورة تجاهل القوى أو الأقطاب الأخرى الوارثة في النظام العالمي الجديد كاليابان والصين والاتحاد الأوروبي. لذا فإن الاحتمال الغالب لمستقبل النظام الدولي - وفقاً لهذا النموذج - هو شكل من أشكال التضامن والتحالف بين تلك القوى العاتية المختلفة، بحيث يكون العالم محصوراً ما بين أقطاب أو معسكرات، كل معسكر مكون من مجموعة من الدول واحدة الأهداف والمصالح والتوجهات تجاه المعسكرات الأخرى. منها على سبيل المثال<sup>14</sup>:

- ظهور التحدي الصيني لإدارة الولايات المتحدة والتقارب الأمريكي الياباني.
- ظهور التضامن الصيني الروسي في مواجهة التضامن الأوروبي الأمريكي.
- مواجهة ظاهرة ما بين الآسيان والمحور الأمريكي الأوروبي والروسي.
- التقارب الصيني الأمريكي في الفترة الراهنة.

ولا شك في أن اهتمام الباحثين بالأقطاب المتضامنة، وظاهرة الاعتماد المتبادل كسمة من سمات النظام الدولي، يبرزان مدى إمكان مساهمة مثل هذه التفاعلات في تحقيق السلام والأمن في النظام العالمي الجديد في المستقبل. على أساس المصالح الإنسانية العادلة لشعوب العالم كافة، التي يمكنها أن ترفع التناقض بين نزعة الهيمنة والسيطرة والتفاوت والاتجاه نحو التضامن والتعاون.

إن العالم يتوحد اليوم بشكل متزايد، ليس فقط بفعل تطور الرأسمالية والتجارة التجارية<sup>1</sup>، بل أيضا من خلال الجماعات غير الاقتصادية وغير الحكومية، ومؤسسات المجتمع المدني العالمية (جماعات السلام، جماعات حماية البيئة، جماعات حقوق الإنسان، وحقوق المرأة، وحقوق الطفل... إلخ) التي تنموها التطور والفاعل تصبح لديها القدرة على المساعدة في صنع المستقبل البشري. والعالمية التي تتضمن احتمالا بتهاية عالم وولادة محتملة لعالم «جديد» حقا<sup>2</sup>.

## نتائج البحث

- ١ - على رغم انقسام الآراء، وتناقض المواقف حول النظام العالمي الجديد، إلا أنه استقطب بوصفه ظاهرة - في طور التكوين والتشكيل - اهتمام الباحثين والمفكرين في مجال العلاقات الدولية، وربط بينهم اهتمامهم بعجلة التغيرات النوعية للملاحظة التي يشهدها النظام الدولي منذ بداية التسعينيات، والتي تعددت نطاق القوميات وتجاوزت حدود الدول، حيث لم تعد القضية مسألة رفض أو قبول النظام العالمي الجديد بقدر ما هي مسألة كيفية التعاون أو الانطواء فيه، والعمل على تطوير نهج واتجاهات فكرية وعملية يمكن من خلالها التلّهي والفعل في حركة النظام العالمي الجديد.
- ٢ - إن الحديث عما تسلمه فنون العنصرية والتكنولوجيا الحديثة من إمكان الانتقال إلى مجتمع المعلومات، وما يترتب عليه من آثار على أساليب العمل وتنظيم الحياة وعامل الزمن، قد يؤدي إلى الأخذ في الاعتبار نموذج «القرية العالمية»، وما يذهب إليه من الحديث عن «صفوة عالمية» وعن «قوة وسطى عالمية» تتشابه أنماط حياتها، واستهلاكها، وتوجهاتها من خلال أنظمة الاتصال الحديثة (المتنالات - الإنترنت)، وعن «المواطنين العالميين» الذين يستهلكون الشرطة والموسيقى والأحذية وال تي شيرت نفسها، كل ذلك يتأسس ويشجع واتجاه تكوين نمط اجتماعي وثقافي واحد، ومنظومة قيم وثقافة عالمية واحدة هي اتجاه إن يكونوا «مواطنين عالميين» أقل ارتباطا بيوبياتهم الوطنية.

غير أنه على الجانب الآخر فإن الحديث عن انتهاء أو تلاشي مفاهيم من قبيل الحدود، والسيادة، ودور الدولة في ظل «النظام العالمي الجديد» نتيجة اعتماد الشركات متعددة الجنسية على نظم أمن وشركات بريد ونقود (بطاقات ائتمان) خاصة، واستهلاكها على المرافق والخدمات العامة من خلال «التطبيععية» ليس صحيحا تماما، حيث لا يتوقع أن يختفي دور الدولة «تماما» في ظل النظام العالمي الجديد، ولكن سوف يطرأ عليها تغير جوهري وملحوس في بعض الوظائف التقليدية. فالنظام العالمي «الجديد» لم يخلق حتى هذه اللحظة إطارا أو هيكلًا عالميًا بديلاً، يكافئ ما كانت تقوم به الدولة في تنظيم الحياة

## الهيئة الأمريكية

الاقتصادية والاجتماعية، بل الواقع يؤكد أن دور الدولة ما زال قائماً ويُدعم بمزيد من الخصائص القارية في دول العالم كلها، حتى في أقصى النظم الرأسمالية، فعلى سبيل المثال اعتمد الكونغرس الأمريكي مبلغ ٢٩١ مليار دولار كميزانية للحكومة الفيدرالية في عام ٢٠٠٠ في أواخر نوفمبر ١٩٩٩.

٢ - تمثل الإشكاليات والتعقيدات المطروحة على صعوبة التنبؤ بمستقبل واتجاهات تطور النظام العالمي الجديد، وتجعل من سيناريوهات المستقبل مهمة علمية شاقة، نظراً للتداخل بين السيناريوهات والتمازج في بعض الأحيان، والتناقض فيما بينها في أحيان أخرى، لكن ذلك لم يمنع الدراسة من تحديد الاحتمالات الأكثر ترجيحاً انطلاقاً من تحليل المعطيات المتوافرة. وبصفة عامة يمكن القول إن هناك حركة فكرية موضوعية باتجاه تجسيد النظام العالمي الجديد ذات اتجاهين أساسيين:

أولاً، اتجاه مدني، يدرسه التطور الكبير والمضخم للاقتصاد والتجارة الدولية (نموذج القطب الجغرافيا الاقتصادية)، والتطور الهائل في تكنولوجيا الاتصال والمعلومات (نموذج القرية العالمية)، ونمو الحركات الإنسانية العالمية مثل حركات السلام، والديمقراطية وحقوق الإنسان، وحماية البيئة وسلامة الكوكب (نموذج الأقطاب التضامنة)، ومكافحة الفقر والحروب (نموذج مناطق السلام والرخاء ومناطق الحروب والفقر)، وحوار الحضارات واحترام التنوع الثقافي (نموذج صدام الحضارات)، وحقوق المرأة والطفل، وهي حركات قائمة بزيادة توسعها وانتشارها والاعتراف بها في أنحاء العالم كلها، وهذا الاتجاه يكون تدريجياً شكلاً من أشكال «المنهج المدني العالمي».

الثاني، اتجاه سياسي أيديولوجي، يحاول استغلال هذه الظروف التاريخية والمتغيرات النوعية التي يشهدها النظام الدولي لفرض هيمنة (نموذج القطب الواحد، اتجاه الهيمنة الأمريكية)، أو كتلة معينة (نموذج توازن القوى)، أو ثقافة ما على العالم بأسره (الثقافة الغربية، الأمريكية).

وهي تقديراتنا أن الاتجاه العلم الذي سيحكم حركة تطور النظام العالمي الجديد مرهون بدخول لاعبين جدد غير التحالفات المعتادة، فالمرحلة الراهنة توصف بأنها مرحلة الهيمنة الأمريكية وبالتالي احتمال استمرارية القطبية الواحدة. فالدوليات المنهكة لم تنرمد عن توظيف الهيبار الاتحاد السوفييتي من أجل تأمين تبعية شبه عالمية لمساكنها، فتأثير الدور الأمريكي حالياً - حقيقة لا نكر - فهي أضحت تتربع على قمة الهرم الدولي من دون منازع أو منازع حقيقي.

كما أننا نعتقد - أن دورها العالمي - المهيمن سيبقى مستمراً على حاله لفترة قادمة، على الرغم من وجود حالة عدم الاستقرار الدولي، وبعض الرفض للقطبية الواحدة، وبعض المشكلات التي يعانيها الاقتصاد الأمريكي. فكله متغيرات موضوعية تدفع من استمرار نظام القطبية الواحدة والهيمنة الأمريكية على العالم في المستقبل المنظور.

فالولايات المتحدة ما زالت تمثل أكبر قوة عسكرية واقتصادية في العالم، بالإضافة إلى احتكاكها وتنظيم وتكنولوجيا الدفاع والحرب والقضاء الأكثر تقدماً وتطوراً في العالم، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فعلى الرغم من قوة اليابان الاقتصادية إلا أنها لم تطرح رؤية أو تصوراً معيَّناً لقيادتها للعالم، فضلاً عن الخوف من بعض القوى في شرق آسيا من صعود اليابان، حتى لو حدثت تحالفات استراتيجيية بين اليابان والصين كقطب أسويي اقتصادي وعسكري، فمن المحتمل ألا تقبل الصين بقيادة يابانية منفردة للعالم، كذلك أيضاً فإن أوروبا الغربية لم تطرح تصوراً معيَّناً لجدارتها في قيادة العالم، فما زال هناك بعض التنازع في المصالح الأوروبية، فضلاً عن المخاوف الأوروبية من إحياء الهيمنة الألمانية. ومن ثم فإننا نعتقد احتمال استمرار نظام القطبية الواحدة لفترة قادمة، كما أن احتمالات تطور الدور الأمريكي في النظام العالمي الجديد قد يتمثل في استمرار الولايات المتحدة في لعب دور الهيمن بالقوة أو الشرطي العالمي، اعتماداً على قوتها العسكرية، أو أن تتحول الولايات المتحدة إلى الهيمنة الثقافية والاقتصادية، أو أن تلعب دور الهيمن (الوازن) في نظام متعدد الأقطاب ومتشاكك.



## الأنعام المهيمنة في الحياة العربية في ضوء أزمة مياه الشرق الأوسط

د. محمد أحمد صالح حسين (\*)

### ملخص

الماء عنصر الحياة الأول، وإضافة التي أودعها الله سر هذه الحياة واستمرار البقاء والوجود وال عمران. وقد برزت هذه الحقيقة التي لا حراك فيها في قول الخالق سبحانه ولما لم يكن كثره الكريم، وجعلنا من الماء كل شيء حي (سورة الأنبياء الآية ٣٠). فسائر ما تقع عليه حواس الإنسان وما يخص عليها في الأرض من بهجة وحياتة وفناء ونتاج، اثر من اثار المياه. وإن دل هذا على شيء فأنما يدل على أن المياه أصبحت رمزا للحياة. ومصادقا لاستمرارها، وبالتالي يصبح توفيرها معطيا استراتيجيا غير قابل للتأجيل.

وقد ساد الاعتقاد في فترة من الفترات أن الموارد المائية متجددة بطبيعتها، وغير قابلة للاستنزاف والتعويض. إلا أنه يمكن القول إن الموارد المائية محدودة والمتناقص. شأنها في ذلك شأن الموارد الطبيعية الأخرى. على الأقل في منطقة الشرق الأوسط، وإن كان هذا لا يعني تعميم الأمر لأن نقصان المياه في هذه المنطقة الحيوية لا يعني بطبيعة الحال نقصها على مستوى العالم، وربما تتناقص أو تجف في مكان ما، ولكنها تتزايد في مكان آخر، كما

(\*) قسم العلوم الشرطية - كلية الآداب - جامعة القاهرة - مصر.

## الأبعاد الطبيعية مع المياه العذبة

إن الأمر لم يعد يقتصر على نقصان ومحدودية هذه الموارد المائية، بل امتد ليشتعل لتغير نوعيتها من خلال تلويثها لأسباب عديدة، يلعب فيها الإنسان الدور الفاعل، من هنا تزايد الإحساس بأن الاقتصاد في استخدام المياه في شتى الأغراض أصبح ضرورة قصوى، ليس فقط بسبب شح الموارد المائية وتضاؤلها، بل أيضا نتيجة الزيادة السكانية الكبيرة التي أصبحت أشبه بالانفجار، الأمر الذي أدى إلى تزايد الاهتمام والتفكير الجدي بمستقبل المياه في المستقبل، خاصة أن مشكلات نقص المياه يمكن أن تهدد الصحة العامة والتنمية الاقتصادية، الصناعية منها والزراعية، والتنمية الاجتماعية<sup>1</sup>.

ترتب على الأسباب السابقة وغيرها أن أصبحت المياه من أهم الموارد الطبيعية التي يتصارع عليها العالم، فهي تشكل - مع النفط - باعتباره أحد المصادر الرئيسية للطاقة - المحور الأساسي لأسباب التوتر في العالم، وقد وصل الأمر إلى أن أصبحت المياه محور جميع الخطط والمشاريع التي تصنعها الأطراف الفاعلة إقليميا ودوليا لتعزيز أمنها واقتصادياتها<sup>2</sup>. فالإحصائيات تشير إلى أنه مع النمو السكاني المتزايد - بالإضافة إلى الاحتياجات المائية المتزايدة للاستخدامات المنزلية، والطلب المتزايد على المياه لتوليد الطاقة، ولتكثيف الزراعة والإنتاج الصناعي - فإن ما يقرب من 80% من سكان العالم، معظمهم من البلدان النامية - يواجهون بالفعل نقصا حادا في المياه، ومن المتصور أنه بحلول القرن القادم فإن ما يقرب من 50% من سكان العالم ربما يواجهون حالات من الشح المائي<sup>3</sup>.

ARCHIVE  
http://www.iahr.org

### المياه في الشرق الأوسط

المياه في الشرق الأوسط مشكلة معقدة ومزمنة، لا تجدي معها التصورات البسيطة في محاولة تحليل أبعادها أو التعامل معها. فهناك أمور مؤكدة بشأنها، وأخرى لطيف للتشائ - وأول الأمور المؤكدة أن هناك مشكلة مياه في المنطقة تتمثل في عدم التماسك بين المروءات والمطالب، ووجود خلافات حول إدارتها، ولكن ليس من المؤكد - حتى الآن على الأقل - أنها يمكن أن تؤدي، بشكل مباشر، إلى صدامات مسلحة، فهناك أثر للتفاعل مع المشكلة مثل الانتفاخات الشعبية أو الإقليمية أو الدولية، والتي تفعّل وقت الحاجة - ويجب أن تحاول معظم الدول إدارتها بأساليب تعاونية أكثر مما تديرها بمنطق التواجهة، ولكن بفضل عوامل عديدة متنوعة تستغل المشكلة مثارة دائما، فكما أنه من المتصور حدوث حرب محتملة بسببها، فإنه من الصعب أيضا تصور حل نهائي لها<sup>4</sup>. فخلال عقود عشرات المؤتمرات والدورات والقممات بهدف محاولة حل قضية المياه، ولم يؤد سوى القليل جدا منها إلى شيء يذكر<sup>5</sup>.

والحقيقة هي أن احتمالات نشوب صراعات ونزاعات حول المياه في الشرق الأوسط، تتزايد لأن حدود موارد المياه الطبيعية، السطحية منها والجوفية، لا تتطابق مع الحدود السياسية في المنطقة، الأمر الذي يعني أن استنزاف المياه على جانب الحدود من قبل دولة من دول النهر أو الترانزيت الجوفي، قد يؤثر تأثيراً خطيراً على إمدادات المياه على الجانب الآخر<sup>(٢٢)</sup>. وفي ضوء ذلك بات ضمان استعراش تدفق المياه يشكل أحد الأهداف القومية الأساسية لدول منطقة الشرق الأوسط، فقد احتلت مسألة الأمن المائي خلال السنوات الماضية قصة مسلم الأولويات، وأصبح الحديث عن المياه لا يقل أهمية عن الأمن العسكري.

وتلعب جل الدراسات المعاصرة، إن لم تكن كلها، على أن المياه هي مصدر الحرب القادمة في الشرق الأوسط، فهناك الأنهار الرئيسية في الوطن العربي، الذي يشكل قلب منطقة الشرق الأوسط، تقع خارج حدوده، وبالتالي فإن مصادر المياه بعيدة عن موطنة دول الوطن العربي<sup>(٢٣)</sup>. أضف إلى هذا أن الموارد المائية المتجددة في الوطن العربي تقدر بحوالي ٧٤، ٥٪ من الموارد المتاحة في العالم، علماً بأن الوطن العربي يشغل مساحة تقدر بنحو ١٤،٥ مليون كيلو متر مربع، أي حوالي ٢٩٪ من مساحة اليابسة، وأن معظم الأنهار العربية تقترب من حالة عدم التوازن بين حجم الموارد المائية المتاحة والطلب عليها، وأن هناك بوادر أزمة قوية تهدد بنقص المياه.

من هنا تبرز أهمية هذا المجال، في التطوير الذي حظرت به الخارجية الأمريكية، والذي يشير إلى أن التناقص على مصادر المياه في الشرق الأوسط سيضعل حرباً جديدة فيه خلال فترة تقل عن عشرة سنوات، إذ لم تتواصل المفاوضات في هذه المنطقة إلى اتفاق سلام وتعاون بين دولها<sup>(٢٤)</sup>.

والحقيقة هي أن موضوع النزاع على المياه في منطقة الشرق الأوسط بات غاية في الأهمية والمختلطة، حيث بدأ الاهتمام بالمياه كمشكلة تترك الدول العربية ودول الجوار الأسلاك، وهي تركيا وإيران واليويا، والمخلاء، أي إسرائيل، والعالم، منذ حوالي عقدين من الزمن، ويبدو أن المشكلة تعطي بالاهتمام العالمي أكثر بكثير من الاهتمام العربي، كما أنها تعطي بالاهتمام خاص لدى إسرائيل وتركيا، ويكفي أن نقول، حول أهمية هذا الأمر عالمياً، إن هناك عدداً من الجامعات والمراكز البحثية في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا تعكف على دراسة المشكلة من جميع جوانبها<sup>(٢٥)</sup>.

وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن الكلام، في إسرائيل من ناحية وتركيا من ناحية أخرى، عن أزمة المياه قليل، ولكن العمل على المتهطرة على مصادرها والتحكم فيها كثير، وفي الوطن العربي بدأ بعض المتخصصين والخبراء متأخرين بالنتبه إلى خطر مشكلة المياه، والتأكيد على أنها قضية مصيرية للعالم العربي، يتوقف عليها وجودهم وحياتهم، وهي تركز

## الأخطار الجيوبية في المياه العربية

على خطر السيطرة الإسرائيلية والتركية على مصادر المياه، فمن دون المياه لا يحيا العرب، فهي في الواقع أهم من النفط، وإن لم تكن ذلك في الوقت الحالي فستكون كذلك في المستقبل المنظور، وأعداد الأمة العربية يعملون أول نهار للسيطرة على مصادر المياه العربية ليرافقهم الماء بالنفط، وإن تسبب النفط سيصبح الماء مصدر قوة لمن في أيديهم مصادر هذه المياه للضغط عليهم، واستنزاف ما تبقى من قوتهم وإمكاناتهم، وهؤلاء الأعداء يمدون أنفسهم لهذه المرحلة.

توجد في منطقة الشرق الأوسط ثلاثة وديان كبيرة، يمكن أن يحدث في أي منها نزاع حول المياه، فبحري النيل وفتسعة عدد من البلدان، ويمتد وادي دجلة والفرات أقل استقراراً من تابعة العلاقات السياسية، وهو منطقة مقسمة أساساً بين تركيا وسوريا والعراق، وتتملك البلدان بتطورات متلاحقة حول المياه، والبحري الثالث هو نهر الأردن، وهو أصغرهما لكنه الأكثر تعقيداً، وتقع على ضفافه ثلاث دول هي الأردن وسوريا وإسرائيل، وتعد مياه حوض نهر الأردن أكثر تعقيداً من أي مشكلة تتعلق بالمياه في المنطقة العربية، لأنها تشمل بعيدة شعوب عدد من الدول في المنطقة، والمضمر الأساسي من وضعه الحالي هم الفلسطينيون والأردنيون<sup>(١)</sup>.

وقد استثمر بعض القادة والرؤساء، في منطقة الشرق الأوسط، أبعاد أزمة المياه وما يمكن أن تسببه من هروب ونزاعات وصراعات، فقد عبر الرئيس المصري الراحل محمد أنور السادات (١٩١٨م - ١٩٩٨م) عن قلقه بخصوص هذه القضية، مؤكداً أن أزمة المياه ولداً لهايتها يمكن أن تدفع مصر إلى الدخول في حرب مع إثيوبيا، والذي في ضوء محاولة إثيوبيا التعاون مع إسرائيل لبناء سدوداً تتقاطع نهر النيل، كما ألح الملك الحسين من طلال (١٩٢٥م - ١٩٩٩م) إلى الأمر ذاته في ضوء تحكم إسرائيل في مصادر مياه نهر الأردن<sup>(٢)</sup>.

لكل ما سبق نشهد العلاقات بين دول المنطقة تحالفات وصراعات ونزاعات تتمحور في جوهرها حول المياه، فإذا عدنا إلى العديد من النزاعات والحروب الإقليمية في منطقة الشرق الأوسط، فسنجد أن جانباً أساسياً من أسباب اندلاعها هو النزاع على المياه بين العرب وإسرائيل، وبين العرب وتركيا، وبين العرب وإيران، ولم تفل أزمة أو حرب في المنطقة من دخول المياه كأحد عناصر النزاع أو الضغط فيها<sup>(٣)</sup>، ويمكن أن نخس ذلك بشكل جلي واضح في صراع إيران مع العراق الذي بدأ حول شط العرب، وهي موقف تركيا في التحالف مع إسرائيل، ذلك التحالف الذي يستهدف إضعاف موقف العرب، وخاصة سوريا والعراق، لتتمكن من مياه الفرات، واحتلال إسرائيل للأراضي العربية عام ١٩٦٧م الذي كان يستهدف، إلى جانب تحقيق السيطرة العسكرية، السيطرة على مصادر المياه في هذه الأراضي العربية، وهي نهر اليرموك ونهر الأردن ونهر النيل والمياه الجوفية في الضفة الغربية ونهر الأردن.



هذه بات واضحة الآن أكثر من أي وقت مضى أن المياه هي الحلقة الأهم والأخطر في العلاقات المتوترة بين سوريا وتركيا. ولهذا التوتر هي علاقات البلدين لداعيات والعكاسات على منطقة الشرق الأوسط. من جهة، والعكاسات والداعيات ذات بعد دولي من جهة ثانية. وتزايد حدة التوتر في علاقات البلدين في ضوء، سعي تركيا إلى تعزيز نفوذها الإقليمي بواسطة تحويل المياه من أدلة للتنمية والتطوير إلى أداة للابتزاز في بعض الأحيان، بحيث باتت توظف مياه نهر الفرات توظيفا سياسيا الضغوط في قضايا الأمن والتنمية المطروحة على جدول أعمال اليافين بشكل خاص، ومنطقة الشرق الأوسط بشكل عام.

وهي ضوء، ذلك، وغيره انتشرت مقولة مفادها «من يسيطر على المياه يسيطر على الشرق الأوسط، ومن يسيطر على الشرق الأوسط يسيطر على إمدادات النفط في العالم»<sup>١٢٢</sup>. وعلى خلفية ما سبق سنركز الدراسة على محورين أساسيين: المحور الأول يتناول أزمة المياه في إسرائيل، وأطعام إسرائيل في المياه العربية بشكل عام حريا وسليما، أما المحور الثاني فيتناول الأشماع الإسرائيلية في المياه الفلسطينية بشكل خاص، والكيفية التي تسرق بها هذه المياه وتمنعها عن استعمالها وانظر ذلك عليهم، من خلال بيانات وإحصائيات وردت في أحد تقارير منظمة «بشليم» لحقوق الإنسان في هذا الشأن.

### محور الأول: أزمة المياه في إسرائيل وأطعامها في المياه العربية حريا وسليما

تعالى إسرائيل أزمة مياه حادة. بدأت هذه الأزمة في ضوء الحقيقة التي لا تحصى أن إسرائيل تعتمد على المياه ذات المقدار الخارج من تحت يدها<sup>١٢٣</sup> حيث بلغ متوسط<sup>١٢٤</sup> من إجمالي تدفق المياه السطحية لديها خارج حدودها. ويمكن القول بشكل عام أن ٢٦٧ من المياه التي تستهلكها إسرائيل تأتي من خارج حدودها. التي أعلنت بمقتضاها كدولة عام ١٩٤٨م، وهي على النحو التالي: ٢٢٥ من الضفة الغربية لنهر الأردن، و٢٢٣ من سدوح هضبة الجولان السورية، و١٠٠ من قطاع غزة<sup>١٢٥</sup>. وسنصل مشكلة المياه في إسرائيل إلى ذروتها مع نهاية العقد الثاني من القرن الحالي في إطار ما يبدو أن الطلب على مياه فيها سيزيد عن اثنين وستمئة مليون متر مكعب بحلول عام ٢٠٢٠م. بسبب الزيادة السكانية والتاضي المشروعات الزراعية التي تعتمد بكثافة على المياه من ناحية. وبسبب المعدل الحالي للهجرة اليهودية إلى إسرائيل من ناحية أخرى<sup>١٢٦</sup>.

### المياه الإسرائيلية للتخل، حل مشكلة المياه

ويمكن للدرة المياه في إسرائيل والاستهلاك المتزايد منها في الاستخدامات الترفيهية والمجالات الزراعية والصناعية أن يتسبب في العديد من المشكلات العامة. إلى جانب العديد من المشكلات الخاصة بالزراعة ومنها:

- الحد من التنمية الزراعية التي تعني الحاجة إلى مزيد من المياه لاستصلاح أراضي صحراوية جديدة.

- إن غياب وسائل تخزين مياه كافية لأعوام صعبة يؤدي إلى الاعتماد على مياه الأمطار كمصدر للتزود بالمياه. ومن شأن عدم قطع واحد أن يهدد كميات المياه الشخصية للزراعة وغيرها<sup>(1)</sup>.

- الحد من استمرار تدفق الهجرة اليهودية الحالية الواقعة إلى إسرائيل. وعدم قدرتها على استيعابها، الأمر الذي يعني إقامة مشروعات زراعية ضخمة، ومشروعات توليد الطاقة الكهربائية<sup>(2)</sup>.

لجأت إسرائيل إلى عدة بدائل للتغلب على مشكلة المياه. يعطيها بدائل عامة قصيرة المدى وبعضها بدائل إستراتيجية بعيدة المدى، ولقد بذلت إسرائيل - ولا تزال - محاولات في تجربة كل البدائل التي من شأنها التغلب على أزمة المياه وتوفير المياه الكافية لاستخداماتها في الأغراض الثنائية والتنمية الصناعية والزراعية.

#### أولاً : البديل القلعة فيجب أن لا

يقصد بهذه البدائل تلك التي تحاول حل مشكلة المياه في إسرائيل من داخلها، من دون الحاجة للتحول إلى سرقة مياه الدول العربية المجاورة. ومن هذه البدائل:

- ترشيد الاستهلاك في كافة المجالات الزراعية والصناعية، مع ضرورة الاقتصاد في الاستخدامات المنزلية.

- معالجة مياه الصرف الصحي لتصبح صالحة للزراعة، وتوجيه المياه النظيفة للشرب. ومن أهم مشروعات تحويل مياه الجاري بعد معالجتها إلى الزراعة في إسرائيل المشروع الذي يعرف باسم «شكدان» الذي لتفذه «جوش دان»، وهو يعتبر من المشروعات التي تعتمد على تقنية متقدمة، فمياه الصرف الصحي التي تنقل منه إلى منطقة القنق توفر حالياً تسعين مليون متر مكعب سنوياً من المياه المعالجة لزراعي الجنوب<sup>(3)</sup>.

- تحلية مياه البحر.

- إسقاط المطر الصناعي (Artificial Rainfall) (الاستمطار)، تيدي إسرائيل اهتماماً متزايداً بهذا البديل، فتجري عليه الكثير من التجارب، ويدل على ذلك طول الفترة التي استغرقتها هذه التجارب، فقد بدأت بها منذ عام 1985 م وهي مستمرة فيها حتى الآن.

- تنمية الموارد المائية من خلال مشاريع السدود وتقليل الفاقد.

لم تؤد هذه البدائل إلى التغلب على مشكلة المياه في إسرائيل، فترشيد الاستهلاك بات لا يجدي مع تدفق الهجرة اليهودية إلى إسرائيل والزيادة السكانية، والمشروعات الصناعية والزراعية المتنامية، التي تريد إسرائيل أن يكون لها فيها اليد الطولى على

مستوى منطقة الشرق الأوسط. أما معالجة مياه الصرف الصحي وتحصيلها للاستخدامات الزراعية فمن شأنها أن تخلق مشكلة خاصة في نوعية المياه المستخدمة وعلى صلاحيتها لأنواع معينة من الزراعات، وليس كل الزراعات<sup>(٣١)</sup>. أما تحلية مياه البحر فعملية باهظة التكاليف وتستمر فترات زمنية طويلة، ويقتدر نظام الهيدروليك على سبيل المثال لا الحصر - تكاليف برنامج كبير لتوفير الاحتياجات الإسرائيلية من المياه - يُنفذ على عدة عقود زمنية، بنحو ستين مليون دولاراً<sup>(٣٢)</sup>. كما أنه ليس في مقدور إسرائيل العمل على تنمية الموارد المائية من خلال مشاريع السدود، وتقليل المفقود، من دون التعامل مع دول الجوار، ومن دون سلام حقيقي عادل، لتفاعل في إطاره المصالح المشتركة وتشابك المنافع وتبادل، أضف إلى ذلك أن لتسريعات المائية التي من هذا النوع تحتاج إلى استثمارات ضخمة وإمكانات تكنولوجية عالية<sup>(٣٣)</sup>.

وهي ندوة - فشل محاولات إسرائيل في البحث عن مصادر غير تقليدية لتغلب على مشكلة المياه لم تجد أمامها سوى اللجوء إلى ما يمكن أن نسميه - البدائل الإسرائيلية بعيدة المدى، والتي الطمع ثم السيطرة على المياه العربية المجاورة، أي مياه جنوب لبنان ومياه الجولان ومياه مصر<sup>(٣٤)</sup>، سواء بالحرب أو بالسلام. وإن كان هذا لا يعني أنها استغفلت بذلك عن البدائل العامة التقليدية قصيرة المدى.

#### ١- البدائل الإسرائيلية بعيدة المدى

١- الحرب:

كانت المياه - بغض النظر عن نوعها أو استخدامها - حلقة أساسية من حلقات منظومة الحروب التي خاضتها إسرائيل ضد الدول العربية المناهضة للسلطين، بدءاً من حرب عام ١٩٦٧م وحتى حرب لبنان عام ١٩٨٢م. وقد استهدفت هذه الحروب الاستيلاء على المزيد من الأنهار المتدفقة من أراضي هذه الدول - أضف إلى هذا أن «أمن إسرائيل الاقتصادي بات يعتمد من خلال مدى السيطرة على مصادر المياه العربية»<sup>(٣٥)</sup>.

ولا يتكر المحللون والمسؤولون الإسرائيليون ارتباط حروبهم بالمياه، سواء كان ذلك بشكل مباشر أو غير مباشر، معتمدين في ذلك على تشويه الحقائق وتغيير الوقائع وتزييف التاريخ. فيرمقون - على سبيل المثال لا الحصر - اندلاع حرب عام ١٩٦٧م بتقيام مصر بإغلاق خليج العقبة في تيران، كما كان انتشار القوات الإسرائيلية على طول قناة السويس - في رأيهم - السبب في حرب أكتوبر عام ١٩٧٣م<sup>(٣٦)</sup>.

حققت حرب عام ١٩٦٧م لإسرائيل السيطرة على قطاع غزة والضفة الغربية لنهر الأردن، وبالتالي تستل نحو ٧٥% من المياه الجوفية للضفة الغربية من خلال استغلالها لحوالي ثلاثمائة بئر ارتوازية. كما أصبحت تسيطر على حوض نهر الأردن في جزئه السفلي<sup>(٣٧)</sup>.

## الأحلام القومية مع المياه العذبة

لقد كانت الضفة الغربية تنهر الأردن حلم إسرائيل، لأنها ستوفر لها المياه الجوفية التي تضمنها بين جناتها، فبدأت بعد ضمها في إصدار قرارات خاصة بالمياه تهدف إلى تكريس السيطرة والتهب المظلم للمياه فيها، فعددت الكميات التي يحق للفلسطينيين الحصول عليها بحوالي مائة وعشرين مليون متر مكعب، في الوقت الذي تصل حاجتهم الحقيقية إلى أربع مائة مليون متر مكعب، كما تحظر على الفلسطينيين حفر آبار بعمق يزيد على مائة وأربعين متراً، في حين أنها تقوم بحفر آبار بعمق شائنة مئة متر، كما جعلت سلطة إصدار تراخيص استخراج المياه الجوفية في يد الحاكم العسكري<sup>(١٠)</sup>، أضف إلى هذا أن المستوطنات الإسرائيلية في الضفة الغربية تنهر الأردن تستهلك سبعة عشر مليون متر مكعب من المياه الفلسطينية في الأساس، كما تقوم إسرائيل بطح حوالي عشرين مليون متر مكعب سنوياً من مياه الضفة الغربية إلى داخل إسرائيل<sup>(١١)</sup>.

وفي ضوء ما كانت تشعر به إسرائيل من وثنية احتلالها للضفة الغربية، تنهر الأردن وقطاع غزة، فقد أظهرت في سحب مياهها الجوفية من الطبقات الصخرية، الأمر الذي ترتب عليه ظهور نوعية هذه المياه، بعدما تسربت المياه المالحة من البحر، فنجست من مياه الطران الجوفي في غزة غير مناسبة للاستخدام البشري<sup>(١٢)</sup>.

واستهدف احتلال إسرائيل لبعض الأراضي الأردنية في حرب ١٩٦٧م إحكام السيطرة على مياه نهر الأردن، وأصبح موضوع الصراع من أجل السيطرة على حوض نهر الأردن واحداً من أكثر الموضوعات التي لاقتها التكتلات التي تناوبت إدارة المنطقة الشرقية الأوسط.

وعندما احتلت إسرائيل مرتفعات الجولان عام ١٩٦٧م كان هدفها السيطرة على منابع نهر الأردن، ومساهمة أكبر من نهر اليرموك، وبينما أعلنت ضمها إلى أراضيها رسمياً كان هدفها حماية مصادر المياه ومخازن التخزين، وحماية شبكات المياه الإسرائيلية من الجانب السوري، كما كانت تسعى جاهدة إلى غرقلة أي محاولة تستهدف الاستقلال المشترك لنهر اليرموك بين سوريا ولبنان، ولتقديم نفسها في هذا الاستهلاك<sup>(١٣)</sup>.

ويمكن القول إجمالاً إن ٤٦% من المياه الجوفية التي تستخدمها إسرائيل تسحبها من الضفة الغربية لنهر الأردن، كما أنها تسيطر على منابع نهر الأردن وتستخدم مياهها، ونظراً إلى الاستنزاف الكبير للمياه العربية من جانب إسرائيل فإن الخطر بات يهدد المياه الجوفية، فقد أصبحت الخزانات الجوفية في الجليل ومرتفعات الجولان خالية في أغلبها، وتسبب المياه في بحيرة طبرية قد انخفض إلى أدنى مستوى له في عام ١٩٩٠م، حيث وصل إلى مائتين وثلاثة عشر متراً تحت سطح البحر، مما اضطرها إلى وقف الضخ منها لمدة شهر، نظراً بأن البحيرة هي التي تمد إسرائيل بالاستخدامات الأساسية من المياه<sup>(١٤)</sup>.

وعلى الرغم من أن لبنان لم يغطي أيا من الحروب العربية الإسرائيلية، إلا أن إسرائيل ادعت دائما أن أكثر من نصف مليار متر مكعب من مياه نهر الليطاني تنسحب في البحر - ولا تستفيد منها شعوب المنطقة، فأقامت إستراتيجيتها حيال الجنوب على أساس جعل نهر الليطاني يعمل حدودها الشمالية. من هنا كان غزوها للبنان عام 1982م<sup>(٢١)</sup>. فبقت السيطرة على قسم من نهر الليطاني في جنوب لبنان، وتسحب جزءا من مياهه إلى داخل إسرائيل<sup>(٢٢)</sup>. وقد بدأت إسرائيل محاولاتها في هذا الاتجاه قبل ذلك. حينما أقامت علاقات متميزة مع ميليشيات سعد حداد في الجنوب اللبناني عام 1979م من أجل استخدام نهري الحاصبياتي والوزائي اللذين يصبان في نهر الحاصبياتي<sup>(٢٣)</sup>.

٢ - السلام:

أدركت إسرائيل أن الحرب والسيطرة والاحتلال تتكلف الكثير من الأرواح والمال والطاقة، ولا يمكن أن تضمن لها - مع هذه التكاليف الباهظة - تدفق المياه على أراضيها باستمرار. فذهبت إلى السلام كبديل آخر لتحقيق ما تريد. فهي تريد المياه إما بالتحرب وإما بالسلام. فإذا كان النصر العسكري عاجز عن تحقيق التمسك بالحاسم الذي يضمن لها الاستمرار المحقق، وبالتالي السيطرة المطلقة، فإن النصر العسكري عاجز أيضا عن تحقيق الأمن الذاتي. الأمر الذي يعني عدم ضمان تدفق المياه بشكل دائم.

وحول هذا يقول أفرادهم داسير وشمس شعبة التخطيط في الجيش الإسرائيلي ومدير عام مكتب رئيس الوزراء: «نعال المياه معضلة السلام والحرب... ومن الممكن أن تفضل إسرائيل سياسة السيطرة على مصادر أودية بما يعني الحرب، أو أن تفضل سياسة توزيع المياه بين دول المنطقة وهو ما يعني السلام... ولا تعني هذه القولة سوى أن إسرائيل لطبع منطقة الشرق الأوسط أمام خيار واحد، وهو توزيع المياه بين دول المنطقة بما فيها إسرائيل، التي تسعى إلى تحقيق ذلك بشتى الوسائل، حتى لو امتد إلى الأمر شن حرب على دول المنطقة. وإذا سمحت إلى السلام لتحقيق ما تريد فهو «سلام فوري» لأنه يتفق والشروط الإسرائيلية، ورفض المطامع الإسرائيلية في المياه العربية يعني «الحرب المتعمدة»<sup>(٢٤)</sup>. فإسرائيل تحرص في المفاوضات التسوية السلمية في الوقت الحالي على حدودها المائية التي تراها لا تختلف عن أمنها الذاتي. الأمر الذي بات يوجه مواقفها واعتباراتها في هذه المفاوضات.

ولكن دخول إسرائيل في مفاوضات العملية السلمية مشروط بتحقيق ضمانات عدة وضعتها هي نفسها في مجال المياه، ولتبررها بمنزلة ضغط أحمر يجب عدم التنازل عنه، ومنها:

١ - الإشراف على المنطقة الواقعة قرب خط قسمة المياه في الضفة الغربية، وإشرافها كذلك على مصادر المياه في غزة وجنوب لبنان ومرفعات الجولان.

ب - إن ما يختص من المياه العربية أصبح حقا مكتسبا وملكا لها، لا يمكن المساس به أو إخضاعه للتفاوض والسلموية.

ج - التأكيد على أن سعي العرب لاستعادة حقوقهم المائية من إسرائيل أو فتح مفاوضات عنها  
وهذا خاسر، إذ لا بد من وضع مشاريع مائية جماعية تتم في إطار السلام<sup>(٣٠)</sup>.

د - السلام مقابل المياه: إذا كان العرب قد أطروا ووافقوا على قاعدة «السلام مقابل  
الأرض» لزم على أساسها التفاوض بين أطراف العملية السلمية، فإن المخططين لاقتصاديات  
المياه في إسرائيل وضعوا قاعدة مضادة تحقق لهم ما يريدون في مجال المياه يمكن أن  
نسميها «السلام مقابل المياه»<sup>(٣١)</sup> بل وصل الأمر ببعض إلى أن أكد على أن القضايا  
الأمنية التي تتحدث عنها إسرائيل زالت تغطي في الوقت الحالي ثروات توفّر إمدادات  
كافية من المياه<sup>(٣٢)</sup>.

لم يكن شريفاً إذن أن يقدم مؤتمر مدريد للسلام الذي عقد في يوم ٢٠ - ١٠ - ١٩٩١ م  
على تخصيص لجنة لدراسة ملف المياه. في إطار المفاوضات متعددة الأطراف بالشرق  
الأوسط. وشارك في هذه اللجنة نحو سبع وأربعين دولة ومنظمة دولية. وقد اجتمعت هذه  
الجنة منذ بداية المفاوضات أكثر من ثماني مرات. ويلاحظ النتائج لمسار المفاوضات متعددة  
الأطراف الخاصة بالمياه أن اهتمام إسرائيل بهذه اللجنة يندرج اهتمامها بأي لجنة متباعدة من  
مؤتمر مدريد<sup>(٣٣)</sup>.

وإذا نظرنا إلى اتفاقيات السلام التي وقعتها إسرائيل مع الدول العربية نجد أنها حتى الآن  
قد حظيت معظم ما أرادت إسرائيل في موضوع المياه. ما عدا اتفاق السلام الذي وقع مع مصر.  
وما زالت إسرائيل تسعى إلى طرح الموضوع الفلسطيني من خلال فعاليات لجنة المياه  
المتباعدة من مؤتمر مدريد. بعدما فشلت في ذلك في إطار اتفاقية السلام معها. فقد قدمت  
بورقة أولية ضمن جدول أعمال لجنة المياه متعددة الأطراف تقترح فيها حصولها على نصف  
في المائة من مياه النيل. استناداً إلى أن هذه النسبة لن تؤثر على تصويب أي من دول حوض  
نهر النيل. وعرضت ضمن هذه الورقة التعاون مع مصر وإثابة دول حوض نهر النيل لزيادة  
إيرادات النهر. إلا أن مصر رفضت. بإصرار إدراج مياه النيل في أعمال لجنة المياه المتباعدة عن  
المفاوضات متعددة الأطراف<sup>(٣٤)</sup>.

ولقد كانت مياه نهر النيل مطمعا دائماً لإسرائيل. يسيل لها لعابها دائماً. سواء كان ذلك  
بشكل مباشر أو غير مباشر. فقد جاء في بيان لجنة الاقتصاد في الكويت أنه «يجب على  
لجنة أن تحل مشكلة نقص المياه فيها من نهر النيل، وليس من إسرائيل». وقد اعتبر الإسرائيليون  
المسؤولون في مصر أن هذا البيان أقرب إلى بيان إعلان حرب<sup>(٣٥)</sup>. ومن أقدم المشروعات  
الإسرائيلية الخاصة بنقل مياه نهر النيل إلى إسرائيل المشروع الذي وضعه المهندسين  
الإسرائيلي «الشيخ كادي» عام ١٩٧٤ م. ويهدف إلى نقل حوالي ٢١ من مياه نهر النيل إلى  
إسرائيل. أي ما يساوي أكثر من مائة مليون متر مكعب من المياه.

وتحقق لإسرائيل ما أرادت في موضوع المياه في اتفاقيات أوسلو التي وقعتها مع الجانب الفلسطيني. فالتحق أوسلو لا يدخل الفلسطينيين سلطة أو صلاحية في مجال المياه الأمر الذي أدى إلى تقاسم الأزمة بين الجانبين في الأونة الأخيرة<sup>(10)</sup>. فقد حددت إسرائيل مجموعة من المعايير الخاصة بالحفاظ على المياه كشرط للتوقيع على اتفاق سلام مع الفلسطينيين. وحول هذا يقول أحد خبراء المياه الإسرائيليين: «إن المياه في الأراضي الفلسطينية المحتلة باتت جزءاً لا يتجزأ من إسرائيل لأنها تحصل على نحو ٧٠٪ من حاجتها من مياه الضفة الغربية، وأنها إن تخطى بسهولة عن هذه الأراضي من دون الحصول على ضمانات تؤمن لها الحصول على موارد مشابهة في المنطقة»<sup>(11)</sup>.

كما تحقق لإسرائيل جل ما أرادت فيما يتعلق بموضوع المياه في اتفاق السلام الذي وقع مع الجانب الأردني في شهر أكتوبر من عام ١٩٩٤م. فقد باتت حقوق الملكية لإسرائيل في منطقة الباقورة - نهاريم الخاضعة للسيطرة الأردنية. أضف إلى هذا أنه لم تتعد في الاتفاق كمية المياه المعلقة التي يستطيع الأردنيون الحصول عليها من الهياض التابعة المحولة إلى نهر الأردن. وهذا يعني أن الدور المسيطر على مصادر المياه على طول الحدود المشتركة بين البلدين - ومنها نهر الأردن ونهر اليرموك وسيل وادي عربة - بات لإسرائيل<sup>(12)</sup>.

وما زالت المياه حتى الآن - وبعد التوقيع على اتفاقية سلام مع الجانب الفلسطيني والأردني - تمثل مشغلاً في علاقة إسرائيل بكل من سلطة الحكم الذاتي الفلسطينية والأردن<sup>(13)</sup>. فقد جاء في تقرير وزير الداخلية في حكومة حزب العمل يعقوب شوسر ما نصه: «بعدما تسلط الفلسطينيون على مناطق في الضفة الغربية عملوا على سحب المياه الجوفية. وإذا استمر الفلسطينيون في القيام بذلك فإنهم سيأخذون مياهنا»<sup>(14)</sup>. ويؤكد هذا المسؤول الإسرائيلي نفسه على ضرورة أن تحتفظ إسرائيل بالإشراف على المياه في المناطق التي يتسحب الجيش الإسرائيلي منها، لكي تضمن في الأساس ألا يحصل الفلسطينيون على المياه الجوفية من دون مراقبة. فلتطالب إسرائيل في هذا السياق بالحق في مراقبة نوعية المياه والتخلص من الصرف الصحي في مناطق الحكم الذاتي<sup>(15)</sup>. كما كان فشل إسرائيل في احترام توزيع المياه مع الأردنيين مصدراً للتوتر في علاقات البلدين<sup>(16)</sup>.

وفي ضوء ما تحقق لإسرائيل من امتيازات، وما قدمه الفلسطينيون والأردنيون من تنازلات في موضوع المياه، ضمن اتفاقيات السلام الواقعة بين الجانب الإسرائيلي من ناحية والجانب الفلسطيني والأردني من ناحية أخرى، يحذر خبراء المياه العرب من خطورة الطرار العربي للفرود في مجال اقتسام المياه، فيجب أن يتم هذا في إطار جماعي يضمن للدول العربية حصصاً أكبر لتتفق وحقوقها التاريخية ومكانتها في المنطقة، وتتناسب وتعداد سكانها ومشروعاتها التنموية المستقبلية الطموحة.

## الأبعاد الجغرافية مع المياه العربية

والتياء هي العنصر الأهم الذي يعوق التوصل إلى اتفاق سلام بين إسرائيل وسوريا . فالتوزيع الأمنية، التي تتمسك بها إسرائيل لتأخير استعاضتها من الجولان، أصبحت واحدة بعد تقصير دور العوامل الطبيعية والجغرافية في الحروب الحديثة.

ولكن ترد إسرائيل في الخروج من الجولان يعود إلى خوفها من خسارة المياه الجوفية والسطحية التي تستأثر بها منذ عام ١٩٦٧م. بالإضافة إلى أعطار الجولان الفيزية التي تتحول إلى خزان هائل للمياه الجوفية، حتى لتوصف بأنها خزانة صالحة على خزانات من المياه<sup>(١)</sup>. ويصير الآن في إسرائيل البحث عن معادلة أو صيغة تضمن بقاء مصادر مياه الجولان في حوزتها وتكفل لتجديد الجولان من السلاح والحفاظ على وجود المستعمرات الإسرائيلية فيها<sup>(٢)</sup>. ويتأكد هذا الأمر في تصريح إسحاق رابين (١٩٦٦م - ١٩٩٥م) رئيس وزراء إسرائيل الأسبق الذي جاء فيه بأن إمداد الدولة بلا انقطاع من مصادر المياه في الجولان أكثر أهمية من السلام<sup>(٣)</sup>. ويبرز هذا التصريح أن الإمدادات المستعمرة من المياه شيء ضروري، بل مصيري فيما يتعلق بأي تسوية مستقبلية مع سوريا.

وتروج إسرائيل، بالنسبة إلى لبنان، نظرية الارتباط الجوفي بين نهر الليطاني ونهر الأردن لإجبار الدولة اللبنانية على التوقيع على اتفاق يقر لها بحصة من المياه في نهر الليطاني<sup>(٤)</sup>.

ولقد أقامت إسرائيل على قضية قضية المياه وتضاعفها علاقات متميزة، وتسم بالخصوصية مع تركيا على المستوى الإقليمي. وباتت هذه العلاقات تشهد تطوراً اقتصادياً كبيراً في مختلف المجالات بشكل عام، وبحال المياه بشكل خاص. ويمكن لهذا التطور الإقليمي الإسرائيلي التركي في مجال المياه أن يحقق بعض المصالح لإسرائيل مستقبلاً، منها تعزيز إمدادات إسرائيل بالمياه بأموال النفط العربي، كما هي الحال في مشروع أنابيب السلام الذي ينقل المياه التركية إلى دول الخليج<sup>(٥)</sup>.

تعتقد إسرائيل أن زمن الحروب التقليدية يولها وبين الدول العربية قد ولى، وأن أمامها فرصة ذهبية لزيادة الإنتاج والتصدير وغزو الأسواق العربية، إلا أن زيادة الإنتاج مرتبطة بتوافر المصادر المائية، التي تعني في الوقت نفسه إعادة توزيعها، الأمر الذي تضمنه عدة مشروعات تطرحها إسرائيل على دول منطقة الشرق الأوسط في إطار التعاون واستئجاب السلام في المنطقة. ومن هذا المنطلق طرحت إسرائيل عدداً من الحلول لمواجهة نقص المياه في منطقة الشرق الأوسط، فقدمت مشروعات ومخططات مالية بعضها جديد، وبعضها قديم بصيغة جديدة. ومن هذه المشروعات:

- ١ - قناة البحرين: يعد هذا المشروع من المشروعات القديمة التي قدمت بصيغة جديدة، ويقوم هذا المشروع على حفر قناة تصل البحر الأبيض المتوسط، بالبحر الميت، واستغلال ضغط المياه المنساقطة بفعل الفرق في الارتفاع أو المستوى بين البحرين لتوليد الطاقة وإقامة مشاريع لتعليق مياه البحر.



٢ - مشروع القناة المائية المازقة في الجولان، يرمي هذا المشروع إلى إنشاء قناة تسمى «قناة السلام»، وتشكل حاجزا عسكريا يصعب التغلب عليه في المناطق التي ينسحب منها الإسرائيليون في الجولان. ويقوم هذا المشروع على تحويل ١.١ مليار متر مكعب من المياه سنويا من سد ألتورك ومياه نهري سيجان وبيهان في تركيا، وتوزعها بالتساوي بين سوريا والأردن، وسوريا وفلسطين.

ويهدف هذا المشروع لإسرائيل أهدافا عدة منها:

أ - الحصول على أكبر كمية ممكنة من المياه المتوفرة في الجولان.

ب - شل قدرة سوريا على استخدام هذه المرفقات كمنطلق للعمليات العسكرية ضدها.

ج - يقدم لإسرائيل حصة من مياه الجولان المخصصة في الجاء الأراضي الفلسطينية المحتلة، إلى جانب حصة من المياه الواقعة من تركيا والمخزنة في القناة.

د - يقيم حاجزا مائيا يفتح الاختراق، ويمنح إسرائيل حق البقاء في قسم من الجولان، وهو ينشئ رابطة من المصالح المتداخلة والمتشابكة بين إسرائيل وجيرانها، يصعب في المستقبل الاستغناء عنها.

٣ - مشروع نقل قناة مياه القبار التركية، بواسطة أكياس مائية عائمة أو ناقلات مائية، لتغلق من أحد الموانئ التركية إلى البحر الأبيض المتوسط، وتوجه نحو السواحل الإسرائيلية.

٤ - مشروع الأبراج المازقة لتجلب مياه البحر في دول الخليج، الأبراج الحرارية منبثات شائعة قادرة على إنتاج مياه مالحة ملائمة للاستهلاك على اختلاف مستويات الضغط والتأثيرات في الطبقات الجوية، والشارب الوحيد لإقامة هذه الأبراج هو وجودها في موقع محدد للبحر يتميز بعناخ شديد الحرارة والجفاف.

والحقيقة هي أن هذه المشروعات وغيرها لم تستهدف مجرد اقتسام مصادر المياه المشتركة بين إسرائيل والدول المجاورة، وإنما الاستيلاء على كل المياه المتوفرة، والسعي لدى الغير أو بأموال الغير لتأمين مصادر مائية يستفيد العرب منها بقدر محدود جدا، لكنها تحكم فيها وتسيطرها حسب مصالحها.

### المصدر الثاني: الأطمار الإسرائيلية في المياه الفلسطينية

يشترك الفلسطينيون وإسرائيل في مصدرين من مصادر المياه الأساسية، أول هذين المصدرين هو خزان المياه الجوفي في الجليل، وهو حوض يمتد لمسافة تقدر بمائة وثلاثين كيلومترا، ويتغذى هذا الخزان من مياه الأمطار التي تهطل على جبال الضفة الغربية وتتسرب داخله. ويعد ذلك التدفق شرقا وغربا إلى مناطق تجمعها، ومن هناك تسحب من خلال الآبار، ويغذي مصدر

## الأوضاع الميضية مع المياه العربية

المياه هذا ما يقرب من ثلث استهلاك إسرائيل من المياه كما يشكل مصدرا للمياه التي يحصل عليها الفلسطينيون في الضفة الغربية.

ومصدر المياه الثاني هو حوض الأردن الذي يضم نهر اليرموك بكل فروعه، وبحيرة طبرية، ونهر الأردن، وعلى الرغم من أنه من الناحية الجغرافية يشترك بينهما فقط نهر الأردن، فإن المياه التي تستعملها إسرائيل من بحيرة طبرية تؤثر بشكل مباشر في كمية المياه التي تصل إلى الأردن، ويغطي هذان المصدران (حوض الأردن وخزان المياه الجوفية) أكثر من ثلثي كمية المياه المستهلكة في إسرائيل.

ومن الخطوات الأولى التي اتخذتها إسرائيل عقب احتلالها للأراضي الفلسطينية عام ١٩٦٧م الإعلان عن أن كل موارد المياه في الأراضي الفلسطينية المحتلة بمقتضى ملكية عامة، بموجب الأمر العسكري رقم اثنين وتسعين الصادر عام ١٩٦٧م. ترتب على اتخاذ هذه الخطوات وخطوات أخرى اتخذتها إسرائيل في هذا الاتجاه، أن وضعت قيود تحد من قدرة الفلسطينيين على استغلال موارد المياه التي يحوزهم بشكل يغطي استهلاكهم الأساسي، ويتناسب مع معدل الزيادة الطبيعية في السكان.

ولقد أدى هذا - إلى جانب الإهمال المتعمد في جانب إسرائيل في صيانة وإصلاح صرفق المياه في الأراضي الفلسطينية المحتلة - إلى خلق مشكلة مياه خطيرة، كما تعجز إسرائيل بشكل سافر بين الفلسطينيين وبين مواطنيها في استهلاك المياه كما وكيفا، ويكفي أن نقول إنه بعد ما يزيد على ثلاثين عاما من الاحتلال فإن ما يقرب من مائة وثمانين قرية في الضفة الغربية تعيش بلا شبكة مياه، ومن الإجراءات التي اتخذتها إسرائيل في هذا الشأن:

### ١ - حظر حفر الآبار

من التدابير التي تقيت على الإعلان أن كل موارد المياه ملكية عامة، تطبيق إجراء يقضي بضرورة الحصول على تصاريح من سلطات الاحتلال من أجل حفر بئر جديدة. ولقد استغلت إسرائيل هذا الإجراء للحد من زيادة كميات المياه التي يمتصها الفلسطينيون من خزان المياه الجوفية.

### ب - تحديد حصص المياه

طبقا لما يقضي به القانون الأردني، فإن ملكية التوارد المائية تحت الأرض تتبع ملكية الأرض التي فيها هذا التوارد، ومن هنا لم يوضع قبل عام ١٩٦٧م أي قيود على كميات المياه التي توضع من الآبار. ولكن في عام ١٩٧٥م حددت إسرائيل حصصا لتقيد المياه التي توضع من الآبار، وطبقتها من خلال قيود معينة وعقوبات مشددة فرضت على من يتجاوز هذه الحصص. ومنذ عام ١٩٧٥م عدلت هذه الحصص مرات عدة، وكانت الزيادة التي أضوفت خلالها محدودة جدا لا تتفق ومعدل الزيادة السكانية.

ج - المصادر:

يقضي الأمر العسكري رقم ثمانية وخمسين الصادر عام ١٩٦٧م، والغامض بالملكات للهجورة، بأن الملكات التي غادر أصحابها المكان تتقل إلى الجهة المسؤولة عن إدارة الملكات للهجورة. طبق هذا الأمر العسكري على الملكات التي لم تعد هوية مالكها. ويلقى عبء إثبات تسمية وملكية هذه الملكات على عاتق أصحابها وليس على عاتق السلطات. فبعد فترة وجيزة من دخولها إلى الأراضي الفلسطينية صادرت إسرائيل عددا كبيرا من الآبار التي يمتلكها فلسطينيون واستخدمت لأغراض الري، من خلال الإعلان عنها بأنها «ملكات غائبين»<sup>(٣٧)</sup>.

د - حظر الاقتراب من مصادر المياه:

حظرت إسرائيل على الفلسطينيين الاقتراب من مصادر المياه الموجودة على سطح الأرض، فقد أعلنت منطقة مهمة على امتداد نهر الأردن، استخدمها المزارعون الفلسطينيون الري، أنها منطقة عسكرية مغلقة. كما أعلنت خمس مجموعات من ينابيع المياه أنها «محميات طبيعية»، وأصبح الدخول إليها يتطلب دفع رسوم أو الحصول على إذن مسبق.

هـ - عدم صيانة منشآت المياه وإغماها:

بدأت شركة «مكوروت»<sup>(٣٨)</sup> عقب حرب عام ١٩٦٧م ببناء شبكة مياه واسعة في الأراضي الفلسطينية المحتلة، استهدف إنشاء هذه الشبكة تلبية متطلبات الجيش والمستوطنين الإسرائيليين الذين استوطنوا في الأراضي الفلسطينية المحتلة بعد ذلك. والحقبة هي أن عدم إصلاح شبكات المياه البلدية بعد جزءا من الأعمال العام الذي يسود البنى التحتية في الأراضي الفلسطينية المحتلة من جانب إسرائيل. وطبقا لما ورد في أحد الأبحاث التي أجراها البنك الدولي<sup>(٣٩)</sup>، فإن الاستثمارات في البنى الاقتصادية والاجتماعية في الأراضي الفلسطينية المحتلة، كجزء من إجمالي الناتج القومي خلال فترة الاحتلال الإسرائيلي، كانت منخفضة جدا<sup>(٤٠)</sup>.

### الطرق التي الإسرائيلية والفلسطينية في استهلاك المياه

ويظهر التحس الشديد في المياه الذي يعانيه السكان الفلسطينيون، بشكل واضح في الفجوات الكبيرة في استهلاك المياه بين الفلسطينيين والإسرائيليين. بشكل عام، والمستوطنين بشكل خاص. ويجب أن نؤكد في هذا السياق على أن ثلثي المياه المستهلكة في إسرائيل يتخطى من المصادر المشتركة بين إسرائيل والفلسطينيين في الضفة الغربية. ويكشف الجدول التالي التفرقة في استهلاك المياه السنوي للفرد بالترتيب للكعب بين الإسرائيليين والفلسطينيين خلال عام ١٩٩٦م:

الإسرائيليون	الفلسطينيون	
٢٢٨	٥٦,٥	الزراعة
١٠٥	٢٦,٥	الاستخدام المنزلي
٢٤	١,٦	الصناعة
٢٥٧	٨٤,٦	استهلاكات أخرى

المصدر بالنسبة إلى إسرائيل: المكتب المركزي للإحصاء، الكتاب الإحصائي السنوي لإسرائيل، ١٧، ١٩٩٧م. (بالعبرية)

المصدر بالنسبة إلى الفلسطينيين في الضفة الغربية:

T.Nassef, Legal and Administrative Responsibility of Domestic Water Supply to the Palestinians, in Peitelson and Haskel (eds), Joint Management of Shared Aquifers - The Fourth Workshop (Jerusalem: The Truman Institute, The Hebrew University, Jerusalem, and the Palestine Consultancy Group, 1997) (hereafter: Legal and Administrative Responsibility, p. 123).

ويظهر الجدول التالي توزيع المياه بين إسرائيل والفلسطينيين في الضفة الغربية ومدى استفادة كل منهما من الزراعة:

إسرائيل	الفلسطينيون (في الضفة)	
٢٢٨	٥٦,٥	مياه الري واستخدام الأفراد بالمكتب سنوياً
٨٤,٦	٢٦	الأراضي المروية من الأراضي المستصلحة
٢٢,٢	٢٨٠	دور الزراعة في الاقتصاد (النسبة من الناتج المحلي العام)
٢٢,٩	٢٦٥	دور الزراعة في التصدير
٢٢,٥	٢١٢,٢	عدد العاملين في الزراعة

المصدر بالنسبة إلى إسرائيل: المكتب المركزي للإحصاءات، ١٩٩٧م. (بالعبرية)

المصدر بالنسبة إلى الفلسطينيين في الضفة الغربية:

Applied Research Institute Jerusalem, Water Resources and Irrigated Agriculture in the West Bank (Bethlehem, 1998), p. 30.

- Palestinian Academic Society for the Study of International Affairs, 1977,p.201.

لا تشمل إحصائيات استهلاك المياه الخاصة بالسلبيين، على مياه الأمطار التي تغزن في الآبار الخاصة بالمواطنين الفلسطينيين. وتتراوح كمية المياه الواردة من هذا المصدر بين مليونين إلى خمسة ملايين متر مكعب سنوياً، وحتى حينما تشمل هذه الإحصائيات على المياه التي تغزن في هذه الآبار فإن متوسط الاستهلاك الإسرائيلي، لكافة أنواع الاستخدامات، يصل إلى أربعة أضعاف متوسط الاستهلاك الفلسطيني في الضفة الغربية. وإذا تطرقنا إلى الاستهلاك المنزلي فقط، أي مياه الشرب والتفوية الشخصية والتفوية، فإن استهلاك المواطن الفلسطيني أقل بنسبة الثلث من استهلاك الفرد الإسرائيلي، والحقيقة هي أن 70% من سكان الضفة الغربية، الذين يقيمون في حوالي مائة وأربعين قرية لا ترتبط بأي شبكة مياه نقية على الإطلاق.

ويقتضي الرأي السائد بين الخبراء المختصين في شؤون المياه بأن الحد الأدنى المقرب فيه للاستهلاك المنزلي في المدينة الحديثة يصل إلى مائة متر مكعب من المياه سنوياً للفرد، وتجاوز إسرائيل في الوقت الحالي هذا المعدل بقليل، بينما يستهلك الفلسطينيون في الوقت الحالي أقل من ثلث هذه الكمية.

ويعد القطاع الزراعي مستهلك المياه الرئيسي في إسرائيل. ولهذا الأمر جذور تاريخية تكمن في فترة الاستيطان اليهودي الصهيوني في فلسطين (يشوف)<sup>(١٣١)</sup>، وهي العقد الأول من قيام دولة إسرائيل، فقد نظر إلى الزراعة في تلك الحقبة، لأسباب سياسية واقتصادية وأيدولوجية<sup>(١٣٢)</sup>، على أنها ذات أهمية قصوى لتفادي الطرح الصهيوني. وقد أدت هذه الرؤية إلى دعم أسعار مياه الري، الأمر الذي شجع على زيادة استهلاك المياه.

وتتفاقم مشكلة المياه التي يعانيها السكان الفلسطينيون في ضوء الأهمية الكبيرة للزراعة في منظومة الاقتصاد الفلسطيني المحدود. ويجمع الخبراء على أن أي تسوية في المستقبل خاصة بالمياه، يجب أن تشمل تحويل المياه من القطاع الزراعي في إسرائيل إلى الأراضي الفلسطينية.

ولا تقتصر الفجوة في استهلاك المياه بين الإسرائيليين والفلسطينيين على الجانب الكمي فقط، وإنما تظهر أيضاً في النظام ضخ المياه، هذا إلى جانب الفجوة في سعر المياه الذي يدفعه المستهلك. فهناك يستفيد مواطنو إسرائيل من المياه النقية من دون حدود على امتداد شهور السنة، يعاني المواطنون الفلسطينيون في الضفة الغربية من انقطاع المياه خلال معظم أيام الصيف. ويأتي هذا الأمر من الزيادة الطبيعية في استهلاك المياه في هذا الفصل الحار، هذا إلى جانب حقيقة مفرها أن شركة «مكروث» تقلل من عمليات ضخ المياه للمواطنين الفلسطينيين بالتعديت في هذا الفصل، لكي تفي بالتطلبات المتزايدة في إسرائيل والمستوطنات على المياه.

## الأحياء الفلسطينية مع المياه العربية

وتبرز الشفافة في صنع المياه، بين القرى والأحياء الفلسطينية وبين المستوطنات الإسرائيلية، بشكل خاص في الحالات التي تقع فيها هذه المستوطنات بجوار القرى والأحياء الفلسطينية، وترتبط بخزان المياه الرئيسي نفسه الذي تديره شركة «مكوروت» فبينما تمتنع هذه المستوطنات من المياه النظيفة من دون حدود ولكل الاحتياجات (بما في ذلك ملء حمامات السباحة وري الحدائق الخاصة)، تعاني القرى والأحياء الفلسطينية نقصا شديدا في المياه النظيفة، حتى للشرب والاستحمام.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد وإنما تحضر شركة «مكوروت» الآبار لتزويد المستوطنات بالماء، ويقع بعض هذه الآبار على مقربة من القرى والأحياء الفلسطينية. وقد وصلت عمليات الحفر إلى الطبقات العميقة لخزان المياه الجوفية، وهذا يعني خسارة كبيرة للأبار والينابيع التي تستمد مياهها من الطبقة العليا لخزان المياه الجوفية، والتي تزود القرى والأحياء الفلسطينية بالماء. وتراوح الخسائر بين الانخفاض في كميات المياه وبين الجفاف التام، وقد تطرق تقرير لجنة شكلها مجلس الأمن في منظمة الأمم المتحدة بجلد، إلى الانخفاض الحاد الذي حدث في كميات المياه المتاحة للقرى والأحياء الفلسطينية، ومنها العوجة، ورام الله، والبريرة، وثلث الميض، نتيجة عمليات الحفر التي تجرى في المستوطنات المجاورة.

### أثر نقص المياه على مدينة الخليل

لقد مدينة الخليل نموذجا للمدينة الفلسطينية التي تعاني نقصا حادا في المياه نتيجة سيطرة إسرائيل على المياه الفلسطينية من ناحية، وتطويقها بسياسة التفتيز والتقسيم عبر العازل لمصادر المياه من ناحية أخرى.

يقع في منطقة الخليل ما يقرب من مائتين وعشرون ألف نسمة، وموارد المياه فيها محدودة جدا. ويصل صنع المياه للاستهلاك المنزلي للسكان من أربع آبار رئيسية. يقل صنع المياه للسكان الفلسطينيين في الصيف ليصل إلى أقل من نصف الكمية التي تلصق في فصل الشتاء. وتنتظم مدينة الخليل ذاتها في فصل الصيف إلى خمس عشرة منطقة، تلصق البلدية لها المياه بالتناوب، حيث تلصق المياه إلى منطقة ما مرة كل خمسة عشر يوما. على مدار أربع وعشرين ساعة. وتتفاقم مشكلة المياه في مدينة الخليل نتيجة الأعمال الشديدة في البنية التحتية الخاصة بالمياه خلال فترة الاحتلال الإسرائيلي.

ويجبر النقص الشديد في المياه السكان الفلسطينيين في منطقة الخليل بشكل خاص على شراء المياه من شاحنات الصهاريج التي تقلل المياه لبيعها. كما يزيد نقص المياه بشكل حاد من صعوبة الحفاظ على ظروف صحية ووقائية مناسبة، من هنا فإن لهذا النقص تداعياته على صحة المواطنين، ومن هذه التداعيات سرعة انتشار الأمراض العديدة نتيجة استخدام المياه غير النظيفة، وزيادة حالات الجفاف بسبب عدم وجود المياه الكافية للشرب، وعدم الاهتمام الطبي

المتناسب بالمرض في المنازل والمستشفيات، الأمر الذي مثل خطورة على حياة المواطنين.. كما يشيخ نقص المياه في انتشار الأمراض المعدية لأسباب عدة منها، سحب المياه من آبار مياهها غير نقية، واستخدام المياه الراكد في المنطقة بدلا من المياه الجارية، وري الزرع بمياه الصرف الصحي، وتبرز في المستشفيات الأهمية القصوى في الحفاظ على التوقية الصحية، لأنها بيئة تكثر فيها الميكروبات، ولكن نتيجة لنقص المياه فإن عملية النظافة تتأثر كثيرا بهذا الأمر، ويقل معدل العمليات الجراحية وأشكال العلاج المختلفة بشكل كبير.. ويزيد خطر عدم توفر شروط وقاية وعلاج مناسبين من خطورة المرض ذاته، الذي يصاب به الداخلون إلى المستشفى، ويهدد أيضا أبناء الأسرة الذين يرافقون المريض، ومن أكثر الفئات التي تعاني، نتيجة النقص الشديد في المياه المرضى المجهزون في المستشفى، فاستخدام دورات المياه والحمامات يكاد يكون غير ممكن..



# التحديات السياسية والاجتماعية في الكويت والوطن العربي : بنة في مقاربة الوعي السياسي عند طلاب جامعة الكويت

د. علي أسعد وحفظه (\*)

5003000

**تلخيص** في بولقة الواقع العربي المعاصر  
تتكونية متراكبة من الخصائص الاجتماعية  
والسياسية المتداخلة والمتضاربة في دائري  
الزمان والمكان، فالإنسان العربي يعيش في  
دوامة الأزمان والأحداث والأحداث التي تحيق  
بوجوده وتشد في قلبه وتضيق مضامعه.

حيث يجد نفسه في الموقع الذي تتجابه وتلبذه في الآن الواحد تيارات فكرية وثقافية ساعته  
مضاربة وضاربة في كل زاوية وهاء من الوطن العربي الكبير. وهي دوامة هذه التيارات المتضاربة  
يقع الإنسان العربي فريسة للضباب الفكري والثقافي ويتصدع لديه إمكان التوافق بين الذات  
والوجود. ويضعف لديه إمكان الخروج من الدوائر والمزق الطائفة إلى دائرة الوعي الإيجابي بما  
ينطوي عليه هذا الوعي من إمكانات امتلاك الواقع والسيطرة على المصير.

ففي ظل التحولات التكنولوجية الاقتصادية والاجتماعية والتكنولوجية التي يشهدها عالمنا  
المعاصر، بدأ الوطن العربي بشكل ملحوظاً لاجتياح ثقافي أدى إلى تصدع كبير في بنية الوعي  
القومي والتقليدي استطاع أن يهزج مقومات وركائز الهوية الوطنية والقومية. وفي مهبط هذه  
التصدعات الثقافية بدأ الوعي الثقافي والسياسي عند الناشئة والشباب يشهد حالة انحراب  
شاملة لطرح نفسها يعزى من الإكراه على الباحثين والمفكرين في مختلف البلدان.

(\*) الأستاذ علم الاجتماع القومي - كلية التربية - جامعة دمشق - الجمهورية العربية السورية.



## التحولات السياسية والاجتماعية في الكويت والواقع العربي

فواقعنا هو واقع التآسي السياسية والعسكرية بما تتطوي عليه من حروب وويلات ودمار ترمز إلى مظاهر وجود مختلف رهيب ومظلم، واقعنا هو نتائج حروب ومأسا لا تقطع، تنصدها حربا الخليج الأولى والثانية بكل ما جعلته هاتان الحربان من الآم وجودية تلوق حدود التصور. ناهيك عن هذه الحروب اقتفجرة مع عضو غابر خطير، مع العدو الصهيوني الذي يستلب الكرامة والأرض والإنسان، وفوق ذلك كله يأتي القهر الثقافي بمؤسساته الثقافية التي تريد اليوم أن تستلب منا قيم عروبتنا وأصلاصنا إلى الأرض والإسلام والجدور. لقد ألقى الغزو العراقي للكويت الزخم الروحي والمعنوي الذي كانت توفره القومية العربية. وقد أدى هذا الغزو إلى احتضار الفكرة القومية العربية وإجهاض الإمكانيات القومية العربية، بكل ما كانت تتطوي عليه هذه القومية من طاقات هائلة في القدرة على تحريك الوجدان العربي والشارع العربي. وهذا ما يؤكد محمد جواد رضا بقوله «لقد ألقى الغزو العراقي للكويت ذلك الانكفاء الروحي الذي كلفه توفره فكرة القومية العربية، وخلق فراغا روحيا»<sup>١١</sup>.

«فالوطن العربي كيان ثقافي معقد مركبة تتداخل فيه عناصر الولايات المحلية بالولايات الوطنية، ولا تتطابق فيه حدود الجغرافيا مع حدود الشاعر، ولا حدود السياسة مع حدود الأمة»<sup>١٢</sup>. وفي صغرة هذا الواقع، بما يتطوي عليه من إشكاليات وتحديات، يجد الباحث نفسه في مواجهة واقع ثقافي واجتماعي يعاند حدود الدراسة ويرفض كليات التصنيف بما يتطوي عليه من تعقيد وتشابك، وفي قلب هذا الواقع المركبة تلتقي قضايا معرفية وسوسولوجية، تتعلق في هاجس الكشف عن مداخل الحقيقة الاجتماعية لوعي الإنسان العربي، بما يحيط به من مازق وتحديات، وبما يقتل في أعماقه من ظموجات. إنه هاجس الكشف العلمي عن هذا الوعي بما يقتل في أعماقه من قانونيات تحكم مسار نمائه وتطوره.

وفي هذا السياق فإن السؤال الذي نهض أمام الوجدان هو: كيف يتجلى الواقع السياسي والاجتماعي في وعي الأفراد والجماعات؟ وما أولويات هذا الواقع والتحديات؟ وما الصورة التي ترسم فيها الظموجات في أعماق هذا الوعي في أبعاد الزمان والمكان؟

وإذا كان الطموح السوسولوجي لا يمكنه أن يأتي على مساحة الحقيقة كاملة، فإن الخيار اليقضي يمكنه أن يركن في سعيه إلى دائرة قد تتميز بطابع الأهمية والخصوصية في مساحة هذه الحقيقة، وخيارنا هنا يتمركز في دائرة الحياة الواعية للطلبة الجامعيين في جامعة الكويت، التي تمثل موقعا ثقافيا واجتماعيا متقدما في مساحة الحقيقة الاجتماعية في الكويت. والسؤال من جديد هو: كيف يرسم الوعي الطلابي حقيقة التحديات التاريخية التي تواجه المجتمع العربي المعاصر؟ ومن ثم ما أولويات هذه التحديات؟ وأيضا ما أولوية الظموجات التي تسجل حضورها بوصفها خطوات على طريق خروج المجتمع العربي للعصر من تحدياته ومن واقع الذي يفيض بالشكليات والمعاناة والتعطف والصراعات؟

ومن أجل الإجابة عن هذه الأسئلة وما يتفرع عنها نطلب علينا أن نوجه أنظارنا إلى عينة من الطلاب الجامعيين في جامعة الكويت، وأن نوجه إليهم مجموعة من الأسئلة في مقدمتها سؤال مفتوح يطلب من أفراد العينة أن يذكروا أهم التحديات السياسية والاجتماعية التي تواجه المجتمع العربي المعاصر، وفي وسطها أسئلة تستوجب وعياً بما ينطوي عليه وهي الطلاب من أولويات تتعلق بأبعاد الوجود السياسي والاجتماعي للإنسان العربي بما بالانتماء القومي وانتهاء بأهمية الولاء للتجديد لقطبها الاجتماعية متفجرة في واقع الحياة الاجتماعية اليومية للإنسان العربي في القرن الحادي والعشرين.

### أشكالية الدراسة:

سجلت مسألة الاجتياح العراقي للكويت، والأحداث التي سبقتها ولا سيما حرب الخليج الأولى، تحولات عميقة وشاملة في بنية التصورات السياسية والمفاهيم القومية والأحساس الوطنية في المجتمع العربي بصورة عامة و في المجتمع الكويتي على وجه الخصوص. وانبعثت اتجاهات ورؤى فلسفية جديدة أسست لقيم جديدة ومبادئ وهي جديدة يستوجب التعامل والدراسة العلمية. فالغزو كان بمثابة صدمة تاريخية ألحقت بها الوجدان الجمعي في المجتمع الكويتي، فالإنسان العربي في الكويت، الذي سجل أروع المواقف القومية العربية، قدم الدعم وشارك في مختلف الأحداث التاريخية المؤثرة مثلما كانت تاريتها في جهات القتال مع العدو الصهيوني، والذي سجل أروع مواقف المشاركة والصمود لل عراق في جبهة الجبهة مع إيران، هوجن على حين غرة بصناعة غير موجهة جاءت من أقرب القربين - أسقطاء الأسر - الذين طاقوا تشنقوا بشعارات العروبة والإسلام. وكانت الصدمة أكبر من القدرة على الاحتمال تأسيساً على القول بأن «مظم ذوي الغريز أشد مضاعفة، وهكذا وهكذا».

وما يمكن أن يسجل هنا بشكل شيقاً من حيث، فأغلب الدراسات والبحوث السيكولوجية التي أجريت في المجتمع الكويتي تشهد بحقائق تقول إن الغزو العراقي أحدث ثورة في المفاهيم وفي التصورات والمفاهيم السيكولوجية. وهذه الحقيقة تدعمها رؤى وتصورات تلمسناها في ميدان الحياة الاجتماعية في المجتمع الكويتي.

فأغلب الوافدين العرب الذين عاشوا الغزو العراقي يميزون بين شخصية الإنسان الكويتي ما قبل الغزو وذلك ما بعد الغزو، هؤلاء الوافدون يرون على العموم أن فضائل الكويتيين ما قبل الغزو كانت أكثر منها فيما بعد الغزو. ومن ثم هذه النتائج ليست غريبة أبداً فهي طبيعية ومشروعة، ربما لأي شعب يتعرض لهزيمة ويعاني من حالة دمار واحتياج. ومع ذلك فإن السؤال العلمي الذي يطرح نفسه في هذا المجال، هل بدأ حقاً الإنسان الكويتي يتشبع بوعي سياسي واجتماعي جديد مختلف، ولا سيما فيما يتعلق بمفاهيمه وتصورات حول القضايا القومية والاجتماعية؟

## التجديد السياسي والاقتصادي في الكويت والوقف العربي

وفي كل الأحوال فإنه يجب علينا ألا ننسى التحولات السياسية في ما يتعلق بالقضية الفلسطينية، ولا سيما التغيرات السلمية والسياسية والتطبيع وتراجع الموقف العربي والمخالفات العربية التي أدت في جعلها إلى تحولات في الوعي العربي برمته، ولا سيما في الموقف من الأرض المحتلة ومعاهدات السلام، وهذه مجموعة من العوامل التاريخية التي تلقي بثقلها في دائرة التحولات التي يشهدها الموقف ويسجلها الوعي في هذه المرحلة التاريخية الساخنة بكل المعاني والضمائم.

وإلى جانب هذه التحولات بطابعها السياسي لا يمكن لأحد أن يتجاهل تأثير التحولات الاجتماعية والتاريخية لعصر بدأت ملامحه ترسم على صورة عولمة جديدة تطلعت لها أوهام الوجود القديم، وبدأ الكون يطل برأيه جديدة وقامة جديدة وصورة جديدة، عولمة شكلتها وتشكلها وتعيد تشكيلها طاقة عقل إنساني متفجر بالإبداع التكنولوجي والاتصالي الذي حطم كل القيود، وهجر أطر العالم القديم ووضع الإنسان في مواجهة تحديات جديدة دفعت في أعماقه روحاً جديدة مضخمة بالحرية والإباحة بلا حدود، وهذه هي الطارقات التي بدأت تشكل روحاً جديدة ووعياً جديداً يتفجر في كل شأنا وجودنا الاجتماعي والإنساني، وهنا يمكن التساؤل: اليس حرياً بنا أن نتأمل في هذه الصورة الجديدة لوعي مختلف يلمو في رحم التحولات العاصفة هذا هو السؤال العجوز الذي تثلثه الأيدي ويلو بالخطورة، وهو سؤال يتعلق بأية اتجاهات سير جديدة غير تحولية جديدة هي وأسي قديم.

وهي غمرة هذه أن تلك من التحولات العلمية والفنية تبرز إشكالية منهجية بالغة الخطورة، وهي أن الساحة الاجتماعية تلك تغلو من الدراسات التي تجعلنا على يقين من إمكان قياس درجة التحولات التي تجري في دماء العقل وفي مظاهر الوجدان السياسي والاجتماعي في مجتمعنا، الدراسات السابقة التي كان يمكن أن تجري في أزمان قديمة حول طبيعة الوعي والاتجاهات والقيم تسجل لهاها الشامل والعميق في المجتمع الكويتي والعربي إلى حد كبير.

وهي غيبة الدراسات السوسيوولوجية القديمة حول هذه القضايا يمكننا أن نسلط إلى طبيعة الرؤى العامة والأحداث التاريخية والشواهد السياسية التي عرفها المجتمع الكويتي في مرحلة الثمانينيات، ومهما يكن الأمر فإن التعرف على طبيعة الوعي السياسي لميزات من المجتمع الكويتي تفرضها الحاجة العلمية التي تلح على العقل والتي تفرضها طبيعة التطورات الاجتماعية الجارية في هذا المجتمع، أو ليس ضروريا لجيل قادم من الباحثين في المستقبل أن يجد لديه ما يحتاج ريعاً من الوثائق حول إشكالية الوعي السياسي للشباب الجامعي في مطلع القرن الحادي والعشرين.

والسؤال هنا: لماذا طلاب الجامعة هؤلاء من يعيب اليوم أن تكون الجامعة وحدها مبدئات للبحث الاجتماعي، ونحن إذ نواظف الآخرين على رأيهم مع بعض التحفظ فنقول إن الاختيار قد

وقع على الجامعة لأسباب شتى منها، أن طلاب الجامعة في الكويت يمثلون الطوائف المتنوعة في المجتمع ومثلثة المجتمع الكويتي. فجامعة الكويت هي الجامعة الوحيدة في الكويت وهي المكان الذي يشتمل على خبرة المثقفين الواعدين في مختلف جوانب الحياة الاجتماعية و السياسية. ويوصفها الجامعة الوحيدة فهي التي تشتمل على العمق الشبابي الفكري في المستقبل. والشباب الجامعي يمثل في الوقت نفسه الشباب والأفئدة والطلبة المنظمة الأكثر وعياً في المجتمع. وهذا يعني أننا عندما نتحرى وهي الشباب في الجامعة فإننا نعمل على تحليل الحاضر والمستقبل في المجتمع الكويتي. ومع ذلك كله فهذه الشريعة هي الشريحة الأكثر تنظيمًا ووعياً وتجاوباً واستعداداً للتفاعل مع القضايا الاجتماعية، وما يحترق هذه الفئة يمكنه أن يقدم تصوراً مستقبلياً للروح المستقبلية في المجتمع الكويتي.

ويبدو لنا أنه يتوجب علينا أن نعلن بصوت مرتفع أن غياب الأبحاث الاجتماعية والشريعية ونفرتها في جميع الميادين يطرح نفسه مظهرًا متقدماً من مظاهر التخلّف الاجتماعي، إن الواقع الاجتماعي الذي نعيشه مليء بالأمور والاعمال ومضامينه قد يشكل مصادر الخطأ محسنة بالمجتمع ربما تكون نتائجها أكثر تدميرًا من ثورة بركان مدمر. وهكذا يمكن أن نستجمع القول بأن صورة الوعي السياسي والفكري والاجتماعي **مطروح** نفسها وبالخاصة كقضية إشكالية في هذه المرحلة التاريخية، وإن لم يكن في مقدورنا أن نرسم مشغرات هذا الوعي وحده، فإنه حري بنا أن نقدم في البداية **قائمة إشكالية** أو استباقية لهذا الوعي، بوصفها تعبيراً حيويًا عن ضروراته التاريخية في المستوى العلمي والفكرية.

http://Archivebot.org  
أرشيف الإنترنت

تأسيساً على ما سبق يمكن القول إن ماهية الوعي السياسي الجامعي المعاصر تنهض على هيئة إشكالية سوسيولوجية تطرح نفسها بالحاج على العقل العلمي. وهي التعرف على مداخل وطبيعة هذا الوعي لتحديد إشكالية هذه الدراسة. وفي هذا العمل الإشكالي يمكن القول إن قضية التحولات في الوعي السياسي والاجتماعي للشباب قياساً على تأثير أحداث تاريخية تقع في قلب هذه الإشكالية العلمية. وفي هذا العمق تنهض قضية التحديات التاريخية التي تحيط بالوطن بأبعادها القومية والوطنية. فما طبيعة هذه التحديات، وكيف ترسم في الوعي الشبابي عند طلاب الجامعة؟ وفي مضامين هذه القضية أيضاً تتجلى قضية المعلومات كصفة جديدة من صيغ الكشف عن مضامين الوعي السياسي والاجتماعي عند طلاب الجامعة في الكويت. والسؤال الذي ينهض أمام العقل ويماكنه هو: ما سبق هذه المعلومات التي ترسم في أبعاد طبيعة سياسية واجتماعية في وهي الطلاب؟

## التعددية السياسية والاجتماعية في الكويت والوطن العربي

وهي هذا المستوى الوعظ أمام العقل منظومة من الأسئلة المنهجية الإجرائية:

1- كيف ترسم التعدديات التاريخية التي تحاصر الوجود الاجتماعي والسياسي للمجتمعات العربية في وجدان الشباب الجامعي وفي وعيهم؟

2- كيف يحدد الشباب الجامعي ويرسم هذه التعدديات في إطار المجتمع الكويتي المعاصر؟

3- كيف تأخذ الطموحات السياسية والاجتماعية تسبق وجودها في وعي الشباب الجامعي وتتصوراتها؟

4- ما تسبق الطموحات السياسية وأولوياتها فليسا إلى الطموحات الاجتماعية؟

5- ما مكان الاتجاهات القومية وتسبق أولوياتها في وجدان الشباب وعقولهم.

6- كيف ينظر الشباب الجامعي إلى القيم الاجتماعية الإيجابية في المجتمع الكويتي وكيف يحددون تسبق تدرجها وأولوياتها وتكاملها؟

7- ما القيم والمبادئ التي تجد استجوباً لوجودها من قبل الشباب الجامعي؟

8- وفي مستوى البحث عن الخلفيات الاجتماعية والثقافية لهذا الوعي فإن أسئلة جوهرية باللغة العقل والأهمية تطرح نفسها وهي: هل هناك من فروق مستوية وجوهرية في وعي الشباب السياسي والاجتماعي وفقاً لتفجيرات الجنس، والمصر، والحفاظة، والمستويات الجامعية، والاختصاصات العلمية؟

## في مفهوم الوعي والوعي السياسي

يشير إلى الوعي بوصفه حالة ذهنية تشمل في إدراك الإنسان للعالم على نحو عقلي أو وجداني. وهذا يعني أن الوعي هو الخاصة التي تتوجع للإنسان أن يمتلك شروط وجوده على نحو ذهني. وتلخصها على هذا

يتجلى الوعي الإنساني في صورتين تتباين بتباين المجال الفعلي، أو موضوع الوعي، حيث يعرف الإنسان اشكالا متنوعة من الوعي: كالتوحي الذهني والوعي السياسي والوعي العلمي والوعي الأخلاقي. ومن هذا التطلق يمكن القول إن الوعي السياسي هو الحالة التي يتمثل فيها الفرد أو أفراد المجتمع فضاء الحياة السياسية بأبعادها المختلفة ويتغلغلون من هذه القضايا موقفا معارفا ووجدانيا في الآن الواحد. فالوعي conscientious هو «شحنة عاطفية وجدانية قوية تتمكن في كثير من مظاهر السلوك لدى الفرد، ويتم تكوين الوعي من خلال مراحل العمل التربوي في مختلف مراحل التعليم. وكما كان الوعي أكثر نضجا وثباتا كان أكثر قابلية لتدعيم وتوجيه السلوك في الاتجاه المرغوب فيه»<sup>(1)</sup>. ويمكن تعريف الوعي أيضا بأنه «الإدراك والتبني والفهم للنفس والعالم الخارجي والانتماء الاجتماعي. وينتج عن التأمل للعالم الموضوعي والعمل والفعل الاجتماعي بكل أوجهه. ويؤدي الوعي إلى اتخاذ مواقف فردية وجماعية عقلية أي أن الوعي مرتبط بالسلوك. وتلعب اللغة دورا مهما في عملية الوعي، أما في علم النفس فيستلزم معنى الشعور»<sup>(2)</sup>.

أما الوعي السياسي فهو «مجموعة من القيم والاتجاهات والمبادئ السياسية التي تلجج للفرد أن يشارك مشاركة فعالة في لوضع مجتمعه ومشكلاته، يحلها ويحكم عليها ويحدد موقفه منها ويدفعه إلى التحرك من أجل تطويرها وتحسينها»<sup>(٩)</sup>.

أما الوعي القومي National Consciousness فهو «التعصب بالهوية القومية والالتزام إلى شعب أو أمة بفعل روابط الجنس والثقافة والتاريخ واللغة والمصالح والمصير المشترك، أي بفعل الإدراك والتفهم للهوية الانتماء إلى قومية واحدة، وفيل هذا الانتماء»<sup>(١٠)</sup>.

هذا ويعبر الباحثون بين نوعين من الوعي، وهي التخلف والتخلف القومي، فوعي التخلف يصدر عن بنية فكرية اجتماعية اقتصادية متخلفة، أما الوعي للتخلف فهو الوعي الذي يوجد في كل العنات للتخلف والمتخلفة على السواء فقد نجد في السويد واليابان وعما متخلفا، فهو وعي فاعل بذاته يعمل علامات المجتمع الذي احرزه ثم يطبق هذا المجتمع بطباعه، لأنه وعي فاعل يتدخل كل البنى في المجتمع»<sup>(١١)</sup>.

وهي هذا الصدد يعلن محيي الدين صبيحي أن وعي التخلف هو الوعي السائد في بلادنا، وأنه لا يمكن للإنسان العربي أن يخرج من دائرة هذا الوعي، إلا إذا استطاع أن يخرج من دائرة هذا الواقع المتخلف<sup>(١٢)</sup>. وهذا يعني أنه من أجل أن يكون العرب دور في هذا العالم لا بد من أن تكون البداية في مستوى العقل وهي مستوى الخطاب ومن خلال نسق جديد للمعرفة يستوعب التغيرات ولا يرفض القديم ولكنه لا يفرق فيه<sup>(١٣)</sup>. فكل التغيرات الإنسانية المعروفة تاريخيا بدأت بنوع من الثورة الإيستمولوجية التي غيرت من نظرة الإنسان إلى نفسه ومجتمعه وإلى العالم من حوله، سواء تلك التي أتت من النهضة الإسلامية (وهي النهضة الناجحة الوحيدة في تاريخنا) أو النهضة الأوروبية أو النهضة اليابانية، ابتدأت هذه التغيرات بثورة إيستمولوجية غيرت من العلاقة الذهنية بين الكائن والمحيط الذي يعيش فيه، فكانت النهضة والإبداع والعقل الخفايا<sup>(١٤)</sup>. لم تتم نهضة في التاريخ إلا كانت مسبقة بثورة إيستمولوجية غيرت من نسق القيم والمفاهيم والتصورات السائدة في هذه المرحلة أو في ذلك المجتمع.

## الديناميك المعاصرة

تشكل ثقافة الشباب محلا علميا متناميا ولا سيما في العقود الأخيرة من القرن العشرين. ويمكن القول إن الكتابة العربية بدأت تفتت إلى حد كبير بمعطيات الدراسات والأبحاث

الأمبيريقية حول الشباب العربي وهمومة بصورة عامة. ومع أهمية هذه المعطيات يمكن القول إن الدراسات التي كرست نفسها لدراسة الوعي الشبابي بمستوياته السياسية مازالت في باكورها الأولى ومازالت هذه القضية تحتاج إلى همم الباحثين وجهودهم.

## الدراسة السياسية والاقتصادية مع الكويت والوقت الحرج

فإن الدراسات التي حاولت أن تتقصى واقع الحياة السياسية للشباب تعاني من نقصان، إذ قلما نجد مثل هذه الدراسات لأسباب لا تغطي على الحافز. فدراسة مثل هذه القضية شتويها العذر وتتخفي مزيدا من الوضوح والإحساس بالمسؤولية في أجواء تختلف فيها الحريات العلمية والأكاديمية. ولذلك فإننا نستعرض في هذا السياق بعض الدراسات الجانبة للإشكالية بحثا وفروية من حاجته.

ولكن هذه البيل أن أغلب الدراسات الجارية في هذا المجال تأخذ التسميات مختلفة مثل: دراسة القيم والاتجاهات والبيئة الشباب ومشكلات الشباب. والطلاقا من هذا الواقع يترتب علينا أن نستعرض بعض الدراسات والأبحاث التي يمكنها أن تلقي الضوء على طبيعة المشكلة المطروحة في سياقات مختلفة.

### دراسة لبعض الدول العربية

#### الكويت

تعد الدراسة التي أجراها مكتب الإحصاء الاجتماعي في الكويت عام 1998 تحت عنوان «البناء القيمي في المجتمع»<sup>(1)</sup> بإشراف الدكتور الأمير من أهم الدراسات التي شهدتها المساحة الكويتية في مستوى الدراسات الاجتماعية والتربية في العقد الأخير من القرن العشرين. وقد أشرف على هذه الدراسة الأستاذ الدكتور سعيد اسماعيل علي وساعده عشرون باحثا وعلموا على الباحثين في المؤسسات العلمية الكويتية. ومع أن الدراسة تبحت في نسق القيم إلا أنها جازمة لتشتمل على جوانب فليهم بهذا من جوانب الوعي السياسي والاجتماعي عند الكويتيين.

شملت هذه الدراسة عينة واسعة من الطلاب والمدرسين وأولياء الأمور قدرت بـ 875 فردا. وقد تضمنت جوانب عديدة من جوانب الحياة الواعية في المجتمع الكويتي المعاصر. لقد بينت هذه الدراسة على وجه الإطلاق أن القيم الدينية تأخذ المرتبة الأولى على الإطلاق بوصفها قيمة سائدة ومرغوبة في آن واحد، ومن ثم تأتي القيم الاجتماعية لتحل المرتبة الثانية تليها القيم السياسية. أما القيم العلمية والجمالية والاقتصادية فإنها تأتي في المراتب الأخيرة في سلم القيم السائد<sup>(2)</sup>.

ويعتقدنا بعد قراءة معمقة لهذه الدراسة أن تنظيم الجدول التالي الذي يتضمن صورة شمولية لبعض جوانب الوعي السياسي والاجتماعي لبعض الأشخاص الاجتماعية الهامة في المجتمع الكويتي. وتحسن تقوم ببناء هذا الجدول وفقا لاعتبارات الدراسة الحالية<sup>(3)</sup>.

اتجاه أفراد العينة المدروسة نحو القضايا التالية:

القضية	أياء نعم %	معارضون نعم %	مؤيدين نعم %
مناخية تأييد القضية الفلسطينية	34.5	19.5	47.9
توطيد العلاقات السياسية مع العرب	20.8	72.2	64.1
توطيد العلاقات السياسية مع الغرب	57.1	12.0	29.0
رفض التعصب بمختلف أشكاله	78.0	82.8	81.2
رفض الوساطة والمصيرية	17.9	72.5	10.2
الولاءية على التمييز بين المواطنين والوافدين	11.8	76.6	29.2
التعرض على الزبي الوطني	58.2	61.1	17.2
فتح المرأة العمل الانتخابي	28.0	87.0	10.0

والجدول السابق يبين اتجاهاً من القضايا، أخصها تراجع كبير في تأييد القضية الفلسطينية، وذلك بعد غزو الكويت وما ترتب على ذلك من مواقف وأحداث سياسية. ومماثلة تقاطع اتجاه التمييز بين المواطنين والوافدين ولا سيما عند المصيرين، وتراجع الاهتمام بالزبي الوطني عند الشباب من طلاب المرحلة الثانوية، وضعف وتيرة الميل إلى فتح المرأة حقولها الانتخابية. وتجدر الإشارة في هذا المجال إلى دراسة ولید سليم التميمي حول مواقف القطاع الجامعي في الرأي العام العربي من القضية السياسية للصراع العربي الصهيوني، حيث أجريت هذه الدراسة على عينة بلغت 1200 عربي من العاملين أو الطلبة في الكويت العام 1980 وشملت 100 من المصيرين و200 من الفلسطينيين و200 من السوريين و200 من الخليج العربي. وهدفت الدراسة إلى دراسة واقع الرأي العام من القضية للصراع العربي الصهيوني (14). وقد بينت النتائج لتراجع الاهتمام بعدد التحرير الكامل التراب الأرض الفلسطينية الفلسطينية، ولا سيما عند أفراد العينة المصرية حيث بلغت نسبة الذين يؤمنون بتحرير كامل تراب الأرض المحتلة 336.2 عند المصيرين مقابل 210.9 عند السوريين، ونسبة 127.1 عند الخليجيين<sup>(15)</sup>. وفسر الباحث هذا التراجع بأمرين هما: استعمار الهزائم العربية من جهة وغياب المحرض الأيديولوجي من جهة أخرى.



## البناء المعاصرة والارتباطية مع الكويت والوطن العربي

ويشهد مبدأ استخدام القوة في استرجاع الأرض المحتلة انحصارا واضحا بين أفراد العينة ولا سيما عند أفراد العينة المصرية، أفراد 228 من المصريين بأهمية استخدام القوة في استرجاع الأرض مقابل 225.3 عند الفلسطينيين، و24.7 عند السوريين، و27.9 عند الخليجيين. وقد بينت هذه الدراسة أيضا أهمية الحضور الديني كأيديولوجية رئيسة في وعي الشباب حيث أجمع أفراد العينة على مبدأ وحدة القدس عاصمة عربية موحدة أبدية لفلسطين، وأكد أفراد العينة اعتراضا كبيرا على مبدأ الاعتراف بإسرائيل، أعلن 27.3% من أفراد العينة المصرية قبول مبدأ الاعتراف بإسرائيل، ولم يبد أي من أفراد العينة السورية والفلسطينية الموافقة على هذا المبدأ، وفي المقابل أعلن 21.7% من أفراد العينة الخليجية قبول هذا المبدأ.

وتعد دراسة إبراهيم كرم من الدراسات الحديثة التي شهدت الساحة الكويتية، وتأتي هذه الدراسة تحت عنوان: «اتجاهات طلاب المرحلة الثانوية في دولة الكويت نحو مفاهيم التعاون الخليجي والوحدة العربية والتضامن الإسلامي بعد تحرير دولة الكويت»، وقد شملت عينة قدرت بـ 100 من طلاب المرحلة الثانوية في دولة الكويت العام 1997، ومن أهم نتائج هذه الدراسة<sup>(19)</sup>:

29.0	يؤكدون على قيام كوفيد الـ 11 دول مجلس التعاون.
24.8	يوافقون على توحيد الجيش العربي تحت قيادة واحدة.
27.8	يؤكدون أهمية توحيد المناهج الدراسية.

فيما يتعلق بالوحدة العربية:

27.9	يوافقون على الوحدة العربية الشاملة.
27.8	يؤكدون أهمية التضامن العربي.
29.0	يؤيدون تدعيم العلاقات مع دول إسلامية.
29.1	يؤيدون تعزيز العلاقات الإسلامية.

وكانت الكويت أيضاً مسرحاً لدراسة أحمد البغدادي، وفلاح المديري<sup>133</sup>، دراسة تحليلية لاتجاهات الرأي العام الكويتي حول مختلف القضايا السياسية المحلية، حيث أجريت هذه الدراسة على عينة عشوائية بلغت 300 فرد من المجتمع الكويتي حيث بلغت نسبة الذكور في العينة 76.7 مقابل 23.3 من الإناث، وطبقت في المقابلات وكانت نسبة الحاصلين على شهادات عليها 72.6 من أفراد العينة، وقد نظرت الدراسة إلى موضوعات عدة تتعلق بالقضايا السياسية نظراً منها ما يتعلق ببحثنا، حيث أسفرت الدراسة عن النتائج التالية:

- 1- هل تؤيد إعطاء المرأة حق الانتخاب: أجاب 81.8 من أفراد العينة بالإيجاب بينما بلغ عدد المعارضين 18.2 من أفراد العينة.
- 2- هل تؤيد إعطاء المرأة حق الانتخاب والترشيح: أجاب 76.3 بالإيجاب مقابل 23.7 بالرفض<sup>134</sup>.

هذه الصورة السوسولوجية التي تقدمها هذه الدراسة تبين بكل وضوح أن الوعي الديمقراطي يعني إشكالية كبيرة ولا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار أن أغلب أفراد العينة يحملون شهادات جامعية وعليا.

فإعطاء المرأة حقوقها السياسية تشكل القضايا الحساسة للمسألة الديمقراطية المعاصرة في المجتمع الكويتي، ومع ذلك فإن الوعي الديمقراطي يمر بمراحل عريضة ومراحل مختلفة تواجه عدداً من التحديات الديمقراطية التي تواجه مسار نمائه وتطوره في مستوى تشكيل الوعي الديمقراطي.

تعد دراسة سعد الدين إبراهيم حول اتجاهات الرأي العام العربي نحو مسألة الوحدة العربية من الدراسات الكبرى التي أجريت في مجال الوعي السياسي الوجداني العربي عند الشباب والثقاق في الوطن العربي<sup>135</sup>.

أجريت الدراسة في العام 1996، وشملت عشرة أقطار عربية، وبلغت العينة 6667 مستفتي أغلبهم من المثقفين والبلدان التي شملتها الدراسة هي: الكويت (بلغت عينة الكويت 161 مستجوباً)، الأردن، فلسطين، لبنان، مصر، اليمن، السودان، تونس، ومن النتائج المهمة لهذه الدراسة يمكننا الإشارة إلى النتائج التالية (أخذنا بالحسبان الإشارة إلى نتائج العينة الكويتية مقابل العينة العربية برمتها وذلك للضرورة المنهجية لهذه الدراسة):

جدول توضيحي لأهم نتائج هذه الدراسة

العينة الكويتية	العينة العربية	القضايا المعالجة
208,3	208	يؤمنون بأن سكان الوطن العربي يشكلون أمة واحدة
219,3	211,3	يؤمنون بالوحدة العربية الاندماجية
209,3	209,4	يؤمنون بأهمية الاتحاد العربي الفيدرالي
28,3	219,4	يؤمنون بالتنسيق في إطار الجامعة العربية
298	288	يؤمنون بأن الدين الإسلامي منطلق للوحدة العربية
211,4	218,8	يؤمنون بأن تحرير فلسطين بالثورة العربية الشاملة
217	212,6	تحرير فلسطين يتطلب استئصال القوة العسكرية الظلمة
21,6	216,4	يؤمنون بإمكان الحل السياسي مع إسرائيل
28,4	216,11	لا مانع من التفاوض مع إسرائيل

#### الإنسان العربية القديمة :

في دراسة (جلال) إسماعيل علمي حول «الانحتراب الاجتماعي بين الشباب في مجتمع الإمارات» درس الباحث ظاهرة الانحتراب عند الشباب بوصفها حالة من حالات التوافق مع القيم الاجتماعية والمعمارية السائدة في المجتمع وصيغة من صيغ التكيف مع القيم الاجتماعية السائدة. في هذه الدراسة يبين الباحث تراجع القيم الاجتماعية التقليدية من دون وجود قيم جديدة معاصرة تقوم مقامها ، وانطلاقاً من هذه النتيجة يلبه الباحث إلى التعديلات التي تتعرض لها الثقافة العربية والمخاطر الكبرى التي يواجهها التراث الثقافي من حيث قدرته على توجيه الأفراد والجماعات وتعبود الأنماط السلوكية المناسبة (37).

وفي هذه الدراسة يبين الباحث أن بعض القيم القديمة اختفت وظهرت قيم جديدة. ومن القيم التقليدية التي انحسرت: الولاء، والانتماء الاجتماعي. أما القيم الجديدة التي ظهرت فهي الفردية والقيم المادية والصلة الشخصية والاعتماد بالذات. وقد خلق ذلك إحساساً

بالفراخ والفرحة والتعلق والاعتراف من معلمي المجتمع وقيمه ولكن هذا الاعتراز لم يصل إلى مستوى (الأتمية) أو اللامعيارية في مفهوم دور كلياتهم.

وهي الإمارات العربية المتحدة أيضا أشار إلى دراسة جمال علي سند الصودي وشعلان يوسف العيسى الموسومة «التجارب طلبة جامعة الإمارات العربية المتحدة حول أزمة الخليج»، وقد أجريت هذه الدراسة على عينة بلغت 799 طالبا وطالبة من طلاب جامعة الإمارات العربية في العام 1991. وعهدت الدراسة إلى تحليل مواقف الطلاب من أزمة الخليج وتحديد سمات الوعي المجتمعي عند الطلاب، من أهم النتائج التي وصلت إليها هذه الدراسة (131).

1- أهمية الانتماء الديني متطابقا للهوية، حيث اختار 76% من أفراد عينة الانتماء الديني مقابل 21% للانتماء العربي 20% إلى النحلة و14% إلى الخليج العربي 8.4% لمر الانتماء إلى هبة توضع الدراسة أثر أزمة الخليج أسفرت عن تراجع والتعسار المد القومي واعتزاز بهم وسماني العربية والثقافة العربية والوحدة العربية وقهرها من المفاهيم والقيم المتأسلة في الثقافة السياسية العربية (132).

وبينت الدراسة أن 9.9% يؤيدون الحركات الإسلامية في المجتمع (133).

#### فطر:

يشير إلى دراسة جبهة العيسى حول «الاشتراب بين الطلبة الجامعيين القطريين والبحريين واليهوديين» العام 1997 حيث أجريت على عينة واسعة من الطلبة المسجلين بجامعة قطر من مختلف الجنسيات العربية. تبين الباحثة أن 66% من الطلبة المذكور يشعرون بأزمة الانتماء القيمي، وأنهم غير قادرين على التكيف مع القيم الاجتماعية السائدة، وإن 57% يشعرون بأنهم لا يملكون طاقة توجيه الذات، وأن قوى خارجية تسيطر على وجودهم وقواهم (134).

#### المملكة العربية السعودية:

وقد شهد التعليم الجامعي في السعودية دراسة عند ماجد الخليلية، «التعليم الجامعي وأثره على اتجاهات طلبة جامعة الملك سعود حول بعض المفاهيم الأساسية» التي أجريت العام 1988 على عينة بلغت 200 طالبة جامعية من كليات مركز الدراسات الجامعية للبنات في جامعة الملك سعود. وقد حاولت الباحثة عبر دراستها هذه أن تدرس أثر التعليم الجامعي في بنية المفاهيم الأساسية للعباءة عند الطالبات وانتهت هذه الدراسة إلى مجموعة من النتائج الهامة أبرزها:

1- أن الجامعة تؤدي دورا بارزا تربويا متاهجيا متاهجيا يتصل بين المفاهيم والقيم والاتجاهات السلوكية نحو مختلف جوانب الحياة.

## التربية السياسية والاقتصادية لدى الشباب والطلبة العرب

٢- أن الجامعة تعزز مبدأ الثقة بالنفس والقدرة على التصريف الأمور والتصرف على المشكلات الراهنة عند الطالبات، وأنها تؤدي إلى تنمية القدرات النقدية عند الطالبات، وتؤكد لديهن التحليل بأساليب منطقية والقدرة على مواجهة مشكلات الحياة<sup>(٣٧)</sup>، وانتهت هذه الدراسة إلى أن الجامعة تلعب دوراً عظيماً في تكوين شخصية الطالب وتوسيع اهتماماتهم<sup>(٣٨)</sup>.

### الملاحظة الثانية العالمية:

تجدر الإشارة إلى دراسة أحمد جمال طاهر حول: «التجاهات التشبُّه السياسية والاجتماعية في المجتمع الأردني» وهي دراسة ميدانية أجريت على عينة واسعة من طلبة مدارس منطقة شمال الأردن. وهدفت إلى دراسة منظومة القيم الاجتماعية والسياسية التي تتركسها اتجاهات التشبُّه الاجتماعية. بينت هذه الدراسة أن القيم السلبية هي: الولاء للعائلة أولاً، ثم الدين ثانياً، فالقومية في المرتبة الثالثة، وثالثي الدولة في المرتبة الرابعة، وقد أجمع أفراد العينة على أن الأمة العربية تشكل أمة واحدة بسبب اللغة العربية، وقد أجمع أفراد العينة تقريباً على فضيل العائلة على الأرض، وأن فقدان الأرض خبر من فقدان أحد أعضاء الجسم، ولكلهم ينضلون فدان الوالدين من دون أن يفقدوا الأرض<sup>(٣٩)</sup>.

### الخلاصة:

يشار بالتناوب إلى الدراسة القيمة أيضاً التي أجراها هوجانيل وديع سليمان حول: «التوجهات السياسية لدى الشباب التونسي» في العام ١٩٩٨<sup>(٤٠)</sup> وهي دراسة مسحية أجريت على عينات واسعة من الشباب التونسي من الجنسين، الذين تتراوح أعمارهم بين ٩ سنوات و١٦ سنة، وقد تناولت الدراسة مختلف مظاهر المجتمع. وشمل البحث عينة بلغت ١٦٦٨ طالباً (٥٧٪ ذكور و٤٦٪ إناث). ومن النتائج التي أجعلها هذه الدراسة يمكن الإشارة إلى ما يلي:

بينت الدراسة أن ٥٨.٦٪ من أفراد العينة أظفوا أن إسرائيل هي البلد الذي لا يعبونه فيها الولايات المتحدة الأمريكية بنسبة ٢٠.٢٪ (سليمان ١٩٩٢)، وقد أبدى ٢٧٪ من أفراد العينة أهمية القيمة الدينية حيث أظفوا حبهم للبلدان المسلمة والمقابل الطن ٦٨.٦٪ من أفراد العينة أنهم يكرهون البلدان غير المسلمة، وأعرب ٢٧.٩٪ منهم عن كراهيتهم الدول العداوية للمغرب والمسلمين. وقد بينت هذه الدراسة أهمية القيم العائلية بين الشباب التونسي حيث أبدى ٨٢.٧٪ أن أسوأ خطأ يرتكب هو عصيان الوالدين، وهذا يعني أن الرابطة العائلية قوية جداً. ويؤمن الشباب التونسي بدرجة عالية بأهمية قيمة الطاعة وخاصة طاعة الوالدين. ولأخذ قيمة العمل أهمية كبرى هي تسبق القيم هي ثقافة الشباب، إذ يعلن ٤٧٪ من أفراد العينة أن الوطن الأفضل هو الذي يعمل بجد، ويليه الشخص الذي يصلي بانتظام، وتبين الدراسة إضافة إلى ذلك أهمية قيمة التعليم والأمن والنظام.

ومن الدراسات المهمة في تونس أيضا البرز دراسة هيد القطيف الحناشي<sup>(٣١)</sup> التي أجريت على هيئة بلغت ٨٠ عاملا من أصل مجتمع قدره ٩٠٠ عامل، واعتمدت الدراسة على المقابلة الشخصية. وأجريت في الفترة الزمنية التي تمتد من شهر أكتوبر من العام ١٩٨٨ حتى مايو ١٩٨٩ في تونس، وهدفت إلى استطلاع مواقف العمال من الوحدة العربية.

ولشهر تتلخ هذه الدراسة إلى أن العمال ينظرون إلى الوحدة بوصفها ضرورية، ولكنهم يخطئون حول مبرراتها، حيث يرى ١٢. ٢٦ أن التحديات الخارجية المتمثلة في الكيان الصهيوني والإمبريالية هي العامل الأساسي لمطالبة الوحدوي. ضروب التفاعل التوحي العراقي عام ١٩٨١، واحتلال الجنوب اللبناني ١٩٨٨، واحتلال العاصمة بيروت ١٩٨٢، وضرب مصر قيادة التحرير الفلسطينية في تونس ١٩٨٥، وهذه العمليات كانت نتاجا للتخالف مع القوى الإمبريالية العاتية. ويعتقد ٥٩. ٢٦ من أفراد العينة أن مبررات الوحدة تعود إلى أسباب تتعلق بالتحديات الداخلية مثل التخلف الاقتصادي والتبعية والديونية والبطالة، وبالإضافة إلى بروز المشاكل العنصرية والأقليات في بعض الأقطار العربية. ويرى ٢. ٢٦ أن دواعي الوحدة تكون لأسباب تاريخية، هذا وقد أعلن أكثرية أفراد العينة أن الوحدة تعمل على حماية الأمن القومي ومواجهة الصهيونية والإمبريالية وتأمين البنية الاقتصادية وأهم القضايا التي درست كانت حول ماهية الوحدة، حيث أعطى ٧٥. ٦٨ للوحدة طابعا إسلاميا عربيا، بينما يرى ٢٥. ٢٦ أن الوحدة يجب أن تكون على أساس خليتي في حين اعتبر ٦. ٢٦ أنه لا حاجة للوحدة غير الإسلام، وقد أعلن ٥٥ أن هوية الوحدة تقتصر على فكرة الوحدة بشكلها التقليدي<sup>(٣٢)</sup>.

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

الكتاب:

برز دراسة محمد إبراهيم كاظم حول: تطورات في فهم الطلبة المصريين بين العامين ١٩٥٧ و ١٩٦٢. وقد هدفت هذه الدراسة إلى تحديد القيم المائدة لدى طلاب المراحل النهائية من السلم التعليمي وتطورها خلال خمس سنوات من العام ١٩٥٧ إلى العام ١٩٦٢. وأجريت البحث على عينة تتكون من ١٠ طالبا من طلاب المبتدئين الأحياء في الجامعة، وبيئت الدراسة أن هناك تغيرا في اتجاهات القسم بين المرحلتين، وذلك لمصلحة فهم الأمن. وانخفضت اتجاهات القيم الذاتية والجماعية والزوجية<sup>(٣٣)</sup>.

ومن الدراسات العلمية هذه التي قام بها مكتب اليونسكو العام ١٩٨١ بشار إلى الدراسة الاستطلاعية لراي الشباب العلمي، وذلك لمعرفة فهمهم وانظماهم ومخاوفهم، حيث أرسلت الاستبيانات الخاصة بذلك إلى أندية اليونسكو في اتحاد مختلفة من المعلم وإلى المنظمات الدولية، ولققت إدارة البحوث ١٢٥٠ استبانة معلومة من ١١ دولة بينها ثلاث دول عربية هي مصر وليبنان وتونس. وقد بين البحث أن مشاكل العرب والمسلم تستقطب اهتمام غالبية الشباب في العالم، وترتبط هذه المسألة بالمشكلات الثقافية القضاء على الجوع، وإسقية الأسلحة النووية، والقضاء على التمييز العنصري، وتقديم المساعدات إلى الدول النامية<sup>(٣٤)</sup>.

## الدراسات السياسية والاجتماعية مع الكويت والوطن العربي

وفي جمهورية مصر العربية يمكن الإشارة أيضا إلى دراسة محمد عبد الحليم طنطاوي التي أجريت عام 1991 حول طبيعة الوعي السياسي عند طلاب جامعة الزقازيق. وقد هدفت الدراسة إلى التعرف على درجة الوعي السياسي للطلاب الجامعي، ومدى فهمه لواقع الحياة الاجتماعية والسياسية. وقد شملت الدراسة عينة بلغت 820 طالبا وطالبة من جامعة الزقازيق، وبينت الدراسة النتائج التالية:

- انخفاض درجة وعي الطلاب بالأمور والقضايا السياسية في المجتمع.
- ارتفاع درجة وعي الطلاب بأهمية المشاركة السياسية.
- انخفاض درجة وعي الطلاب بالقضايا والأمور الاقتصادية في المجتمع.
- ارتفاع درجة وعي الطلاب بالأمور والقضايا الاجتماعية في المجتمع.
- ارتفاع درجة وعي الطلاب ببعض القضايا والأمور العربية. وعلاقة مصر بالدول العربية.
- لا توجد فروق في درجة الوعي بين الطلاب والطالبات في المجالات السابقة.

### مصر:

لقد الدراسة التي أجراها الباحث<sup>(3)</sup> في سوريا حول: الأبعاد القومية والاجتماعية لتطموحات السياسية لدى عينة من طلاب جامعة دمشق، عام 1997 من الدراسات الحديثة والتهمة أيضا في سياق البحث في ماهية الوعي الطلابي بالقضايا السياسية والاجتماعية. فالدراسة تعالج الوعي الاجتماعي والفرعي عند الطلاب، أفراد العينة. وقد أجريت الدراسة في سوريا في جامعة دمشق في بداية العام الدراسي 1998 على عينة من الطلاب الجامعيين بلغت 222 طالبا وطالبة. وقد صممت استبانة لهذا الغرض قادرة على تحديد الملامح الأساسية لاتجاهات الطلاب نحو القضايا السياسية الفرعية والاجتماعية. وقد نهجت الدراسة منهج البحث الوصفي ووظفت إمكانيات الإحصاء التحليلي لدراسة أوجه التباين بين متغيرات الدراسة المختلفة.

ويطلق البحث للإجابة عن مجموعة من الأسئلة المنهجية التي تتمثل بواقع الاتجاهات السياسية عند الطلاب، ومن أهم الجوانب التي تطرقت إليها الدراسة يمكن الإشارة إلى ما يلي: هدفت الدراسة على رصد مدى حضور العناصر القومية في وعي الشباب الجامعي، وبينت بالتالي أن الشعور القومي بأبعاده المختلفة مازال جارفا في مختلف مستوياته. وقد هدفت الدراسة على تحديد سلم أولويات القيم والتطموحات السياسية السائدة اليوم عند الشباب المستقنين، وبينت أن تسلسل القيم يأخذ التسوق التالي:

النظام العربي، العدالة الاجتماعية، هكرامة الإنسان وحقوقه. ومن ثم الوحدة العربية، وإعادة الأرض الفقدية، وتحسين الشروط الاجتماعية لحيات المواطنين. وبالتالي تحقيق التقدم الاجتماعي وأخيرا تحقيق السلام العادل في المنطقة.

ومن أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة هي: أن البعد الاجتماعي يأخذ أهمية أكبر من البعد القومي في اهتمامات الشباب والباحثين. وبينت الدراسة أن المفاهيم الجديدة، ولا سيما السلام العادل في الطفلة، ما زالت تأخذ مكاناً في أسفل السلم القيمي للشباب. كما اتضح أن عامل الجنس يمارس دوراً جوهرياً في تحديد نسق الطموحات والقيم عند الشباب. وتبين أيضاً أن الاختصاص العلمي يلعب دوراً جوهرياً في التأثير في نسق الطموحات السياسية بأبعادها القومية والاجتماعية. واتضح أيضاً تأثير عامل الاختصاص، فطلاب العلوم الإنسانية أكثر ميلاً إلى تحقيق الطموحات الاجتماعية قياساً إلى الطموحات القومية. وبين التحليل غياب تأثير متغير الريف والمدينة في بنية الطموحات السياسية والاجتماعية عند طلاب الجامعة.

ومن الأفكار المهمة التي تجلبها هذه الدراسة العلاقة الجوهرية بين الظروف الاجتماعية للطلاب وتوجهاتهم القومية. لقد دعا واضعنا أن الوضع الاجتماعي المترجع يؤدي إلى غلبة الطموحات الاجتماعية على القومية.

يمكن الإشارة إلى الدراسة المهمة التي أجراها ميمنان أبو عيشة في عام ١٩٦٨ لقيم الطلبة في جامعات الجمهورية العربية السورية والتي هدفت إلى الكشف عن القيم السائدة عند طلاب الجامعة في سوريا سابقاً إلى استطلاع القيم التالية: النظرية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. تناولت هذه الدراسة قيمة فاضلت ٦٤ طلبة و ٧٢ طالبة. وبينت الدراسة أن الطلبة السوريين يعولون إلى القيم المثالية حسب الترتيب التالي: القيم النظرية، والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، ثم الدينية، وأخيراً الجمالية. وبينت الفارقة التي أجراها الباحث أن المثاليات يشغلن القيم الجمالية والاجتماعية والدينية، بينما يشغل الطلبة القيم النظرية والاقتصادية والسياسية<sup>(٣٠)</sup>.

وقد أجرت الدكتوراة ملكة أبض ثلاث دراسات تناولت فيها مسألة القيم عند الشباب الجامعي، ويمكن عرض هذه الدراسات المهمة كما يلي:

الدراسة الأولى: قيم الشباب التي أجريت في العام ١٩٦٧ على عينة من طلاب جامعة دمشق بلغت ٣٦٥ طالباً وطالبة من مختلف السنوات الدراسية. وهدفت الدراسة إلى استطلاع الجوانب الاجتماعية التي تتعلق بالقيم، حيث جاءت قيمة الحق في مطلع سلم القيم الذي يتعلق بمصدر الرضا في الحياة، لكنها الأسيرة، القومية، والوطنية، والإنسانية، وأخيراً الترويح<sup>(٣١)</sup>.

الدراسة الثانية: أجرتها الباحثة بطوان أهداف الشريعة عام ١٩٧٠ على عينة واسعة من الطلاب بلغت ٢٠٥ من طلاب معهد إعداد المربين في دمشق الذين تتراوح أعمارهم بين ١٧ و ٢٢ سنة. وبينت نتائج هذه الدراسة أن الشباب يعولون على تحقيق الوحدة العربية من أجل



## الشباب السياسية ولا تعاريفهم الذكورية والوطنية العربية

تحقيق التهميش الحضاري في المستقبل، يلي ذلك الاشتراكية، وعلى التوالي التقدم العلمي ثم الحرية، والتحرر، والتنمية الاقتصادي، والقوة العسكرية، وأخيرا العمل الفدائي. وبينت هذه الدراسة أن الشباب ينتمون بالأخلاق والتعادات الأصيلة في التراث العربي ثم بالعلوم، على التوالي، بالأدب والفنون، وأخيرا بالأسلح العربي. أما الأخلاق والتعادات التي يتسمك بها أفراد العينة فتتسلسل كالتالي: المشجاعة، الكرم، المروءة، طلب العلم، الأمانة والإخلاص والصدق، العدل والمساواة والاشتراكية، والوفاء، والتعاون، الجهاد في سبيل الوطن، الشورى، الافتتاح الحضاري، الإيثار، الروابط العائلية، وأخيرا التواضع.

وعلى خلاف ذلك فإن القيم التي يرفضها الشباب تأخذ الاتجاه التالي: عبودية المرأة، التعادات القديمة والدع، التعصب الديني والطائفي، العصبية القبلية (الثر)، تعدد الزوجات، الطلاق واليهود... إلخ (أبيض ملكة، ١٩٨٤).

الدراسة الثالثة، أجرتها الباحثة في العام ١٩٨٦، وهدفت إلى المقارنة بين طلاب هذه المرحلة والدراسة التي أجرتها عام ١٩٦٧، وهي بعنوان «قيم الشباب أيضا». وتناولت الباحثة عينة بلغت ٢١٥ طالبا وطالبة من طلاب جامعة دمشق. ومن النتائج التي تبينها هذه الدراسة تراجع قيمة القومية وذلك بالمقاييس إلى دراسة ١٩٦٧. ففي الدراسة الأولى كانت المهنة ثم الأسرة فالقومية هي مصادر الرضا الثلاثة الأولى ولكن ذلك النسق يأخذ المهنة طابعا طائفا

فالأسرة في الدراسة الثانية.

لذلك:

وتختص الموقف العلمي في هذا السياق أن يشار إلى الدراسة المهمة لنزار إبراهيم بعنوان «البنس الاعتقادية في الذهنية الشبابية العربية المتقدمة»، حيث تناول الباحثة مهنة واسعة من الشباب العربي وهدفت دراسته إلى تقصي الوعي السياسي بمختلف تجلياته الاجتماعية والدينية والقومية. وقد بينت هذه الدراسة أولوية الانتماء الضيق عند الشباب العربي حيث أخذت الانتماءات إلى العائلة والقبيلة أهمية وأولوية على الانتماء الوطني والقومي<sup>(٢٦)</sup>.

وهي هذا السلوك يمكن الإشارة إلى دراسة لاحقة للباحث نفسه<sup>(٢٧)</sup> حول: «الوعي السياسي لدى الشباب العربي المتقدم». وقد أجريت الدراسة على عينة من الشباب المثقف (الباحث لا يحدد التاريخ أو حدود الدراسة). وبينت الدراسة أن ٤٢٧ من الشباب يعطون الاشتراكية العربية الأولى فيها التوحدة بنسبة ٤٢٢، أما الأممية فمنحت أخيرا وفي نهاية السلم الاجتماعي.

وقد حرك أفراد العينة الأنظمة العربية مسئولية ضياع فلسطين بنسبة ١٢٢، وأعطى ٢٨٩ أنهم يرفضون إجراء مصالحة مع إسرائيل، كما أن ٢٩٠ منهم يارضون زيارة السادات إلى الكيان الصهيوني، ورفض ٢٩١ من أفراد العينة شعار «وعي اليهود في البحر». وأعرب ٢٦٩ من أفراد العينة عن اهتمامهم فقط بأمورهم الذاتية، وأنهم لا علاقة لهم بقضايا الأيديولوجيا

والسياسة والأحزاب. بينما عارض ذلك 76%، معتبرين أنهم معنيون بكل أمور المجتمع والوطن، وإن فضاهم الذاتية هي جزء من تلك القضايا.

### نتائج تحليل البيانات الخاصة :

- تبين القراءة الشديدة للدراسات العربية السابقة مجموعة من النقاط المهمة وهي :
- تراجع خصوصية النزعة القومية في بنية الوعي السياسي العربي.
- الحضور المتقدم للانتماء الإسلامي وتنامي أهميته في بنية هذا الوعي.
- ضعف وثيرة الانتماء الوطني والديني، لا سيما في بلدان الخليج العربي.
- حضور قيم الانتماء القبلي في نسق المفاهيم والتصورات السياسية السائدة في بنية الوعي السياسي.
- تنامي الإحساس بأهمية الانتماء الإقليمي، ولا سيما في منطقة الخليج العربي.
- تنامي الوعي الاجتماعي وتقدمه فيما يتعلق بجوانب الحياة الاجتماعية، ولا سيما الحياة الديموقراطية وحقوق الإنسان.
- تزايد وثيرة القبول للتحول السلمية والتطبيع مع العدو الصهيوني عند شرائح محددة من الشباب والمتفحيز العرب.
- أن الشباب والمتفحيز يمتلكون صورة مثقفة للتحديات التي تواجه مجتمع بلدانهم ويعلمون أهمية التكيف مع التغيرات العربية والإسلامية في مواجهة هذه التحديات المعاصرة.

### خاتمة الدراسة وأداتها

تجري الدراسة وفقا لنهج البحث الوصفي بما يشتمل عليه هذا النهج من خطوات علمية ومنهجية. ولقي عن البيان أن هذا النهج يستجيب لطبيعة القضية المطروحة التي تحتاج إلى خطة ميدانية يتم وفقا لها تحديد الفرضيات، ويمكن من اختبار الفرضيات والاستقالات وفقا لمعطيات البحث وعلى أساس الاختبارات الإحصائية القادرة على الفصل بين مختلف الجوانب الإشكالية للقضية المدروسة.

أعدت استبانة البحث بناء على عدد من القرارات المنهجية حول مواقف الشباب واتجاهاتهم نحو قضايا الحياة السياسية والاجتماعية في المجتمعات العربية المعاصرة، وتتصف أداة الدراسة الحالية بطابع شعولي فهي تظمن قضايا متنوعة تتصل بمضامين الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية للشباب<sup>(1)</sup>.

أشتملت الأداة (استبانة البحث) على صحيفة المعلومات الأساسية، وعلى عدد من الأسئلة الأساسية المتعلقة بمواقف الطلاب السياسية ومضامين وعيهم الاجتماعي. لقد طُلب من

## التكثيف السياسي والارتباطية مع الكويت والوطن العربي

الشباب، وغير سؤال مفتوح، تحديد أهم التحديات السياسية والاجتماعية التي يواجهها المجتمع العربي المعاصر، ومن ثم طلب منهم ترتيب بعض المقصوعات السياسية والاجتماعية في نسق هرمي يتشكل من ثمانية مقصوعات قومية واجتماعية. ويضاف إلى ذلك أن الاستبانة، قد تضمنت سؤالين مفتوحين حول العادات والقيم الإيجابية السائدة في المجتمع الكويتي من جهة، ومن ثم تحديد العادات والقيم السلبية السائدة في هذا المجتمع من جهة أخرى.

### صحة الأدلة وثباتها Validity and Reliability of the scale

حسب المصدق الخارجي وفقاً لأراء عدد من المحكمين في كلية التربية وهي كلية الآداب قسم علم الاجتماع في جامعة الكويت وبعض الزملاء في جامعات عربية أخرى، وثباتاً وفقاً للملاحظات التي أبدتها السادة المحكمون<sup>(11)</sup>.

ومن ثم حسب صدق المضمون أو صدق المحتوى Content validity وفقاً لمصفوفة الارتباط والاتساق الداخلي للقرارات التي تتعلق بنسق المقصوعات السياسية، وقد بينت مصفوفة الارتباط الخاصة بالأداة أن الارتباط بين مختلف العبارات دال بصورة كافية ٠.٨٠، واتضح أن الارتباط قد تحقق في مستوى ٠.٠١ بصورة كافية، وهذه النتيجة تدل على درجة عالية من صدق الاتساق الداخلي لنموذج المقياس.

وفيما يتعلق بثبات الأدلة Reliability of the scale حسب معامل الثبات وفقاً لمعادلة كرونباخ ألفا Cronbach Alpha لمقياس الثبات، وبعد هذه الطريقة هي الأفضل والأكثر شيوعاً لحساب الثبات (Nugrady 1978)<sup>(12)</sup> ويعرف معامل الثبات

$$\alpha = \frac{n}{(n-1)} \left( 1 - \frac{\text{مجموع } x^2}{n^2} \right)$$

وقد بلغ معامل الثبات للأداة فيما يتعلق بنسق المقصوعات ٠.8١5، وهذه النتيجة تشير إلى معامل ثبات عالٍ مناسب.

### هيئة البحث

بدأت إجراءات الدراسة في عام ١٩٩٩، واختيرت عينة البحث وفقاً للتوجيه العينة بالعنصر، وتعد هذه العينة مناسبة جداً لأغراض البحث الحالي، حيث روعي في هذه العينة أن تشمل أغلب الطبقات الجامعية<sup>(13)</sup>. ومن أجل ضمان قدرة هذه العينة على تمثيل المجتمع الإحصائي المدروس أخذ على أهمية حجم العينة، حيث بلغت ٧١٤ طالباً وطالبة، وفي هذا الصدد تؤكد الأبحاث الإحصائية أنه كلما ازداد حجم العينة قل الخطأ المعياري للمعطاة وازدادت قدرتها على تمثيل المجتمع المدروس. ويضاف إلى ذلك أن العينة التي نحن بصددنا تتجاسس، إلى حد كبير مع خصائص المجتمع الجامعي المدروس.

حيث بلغ متوسط أعمار أفراد العينة ١٥، ٢٠، والوسط ٢٠ عاماً، بينما بلغ للذكور ١٩ عاماً، وهذه هي تقريباً مواصفات المجتمع الأصلي للعينة (جدول رقم ١). وقد بلغ عدد الذكور ٢٧٧ طالباً بنسبة ٦١، ٦٪، وبلغ عدد الطالبات ١٦٩ طالبة بنسبة ٣٨، ٤٪ (انظر الجدول رقم ٢).

جدول رقم ١: التوافقات والخصائص الإحصائية لعينة البحث			
الطلاب العمرية لأفراد العينة	الذكور	نسبة مئوية	نسبة مئوية تركيبة
١٨	١٧٧	١٦، ١	١٦، ١
١٩	١٧٢	٢١، ٢	٢١، ٠
٢٠	١٥٥	٢٦، ٦	٢٦، ٢
٢١	٩٧	٢٢، ٦	٢٦، ١
٢٢	٨٥	١٩، ٩	٢٨، ١
٢٣	٨٢	١٩، ٥	٣٠، ٠
المجموع	٧٠٨	٩٩، ٢	
الخصائص الإحصائية للعينة	متوسط	وسيط	متوال
	٢٠، ١١٦٧	٢٠	١٩

الجدول رقم ٢: توزيع أفراد العينة وفقاً للتوزيع الجنسي والكلية			
الكلية	الذكور	الإناث	المجموع
حقوق وتجارة	عدد	٢٧	٢٩
	نسبة	٢١٩، ٥	٢٩، ٢
علوم	عدد	٥٢	١٧٨
	نسبة	٢٧٨، ٨	٢٩١، ٩
هندسة	عدد	٨٧	١٩٨
	نسبة	٢٩٩، ٢	٢٧٦، ٥
طب وصيدلة	عدد	٢٦	٧٧
	نسبة	٢٨، ٨	٢٩، ١
تربية وأداب وشريعة	عدد	٩٥	٢٨٥
	نسبة	٢٢١، ٦	٢٧٩، ٩
المجموع	عدد	٢٩٥	٢١٧
	نسبة	١٠٠	١٠٠

### نتائج الدراسة :

أولاً : التحديات السياسية والاجتماعية التي يواجهها المجتمع العربي المعاصر هي معرض الإجابة عن السؤال المطروح حول أهم التحديات السياسية والاجتماعية والتي يواجهها المجتمع العربي المعاصر يمكن للمستفتي أن يقدم أربع إجابات تمثل أربعة تحديات. وقد صُنفت هذه التحديات في الجدول رقم (٣) :

الجدول رقم ( ٣ )			
السؤال ١: التحديات السياسية والاجتماعية التي يواجهها المجتمع العربي المعاصر وفقاً لتغير الجنس			
	التحديات التي أختارها أفراد العينة	ذكور %	إناث %
١	التقليد الأعمى للغرب وضيق الهوية العربية الإسلامية	٦١,٧	٦٦,٢
٢	تهريب الديموقراطية وحقوق الإنسان في الوطن العربي	٦٩,٨	٦٩,١
٣	تحقيق الوحدة العربية الإسلامية	٦٩,٠	٦٨,٠
٤	الاحتلال الإسرائيلي للأرض العربية	٦١,٩	٩,٦
٥	تحقيق السلام العادل في المنطقة	٤١,٤	٦٠,٢
٦	الملاحق والمتكبد الأسرى	٢,٧	٦,٤
٧	التخلف التكنولوجي والعلمي والاقتصادي	٢,٨	٢,٢
٨	التعصب والتمييز والعنصرية	٢,٢	٢,٨
٩	المطهرات والتعريف الشباب	٢,٩	٢,٠
١٠	التطرف والإرهاب السياسي والفكري	٢,٠	٢,٧
١١	الاعتداءات الإسرائيلية على جنوب لبنان	٢,٢	١,٧
١٢	قتلة الأسرى والفلسطينيين الكويتيين	٦,٢	٢,٢
المجموع	Z	١٠٠	١٠٠
	تكرارات	٨٦٠	١١٨٨

الخطيئة كـ (Chi-Square Test) لفحص الفروق الإحصائية			
القيمة	درجة الحرية	قيمة كـ	
Asymp. Sig. (2-sided)	Df	Value	
دالة هي مستوى ٠.٠	١١	٩٢.٩٢٠	Pearson chi-Square

لقد حدد الشباب أفراد العينة اثني عشر تحدياً رئيساً تواجه المجتمع العربي المعاصر. وفي طليعة هذه التحديات يعان الشباب بأن الهوية العربية الإسلامية هي خطر وأن التقليد للغرب والشعبي فيه يضع العرب والمسلمين على شفا هابطة خطيرة. حيث بلغت تكرارات هذا التحدي ٩٢.٩، وبلي ذلك مباشرة غياب الديمقراطية، وحقوق الإنسان في الوطن العربي ١٩.٥٪ من التكرارات. ومن نتائج فترات الجدول نجد أن أفراد العينة استطاعوا تشخيص الواقع الاجتماعي تحدياته المختلفة التي تمثل في التعصب والعنف والإرهاب وغياب الديمقراطية والتخلف العلمي والتكنولوجي. وهذا يعني أن وفي الطلاب يتميز بقدرة عالية على تحديد المشكلات الحقيقية التي تواجه المجتمعات العربية المعاصرة. وفي هذا السياق يجب أن نلاحظ أيضاً أن أفراد العينة لا يفرقون بين التحديين الأول والثاني، ولتفهم الإسلام، فأغلب الطلاب يراوون بين هذين المفهومين. وفي هذا الصدد نلاحظ أن من المفاهيم في الرؤية العلمية تقضية العلاقة بين الدين والقومية، ونحن نعتقد في هذا الصدد أن هذه المفاهيم تعود إلى تعرض الطلاب لبرامج فكرية تحاول تجاوز البعد القومي العربي للتقضايا العربية ذات الطابع القومي.

وبعد الإشارة بين إجابات أفراد العينة وفقاً لتغير الجنس تبين وجود فروق دالة. هناك فروق إحصائية بين الذكور والإناث، فالإناث يعطين أهمية أكبر لمسألة السلام العادل في المنطقة ٧٩.٧ مقابل ٦٥.٤ عند الذكور. وهذا يتسبب أيضاً على قضية التفكك الأسري والطلاق، حيث تبدي الإناث لهذه القضية درجة أكبر من الذكور ٦٦.٥ مقابل ٥٧.٧. وفي مستوى الفارقة بين إجابات الطلاب وفقاً لمتغيرات المحافظة وثقافة الأبنين تبين أيضاً مسألة الفروق المئوية بين إجابات الطلاب. وهذا يعني بصورة إحصائية أن إجابات الطلاب متجانسة حول مسألة التحديات السياسية والاجتماعية التي تواجه المجتمعات العربية كما هي معلقة في الجدول رقم (١).

ومن أجل بناء تصور آخر يتكامل مع التصور الأول حول التحديات التي يواجهها المجتمع العربي المعاصر طلبنا من أفراد العينة في سؤال مفتوح آخر تحديد أربعة من التحديات

## البيئة الاجتماعية والاقتصادية في الكويت والوطن العربي

الاجتماعية التي يواجهها المجتمع الكويتي المعاصر بخاصة. وهذا السؤال يأخذ بعين الاعتبار الأوضاع الاجتماعية السلبية التي يواجهها المجتمع الكويتي، وبغلت الظروف التي أفلتها الطلاب 2209 مقدرات، صلت في الجدول رقم (3) وفقا لمعيار النسب المئوية.

### السؤال 4: التحديات الاجتماعية في المجتمع الكويتي وفقا لتغير الجنس

المجموع	إناث	ذكور		
27.9	27.1	27.7	حب الظهور والترف والإسراف	1
27.6	27.0	27.9	التعصب القبلي والاجتماعي والقطري	2
27.1	27.0	27.0	الوساطة والرشوة والمصوبية	3
27.4	28.6	27.7	التفرد الأعمى	4
28.9	28.6	27.7	الزواج المبكر	5
28.1	27.7	28.0	الفساد الاجتماعي، الفساد، الطلاق، التهمة وفقدان الأمان	6
27.4	28.0	27.6	الاغلاقات مع الجنس	7
27.4	27.1	27.7	البريات الأجنبية، والنظم	8
27.7	27.1	27.1	الطلاق والتفكك الأسري	9
27.1	27.9	27.7	فقدان المهور	10
27.4	27.7	27.7	النظرة الدولية للمرأة	11
27.7	27.7	27.0	غياب الإحساس بالمسؤولية عند المواطن	12
27.1	27.7	27.7	الزواج من غير الكويتيات	13
27.7	27.0	27.4	المخدرات والتمور والتمتعين	14
27.9	27.1	27.4	تكرارات	المجموع
27.9	27.1	27.4	لا	

والجدول السابق واضح بذاته حيث رُصد 14 محوراً من محاور التبعيات الاجتماعية المعاصرة. ويتضح من الجدول عمق إحساس الطلاب بالمشكلات والتبعيات الاجتماعية التي يواجهها المجتمع الكويتي والتحديات بصورة عامة. فالأدبيات الاجتماعية تؤكد، وبصورة دائمة، عمق المعاناة الناجمة عن البذخ والإسراف وسحب الطاعن، حيث احتل هذا التحدي صدارة التبعيات، ثم تلاه تحدي التعمصب الذي يعد أخطبوط المخاطر التي تهدد الوجود العربي الإسلامي. وفي المرتبة الثالثة جاء خطر الوساطة والرشوة والمحسوبية التي تلحق الوجود العربي الاجتماعي. وبصورة عامة يمكن القول إن الصورة التي قدمها الطلاب للواقع الاجتماعي تقترب إلى حد كبير من الصورة التي تقدمها التصورات السوسولوجية في المنطقة العربية.

وتجدر الإشارة بين اتجاهات الجنسين، فيما يتعلق بالتبعيات الاجتماعية في الكويت. وجود فروق دالة إحصائية بين الطرفين، كما يستدل من ذلك الاختبار TKS الذي يؤكد هذه الفروق على النحو الذي رسم له في الجدول التالي رقم (5).

جدول رقم (5) اختبار TKS الدلالة الفروق الإحصائية بين الجنسين			
Asymp. Sig. (2-sided) الدلالة	De ج	Value قيمة TKS	Pearson Chi-Square
.	١٢	٨٩,٤٦٩	TKS

ومن أجل تحديد جوانب هذه الفروق الإحصائية يمكن العودة إلى الجدول (4)، حيث نلاحظ هذه الفروق فيما يتعلق بالزواج المبكر، إذ تمصورت 8.6٪ من إجابات الإناث حول أهمية هذه المشكلة الاجتماعية مقابل نسبة مئوية متدنية عند الذكور بلغت 2.٦٪. وهذا يعني أن الإناث يتحسسن مشكلة الزواج المبكر بدرجة أكبر من الذكور. ومن جهة أخرى يشار إلى الفروق الخاصة بالفساد الاجتماعي حيث يتحسسن الذكور هذه القضية بدرجة أكبر من الإناث: ٨.٨٪ للذكور مقابل 2.٦٪ عند الإناث.

وتأخذ هذه الفروق مداها أيضاً في مختلف القطاعات التي تخص الجنسين ولا سيما فيما يتعلق بغلاء المهور حيث يتحسسن الذكور هذه المشكلة بدرجة أكبر من الإناث: 11.٢٪ للذكور مقابل 2.٦٪ للإناث. وهنما يتعلق بالنظرة الدونية للمرأة حيث تتحسسن المرأة هذه المشكلة بدرجة أكبر من الذكور 2.٧٪ عند الإناث مقابل 11.٢٪ عند الذكور. وقد يجن بعد إجراء



## الدراسة التجريبية والاجتماعية في الكويت والنظرة العربية

اختبار  $\chi^2$  للفروق بين إجابات الطلاب وفقاً لمعتبر المحافظات غياب الفروق الدالة إحصائياً بين إجابات الطلاب. كما هو موضح في الجدول رقم (٦):

جدول رقم ٦: اختبار $\chi^2$ مربع لدلالة الفروق الإحصائية			
Asymp. Sig. (2-sided) الدلالة	Df ج. د.	Value قيمة $\chi^2$	Pearson Chi-Square  $\chi^2$
٠,١٦٦	٥٢	(a) ٦١,٧٨٢	

### الجوانب الإيجابية للحياة الاجتماعية في الكويت:

لكي لا تكون رؤيتنا للواقع العربي قائمة جداً، ولكي لا نتغلق رؤيتنا في الجانب الأسود من الواقع العربي طلبنا من الطلاب أفراد العينة أن يرسموا لنا أهم الجوانب الإيجابية في الحياة الاجتماعية العربية. ففي السؤال الثالث المفتوح طلب من الطلاب تقويم الواقع من الناحية الإيجابية وتحديد القيم والمعارف الإيجابية في الحياة الاجتماعية الكويتية. ويرسم هذا السؤال تحديداً كما يلي: اذكر أربع عادات أو قيم إيجابية تفضلها في المجتمع الكويتي. وبعد تفريغ السؤال وتصنيف الإجابات تم الحصول على ١٨٥٩ مفردة تتضمن كل منها قيمة أو عادة اجتماعية في المجتمع الكويتي. وتلخص هذه المفردات في الجدول رقم (٧).

الجدول رقم (٧)					
سؤال ٣: القيم والعادات الإيجابية في المجتمع الكويتي وفقاً لمعتبر الجنس					
الظواهر الإيجابية في الحياة الاجتماعية في الكويت		ذكور	إناث	المجموع	
١ عادات وقيم التماسك الاجتماعي: التواضع والتراحم والترابط الأسري والتكاتف والمساعدة وعمل الخير	عدد	228	212	440	
	%	22.1	20.9	21.5	
٢ قيم القوة والصداقة والأخوة والحب والوفاء وقيم الخير والتسامح	عدد	208	215	423	
	%	20.1	21.4	20.7	
٣ التماسك العائلي والمواهب كمسقة من مبادئ التماسك الاجتماعي	عدد	198	176	374	
	%	19.2	17.7	18.7	
٤ التماسك بعادات وقيم الدين الإسلامي الحنيف	عدد	98	99	197	
	%	9.5	9.7	9.6	
المجموع	عدد	986	973	1959	
	%	100	100	100	

ويتضح من الجدول السابق أن أغلب القيم والمعادلات التي أشار إليها الطلاب هي القيم الثقافية العربية التي تؤكد التواصل والتراحم والتمسك بقيم الدين الإسلامي الحنيف. وقد بين اختبار  $\chi^2$  وجود فروق دالة إحصائية بين الجنسين. كما بين الجدول التالي رقم (٨).

جدول رقم ٨: اختبار $\chi^2$ لدلالة الفروق الإحصائية			
Asymp. Sig. (2-sided)	Df	Value	Pearson Chi-Square
الدلالة	ح. د	قيمة $\chi^2$	
0.000	2	16.666	$\chi^2$

ولمعد الفروق للملاحظة إلى تشديد الإناث على أهمية مبادئ التماسك الاجتماعي والتراحم حيث بلغت نسبة الشدة ٨٧.١% عند الإناث مقابل ٨٤.١% عند الذكور. كما لمعد هذه الفروق إلى تأكيد الذكور أهمية المبادئ بنسبة أكبر من الإناث. ٩٦.٣% عند الذكور مقابل ٩٢.٧% عند الإناث.

### هذه التحديان إلى الهوية ذات الطبيعة الاجتماعية والاعتمادية

يميش الفرد العربي ضمن ولاء وانتماء مزفوج فهو مواطن في دولة قطرية حديث. كما أنه ينتمي بشكل أو بآخر إلى أمة أوسع مدى من الدولة القطرية هي الأمة العربية الإسلامية. ويميش كلاً الاعتمادين في الذات العربية... ويلقي بالتالي هذا الانتماء المزفوج إلى نوع من ازدواج الشخصية ويخلق نوعاً من التماسك الذاتية والهوية (١٨).

ومن أجل استجلاء جوهر هذا التناقض في وعي الشباب الجامعي. ومن أجل أن تكتمل ملامح وعي الشباب لهذا التوقع ترتب علينا أن نستقر صورة الطموحات التي تأخذ مكانها في داخل هذا الوعي. وأن نحدد أولويات هذه الطموحات وسعائر اتجاهاتها. ومن أجل هذه الغاية وضعنا أمام الطلاب أفراد العينة جدولاً يتضمن منظومة من الطموحات. وعلينا إليهم ترتيب هذه الطموحات وفقاً لأهميتها وضرورتها في الواقع العربي بشاخصاته العربية والإسلامية. ولتضمن هذه الطموحات ثمانية عبارات تشمل جوانب الواقع السياسي والاجتماعي العربي. ورتب هذه الطموحات في الجدول رقم (٩) وفقاً للتغير الجنس عند الشباب الجامعي:

جدول رقم ٩، جدول مقارنة تسلسل الموضوعات السياسية والاجتماعية تحت الذكور والإناث

الذكور		الموضوعات السياسية والاجتماعية	الإناث	
تسلسل الأولية	متوسط		متوسط	تسلسل الأولية
٣	٥,٩٠٦	تحقيق العدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان	٦,٣٦٧	١
١	٦,١٣٢	تحقيق التضامن الإسلامي	٥,٩٩٤	٢
٤	٥,٠٢٤	تحقيق السلام العادل في المنطقة العربية	٥,٣٧٤	٣
٥	٤,٨٤٨	تحقيق الوحدة العربية	٤,٨٠١	٤
٦	٤,٨٧٢	تحقيق التقدم الاجتماعي والتكنولوجي	٤,٥١٢	٥
٧	٤,٨٢٨	تحقيق التضامن العربي	٤,١٧٤	٦
٢	٥,٠٢٤	إعادة الأرض العربية المقتضية (فلسطين)	٤,٠٩٤	٧
٨	٢,٩٨٢	تحقيق الديمقراطية السياسية	٣,٩٥٢	٨

ينفصل عن الجدول السابق (٩) أن تحقيق العدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان يتصدر سلم موضوعات الشباب، ويحتل المرتبة الأولى، وفي ذلك تحقيق التضامن الإسلامي (المرتبة الثانية)، ومن ثم تحقيق السلام العادل في المنطقة العربية (المرتبة الثالثة)، وفي المرتبة الرابعة تأتي الوحدة العربية، وفي الخامسة يأتي التضامن العربي، ثم تأتي قضية استعادة الأرض الفلسطينية في المرتبة السابعة، ثم تأتي الديمقراطية السياسية في المرتبة الأخيرة.

وفي هذا التصنيف الذي تضمنه الجدول رقم (٩) يمكن ملاحظة النقاط التالية:

١- تعاطف أعمية العدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان (المرتبة الأولى) قياساً إلى قضية الديمقراطية السياسية التي احتلت المرتبة الأخيرة.

٢- أن التضامن الإسلامي يأخذ أهمية كبيرة جداً (المرتبة الثانية) بالقياس إلى التضامن العربي (المرتبة السادسة) أو الوحدة العربية (المرتبة الرابعة).

٣- تراجع الاهتمام بقضية الأرض الفلسطينية (فلسطين) مع ما لهذه القضية من أهمية تاريخية عند العرب والمسلمين. وهنا يمكن لنا القول بأن التسوية السلمية بدأت تنمو على حساب أهمية الأرض الفلسطينية.

٤- لم يأخذ التقدم العلمي والتكنولوجي الأهمية المتوقعة في عصر الثورات العلمية والمعرفية المتسارعة.

- ٥- يرون الجدول السابق أن الفارقة الكبيرة بين الذكور والإناث تكمن في مسألة الأرض العربية المخصصة لهما القضية تأخذ موقفاً متأخراً عند الإناث (الترتبة السابعة) بينما تأخذ مكانة مهمة (الترتبة الثالثة) عند الذكور.
- ٦- وبصورة عامة وبالمقارنة بين التوسمات، نلاحظ أن الإناث يولن القضايا التالية أهمية أكبر من الذكور وهي: العدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان، ثم تحقيق السلام العادل في المنطقة، وفيما عدا ذلك فإن القضايا الأخرى تأخذ اهتماماً أكبر من قبل الذكور مثل التضامن الإسلامي، والوحدة العربية، والأرض الفلسطينية، والديمقراطية السياسية.
- ٧- بصورة عامة يمكن القول إن الذكور أكثر ميلاً إلى الاهتمام بالقضايا السياسية، بينما نجد أن الإناث أكثر ميلاً إلى الاهتمام بالقضايا الاجتماعية.

### الفقرة الأخيرة: التغيير الثقافي وفقاً لتغير الجنس :

ومن أجل اختبار متغيرات الفروق الإحصائية لأولوية الموضوعات السياسية عند الطلاب وفقاً لتغير الجنس أجري اختبار مستويون (T) وعرضت نتائجه في الجدول رقم (١٠).

جدول رقم (١٠) اختبار مستويون (T)، للفروق الإحصائية بين اتجاهات الجنسين حول تصنيف

الموضوعات الاجتماعية والسياسية

البيانات	الجنس	N	متوسط	قيمة T	د. حرية	مستوى الدلالة
تحقيق العدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان	ذكور	299	5.403	-9.389	917	0.000
	إناث	319	6.239			
إعادة الأرض العربية الشخصية (غلسطين)	ذكور	299	5.095	-9.389	917	0.000
	إناث	319	5.993			
تحقيق السلام العادل في المنطقة العربية	ذكور	299	5.897	-9.389	917	0.000
	إناث	319	6.239			
تحقيق التقدم الاجتماعي والتكنولوجي	ذكور	299	5.828	-9.389	917	0.000
	إناث	319	6.239			
تحقيق الوحدة العربية	ذكور	299	5.888	-9.389	917	0.000
	إناث	319	6.239			
تحقيق التضامن العربي	ذكور	299	5.7	-9.389	917	0.000
	إناث	319	6.239			
تحقيق الديمقراطية السياسية	ذكور	299	5.987	-9.389	917	0.000
	إناث	319	6.239			
تحقيق التضامن الإسلامي	ذكور	299	6.177	-9.389	917	0.000
	إناث	319	6.239			

0.000 دال في مستوى 0.000 دال في مستوى 0.000

- بين الجدول السابق وجود فروق معنوية بين الجنسين في البنود الثلاثة التالية:
- فيما يتعلق بالعدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان، حيث أبدت الإناث اهتماماً أكبر في هذا المستوى، كما يتضح من فروق المتوسطات.
  - تبينت هذه الفروق المعنوية أيضاً في بند إعادة الأراضي العربية المحتلة، حيث يبدي الذكور اهتماماً سياسياً أكبر بهذا الجانب السياسي.
  - ظهرت هذه الفروق أيضاً في بند تحقيق السلام العادل في المنطقة، حيث أبدت الإناث اهتماماً أكبر بهذه القضية من الذكور.
  - وعلى خلاف هذه المستويات الثلاثة يبين التحليل الإحصائي أن الفروق اللاحقة غير معنوية أو دالة في مستوى البنود الأخرى.

#### معنوية الفروق وفقاً لمؤشر الحالة النفسية:

من أجل تحديد طبيعة الفروق الإحصائية اللاحقة بين إجابات الشباب حول أولويات المطمحيات السياسية والاجتماعية أجري اختبار تحليل التباين أحادي الاتجاه (معامل فيشر) لقياس الفروق الإحصائية ووضعت النتائج في الجدول رقم (١١).

جدول رقم (١١): نتائج اختبار تحليل التباين أحادي الاتجاه (معامل فيشر) لأولوية المطمحيات السياسية والاجتماعية وفقاً لمؤشر الحالة النفسية للطلاب

مستوى الدلالة	قيمة F	عبارات التباين
0.05	0.006	تحقيق العدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان
0.05	0.000	تحقيق التقدم الاجتماعي والتكنولوجي
0.009	0.02	إعادة الأرض العربية المحتلة (فلسطين)
0.000	0.000	تحقيق الوحدة العربية
0.000	0.000	تحقيق التضامن العربي
0.000	0.000	تحقيق السلام العادل في منطقة العربية
0.000	0.000	تحقيق التضامن الإسلامي
0.000	0.000	تحقيق الديمقراطية السياسية
دلالة في مستوى 0.05		

ويستخرج من الجدول رقم (١١) غياب الفروق الإحصائية بين إجابات الطلاب وفقاً لتغير الحالة المدنية، واستثناء عبارة التضامن الإسلامي، حيث سجل الاختيار الثاني وجود فروق إحصائية في مستوى ٠.٠٥. ويعود هذه الفروق إلى اهتمام أكبر للطلاب المتزوجين بالتضامن الإسلامي قياساً إلى الطلاب العزاب، حيث بلغ متوسط النقاط التي حصلت عليها هذه العبارة ٦.١٢٢ عند الطلبة المتزوجين مقابل ٥.٩٦ عند الطلاب العزاب. وتعد الإشارة في هذا الصدد إلى أن عدد العزاب بلغ ٥٩٢ عازباً وعازبة مقابل ١٠٩ من المتزوجين في العينة المدعومة.

### معلومة الفهم وفقاً لتغير الاختصاص الجامعي:

أظهر تحليل النتائج وفقاً لتغير الاختصاص الجامعي (الكليات العلمية والإنسانية) وجود بعض الفروق الدالة إحصائياً في مستوى إجابات الطلاب حول سؤال الطموحات السياسية والاجتماعية. ومن أجل اختبار معلومة هذه الفروق أجري اختبار ستيفنسون الذي أظهر عدة فروق معلومة دالة كما هو موضح في الجدول رقم (١٢):

جدول رقم (١٢)، نتائج الاختبار الثاني لأولوية الطموحات السياسية والاجتماعية وفقاً لتغير الاختصاص الجامعي			
الفرق	ت	القيمة	
—	٠.١51	-١.71	تحقيق العدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان
==	٠.٠٠1	-2.9٠8	تحقيق التقدم الاجتماعي والتكنولوجي
=	٠.٠07	2	إعادة الأرض العربية للشعب (فلسطين)
—	٠.958	١.١72	تحقيق الوحدة العربية
—	٠.880	٠.85٩	تحقيق التضامن العربي
—	٠.7٠4	٠.819	تحقيق السلام العادل في فلسطين العربية
—	٠.197	-1.7٠8	تحقيق الديمقراطية السياسية
==	٠.٠٠٦	2.98١	تحقيق التضامن الإسلامي
— دال في مستوى ٠.٠٥      == دال في مستوى ٠.٠١			

## التقدم العلمي والتقني وأثره في العلوم التطبيقية

يرجع الجدول رقم (١٢) وجود فروق دالة إحصائية في ثلاثة من بنود القياس وهي: تحقيق التقدم العلمي والتكنولوجي، وإعادة الأرض العربية المفقطة (فلسطين)، وأخيراً تحقيق التضامن الإسلامي. ويعد المودة إلى المتوسطات تبين أن طلاب العلوم التطبيقية أكثر اهتماماً بتحقيق التقدم العلمي والتكنولوجي بلغ متوسط إجاباتهم ٤.٨٩٥ مقابل ٤.٦٨٥ عند طلاب العلوم الإنسانية. وفيما يتعلق بإعادة الأرض المفقطة، ومن ثم تحقيق التضامن الإسلامي، فقد تبين أن هذه الفروق المعنوية تعود لمصلحة الاتجاه أكبر عند طلاب العلوم الإنسانية نحو التضامن الإسلامي وإعادة الأرض المفقطة بالقياس إلى طلاب العلوم التطبيقية: بلغ متوسط إجابات طلاب العلوم الإنسانية، فيما يتعلق بإعادة الأرض المفقطة ٤.٦٨٤ مقابل ٤.٢٨٦. وهذا ينسحب على قضية تحقيق التضامن الإسلامي، حيث بلغ متوسط طلاب العلوم الإنسانية ٦.٦٤٢ مقابل ٥.٧٧٦ عند طلاب العلوم التطبيقية. وبالمختصر يمكن القول بأن متغير الاختصاص العلمي يتدخل ليؤثر في اتجاهات الشباب وطموحاتهم السياسية فيما يتعلق بالبنود الثلاثة وهي: التقدم العلمي والتكنولوجي لصالح طلاب العلوم التطبيقية، ومن ثم التضامن الإسلامي وتحرير فلسطين لصالح طلاب العلوم الإنسانية.

### تأثير متغير العنوان الجامعية:

وفيما يتعلق بمتغير السنوات الجامعية تبين أن الفروق الشاهدة ليست طرزها معنوية في مختلف بنود القياس. وذلك وفقاً لاختبار تحليل التباين البسيط، وهذا يعني أن متغير توزيع الطلاب في مختلف السنوات الجامعية لم يؤثر في اتجاهاتهم وطموحاتهم الاجتماعية والسياسية. وقد فُتحت نتائج اختبار تحليل التباين في الجدول (١٣) جدول رقم (١٢)، نتائج اختبار تحليل التباين أحادي الاتجاه (معامل فيشر) لأولوية العلوم ذات السياسية والاجتماعية وفقاً لمتغير السنة الجامعية.

Sig.	F	ممارات القياس
٠.٠٨١	٠.٦٥٢	تحقيق العدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان
٠.٠٩٤	٢.٢٢١	تحقيق التقدم الاجتماعي والتكنولوجي
٠.٠٦٤	٢.١١١	إعادة الأرض العربية المفقطة (فلسطين)
٠.٠٩٢	٠.١١١	تحقيق الوحدة العربية
٠.٢٢٦	١.١٥٤	تحقيق التضامن العربي
٠.١٤٨	٠.٨٠٨	تحقيق السلام العادل في المنطقة العربية
٠.٠٢٢	٢.٤٤	تحقيق الديمقراطية السياسية
٠.٢٢	١.١٥٤	تحقيق التضامن الإسلامي

يوضح الجدول أعلاه أن إجابات الطلاب متجانسة وأنه لا تأثير لتغير السنة الجامعية. إذ ليس في الجدول ما يشير إلى فروق دالة إحصائية.

### خلاصة الدراسة

على هدي أسئلة منهجية نهض العمل في هذه الدراسة واستجوب عقل الشباب الجامعي وبسؤالهم مستوى وعيهم السياسي في مرحلة خطيرة وعصيبة في تاريخ هذه الأمة التي تواجه تحديات تغيرات سياسية واجتماعية بالغة الشمول والعمق. وكانت الأسئلة المطروحة تدور حول هذه المساور:

- 1- كيف يرسم واقع التحديات التي تعيق بالأمة العربية في وعي الشباب الجامعي؟
- 2- وكيف ترسم صورة هذه التحديات التاريخية في المستوى الوطني الكويتي؟
- 3- كيف تأخذ الطموحات السياسية والاجتماعية لسبق وجدونها في وعي الشباب الجامعي ولصوراتها؟

1- كيف ينظر الشباب الجامعي إلى القيم الاجتماعية الإيجابية والسلبية في المجتمع الكويتي؟ وكيف يحددون نسق تدرجها وأولويات تكيفها؟

2- وفي مستوى البحث عن الطموحات الاجتماعية والثقافية لهذا الوعي فإن أسئلة جوهرية بالغة العمق والأهمية تطرح نفسها وهي: هل هناك قبول متزايدة وجوهية في وعي الشباب السياسي والاجتماعي وفقاً للتحولات، التمسك والتمسك، الطموحات الجماعية، والاختصاصات العلمية؟ وهي ما يلي تقدم صورة مختصرة لأهم نتائج هذه الأسئلة:

أولاً، فيما يتعلق بنسق التحديات التاريخية التي تعيق بالأمة العربية، في هذا النسق يرى الطلاب أن الشدائد الأكبر يكمن في التقليد الأعمى للغرب وحنين الهوية العربية الإسلامية ١٠٧، ٧. يليه غياب الديمقراطية وحقوق الإنسان في الوطن العربي ١٠٨، ٤. ومن ثم تحقيق الوحدة العربية الإسلامية ١٠٨، ٤. ثم الاحتلال الإسرائيلي للأرض العربية ١٠٩، ٦. يليه مباشرة تحقيق السلام العادل في المنطقة ١٠٩، ٣. ثم التفكك الأسري، والتخلف التكنولوجي والاقتصادي.

ثانياً، أما التحديات التي تواجه المجتمع الكويتي المعاصر فقد جاءت وفق نسق الأهمية التالي: حب المظهر والتزلف والإسراف ١٠٩، ٩. التعصب القبلي والاجتماعي والناطق ١١٠، ٠. الوساطة والرشوة والمحسوبية ١١٠، ٤. التقليد الأعمى للغرب ١٠٩، ٨. الزواج المبكر ١٠٩، ٩. الفساد الاجتماعي: القس والغش والخداع والتمسك وقطع الأرحام ١١٠، ٤. الاختلاف بين الجنسين ١١٠، ٨. اتصالات الأقليات والقديم ١١٠، ٨. الطلاق والتفكك الأسري ١٠٩، ٧. غلاء البور ١٠٩، ٤. النظرة الدونية للمرأة ١٠٩، ٤. غياب الإحساس بالمسؤولية عند المواطن ١٠٩، ٢. الزواج من غير الكويتيات ١٠٩، ٦. المخدرات والخمور والتخلف ١١٠، ٢.



## الدولة العباسية والانتعاش في الدولة والوفاء العربي

تتمة: أما المظاهر الإيجابية للحياة الاجتماعية في الكويت فقد أخذت المساق التالي: جاءت عادات وقيم التماسك الاجتماعي: التواد والثرارم والترابط الأسري، والثائف والمعدة وعمل الخير تحتل المرتبة الأولى 3. 2، 3. 1. لم تكن قيم المودة والصداقة والأخوة والحب والوفاء وقيم الخير والتمسك 3. 2، 3. 1. المجالس والديوانيات كمصيفة من صيف التماسك الاجتماعي 3. 2، 3. 1. التمسك بمبادئ وقيم الدين الإسلامي الحنيف 3. 2، 3. 1.

وأما فيما يتعلق بتسوق المصالحات السياسية والاجتماعية أخذت طموحات أفراد العدة التساق التالي: تحقيق العدالة الاجتماعية وتحقيق الإنسان في الدولة الأولى للأهلا، تحقيق التضامن الإسلامي، لم تحقيق السلام العادل في المنطقة العربية، تحقيق الوحدة العربية، لم تحقيق التقدم الاجتماعي والتكنولوجي، لتحقيق التضامن العربي، وإعادة الأرض العربية للفصية (فلسطين)، وأخيرا تحقيق الديمقراطية السياسية. طامعا، فيما يتعلق بالفروق الإحصائية لتأثير متغيرات: الجنس، والاختصاص، والحالة المدنية، والسنوات الجامعية فإن الدراسة كشفت عن الفروق التالية:

- فيما يتعلق بالجنس التضمنت هذه الفروق الإحصائية في مشاهير: العدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان لمصلحة الإثنت. في بند إعادة الأراضي العربية المحتلة حيث يفتي الذكور اهتماما ساهما أكبر في هذا الجانب السياسي، ثم ظهرت هذه الفروق أيضا في بند تحقيق السلام العادل في المنطقة حيث أثبت الأثنت اهتماما أكبر بهذه القضية من الذكور. - أما فيما يتعلق بالحالة المدنية، سجلت الدراسة غياب الفروق الإحصائية بين إجابات الطلاب وفقا لمفاهيم العدالة المدنية باستثناء عبارة التضامن الإسلامي. وتعود إلى اهتمام أكبر للطلاب المتزوجين بالتضامن الإسلامي قياسا إلى الطلاب العزاب.

- وفيما يتعلق بتأثير الاختصاص الجامعي كشفت الدراسة وجود فروق دالة إحصائية في عدة جوانب هي: تحقيق التقدم العلمي والتكنولوجي، وإعادة الأرض العربية المحتلة (فلسطين)، وأخيرا تحقيق التضامن الإسلامي. وبعد العودة إلى المتوسطات تبين أن طلاب العلوم التطبيقية أكثر اهتماما بتحقيق التقدم العلمي والتكنولوجي. وتجلت هذه الفروق بعدما إعادة الأرض للفصية ومن ثم تحقيق التضامن الإسلامي. فقد تبين أن هذه الفروق القوية تعود لمصلحة اتجاه أكبر عند طلاب العلوم الإنسانية نحو التضامن الإسلامي وإعادة الأرض للفصية. بالقياس إلى طلاب العلوم التطبيقية. واختصار يمكن القول أن متغير الاختصاص العلمي يتدخل ليؤثر في اتجاهات الشباب وطموحاتهم السياسية فيما يتعلق بالبنود الثلاثة وهي: التقدم العلمي والتكنولوجي لمصلحة الطلاب العلوم التطبيقية، ثم التضامن الإسلامي ولحميرفلسطين لمصلحة طلاب العلوم الإنسانية.

- وفيما يتعلق بمشغير السنوات الجامعية تبين أن الفروق الشائعة ليست فروقا معنوية في مختلف بنود القياس. وذلك وفقا لاختبار تحليل التباين الميسر. وهذا يعني أن متغير توزيع الطلاب في مختلف السنوات الجامعية لا يؤثر في اتجاهاتهم وطموحاتهم الاجتماعية والسياسية.

## البناديق العربية ودورها الإنمائي

أ. عبد الحفيظ يوسف الحمد (\*)

### ١ - مقدمة

يرجع تاريخ بدء المساعي في ظهور  
البناديق الإنمائية العربية إلى السنوات  
الأولى من عقد الستينيات، حيث كان قبول  
التكوير قصب السبق في هذا المجال، إذ تجلت  
اهتماماتها في العون الإنمائي مبكراً قبل  
ظهورها من الدول النفطية، بإشياء الصندوق  
الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية في  
نهاية ١٩٦٠ الميلادي، كان عند إنشائه، النموذج  
الوحيد، لجهة تمويل، أسسته دولة غير  
صناعية تواجه تحديات التنمية للإسهام في  
الجهود الإنمائية القومية في دول غير  
صناعية أخرى. وقد تعدت الأمثلة لهذا  
النموذج بعد ذلك، إما في صورة بناديق  
وطنية، وإما في صورة بناديق ومؤسسات  
عربية متعددة الأطراف.

وقد ساهمت كل هذه المؤسسات في ظهور ما يسمى «العون الإنمائي العربي المؤسسي» الذي  
تطور طيلة العقود السابقة، وتمكن من أن يحتل قدراً صرموها من التواجد في مؤازرة الدول  
القائمة بشكل لا يقل أهمية عن الجهات المانحة لعون بعميار نسبة التدفقات، إذ تجاوزت نسبة  
تدفقات العون الذي تقدمه الدول العربية المانحة إلى ناتجها القومي الإجمالي ٧، ٢٠، وهي  
النسبة المحددة من قبل الأمم المتحدة كهدف للمساهمات الإنمائية القادمة من الدول الصناعية

(\*) المدير العام / رئيس مجلس إدارة الصندوق العربي للإعانة الاقتصادي والاجتماعي.

## الصادقات العربية ودورها الإنمائي

المتقدمة، حيث بلغ متوسط نسبة العون المقدم من المجموعة العربية المانحة (وبخاصة الكويت والسعودية والإمارات) خلال عقدي الثمانينيات والتسعينيات حوالي 27.8 و 27.8 من ناتجها القومي، وهو ما يوفق بدرجة ملحوظة نسبة المساعدات المقدمة من الدول المتقدمة اقتصادياً. وتستهدف هذه الوثيقة تقديم عرض للصادقات الإنمائية العربية (إمّا فيها مؤسستان دوليتان تشاركت فيهما أغلبية عربية)، التي يتم من خلالها «العون الإنمائي العربي الأساسي»، وذلك من خلال إعطاء لمحة تعريفية لها، ولخصائص عولها، وحجمها، واستعراض صورة موجزة لمداخلاتها وأنشطتها ومحصلة دورها في دعم اقتصادات الدول العربية، والكثير من الدول النامية، بما فيه تطوير قدراتها الإنتاجية والتشويقية، ومساعدتها على تحقيق بعض طموحاتها الإنمائية.

### ٢ - طحة تعريفية

يرتبط العون الإنمائي العربي للأساسي بثلاث مجموعات متكاملة من الصناديق الإنمائية الوطنية، والإقليمية، ومؤسسات تمويلية إنمائية دولية تشارك فيها جهات عربية وغير عربية، يبلغ مجموع رؤوس أموالها في الوقت الحاضر نحو ٦٥ مليار دولار أمريكي. ويمتد نشاطها إلى عدد كبير من الدول النامية، بما فيها الدول العربية. تقدم لها الشروط تمويل بعض مشاريعها الإنمائية بشروط ميسرة، وتتسم أعمال هذه الصناديق بالشفافية، وتعمل مساهمات متشابهة تعكس في علاقات وروابط تجمعها في إطار مجموعة منسقة لمجموعة التطبيق العربية<sup>(١)</sup>. تمكنت من خلالها من تحسين فاعلية العون الذي تقدمه، وتحقيق مساهمات كبيرة في التمويل المشترك على جبهة صريحة من القطاعات الاقتصادية في كثير من الدول المستفيدة.

وتتألف الصناديق الوطنية في إطار هذه المجموعة من الصندوق الكويتي (١٩٦٦)، وصندوق أبوظبي للتنمية (١٩٦٦)، والصندوق السعودي للتنمية (١٩٧٤)<sup>(٢)</sup>، وتتلخص أهدافها الرئيسية بالمساهمة في تمويل مشاريع التنمية في الدول العربية، وغيرها من الدول النامية، وذلك عن طريق تقديم الشروط الميسرة والمحفز اللازمة لتمويل مشاريع التنمية التي تتوافق مع متطلبات الأولويات المبرجة في الخطط والبرامج الإنمائية للدول المستفيدة.

(١) أسست هذه المجموعة في عام ١٩٧٥ بمبادرة من الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية، ولتدعم في الوقت الحاضر البنك الإسلامي للتنمية، وصندوق أبوظبي للتنمية، وصندوق أوبك للتنمية الدولية، والصندوق السعودي للتنمية، والصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية، والصندوق العربي للتنمية الاقتصادية في أفريقيا، وصندوق النقد العربي، والصندوق العربي للإمداد الاقتصادي والإحصائي، الذي يقوم بالإبلاغ إلى عضويتها في المجموعة بمجموعة أمانة التنسيق.

(٢) هناك بعض المساهمات الشفوية الأخرى خارج نطاق هذه الصناديق، تمثل بما تقدمه قطر وعمان من قروض تنمية ميسرة من خلال جهاتهما الحكومية الرئيسية، بما قدمت الجزائر وإيطاليا (الصندوق الليبي الخارجي) من مساعدات إنمائية ميسرة على مختلف المستويات.

ولكن حسب هذه الصناديق الوطنية الثلاثة أهمية خاصة هي التعاون الاقتصادي فيما بين الدول العربية بعضها مع بعض، وبينها وبين الدول النامية، وتمثل أنموذجاً مهماً للتعاون بين دول الجنوب إذ إن الدول المؤسسة لهذه الصناديق، دول نامية، تواجه تحديات التنمية، بما هي ذلك الترويج الفاعلة للإنتاجية للاقتصاداتها، وتطوير وصيانة بنائها الأساسية، وتعتمد في مواجهة أعبائها والتزاماتها المالية الداخلية والخارجية، بما فيها التزاماتها في إطار العون الإنمائي المقدم من خلال صناديقها موضوع البحث، على إيرادات بيع سلعة استراتيجية (النفط) مالها التصوب، وتعرض أسعارها في السوق الدولية لتقلبات مستمرة.

وفي حين أن البيان أنه على الرغم من تذبذب أسعار النفط منذ منتصف الثمانينيات، وتراجع الموائد النفطية، ودخول الدول العربية النفطية، بما فيها الكويت والسعودية والإمارات، مرحلة جديدة تعاني فيها عجزاً في ميزانياتها الحكومية وموازن مدفوعاتها الخارجية، فإن هذه الدول الثلاث، قد حرصت على الاستمرارية في تقديم العون الإنمائي، من خلال صناديقها الوطنية السابق ذكرها. للدول العربية والدول النامية، لمساعدتها في إنجاز مشاريعها الإنمائية، وتعزيز قدراتها الاقتصادية التي تلخص أهدافها بتقديم التسهيلات الميسرة، والمساعدات والمعونات، وتعبئة الموارد العامة والخاصة في تمويل التنمية في الدول المستفيدة، ويتبع نطاق عملها جغرافياً، إذ بلغ عدد الدول المستفيدة من العون المقدم منها حتى نهاية 2000 حوالي 127 دولة في جميع القاطنات العالم باستثناء غربي أوروبا وأمريكا الشمالية.

من ناحية أخرى، تشكّل الصناديق الإقليمية من الصناديق العربي للإلتقاء الاقتصادي والاجتماعي الذي أنشئ بعد عام 1967، تجميعاً لرغبة عربية في التحرر من تداعيات حرب حزيران (يونيو)، وتكثيف الجهود في دعم التنمية العربية والمعاون الاقتصادي العربي، وتلحصر أهدافه في دعم وتنمية الدول العربية على المستويين الاقتصادي والاجتماعي، وإنجاز المشاريع العربية المشتركة التي تهدف إلى تحقيق التكامل العربي، وتوثيق الصلة بين الدول العربية، وتسويق سياساتها، وتعزيز التعاون فيما بينها، وهي هذا الإطار حددت اتفاقية الصندوق وظيفته الإنمائية، فتمتد أيضاً على تكليفه بتحويل المشاريع، وتشجيع توظيف الأموال، وتوطين الخبرات والمعونات الفنية.

ومن الصناديق الإقليمية أيضاً صندوق النقد العربي، الذي أسس عام 1966، بهدف تمويل متعدد هو دعم موازن مدفوعات الدول الأعضاء، وينتشر نشاطه الإقراضية قائمة الوسائل المتاحة لهذا الصندوق لتحقيق أهدافه بموجب اتفاقية إنشائه.

وبعكس الصناديق العربية الوطنية التي يحد نشاطها جغرافياً إلى جميع الدول النامية، فإن عمليات الصناديق العربية الإقليمية تنحصر بالدول العربية المحتاجة إلى الدعم المالي والفني، كذلك تختلف الصناديق العربية الإقليمية عن الصناديق العربية الوطنية من حيث العضوية، إذ

## التجديد العربي ودورها الإنعاش

تعتمد عضويتها إلى كل الدول العربية الأعضاء في جامعة الدول العربية<sup>(١)</sup>. بينما تنحصر عضوية المندوبين العربية الوطنية بدولها فقط.

وهناك أيضا في إطار مجموعة المندوبين الإقليمية، المصرف العربي للتنمية الاقتصادية في أفريقيا الذي أنشئ عام ١٩٧٦ بمقتضى قرار مؤتمر القمة العربي السادس، بهدف تمويل مشاريع التنمية في الدول الأفريقية غير العربية، وتشجيع مشاركة رؤوس الأموال العربية في التنمية الأفريقية، والإسهام في توفير المعونة الفنية اللازمة للتنمية في أفريقيا، وذلك استجابة لهدف دعم التعاون الاقتصادي بين المنطلقين العربية والأفريقية، وتجسيدا للتضامن العربي - الأفريقي، وترميها مشروع التعاون على أمن المساواة والتضادة.

أما على المستوى الدولي، فإن العون الإنعاشي العربي يتجسد بعرضتين مائيتين تشارك فيهما مع الدول العربية جهات أخرى غير عربية، المؤسسة الأولى منهما، هي البنك الإسلامي للتنمية الذي أنشئ عام ١٩٧٥ بناء على دعوة عربية، ويضم في عضويته ٢١ دولة عربية و ٢٢ دولة غير عربية، يستمد نحو ٧٠٪ من موارده المالية من الدول العربية، وتلتصق أهدافه في دعم التنمية الاقتصادية والتقدم الاجتماعي لشعوب الدول الأعضاء، والمجتمعات الإسلامية في الدول غير الأعضاء، مستمدة ومنفردة.

والمؤسسة الثانية الدولية الثانية، هي صندوق الأوبك للتنمية الدولية، الذي أنشئ عام ١٩٧٦، ويستمد نحو ثلثي موارده المالية من سبع دول عربية فقط، ويهدف إلى تعزيز التعاون بين الدول الأعضاء في الأوبك، وسائر البلدان النامية، تغييرا عن التضامن فيما بين دول الجنوب، وكذلك لتقديم المساعدات على وجه الخصوص، إلى البلدان الفقيرة المنخفضة الدخل في سعيها نحو التقدم الاجتماعي والاقتصادي.

ولا تغفل في سياق هذه الناحية التعريفية ذكر استيراد أساسي مؤدا أن بعض المؤسسات الإنعاشية العربية كالصندوق العربي، وصندوق الأوبك، وصندوق أبوظبي، وكذلك البنك الإسلامي للتنمية، توجه خاصة لتعزيز القطاع الخاص في الدول المستفيدة خارج مسارات مداخلاتها التصديرية التقليدية، وذلك بما يتناسب مع تنامي الدور الإنعاشي للقطاع الخاص في الدول العربية وغيرها من الدول النامية التي اهتمت في الفترة السابقة بتنفيذ برامج إصلاحية لإزالة الاختلالات الداخلية والخارجية التي تعانيها اقتصاداتها، ويتواءم أيضا مع انتهاجها سياسة المتخصصة لرفع مستوى الكفاءة في استخدام الموارد، وكذلك مع واقع تجليات العولمة وتداخلاتها، وما تفرضه من ضرورة دعم الدول العربية إلى رفع قدراتها التنافسية، وزيادة حجم صادراتها من السلع والخدمات، وترشيد القطاع العام فيها، والاعتماد على آليات السوق، وتعزيز دور القطاع الخاص في جميع الأنشطة الإنعاشية.

(١) باستثناء المصرف العربي للتنمية الاقتصادية في أفريقيا إذ تعبر عضويته بأعلى عشرة دولة عربية فقط من أعضاء جامعة الدول العربية.

## ٣ - خصائص هذه الصناديق العربية

يشتمل العنصر القديم من الصناديق الإنمائية العربية بعزايها استثنائية، لكونه يقدم من دول نامية إلى دول نامية أخرى، وإن اختلفت إمكانياتها المالية، ولهذا فإن شروطه منزلة عن أي استغلال، وغير مرتبطة بأي شروط تجارية أو سياسية، بأي شكل كان، ولا يشكل أي تهديد للدول الملتفة، فلا تطس هذه الدول ضغوطا سياسية لاتياج أو تبني مواقف سياسية محددة، اقتصادية كانت أو مالية، إضافة إلى أن قروض الصناديق العربية تتميز بشروط مالية وقانونية ميسرة، أكثر يسرا من مصادر التمويل الدولية، ويمثل هذا اليسر في انخفاض سعر الفائدة وطول هنري السماح والسداد، الأمر الذي ينعكس إيجابا على نسبة عنصر المنح، الذي يرتفع في العون القديم من الصناديق العربية لاشتماله على معدلات من الهبات والمنح التي تميزت بالاستقرار طويلة العهود الفائتة، إذ تراوحت في المتوسط، بالنسبة إلى الصندوق الكويتي والصندوق العربي، على سبيل المثال لا الحصر بين 15% و 10% على عكس العون القديم من الدول المانحة المتقدمة اقتصاديا، الذي يرتبط بشروط معقدة بحق الدول النامية، إذ تعول هذه الدول إلى فرض قيود على اغتيازات الدول الملتفة في أشكال عدة تتضمن شكل السداد، وطرق إقائها.

وعسوما تختلف شروط تمويل الصناديق الإنمائية العربية، باختلاف درجة نمو البلدان المستفيدة، ووضع المشروع الممول وقطاعه الاقتصادي، أي أنه توجد بعين الاعتبار حقلية الهيكل الاقتصادي المتميز للدول المستفيدة، وبدي ما يجره هذا الهيكل من تقدم فعلي، وذلك لد يد المساعدة للدول الأشد فقرا في معلومات الحياة الاقتصادية والاجتماعية الحديثة، ومساعدتها في رسم سياستها الإنمائية، وبناء كادرها الفني والإدارية.

وهكذا يتراوح سعر الفائدة بين 5، 0% و 10% حسب المؤسسة المانحة، والوضع الإقليمي للدول المستفيدة، وحسب القطاعات المعنية في تلك الدول، كما تتراوح فترة السداد بين 20 سنة و 30 سنة، وقد تزيد في بعض الحالات لتصل إلى 50 و 60 سنة، حسب المشروعات المختلفة، ومستوى دخل الدول المستفيدة، كما قد تخفض هذه الفدة لتبلغ عشر سنوات في حالة المشاريع ذات الصيغة التجارية، وتتراوح فترات السماح ما بين سنة وعشر سنوات.

يضاف إلى هذا أن قروض الصناديق الإنمائية العربية توفر قدرا كبيرا من حرية الاختيار في أوجه استخدام أموال القروض التي تقدمها، حيث تشج مبدأ الكفالة الدولية عند التعاقد مع المقاولين والموردين والمستشارين، ولهذا يختلف العون القديم منها عن معظم العونيات التي تقدمها الدول المتقدمة اقتصاديا، والتي تجبر الدول المستفيدة على شراء منتجاتها وخدماتها بالأسعار والمواصفات المتوافرة في أسواقها.

## البنوك العربية ودورها الإنمائي

من جانب آخر تتميز فروض الصندوق الإنمائية العربية بقدرتها على تعبئة موارد إضافية من مصادر غير عربية، وهذا يعني أنها تحفز على تنفيذ استثمارات تزيد قيمتها على قيمة فروضها، خصوصاً في حالة المشاريع الكبرى، مما يزيد من دورها الإنمائي في الدول المستفيدة.

كذلك تتميز الصندوق الإنمائية العربية باهتمامها بالتمويل المشترك الذي يساعد على التقليل من المخاطر والظروف الطارئة غير المتوقعة، التي قد يتعرض لها مستعملها في حالة المشاريع الكبيرة. وقد بلغ إجمالي التمويل المشترك للصناديق العربية خلال الفترة ١٩٧٨ - ٢٠٠٠ نحو ١.٨ مليار دولار أمريكي، ساهم فيها الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي بنسبة ٢٢.٦٪، والصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية بـ ٢٩.٢٪، والصندوق السعودي للتنمية ٢١.٧٪، والبنك الإسلامي للتنمية ٢١.١٪ وصندوق أبو ظبي للتنمية ١١.٦٪، ومصادر عربية أخرى ٢٩٪. كما ساهمت فيها مؤسسات تمويل دولية (البنك الدولي، صندوق إيفاد، والبنك الأفريقي للتنمية) بنسبة ٢١٪، وحكومات أجنبية ومؤسساتها التمويلية بنسبة ٢٦.٥٪.

### ٤ - حجم العود الإنمائي للصناديق العربية

بلغ المجموع التراكمي لالتزام العمليات التمويلية للصناديق الإنمائية العربية بنهاية العام ٢٠٠٠ نحو ٥١.٧ مليار دولار أمريكي<sup>(١)</sup>، وقد توزعت هذه المبالغ على ١٢٧ دولة ناصية عربية وغير عربية. ولقد خضعت الدول العربية منها لتعاقد ٣٥٠٥ مليار دولار أمريكي، أي حوالي ٦٠.٩٪، وبلغت حصة الدول الآسيوية والدول الأفريقية ودول أمريكا اللاتينية نحو ١٢ مليار دولار أمريكي، و ٩ مليارات دولار أمريكي، و ٨.٠ مليار دولار أمريكي على التوالي، ودول أخرى ٢.٠ مليار دولار أمريكي.

وقد بلغت مساهمة البنك الإسلامي للتنمية من إجمالي هذه الالتزامات التمويلية حوالي ٢٢.٥٪، والصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي حوالي ٢١.١٪، والصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية ١٩.٦٪، والصندوق السعودي للتنمية ١١.٩٪، وصندوق الأولمك للتنمية ١.١٪، وصندوق النقد العربي ٢٪، والمصرف العربي للتنمية الاقتصادية في أفريقيا ١.١٪، وصندوق أبوظبي للتنمية ٢.١٪.

واستجابة للاحتياجات التمويلية في الدول المستفيدة وأولوياتها الإنمائية، وبصفة خاصة ما يتعلق باستكمال وتطوير البنى الأساسية والخدمات، وتهيئة القاعدة

(١) أمثلة التوزيع لمؤسسات التنمية العربية والصندوق العربي، ملخص العمليات التمويلية لمؤسسات التنمية العربية كما في ٣١ ديسمبر ٢٠٠٠.

الضرورية للتنمية الاقتصادية حازت قطاعات البنى الأساسية والخدمات نحو 68.8% من إجمالي التزامات العمليات التمويلية السابق ذكرها التي قدمتها الصناديق العربية حتى نهاية عام 2000، وفي المقابل، بلغت حصة القطاعات الإنتاجية حوالي 27.2%، ويستند هذا التوزيع إلى اختيارات الدول المستفيدة نفسها. وحسب أولوياتها، وبمكس تحسناً واضحاً من قبل الصناديق الإنمائية العربية لمشاكلها المعقدة، واستجابة لحاجاتها الملحة إلى إقامة البنى الأساسية.

من جانب آخر لا يقتصر العون الإنمائي للصناديق الإنمائية العربية على تقديم القروض الميسرة لتمويل المشاريع المختلفة فحسب بل يشمل أيضاً على تقديم معونات فنية تأخذ غالباً شكل منح لا تسترد. قدم منها: على سبيل المثال لا الحصر، الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي 780 معونة فنية منذ بدء نشاطه وحتى نهاية 2000. بلغ إجمالي قيمتها نحو 45 مليون دينار كويتي، وقد تضمنت 226 معونة فنية بلغت قيمتها نحو 45.7 مليون دينار كويتي، تركزت بصورة خاصة على حل الاختلالات التمويلية في العول المستفيدة، بما في ذلك رفع كفاءة الموارد البشرية، وتحسين الأطارات المؤسسية اللازمة في تلك الدول، وتمويل دراسات جدوى وإعداد المشاريع ودراسات عامة وبحوث ودعم العمود في فلسطين المحتلة. كما تضمنت أيضاً 221 معونة فنية قومية بقيمة إجمالية نحو 29.5 مليون دينار كويتي، استهدفت دعم الجهود الإنمائية للدول العربية وإعداد دراسات ومشروعات مشتركة وبرامج إقليمية تتميزز النوع والارتباط على اعتبار الوطن العربي، وذلك في مجالات كثيرة من أبرزها مشاريع ربط الكهرباء، وشبكات نقل الغازية وشبكة الاتصالات العربية، ومشاريع إنتاجية مشتركة.

كذلك قدم الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية 199 معونة لدول المستفيدة، خلال مسيرته وحتى عام 2000، بلغت قيمتها نحو 65 مليون دينار كويتي، وبلغت قيمة المعونات الفنية التي قدمت كمنح خاصة لا تسترد نحو 81 مليون دينار كويتي، إذ تم منح ما قيمته نحو 5 ملايين دينار كويتي مع القروض، وذلك تماشياً مع سياسة الصندوق الكويتي في هذا الخصوص.

وليس من شك في أن العون الفني الذي تقدمه الصناديق العربية يقوم بدور كبير في جذب مزيد من الاستثمارات الجديدة في الدول المستفيدة، من خلال تمويل دراسات الجدوى الفنية والاقتصادية للمشاريع الجديدة، وكذلك تمويل الدراسات القطاعية لتعدد المشاريع الاستثمارية ذات الأولوية، بالإضافة إلى رفع كفاءة المؤسسات التخطيطية والتنفيذية في تلك الدول وتحسين قدرتها على إعداد وتنفيذ وتشغيل المشاريع الاستثمارية.



## ٥ - الدور الإنمائي للصناديق العربية

لقد توسعت تجارب الصناديق الإنمائية العربية طيلة العقود الأربعة الأخيرة من القرن العشرين، وفق سياقات كبرت واتسعت دوائر تفاعلها، وأصبحت تأثيرها إلى مختلف الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية، وتركت بذلك ظلالاً وانعكاسات على شتى مناحي الحياة المعيشية في عدد كبير من الدول المستفيدة، وشمة ثلاث حقائق لابد من توضيحها بداية قبل الدخول في إطلالة تقييمية لتجارب تلك الصناديق:

الحقيقة الأولى وهي: محدودية الموارد المالية للصناديق الإنمائية العربية، وعدم قدرتها وحدها على تلبية حاجة الدول العربية، وبنية الدول النامية من القروض الميسرة، لأن ما تعانيه هذه الدول من آثار وانعكاسات ضغوط التخلف الاقتصادي والاجتماعي، وما تفرضه من إشكاليات تعقيدات مستحقة تواجه نظمها الإنمائية تحتاج، لمواجهتها، إلى تضاعف جهود كل مؤسسات العون الإنمائية الفاعلة على المستويين الإقليمي والدولي، وفق سياقات وخيارات قادرة على إجراء تغييرات هيكلية في الأوزان الاقتصادية للدول العربية والدول النامية.

إن تثبت هذه الحقيقة ضروري في هذا السياق، لكي نؤكد على عدم القفالة وتعظيم دور الصناديق الإنمائية العربية، لإضافة أحكام نموذجها ورفع من مكانتها، ومنسوب أدائها.

وتؤكد الحقيقة الثانية على اعتبار المعطيات التمويلية للصناديق الإنمائية العربية، كغيرها من قروض مؤسسات التمويل الإنمائي، حافزاً لجهود الاستثمارات تزيد قيمتها على قيمة قروضها بصورة ملموسة، ويقدر أن قروض الصناديق العربية تغطي في المتوسط 25% من إجمالي التكلفة الإجمالية للمشاريع الممولة، أي أنها ساهمت حتى نهاية 2000 في تمويل مشاريع إنمائية في الدول العربية، والدول النامية الأخرى، تبلغ تكلفتها نحو 227 مليار دولار أمريكي، وساهمت على اجتذاب قدر لا بأس به من التمويل اللازم لها من مصادر غير عربية.

ولا غرو في أن هذا المجموع من الصلوات المالية يعتبر قواماً بالنظر إلى الفترة الزمنية التي تم خلالها، وأما الحقيقة الثالثة فمؤداها، أن مداخلات الصناديق الإنمائية العربية لا تنحصر فقط

بحدود عملياتها التمويلية الإقراضية في تمويل العناصر الأساسية لتنفيذ المشاريع الإنمائية، بل تشمل في كثير من الحالات، حيثما كان ذلك ضرورياً، على توفير الشروط التمكينية لتجارتها عند التنفيذ، كالإسهام في تمويل مختلف الدراسات المتعلقة بالمشاريع الممولة، إلى جانب تقديم الدعم المؤسسي، وتطوير أساليب الإدارة، وتمويل برامج تدريب وتطوير الكوادر البشرية العاملة في المؤسسات المعنية بتنفيذ وتمويل المشاريع الممولة لرفع مستوى الأداء، وكذلك تمويل الصيانة والتشغيل من أجل المحافظة على الاستثمارات المضخمة التي تلحق على المشاريع، وذلك من خلال المساهمة في توفير الإمكانيات المادية والبشرية اللازمة والقدرة على

إدارة واستغلال هذه المشاريع، مما يعني أن إنجازات الصناديق العربية الإنمائية لا تلقى عند حدود الأرقام المجردة العملياتية، بل تمتد أيضا إلى المساهمة في حل المشاكل الإنمائية التي تعانيها الدول المستفيدة إذ إن لمداخلتها آثارا إيجابية كبيرة على الجهود الإنمائية، من خلال ما تلعبه من معونات فنية للدراسات القطاعية، ودراسات الجدوى الاقتصادية الفنية، والدعم المؤسسي والتدريب الكوادر الفنية.

والسليل الذي يطرح نفسه الآن بعد هذه التوطئة الاستدراكية، هو: ما الأثر الإنمائي للعون تقدم من الصناديق العربية؟ إن الإجابة عن مثل هذا التساؤل تكمن في حصص الجهود الإنمائية والاجتماعية الكبيرة والتواصلة طيلة أربعة عقود، استطاعت فيها الصناديق العربية مساندة الجهود الإنمائية الاقتصادية والاجتماعية في عدد كبير من الدول العربية والدول النامية الأخرى، من خلال المساهمة في تمويل عدد كبير من المشاريع الإنمائية التي اعتبرتها الدول المستفيدة ذات أولوية كبرى لها.

ومما لا شك فيه أن جهود الصناديق العربية قد أسفرت عن نتائج وأثر إنمائية في مناطق كثيرة من العالم، بسبب حصرها في هذه المجالات، لكن أقل ما يمكن أن يقال أنها ساهمت في إقامة مقومات البنى الأساسية في الدول المستفيدة، واستطاعت تحقيق إنجازات إنمائية في القطاعات الإنتاجية، وبخاصة في قطاعي الزراعة والصناعة، لتمثل باستصلاح الأراضي وتحسين مصارف المياه وتطوير الإرشاد الزراعي، والأبحاث الزراعية، وتوفير الإقراض الزراعي للمشروعات المروية، وإنشاء قطاعات انتاجية كثيرة إلى عود من الخدمات الأساسية في كثير من الدول المستفيدة.

من جانب آخر امتدت جهود الصناديق الإنمائية العربية إلى تحقيق إنجازات كثيرة في مجال مياه الشرب والصرف الصحي، والخدمات التعليمية والصحية، والتدريب وغيرها من الأنشطة الاجتماعية الأخرى، وإضافة إلى كل هذا ثمة آثار إيجابية مميزة للعون الفني الذي تقدمه الصناديق العربية، إلى الحكومات والهيئات المقتدة للمشاريع، وخاصة فيما تقدمه من دراسات للقطاعات المختلفة، والجدوى للمشاريع، وما تقدمه أيضا من دعم مؤسسي لرفع كفاءة الأجهزة التخطيطية والتقنية والتدريبية في الدول المستفيدة لزيادة قدراتها على إعداد وتنفيذ المشروعات الإنمائية.

وسوف نحاول في هذا السياق إلقاء الضوء على أهم معالم إنجازات الصناديق العربية في دعم التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وإعطاء لمحة موجزة عن دورها في تعزيز التجارة العربية البينية، ودور الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي في تعزيز التعاون الاقتصادي العربي.

١ - دعم التنمية الاقتصادية، وبمكتنا تلخيص أهم الشواهد والأدلة في مجالها بما يلي:

١ - المساهمة في تطوير قطاعات البنى الأساسية في الدول العربية والدول النامية

## الصناديق العربية وجوهرها الإنمائي

الأخرى، التي تشتمل على أبرز الاختلافات التي تعانها الدول النامية، وتعتبر شرطا مسبقا لتعزيز الإنماء الاقتصادي والاجتماعي. لذا حُرِّقَتْ عرضها من أهمية كبيرة في تحسين مناخ الاستثمار، وإيجاد البيئة المناسبة لزيادة الطاقة الاستثمارية للدول المستفيدة، وبالتالي زيادة الفرص لتحقيق المشروعات الإنتاجية، والخدمات الضرورية للمواطنين، وثلبية المستثمرات الإنمائية للتنمية.

وهكذا أدت جميع الدول النامية، بما فيها الدول العربية، ضمن جهودها الإنمائية القطرية، اعتمادا خاصا، خلال العقود السابقة، بالبنى الأساسية، لأنها كانت تعاني في مجموعها قصورا شديدا فيها يتجسد في محدودية شبكات النقل، والطاقة الكهربائية، ووسائل الاتصال السلكي واللاسلكي، واختصار عشرات الملايين من السكان إلى ضروريات الحياة الأساسية كالمياه النظيفة، وغيرها من الأمور الأخرى، التي دفعت الدول العربية والدول النامية إلى إنشاء وتطوير البنى الأساسية، وذلك لأن التنمية بكل أبعادها واستراتيجياتها لا يمكنها أن تأخذ مجراها الحقيقي من دون هذه البنى. فهي أهم ركائزها، إلا تساهم في زيادة الإنتاجية وتقلص تكاليف الإنتاج وتبسيطه، وتوسع آفاق التجارة، وتمكين ظروف المعيش.

وهذا هو الذي دعا الصناديق الإنمائية العربية إلى الانشغال لتوجيه الدول العربية والدول النامية الأخرى في هذا المجال، **والتفاعل معها**، بإعمالها أولوية متقدمة في مداخلاتها التمويلية للبنى الأساسية، مما يعزز من تمسكها بالمشاكل المعلقة لهذه الدول والانشغال السريع لحاجاتها الملحة في تنمية الاقتصادية، وقد تفاوتت مستوى مداخلاتها في كل قطاع من قطاعات البنى الأساسية بين دولة وأخرى بتفاوت طبيعة ونوع المشاريع في كل قطاع، كما تأثر بشكل أساسي بأولويات خطط التنمية، وحجم الاستثمارات المصنوعة في تلك الدول، والموارد المتاحة لتمويل برامجها الإنمائية.

وبإيجاز اشتملت مداخلات الصناديق الإنمائية العربية، في إطار قطاعات البنى الأساسية المختلفة، على شق وتعميد الطرق، بما فيها الطرق الريفية المهمة للتنمية الزراعية وتطوير الإنتاج الزراعي، وكذلك تطوير الموانئ البحرية والسكك الحديدية والمطارات، وشبكات الاتصالات السلكية واللاسلكية، وتوليد ونقل وتوزيع الكهرباء، ونقل وجبر مياه الشرب، وتوزيعها، وتجميع ومعالجة واستخدام مياه الصرف الصحي ومحطات المعالجة.

ب - المساهمة في تعزيز القطاعات الإنتاجية في الدول المستفيدة، وقد تفاوتت مساهمات الصناديق الإنمائية العربية في هذه القطاعات (الزراعة والصناعة) من دولة مستفيدة إلى أخرى، حيث ارتبط ذلك بأولويات تلك الدول، واحتياجاتها الملحة في إطار خططها الإنمائية وبرامجها الاستثمارية، بالإضافة إلى قدرتها على استيعاب حجم التمويل في حدود إمكاناتها الموفرة.

وعموماً استهدفت المداخلات الإنتاجية للصناديق الإنمائية العربية، تطوير الإنتاج الزراعي في الدول المستفيدة، وتحقيق مستويات مقبولة من الاكتفاء الذاتي الغذائي العربي، وتطوير استغلال الموارد الزراعية أفضلها وعمومياً، مع التركيز بخاصة على استثمار الموارد المائية، بتشييد وتهيئة السدود، وإقامة شبكات الري وصرف المياه، واستصلاح الأراضي الزراعية، وبناء الطرق الريفية، ومنع القروض الزراعية، وإدخال التقنية الحديثة في الإنتاج الزراعي، وتوفير الخدمات الزراعية، وتحويل نظم الإنتاج الزراعي في مناطق كثيرة من الأراضي المطرية إلى الزراعة المروية بهدف زيادة الإنتاج الزراعي واستقراره بالإضافة إلى زيادة دخل الفلاحين، وتحسين مستويات معيشتهم ومقاومة التصحر، والتحد من الهجرة الداخلية من الريف إلى المدن.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، استغلت من المشاريع الزراعية الممولة من الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي أكثر من مليوني عائلة عربية بصورة مباشرة، وبحوالى 1 مليون عائلة غير بصورة مباشرة، أو ما يعادل نحو 35 مليون نسمة من مواطني الدول العربية.

وإلى جانب هذا شملت مداخلات الصناديق الإنمائية العربية في قطاع الصناعة، توفير التمويل لملامح مشاريع استثمارية في مجال المعادن، ومشاريع التصنيع الأساسي كالإسمنت والتحديد والعسلب والفسفات والبتروكيماويات وغيرها، إضافة إلى إعادة تأهيل مصانع قائمة لها أثرها الكبير في تعزيز التنمية الإنتاجية للدول المستفيدة.

٢ - دعم التنمية الاجتماعية: حيث حرصت الصناديق الإنمائية العربية، على إعطاء أهمية خاصة لعناصر التنمية الاجتماعية في الدول المستفيدة، وقد انحصرت مداخلاتها في هذا المجال في نوعين من المداخلات: أحدهما غير مباشر يتركب على مداخلاتها في مجال التنمية الاقتصادية، وتشكل حزمة من المنافع على انتمائها الاجتماعية، تتمثل في تحقيق زيادة في حجم ومدى العمالة الجزئية التي توفرها المشاريع التي تساهم في تمويلها الصناديق الإنمائية العربية. إضافة إلى ما تحققة مشاريع البنى الأساسية التي تمويلها هذه الصناديق من تغيرات هيكلية مادية واجتماعية في الدول المستفيدة، بتوفير الإضاءة الكهربائية، ومياه الشرب، وخدمات الاتصال الداخلي والخارجي، تنمية كبيرة من السكان الذين يعيشون في ضواحي المدن والأرياف، وكذلك فئة عزلة المواطنين من المناطق النائية من خلال تطوير النقل وريطهم بالمدن، إضافة إلى تطوير شبكات تصريف المياه، والتفاريات التي يؤثر تمويلها في إلحاق أضرار صحية بالسكان نتيجة انتشار الأمراض.

وتتصل للمدخلات المباشرة لبعض الصناديق الإنمائية العربية في المجال الاجتماعي بنواح كثيرة، لعل من خلالها مشاريع متعددة في مجال التنمية الريفية، يمكننا إيجازها، بتمويل

## التجارة العربية ودورها الاقتصادي

التشامكات المتعلقة بدعم التعليم النظامي، وتربية الطفل، والتثقيف التربوي، والتدريب المهني، والتعليم الفني، والتدريب القطاعي، ومحو الأمية، والتعليم عن بعد، وكذلك تطوير الخدمات الصحية بدأ فيها أنشطة التعليم الصحي، إضافة إلى مكافحة الفقر والبطالة في الدول المستفيدة من خلال تقديم قروض التوظيف الائتماني الصناعي والزراعي والحرفي لمساعدة الشرائح الاجتماعية الأقل دخلاً، وكذلك تقديم قروض مشاريع التنمية الريفيه المتكاملة، وقروض السكن الاجتماعي للمواطنين من ذوي الدخل المحدود، وقروض تمويل الصناديق الاجتماعية التي ازداد الاعتماد بها في السنوات الأخيرة من عقد التسعينيات، وبخاصة في الدول العربية لتعد من الآثار الملموسة لبرامج التصحيح الاقتصادي.

3 - دعم التجارة العربية، حيث ساهمت الصناديق الائتمالية العربية بشكل مباشر في توجية عملية التنمية نحو المزيد من استهلاك السلع والخدمات، بقرض توفير التجهيزات والعدات اللازمة للمشروعات المنفذة، مما ساعد على تشغيل الحركة التجارية في الدول العربية المستفيدة، كما ساهمت أيضا في تسهيل نقل السلع من خلال تطوير النقل البري، والسكك الحديدية، وزيادة طاقتها للنقل والمناولة في كثير من الدول العربية، إضافة إلى إنشاء موانئ جديدة وتطوير عدد من الموانئ القائمة، وزيادة طاقتها بإقامة أرصفة جديدة، وتحديث معداتها، ونظم الإدارة فيها، وبالتالي حل كثير من المشاكل المزمنة في الموانئ العربية، وزيادة طاقتها وقدرتها على المنافسة في كثير من السلع والخدمات والخدمات المستوردة والمصدرة، ولا تغفل في هذا السياق أيضا بقرار مساعدة منظم الصناديق الائتمالية العربية في إعادة فتح قناة السويس وتوسيعها وتعديثها، لتعويضها عن التقليل من السفن الكبيرة ونقلات النفط المعطلة، وزيادة قدرتها الفنية والإدارية الطارئة لتسهيل الحركة التجارية.

من ناحية أخرى، تكثفت جهود صندوق النقد العربي، والصندوق العربي، ومؤسسات تمويل عربية مشتركة، ومؤسسات مالية ومصرفية أخرى في إنشاء برنامج تمويل التجارة العربية برأسمال قدره 500 مليون دولار، وذلك بهدف الإسهام في تعزيز وتنمية المبادلات التجارية بين الدول العربية، وتعزيز القدرات الإنتاجية والتنافسية للفتح والمصدر العربي. وقد وافق هذا البرنامج، منذ بدأ نشاطه في مطلع 1991 وحتى نهاية عام 2000، على إعادة تمويل 773 طلبا بمبلغ 1.861 مليون دولار أمريكي، كما أبرمت 225 اتفاقية خط ائتمان، بلغت قيمتها الإجمالية 1.781 مليون دولار أمريكي، سحب منها نحو 1.298 مليون دولار أمريكي، وسندت الوكالات الوطنية 1.920 مليون دولار أمريكي، تمثل إجمالي المبالغ المستحقة خلال تلك الفترة.

كذلك، وفي إطار هذه الجهود رُسّع نشاط البنك الإسلامي للتنمية في مجال دعم التبادل التجاري بين دولة الأعضاء، حيث يقوم بتنفيذ برنامج خاص لتمويل التجارة الخارجية للدول

الأعضاء، يركز على تمويل الواردات من السلع ذات العينة التنموية لأجل قصيرة، وبرنامج محفظة البنوك الإسلامية الذي يقدم التمويل اللازم لعمليات التجارة للمستوردين والمصدريين من القطاع الخاص. كما يقوم البنك بتمويل عمليات وبرنامج التمويل الأطول أجلاً للتجارة (تمويل المصادرات).

١ - تعزيز التعاون الاقتصادي العربي، وهو من الأنشطة المحورية للصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي. إذ عمل منذ إنشائه على تعزيز التفارب والتعاون العربيين. وإعطاء الأولوية للمشاريع الحيوية في البلاد العربية، التي من شأنها أن تزيد الترابط والتكامل بين الجزائل، وقد تعددت وتنوعت مداخلاته في مجال المشروعات العربية المشتركة الحيوية. فإدى ذلك إلى تزايد الدول العربية ترابطاً، ويمكننا تلخيص أهم إنجازاته في هذا الشأن بما يلي:

أ - المساعدة في الربط الكهربائي بين الدول العربية، الذي يساعد على زيادة روابط الصلة والترابط القومي بين أطراف الوطن العربي، ويعمل في الوقت نفسه على تقليل القدرة الاحتياطية الحركية في كل شبكة، وبالتالي تخفيض الاستثمارات الرأسمالية اللازمة لتلبية الطلب من دون المساس بدرجة الأمان والاعتمادية في الشبكات المترابطة، وتؤدي في الوقت نفسه إلى التقليل من الاحتياطي الدور، والاستفادة من إقامة محطات التوليد في المواقع المناسبة لها، الأكثر جدوى من الناحية الاقتصادية، متحفة لتوافر الوقود رخيص فائض (صعب التصفير أو ضعف التحويل) في إحدى الدول المترابطة، كما توفّر أيضاً إلى التقليل من تكوّن البنية، وكذلك توحيد المواصفات الأساسية للمعدات الكهربائية، وتوسيع السوق العربية أمام صناعة المعدات الكهربائية.

ومن المثير أن يبلغ الوفر في التكاليف الرأسمالية عند اكتمال الربط الشامل لدول العربية بشبكة موحدة طولها ١٠ آلاف كلم حوالي ٢.١ مليار دولار أمريكي. ولا يتضمن هذا الوفر في تكاليف التشغيل، الذي يقدر بنصف هذا المبلغ تقريبا، طيلة عمر خطوط الربط الداخلة في هذه المشاريع. وبشكل عام تتمتع مداخلات الصندوق العربي في هذا المجال حول تمويل مشاريع إنشاء شبكتين رئيسيتين للربط الكهربائي في الوطن العربي، تقدر تكاليفهما الاستثمارية بنحو مليار دولار أمريكي، هما:

- شبكة ربط دول شمال المشرق العربي: حيث ربطت شبكات الكهرباء في مصر والأردن عام ١٩٩٨ والأردن وسوريا عام ٢٠٠٠ على التوالي ١٠٠/٥٠٠ ك.ف. كما ربطت الشبكة السورية بشبكات الكهرباء في لبنان وتركيا على التوالي ١٠٠ ك.ف. ومن المقرر ربط شبكات الكهرباء في سوريا وتركيا بشبكة الكهرباء العراقية على التوالي ١٠٠ ك.ف. في وقت لاحق. وتبلغ قدرة شبكة الربط هذه حوالي ٦٠٠ م.و. وهي الحالات العادية.

## البنية التحتية العربية ودورها في التنمية

يمكن زيادتها إلى 800 م. وفي حالات الضرورة، ويمكن في وقت لاحق زيادة قدرة الشبكة إلى 1200 م. و، عن طريق تحويل خطوط الربط من التيار المتردد إلى التيار المستمر.

ب - شبكة ربط دول المغرب العربي: وقد رُبطت شبكات الكهرباء في مصر وليبيا على التوتر 220 كلف. في عام 1998، وشبكات الكهرباء في تونس والجزائر والمغرب على التوتر لنفسه، وقد أنجز هذا الربط في عام 2001. كما تجري أيضا دراسة رفع خط التوتر بين مصر وليبيا وتونس والجزائر، والمغرب إلى 500/500 كلف.

ب - السهامة في ربط شبكات الاتصالات العربية. بهدف خلق شبكة اتصالات دولية على مستوى جيد، خاصة أن الاتصالات بين الدول العربية كانت تتم حتى عقد الميتمرات إما عن طريق شبكة الترددات العالية، التي كان مستواها متدنيا، وإما عن طريق الشبكة الفضائية الدولية التابعة للمنظمة الدولية (إنكسنت)، والتي كان معظمها يتم بصورة غير مباشرة عن طريق أوروبا أو أمريكا، لعدم وجود ربط للاتصالات بين الدول العربية المجاورة، أو كان عددها محدودا.

لهذا كله، عهد المصنوق العربي مبكرا منذ إنشائه إلى المشاركة فعاليا وفيها مع الاتحاد الدولي للاتصالات في إعداد خطة متكاملة للاتصالات العربية في عام 1976، وبرنامج عملي لتنفيذ الخطة. كما شارك في تمويل مشاريع أخرى لم تشملها الخطة. إذ ظهرت أهميتها فيما بعد نتيجة لازدياد الحركة الهاتفية والاتصالات الأقمار بين الدول العربية، نتيجة لازدياد التقارب الاقتصادي، والاتحاد في هذا المجال.

وإجمالا، ساهم الخطة الشرق العربي في تمويل شبكة للاتصالات بين الدول العربية. فتكون من سبعة مشاريع اكتمل تنفيذها ودخلت الخدمة. بهدف المشروع الأول منها إلى ربط شبكة الاتصالات بين المغرب والجزائر، ويهدف الثاني إلى ربط شبكات الاتصالات بين العراق وسوريا والأردن والسعودية ومصر. ويهدف الثالث إلى ربط شبكات الاتصالات بين الصومال وجيبوتي واليمن والسعودية. ويهدف الرابع إلى ربط شبكات الاتصالات بين الجزائر وتونس وليبيا، ويهدف الخامس إلى ربط شبكات الاتصالات بين الدول العربية عن طريق الشبكة الفضائية العربية (ميرسات)، ويشمل إنشاء محطات أرضية في كل من موريتانيا وتونس والمغرب والجزائر وجيبوتي والصومال واليمن والأردن وسوريا والعراق. وقد اكتمل تنفيذ هذا المشروع ودخل الخدمة عام 1987. وأدى إلى ربط الدول العربية المعنية بشبكة اتصالات فضائية متكاملة لشبكة الاتصالات الأرضية، وبدلة لها حين تعطلها. أما للمشروع السادس فيهدف إلى ربط شبكات الاتصالات بين البحرين وقطر والإمارات. ويهدف المشروع السابع إلى ربط شبكات الاتصالات بين أربع عشرة دولة منها سبع دول عربية هي الجزائر وتونس ومصر والسعودية وجيبوتي واليمن وسوريا، ويشمل إنشاء كبلين بحريين بين جنوب شرق آسيا وغرب أوروبا عبر

الدول العربية، أحدهما تعاملي يعمل بالنظام المتكافئ، والآخر ألياف بصرية يعمل بالنظام الرقمي. ويبران بالدول المذكورة، وقد اكتمل تنفيذ المشروع ودخل الخدمة في عام ١٩٩٥ وأدى إلى تطور كبير في حجم وتنوع الاتصالات الهاتفية الدولية بين الدول التي تمر عليها الكيبلات البحرية. وقد ساهمت هذه المشروعات في زيادة الحركة الهاتفية بين الدول العربية، وفي تحسين وسائل الاتصالات، وزيادة التقارب الاقتصادي والاجتماعي فيما بينها.

ج - المساعدة في ربط شبكات النقل العربية. وقد تركزت مداخلات الصندوق العربي في هذا المجال بشكل خاص في دراسات قطاعية في فروع النقل المختلفة، ذات الصلة بالشركة بين الدول العربية، وذلك بهدف التعرف على المشاريع العربية المشتركة، ودعم الاستثمارات ذات الأولوية في قطاع النقل.

ومن هذه الدراسات، دراسة الإطار العام للنقل في الوطن العربي التي قام الصندوق العربي في إطارها بدراسة مسحية شاملة استهدفت وضع إطار عام لتعديد شبكات الطرق والسكك الحديدية العربية المشتركة، وذلك بهدف التعرف على أوضاعها، وتحديد أولويات المشاريع الواجب تنفيذها، من أجل تلبية الاحتياجات الأساسية للربط بين الدول العربية، والعالم الخارجي. وقد أمكن بفضل هذه الدراسة تحديد الوسائل الرئيسية في أجزاء الشبكات التي تربط بين الدول العربية، واقتراح أولويات المشاريع الواجبة دراستها وتنفيذها في إطار برنامج زمني تقديري، واعتقاداً على متطلبات النقل في الآسسين القصير، والمتوسط، والطويل، بالإضافة إلى تقدير حجم الاستثمارات المطلوبة لإنجاز هذه المشاريع على مراحل متتالية حسبما تقتضيه احتياجات حركة المرور. وقد ساهم الصندوق العربي في تمويل دراسات للمشاورات التي تلورت في إطار دراسة الإطار العام للنقل في الوطن العربي، ونفذ بعضها من قبله ومن قبل مؤسسات تمويلية أخرى.

ومن الدراسات الأخرى التي تستحق الذكر في هذا السياق، دراسة أنماط النقل في دول مجلس التعاون لدول الخليج العربي، التي مولها الصندوق العربي، وأجزاها في عام ١٩٩١، وساعدت في رسم سياسات النقل في الدول العلية. وكذلك دراسة ما قبل الجدوى لطريق الوحدة للماربي السريع، التي مولها الصندوق العربي في عام ١٩٩٤، استجابة لطلب دول الاتحاد المغاربي. وتضمنت دراسة أولية شاملة للربط البري بين دول الاتحاد بطريق سريع يبدأ من ليبيا وينتهي في موريتانيا، مروراً بتونس والمغرب والجزائر بطول إجمالي حوالي مائة ألف كيلومتر. وقد أعيدت هذه الدراسة عام ١٩٩٥، من قبل أحد بيوت الخبرة الاستشارية المالية المتخصصة. وبمشاركة مكاتب الدراسات العربية في دول الاتحاد المغاربي الخمس، وتمت إشراف الصندوق العربي، ولجنة التنسيق التي اختارتها دول الاتحاد لهذا الغرض. وقد وضع على أساس هذه الدراسة، برنامج زمني يتم بالروعة تطوير الوصلات الشاملة في الطريق في خمس مراحل ينجز كل منها على تسلي إلى مستوى طريق سريع به جميع أقسامه عام ٢٠٢٥. وقد أُنشِئت



## المنادى العربية ودورها الإنمائي

المشاريع ذات الأولوية التي تبلورت في هذه الدراسة تزيد من الدراسات التطبيقية في كل من دول الاتحاد، وقام الصندوق العربي بالإسهام في تمويل بعضها في تونس والجزيرة وما زال البعض قيد الدراسة، ومن المتوقع أن يتابع الصندوق العربي مداخلته لإنجاز مراحل لاحقة لهذه الدراسة في دول الاتحاد، كما يتوقع أن يواصل الإسهام في تمويل المشاريع القطرية التي تشكل أجزاء من هذا الطريق حسب الأولويات التي تحددها دول الاتحاد.

## ٦ - خاتمة

تهدي مما سبق أن الصندوق الإنمائي العربية قد تمكنت خلال العقود الثلاثة من توسيع وجودها على الساحلين العربية والبرية، والعمل بصورة كفؤة ومنظمة في الدول المستفيدة، مما زاد من تقع مساهماتها، وإصدار إنجازاتها في شتى ميادين الحياة الاقتصادية، من إشباع الاحتياجات الرئيسية للمواطنين، وتمكينهم من العمل، إلى تطوير القطاعات الاقتصادية المختلفة، وتخفيف حدة عوامل الفقر، وتحسين مستوى الحياة الاجتماعية.

وترجع هذه النتائج الإيجابية في أساسها إلى التزام مساهمات الصندوق الإنمائي العربية ومداخلتها باحتياجات الدول المستفيدة، وإدراكها لحقيقة أنها التسمية للتخلص من التخلف والفقر، علاوة على تعاونها الوثيق مع حكومات تلك الدول لما فيه مصلحتها.

وكما سبق ذكره فإننا لا ننكر في طرفة أعيننا أن الصندوق الإنمائي العربية إلى الغد في تعظيم دورها، لأننا على يقين بأن خطية التحديث الإنمائي، التي تواجه الدول العربية والدول النامية الأخرى، تحتاج إلى تضام جهود كل مؤسسات العون الإنمائي الفاعلة على المستويين الإقليمي والعالمي، وفق سياقات وخطوات قادرة على إجراء تغييرات هيكلية في الأوزان الاقتصادية للدول المستفيدة.

وهذا يزيد من أهمية التمسك مستقبلاً ما بين الصندوق الإنمائي العربية من جهة، والصناديق والمؤسسات التنموية الدولية من ناحية أخرى، بما يساعد على حشد التمويل المشترك وتوسيع أفاقه، ليس في المدى الكمي فحسب، وإنما أيضاً في نوعية وفاعلية هذا النوع من التمويل، والذي يمكن تمييزه في انساق قطاعية متوازنة، تؤدي إلى سلامة استعداده للأزمات الإنمائية في شتى المجالات الاقتصادية والاجتماعية، وبما يعود بالنفع الكبير على الدول المستفيدة.



## أثر المعايير منحة التجارة العالمية

ويؤخذ على ما سبق فإن القطاع الصناعي سيتأثر بشكل مباشر أو غير مباشر بالاتفاقيات الدولية متعددة الأطراف المتعلقة بـ W.T.O. وسيكون بالضرورة أمام القطاع تحديات كبيرة تفرضها التزامات الدول تجاه المنظمة. والسؤال الذي يحاول البحث الإجابة عليه هو: إلى أي مدى يمكن تعظيم الفوائد من الاتفاقيات الدولية متعددة الأطراف في إطار W.T.O. وتخطيها السلبيات المحتملة إلى أقل قدر ممكن في القطاع الصناعي خصوصاً والقطاع الصناعي الكويتي على وجه الخصوص؟ كيف يمكن تحويل الدعم المعطى من قبل المنظمة إلى دعم غير معطى بحيث تبقى للصناعة الكويتية حماية حكومية ولكن بشكل غير مباشر؟ كيف يمكن موازنة التزامات الكويت وفق السقوف الزمنية الممنوحة لها مع واقع ومستقبل القطاع الصناعي الكويتي؟

إن ما سبق من أسئلة وغيرها ستشكل التحديات أمام القطاع الصناعي الكويتي. كما سيحاول البحث إلقاء بعض الضوء على هذه التساؤلات (التحديات) ومناقشة بعض الفرضيات حول الموضوع من خلال الفقرات التالية:

أولاً: المبادئ العامة لمنظمة التجارة العالمية وانعكاساتها على القطاع الصناعي.

ثانياً: الأحكام التي تؤثر بشكل مباشر أو غير مباشر في القطاع الصناعي.

ثالثاً: القطاع الصناعي الكويتي في مواجهة قواعد منظمة التجارة العالمية W.T.O. والالتزامات الكويت تجاه المنظمة.

وأخيراً: الخلاصة، التوصيات والنواصير أمام القطاع الصناعي الكويتي.

### أولاً: المبادئ العامة لمنظمة التجارة العالمية وانعكاساتها على القطاع الصناعي

تعتمد منظمة التجارة العالمية W.T.O. على أربعة مبادئ أساسية على الدول الأعضاء الالتزام بها في علاقاتها التجارية وهي (زروق، 1998):

- 1 - استخدام التعريفات الجمركية فقط لحماية الصناعة الوطنية، على أن تبقى هذه الحماية في حدودها الدنيا، والابتعاد عن استعمال القيود غير الجمركية وخاصة القيود الكمية على المستوردات من السلع (لا في الحالات الخاصة المتسوس عليها في الاتفاقيات ذات الصلة).
- 2 - تهيئة الدول الأعضاء، تعريفاتها الجمركية، سواء المفضضة أو غير المفضضة، وعدم زيادة نسبها التي جاءت في جداول التزاماتها مستقبلاً، ويعتبر هذا المبدأ جزءاً لا يتجزأ من النظام القانوني للمنظمة.
- 3 - عدم التمييز بين السلع حسب مصدرها، أي الالتزام بمبدأ الدولة الأولى بالرعاية (MFN)، بحيث تمنح لمواطني أعضاء المنظمة أي معاملة تفضيلية تقدمها دولة ما لسلع دولة أخرى، أي لا يجوز فرض رسوم جمركية أعلى من الرسوم المفروضة على سلع دولة أخرى.

١ - تطبيق مبدأ المعاملة الوطنية وهو مبدأ تكميلي يبدأ الدولة الأولى بالرعاية، إذ يمنع التمييز بين السلع الوطنية والأجنبية، سواء فيما يتعلق بالضرائب المحلية أو التشريعات والقيود التي تؤثر على عمليات البيع والشراء داخل الأسواق المحلية.

### ثانياً: الأحكام التي تؤثر بشكل مباشر أو غير مباشر في القطاع الزراعي

هناك أنواع متعددة من الأحكام منها ما يتعلق بالسلع، ومنها ما يتعلق بالخدمات ومنها ما يتعلق بحماية الملكية الفكرية، وأخيراً إجراءات لتسوية النزاعات (هلال، ٢٠٠٠).

#### ١- في مجال التجارة السلع:

وهي الأحكام المتعلقة بـ:

(١) الإجراءات الوطنية المتخذة عند التصاف

(٢) التدابير الحكومية الداخلية التي تنظم تجارة السلع.

١ - ففي مجال إجراءات المنافذ والحدود هناك جداول موحدة لتسمية السلع وترقيمها وطرق حساب قيمتها للأغراض الجمركية مما يسهل تطبيق الترميزات الجمركية وشفافية المبادئ التجارية، وهنا يمتحن على **الحكومات تخفيض** رسومها الجمركية وزيادتها بسلف التزاماتها المقدمة للمنظمة عند الانضمام. كما أن الدول الأعضاء لا تستطيع فرض قيود كمية على المستورادات لأن ذلك يعتبر تعديداً للتحرير والانفتاح التجاري الدولي. إلا أن هذه القاعدة كان لها استثناءات لبعض الدول التي تعاني صعوبات هي ميزان مدفوعاتهما، وبالتالي سمحت قواعد المنظمة لكل هذه الدول بتحديد كميات من المستورادات للمحافظة على الاحتياطيات النقدية والتركز على التخليص.

وقد حاز القطاع الزراعي استثناء من هذه القاعدة نظراً إلى خصوصيته وقوة جانب الاتحاد الأوروبي في عزل القطاع الزراعي عن المنافسة الدولية.

وكذلك قطاع صناعة المنسوجات الذي ظل يحكمه اتفاق (تعدد الألياف) ولادة ١٩٥٠ عاماً، حيث يسمح بموجب هذا الاتفاق بتطبيق نظام الحصص بدلاً من منع القيود الكمية، كما هي حال القطاعات الصناعية الأخرى، ووضع برنامج تحريري يطبق على أربع مراحل حيث ينتهي نظام الحصص نهائياً، مع حلول عام ٢٠٠٥ (الوثيقة الختامية ١٩٩٤).

٢ - وفيما يتعلق بالتدابير الحكومية الداخلية (الوثيقة الختامية ١٩٩٤)، فقد التزمت الدول الأعضاء بالتزامات دولية تتعلق بتطبيق: (أ) المعايير والمواصفات الإنزائية على السلع، (ب) تقديم الدعم الحكومي للصناعات المحلية، (ج) اتفالا إجراءات وقائية، (د) تدابير مكافحة الإغراق، (هـ) تدابير الاستثمار المصنعة بالتجارة.

1 - المعايير والخصائص الإلزامية: إن المنظمة وضعت قواعد دولية لمنع استعمال «المعايير الإلزامية» بشكل يضر التجارة الدولية ويضع حواجز أمامها بشكل أن تستند (المعايير الإلزامية) إلى نتائج تقنية ومعايير إنتاجية دولية ومعلومات ودلائل علمية دون الإخلال بمبدأ الدولة الأولى بالرعاية (MFN)، وكذلك مبدأ المعاملة الوطنية وعدم التمييز بين السلع الوطنية (NT) والأجنبية. وبالشكل هذه «المعايير الإلزامية» حواجز أمام التجارة الدولية.

وفي مجال الإجراءات الداخلية وضعت المنظمة ضوابط لمعايير الصحة العامة والصحة النباتية بشكل لا يعيق التجارة الدولية، ومعايير وجود أخطار على الصحة والبيئة عند دخول منتجات مستوردة.

ب - الدعم الحكومي: لضمان تطبيق شروط المنافسة الدولية، فقد نظمت قواعد المنظمة شروط تقديم الدعم الحكومي للصناعات المحلية. إذ يعتبر الدعم والرسوم التعويضية التي تمنح بها الصناعات من المواضيع الأساسية التي نالت اهتماماً متميزاً من جانب الدول الأعضاء في المنظمة. ولهذا الموضوع أهمية خاصة جداً بالنسبة إلى الصناعات الوطنية التي تحصل بدعم مباشر. إن التفاضلات المطلوبة والمتميزة حول موضوع الدعم بدأت بحلول يوليو عام 1997، وأقيمت بحملة الأوروغواي عام 1997 بحيث جاء الاتفاق بشكل عام ليحظر:

- حظر استعمال الدعم الحكومي الذي يترك آثاراً سلبية على التجارة الدولية.
- عدم السماح في جميع الأحوال بزيادة مستويات الدعم على المستوى الذي كان سائداً عام 1986، مع حتمية إزالة متى بلغت الصادرات مرحلة تجارية في السوق العالمية.
- إعطاء مزايا تفضيلية للدول النامية، وخاصة تلك التي يقل فيها نصيب الفرد من الناتج القومي عن 1000 دولار سنوياً.

وكذلك فقد قسم الدعم الحكومي إلى نوعين:

#### ■ دعم محظور، ويشمل:

- دعم التصدير الذي يؤدي إلى زيادة الصادرات من سلعة صناعية معينة، وهذا يحق للدولة المستوردة فرض رسوم تعويضية على مستورديها من هذا المنتج المدعوم.
- الدعم الذي يزيد على 76 من قيمة السلعة، ويسبب بالتالي ضرراً للمصالح التجارية للدول الأخرى، ويجب على الدولة التي تقدم هذا الدعم وقفه، أو فرض رسوم تعويضية لمواجهة الآثار لهذا الدعم من قبل الدول المتضررة.

#### ■ دعم مسموح، ويشمل:

- دعماً مسموحاً لكن يجوز التناقص حوله لأنه قد يصبب أضراراً لقروح إنتاج دول أخرى.
- دعماً مسموحاً غير قابل للتناقص والمتعلق بدعم المشاريع الصغيرة والمتوسطة بدون تميز، وكذلك الدعم المقدم لتطوير الصناعات في المناطق النائية والبعيدة والتي تحتاج إلى تطوير.

وتتبعية، كذلك الدعم التقدم النشاطات البحث والتنمية، والبنية التحتية وتكوين مرافق الإنتاج للتطابق مع متطلبات البيئة.

إن حظر الدعم يطبق على جميع الدول الأعضاء في المنظمة، مما يحقق التفاضل العادل بين جميع دول المنظمة، ويفتح الدعم المسموح الياب أمام البحوث والدراسات للتطوير، حيث إن تضافت البحث لا تعتبر نوعاً من الدعم الممنوع، مما يتيح للقطاع الخاص، ومنه القطاع الصناعي، تنمية البحث والتطوير التقني لرفع الكفاءة الإنتاجية، كما يتيح للحكومات الفرصة لتطوير وتنمية المناطق الجديدة وتقديم الدعم والعواطف للمستثمرين في هذه المناطق، مما يشجع على زيادة الاستثمارات ورفع مستوى العمالة وزيادة الدخل، وهذا ما يدخل ضمن تشجيع برامج التخطيط الإقليمي (Regional Planning) وخاصة في الدول النامية.

جـ - التدابير الوقائية، حيث تسمح قواعد المنظمة للدول المستوردة بالحد من مستورداتها لفترة مؤقتة، وذلك كتدبير طارئ لمساعدة الصناعة المحلية، إذا أثبت استئثار إلى أسس علمية وحقائق لا تقبل الجدل أن الصناعة المحلية أو أحد فروعها وشاغلها قد تضررت بسبب المستوردات من السلع المنافسة، وتستطيع الدول المستوردة أن تقوم بما يلي كتدابير وقائية:



- زيادة الرسوم الجمركية.

- أو وقف المزايا الجمركية الممنوحة للسلعة المنافسة.

- أو وقف الاستيراد الكامل.

- أو وضع حدود كمية على المستوردات من السلع المنافسة.

وتلتزم الدولة المستوردة هذه الإجراءات حسب الظروف، وفي كل حالة على حدة، مع ضرورة الالتزام بالظروف والقواعد التي نصت عليها اتفاقية التدابير الوقائية، إلا أن هذه التدابير سيكون الحد الأقصى لسريانها هو أربع سنوات إلى ثماني سنوات اعتباراً من عام 1995.

وفي المقابل يمكن للدولة التي تضررت من اتخاذ التدابير الوقائية ضدّها أن تلجأ إلى جهاز تسوية المنازعات Disputes Settlement في حال اعتبار هذه التدابير الوقائية غير مبررة ولا تتوافق مع نصوص الاتفاقية.

ولاحظ أن اتفاقية التدابير الوقائية وجدت لتوفر حماية كافية للقطاع الصناعي على وجه الخصوص بالنسبة إلى المنتجات المحلية، ولتحول دون التعرض للمنافسة غير العادلة من سلعة مستوردة معينة تكون مبيداً في الإضرار بالصناعة الوطنية.

وما يجب الإشارة إليه أن اتفاقية التدابير الوقائية استثنت الدول النامية من الإجراءات، حيث لا يجوز استخدام هذه التدابير ضد صادرات الدول النامية ما دامت لم تتجاوز نسبة 3% من مستوردات الدول المتقدمة من سلعة أو سلع معينة، وهذه ذاتها ميزة للقطاع الصناعي وفرة لمراسة الصادرات الصناعية للدول المتقدمة ومعرفة النسبة لكل سلعة بالنسبة إلى مستوردات الدول المتقدمة.

## أثر الاتفاقية منطحة التجارة العالمية

د - تدابير مكافحة الإغراق: أبرحت اتفاقيات المنظمة للدول الأعضاء الاتحاد بعض التدابير الضرورية لمنع بعض السلع التي تدخل إلى سوق الدول المستوردة بأسعار تفل عن أسعار السلع نفسها في الدول المصدرة لها، وبأسعار تفل عن تكلفتها الحقيقية، مما يؤدي إلى إغراق السوق المحلية للدول المستوردة، وتسمح اتفاقية مكافحة الإغراق باتخاذ تدابير مضادة لبدء الضرر عن الصناعة الوطنية بسبب الإغراق، ومن هذه التدابير:

- فرض رسوم تعويضية على المستوردة من السلع التي كانت السبب في الإغراق وزيادة الرسوم الجمركية عليها بشكل لا يزيد على الفرق بين سعر السلعة المستوردة وسعر السلعة المماثلة في السوق المحلية للمصدر.

- الامتناع عن تقديم التطهيرات الجمركية التي تكون الدولة المستوردة قد التزمت بها سابقا - إلا أن هذه الاتفاقية تعويضا متعددة ملزمة للدول الأعضاء، وذلك حتى لا يستعمل بشكل سيئ تحت ذريعة حماية المنتج المحلي من دون مورد.

إن هذه الاتفاقية تلزم القطاع الصناعي بشكل خاص، حيث تكفل الحماية من المنافسة غير المشروعة، وتشترط الاتفاقية أن يقدم طلب الإغراق من منتج محلي متضرر وليس من جهة حكومية.

والنلاحظ في دول مجلس التعاون أنه لا يوجد قوانين لمكافحة الإغراق أو أجهزة متخصصة لمكافحة حالات الإغراق، وقد يكون ذلك سببا لعدم وجود سلطات عليوية يمكن أن تتصرف من الإغراق، هذا في السابق، أما اليوم فإنه من الضروري أن تصدر دول المجلس قوانين موحدة للإغراق، وتشكيل جهاز حكومي (على مستوى دول المجلس مع فروع له في كل دولة على حدة)، وذلك تعفيها لسلطة دول المجلس والقطاع الصناعي، ونشير هنا إلى أن عدم وجود قانون وجهاز حكومي مختص بمجالات الإغراق لا يمنع قيام أي دولة أخرى عضو المنظمة من اتخاذ إجراءات مكافحة الإغراق ضد دول المجلس، إذا ثبت قيام أي دولة أخرى عضو المنظمة من اتخاذ إجراءات المضادة (المبروكية مبروكات مثلا)، وهنا يقع للدولة التي فرضت عليها إجراءات وتدابير مكافحة الإغراق، اللجوء إلى جهاز فض المنازعات في حال إثباتها أن هذه الإجراءات المتخذة ضدها غير عادلة، وأن سلعاها المصدرة لا تدخل ضمن مفهوم الإغراق، وهنا تظهر أهمية القوة التفاوضية والإلزام التام بقواعد وقوانين المنظمة وكيفية استخدامها وتقديم وثائق إثبات الضرر مستوفية الشروط القانونية المطلوبة.

هـ - تدابير الاستثمار المتعلقة بالتجارة: بما أن أعضاء المنظمة لم يستطيعوا التوصل لاتفاقية دولية متعددة الأطراف في مجال الاستثمار بالتجارة ومنه الصناعي، فقد اكتفت المنظمة من خلال الاعتماد على جولة الأوروغواي بوضع اتفاقية تدابير الاستثمار المتعلقة بالتجارة والتي لها انعكاس وأثر على البلدان العامة القواعد الجات (GATT)، حيث تقوم الدول عادة بفرض بعض

الشروط على المستثمرين الأجانب، وذلك حسب أولوياتها الوطنية، وحسب لنوع الاستثمار الأجنبي المراد استقطابه. وجاء الاتفاق منظمة التجارة العالمية المعروف باسم TRIMs ليوطن على الدول الأعضاء إلغاء تدابير الاستثمار المتعلقة بالتجارة والتي لا تتوافق مع قواعد الجات GATT، وخاصة تلك المتعلقة بمبدأ «العاملة الوطنية National Treatment»، وقاعدة منع وحظر القيود الكمية، استناداً لذلك فقد جرى حظر بعض التدابير منها:

- إلزام المستثمر بشراء منتجات محلية بدلاً من المواد المستوردة (شرط التكوينات المحلية).
- ربط شراء أو استخدام منتجات أجنبية بحجم أو قيمة المبيعات المحلية التي يقوم المستثمر بتصديرها (متطلبات التوازن التجاري).
- ربط المستوردة بكمية أو قيمة الصادرات (قيود على المستوردة).
- ربط الصادرات بكمية أو قيمة الإنتاج المحلي (قيود على الصادرات).
- ربط الحصول من طرف المستثمر الأجنبي على القطع الأجنبي بمقدار ما يحققه من قطع أجنبي.

ولاحظ أن جميع التدابير أعلاه ستؤثر بشكل مباشر أو غير مباشر على القطاع الصناعي للدول الموقعة على اتفاقية (TRIMs).

إن ما سبق أن قلناه من إجراءات وطنية عند الحدود والمنافذ، وكذلك التدابير الخمسة الحكومية الداخلية تتعلق بالأحكام المتعلقة في مجال السلع، ولنتناول أن تلقى الضوء على الأحكام الواردة في مجال الخدمات.

## ٢ - أحكام منظمة التجارة العالمية في مجال الخدمات (القطاع الخدمي)

تعد اتفاقية الخدمات (GATS) من المخرجات المباشرة للمفاوضات جولة الأوروغواي، حيث لم يكن قطاع الخدمات ضمن مجال الجات (GATT)، واشتملت الاتفاقية على الخدمات المتعلقة بالتجارة، وسمعت الخدمات إلى ١٢ قطاعاً رئيسياً وما يقارب ١٥٥ قطاعاً فرعياً شملت العديد من النشاطات التي لها علاقة بشكل مباشر أو غير مباشر بالقطاع الصناعي، مثل الخدمات المالية والنقل البحري والجوي والاتصالات والسياحة والخدمات المهنية... إلخ، وقد قدمت دول مجلس التعاون الأعضاء في المنظمة ومنها الكويت التزامات في هذا المجال.

لقد ألزمت الدول الأعضاء وفق أحكام اتفاقية الخدمات بقواعد عامة يجب تطبيقها على جميع الدول وجميع القطاعات الخدمية وفق أشكال التزويد الأربعة لخدمات وهي:

- التزويد عبر الحدود.
- الاستهلاك خارج الحدود.
- الوجود التجاري.
- التنقل المؤقت للأشخاص الطبيعيين.



### • القواعد العامة للاتفاقية،

- مبدأ الدولة الأولى بالرعاية الذي يتطلب عدم التمييز بين موردي الخدمات المحلية والأجانب فيما يتعلق بالتدابير والإجراءات التي تنظم عملية تجارة الخدمات.

- مبدأ الشفافية الذي يتطلب إعلان التوائح والتشريعات التي تنظم تجارة الخدمات في الدول الأعضاء، وإقامة مكاتب استعلام معنية لتقديم للمعاملين الأجانب استفسارات ولتوضيحات عن التوائح والتشريعات المطبقة والشروط اللازمة من كفاية وتفعيل لتقديم كل نوع من أنواع الخدمات التي تلاوتها الاتفاقية. خاصة في الدول النامية التي تستقر إلى نقاط الاتصال هذه.

- الترتيبات الثابتة أو الجماعية بهدف الاعتراف المتبادل بالمؤهلات اللازمة للحصول على تراخيص لتقديم الخدمات بما يسهل على الموردين الأجانب تقديم الخدمة.

### • التوافيد الخاصة للاتفاقية،

- قواعد انتقال السوق وتطبيق مبدأ المعاملة الوطنية حصرا في القطاعات الخدمية التي تختار الدولة فتحها للأجانب.

- في حال فرض شروط على القطاعات الخدمية المراد تحديدها (وهذا مسموح به في قواعد الاتفاقية) فإن هذه الشروط أو القيود يجب أن تكون نفسها بالنسبة إلى الموردين المحليين والموردين الأجانب.

- قيود على المشاركة في رأس المال وخاصة بالخدمية إلى الشكل الثالث من توريد الخدمات الذي يعتمد على الوجود التجاري في السوق الأجنبية.

وبالنسبة إلى قطاع الخدمات في دول المجلس فإن له علاقة كبيرة غير مباشرة مع القطاع الصناعي. وخاصة أن القسم الأعظم من قطاع الخدمات يقوم به القطاع الخاص. وإن قيام الاتحاد الجمركي بين دول المجلس سيمكن من امتداد هذه الخدمات واتساعها وتبادل التزايا بين دول الاتحاد من دون امتدادها إلى الدول الأعضاء الآخرين من خارج دول المجلس. إلا أن على دول المجلس أن تقدم جداول التزاماتها في القطاعات الخدمية لها لتستفيد منها سواء محليا أو الاستفادة من الاتكزاعات التي تقدم بها الدول الأخرى.

### ٢ - أحكام منظمة التجارة العالمية في مجال حماية الملكية الفكرية المتعلقة التجارة والخدمات الثقافية

1994، الفصل 1، المادة 170

قد تكون الأحكام الواردة بخصوص حقوق الملكية الفكرية ذات اتصال مباشر بالتجارة وهذا ما يدل عليه مصطلح TRIPS. إلا أن لهذه الأحكام علاقة غير مباشرة بالقطاع الصناعي. وخاصة عندما تتناول إجراءات الاختراع والنماذج الصناعية ومخططات التصميم والمعلومات السرية التي تدخل من ضمنها المعلومات السرية الصناعية.

لقد جاء الاتفاق الخاص بحماية الملكية الفكرية لوضع معايير الحد الأدنى اللازم لحماية حقوق الملكية الفكرية، ووضع الإجراءات اللازمة لضمان احترام هذه المعايير وحسن تنفيذها. كما وضعت آلية للتشاور والمراقبة على مستوى دولي لضمان الاحترام والتطبيق على المستوى المحلي. إلا أن قواعد الحماية وضع لها بعض الاستثناءات تجنباً للتقصير في استعمال الحقوق من قبل أصحابها ويهدف إيجاد نوع من التوازن بين أصحاب الملكية الفكرية من جهة والمستفيدين منها من جهة أخرى.

وستعكس نتائج تطبيق هذه الاتفاقية على الأسعار، إذ ستراجع السلع الثقيلة وسترتفع أسعار السلع الأساسية. إلا أن تطبيق قواعد الاتفاقية سيؤدي إلى دعم حق الابتكار والتجديد ونقل التقنية والإبداع فيها، وسيترجم ذلك بحماية المستهلكين وتطوير التجارة الدولية من سلع صناعية وغيرها. وكذلك الخدمات، لذلك فمن الضروري أن يتابع القطاع الصناعي تطورات هذه الاتفاقية وتطبيقاتها، لما لذلك من أبعاد وانعكاسات على الأسواق الوطنية والدولية في تصريف السلع الصناعية.

#### 8- إجراء الإنذار قبل التصور التجاري :

(المادة 17 من الاتفاقية : المادة 17 من الاتفاقية)

وضعت منظمة التجارة العالمية تساهماً خاصاً بتسوية النزاعات من خلال جهاز فني المنازعات (DSB)، حيث يمكن لأي دولة عضو في المنظمة التقدم بشكوى ضد أي إجراء تتخذه دولة أخرى عضو أيضاً، يؤدي إلى ضرر بأي من النشاطات الاقتصادية للدولة المتضررة. إلا أنه، وإن كانت الدولة المتضررة ستقدم بالشكوى لجهاز فني المنازعات، ستكون هذه الشكوى هي الأساس مقدمة من قبل القطاع الخاص الاقتصادي المتضرر الذي قد يكون القطاع الصناعي أو غيره.

إن آلية تسوية النزاعات وضعت لحل الخلافات التي قد تنشأ بسبب إخلال إحدى الدول بالتزاماتها أو بسبب التأويل الخاطئ لأحكام الاتفاقيات الدولية الموقعة داخل إطار المنظمة. ويحل الخلاف إما بالمفاوضات بين الأطراف المعنية، أو التحكيم، أو التقاضي في إطار الأجهزة المتوافرة وحسب القواعد والإجراءات المتصوص عليها هي متكررة التضامم الخاصة بنظام تسوية المنازعات.

ويتضح أن للقطاع الخاص الصناعي دوراً أساسياً في استعمال الدولة لآلية حل النزاعات، كما أن أغلب القضايا المطروحة أمام جهاز فني المنازعات يكون القطاع الخاص الصناعي مختصاً، حيث إنه المتضرر الرئيسي من عدم احترام الاتفاقيات الدولية أو الإخلال بها أو تأويلها بشكل خاطئ. ويكون من المعتذر جداً على أي دولة إثبات الضرر من دون أن يثبت إليه أو يقدم به القطاع أو النشاط الاقتصادي الخاص المتضرر.

إن ما سبق يؤدي إلى أنه من الضروري للقطاع الصناعي فهم القواعد الأساسية للمنظمة عموماً والقواعد والإجراءات التي تحكم آلية تسوية النزاعات على وجه الخصوص.

## ثالثاً : القطاع الصناعي الكويتي في مواجهة قواعد منظمة

### التجارة العالمية WTO والتزامان الكويت تجاه المنظمة

(القطاع الصناعي الكويتي 1999-2000-2001)

#### أ - واقع القطاع الصناعي الكويتي

من دون الدخول في تفاصيل رقمية كبيرة (يمكن الرجوع إليها من خلال أرقام المجموعات الإحصائية لوزارة التخطيط) وإنما استناداً إليها، يمكن القول إن الكويت حققت نمواً اقتصادياً مطرداً خلال الثلاثين سنة الماضية، منذ الفترة النفطية الأولى عام 1973، مع ما تخلل هذه الفترة من اضطرابات ديماركية مصفت بالافتصاد الكويتي بشكل واضح. وقد كان لهذه التطورات الإيجابية والسلبية في الاقتصاد الكويتي أثر واضح على القطاع الصناعي، وعلى رغم ما قدمه القطاع الصناعي من مساهمة فعالة في الناتج المحلي الكويتي (تقريباً الاقتصادي السنوي لعام 2000 البنك المركزي)، وفي التنمية الشاملة الكويتية عموماً، إلا أن بعض العقبات والصعوبات والتحديات ما زالت تعترض مسيرته ومن هذه العقبات نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

■ **الازدواجية في العديد من المشاريع الصناعية المتعاكسة معاً أدى إلى عدم التسيق داخل القطاع الصناعي وزيادة المفاقمة الإنتاجية النظرية المتنازع من الطاقة الاستثمارية لسوق المحلي.**

■ **غياب الحماية الفعلية للصناعة المحلية نظراً إلى غياب قانون وجهات الإشراف على الإغراق، فالصناعة الوطنية تشكل من سياسة الإغراق التي تتبعها بعض الدول الصناعية مما يؤثر بالضرورة سلباً في الصناعة الوطنية. فأسواق الدولة مفتوحة أمام المنتجات الأجنبية بأسعار أقل من تكاليف إنتاجها محلياً، وبمواصفات مغايرة للمواصفات المحلية، وهذا يضعف بالضرورة إمكان الصناعات الوطنية في المنافسة من دون حماية لها. وهذا يظهر أهمية وجود قانون وجهاز حكومي للصناعة يستفيد من اتفاقية منظمة التجارة العالمية في التدابير الوقائية ودراساتها بشكل مستفيض للإفادة من القواعد المنظمة فيها.**

■ **عدم وجود جهاز نوعي صناعي متخصص لتوحيد أسس ومبادئ دراسات الجدوى الاقتصادية، مما يجعل مؤشرات الربحية تختلف من مشروع إلى آخر.**

■ **ضعف التنسيق بين هيئة المواصفات والمقاييس الخليجية وهيئة المواصفات العالمية ISO، إذ يتطلب القطاع الصناعي توافر جهاز فني متخصص وفعال لتحديد مواصفات الإنتاج المحلي والتثبت (باستمرار) من توافرها، والأهم من ذلك مراقبة الإنتاج الصناعي المستورد، والتثبت**

من توافر الشروط والوصفات العالمية فيه. فبمواز التوافقية هذا يخدم المنتج المحلي من جهة، لأنه يشجع على الجودة في الإنتاج وفي الوقت نفسه يضمن الحماية من مزاومة الإنتاج المستورد التماثل الذي لا تتوفر فيه الوصفات المطلوبة. كما أنه يخدم المستهلك بإعطائه الثقة في سلامة ومستوى الإنتاج المحلي من جهة أخرى.

■ عدم وجود جهاز في متخصص لدراسة الاتفاقيات مع الشريك الأجنبي، خاصة في الشركات الأجنبية الصناعية التي تولى نقل التقنية للقطاع الصناعي الكويتي، من دون وجود فواعل محددة تكون قادرة للتطبيق والتوافقية ملحا من إلحاق الذين والضرر بأصنام المشاريع الصناعية وعدم نجاحها أحيانا أو انخفاض كفاءتها الإنتاجية وظهوان ميزاتها النسبية أحيانا أخرى.

■ صفرحجم السوق المحلية، وبالتالي ضرورة لجهود الصناعات المحلية إلى السوق الخارجية مع ما يحمل ذلك من صعوبات المنافسة الخارجية.

■ غياب الوعي لدى المستهلك المحلي بأهمية اقتناء السلع محلية الصنع.

## ٢ - انعكاسات اتفاقيات منظمة على القطاع الصناعي المحلي

تتجلى انعكاسات الاتفاقيات الدولية على القطاع الصناعي الكويتي (٦) بأكثر عامة (ب) آثار خاصة (ج) آثار الدعم الصناعي.

أ - الآثار العامة، وتتلخص آثارها العامة في:

- الآثار العامة القائمة وهي:
- زيادة الصادرات من المنتجات البترولية بسبب إلغاء أو تخفيض الحواجز الجمركية، مع التعهد على إمكان المجاهرة باستخدام مبدأ مكافحة الإغراق من قبل الدول المستوردة.
- انخفاض أسعار بعض السلع الاستهلاكية بسبب المنافسة العالمية.
- زيادة الطلب على النفط بسبب حدوث توازن في معدلات النمو العالمية.
- انقياة من سياسة الإغراق التي قد تمارسها بعض الدول الصناعية ضد الصناعات الوطنية الكويتية.

• الآثار العامة الضارة وهي:

- ارتفاع أسعار المنتجات الزراعية بسبب إلغاء دعم للمنتجات الزراعية.
- إلحاق الضرر بالصناعة الوطنية بسبب إلغاء الدعم، وهذا ما سيجري بعته بتفصيل أكثر في الآثار الخاصة.

- عدم شمول الاتفاقيات لبعلة النفط ومنتجاته، وذلك بسبب غياب دول مجلس التعاون وعدم اشتراكها في المفاوضات لإتراج النفط ضمن المدولات، وكان المستفيد الأول من ذلك هو الدول القديمة، وكانت الذريعة أن النفط يجب ألا يخرج عن إطار منظمة (أوبك) OPEC، على

## أثر اتفاقيات منظمة التجارة العالمية

ورغم أن اتفاقيات منظمة التجارة العالمية لا تمنع من التفاوض حول التفتت، باعتباره من السلع التي تدخل في التجارة الدولية (هلال، ١٩٩٩).

- ارتفاع أسعار بعض السلع والخدمات بسبب تطبيق إجراءات اتفاقية حماية الملكية الفكرية (UNEP 1999).

- الأضرار الناجمة في القطاع المالي والصرفي بسبب المنافسة غير العادلة التي ستجلب من الإمكانات غير المتكافئة بين المؤسسات الوطنية والمؤسسات المالية الأجنبية.

### ١- الآثار التجارية:

بالتفصيل من أن الكويت كانت أول دولة عربية انضمت إلى اتفاقية الجات عام ١٩٦٢. كما انضمت كعضو في منظمة التجارة العالمية بتاريخ ٩٤/١/٩٥ تاريخ التصديق على الوثيقة التأسيسية لجولة الأوروغواي والتي تحولت إلى منظمة التجارة العالمية W.T.O في ١/١/١٩٩٥. فإن الكويت أصبحت مطالبة بضرورة الالتزام والوفاء بمتطلبات الانضمام للمنظمة ومنها: (وزارة التجارة والصناعة، من دون تاريخ).

- تقديم التزامات بتحديد الحد الأقصى للتعرفة الجمركية على قائمة السلع والخدمات التي تشكل تجارتها الخارجية، وهي ما قامت الكويت بتقديمه، حيث وضعت سقفها في الحد الأقصى وهو ٢٠٠٠ على أن يتم تطبيق هذه التعريفات على أي من السلع المستوردة.

- إلغاء الدعم التصريحي القديم للصناعات الوطنية وإلى الحدود الزمنية المحددة وخاصة الدعم المقدم في مجال الطاقة: <http://Archivebota.Bak>

- فتح الأسواق أمام السلع المستوردة.

- إجراء تغييرات جذرية في الأنظمة والتشريعات والقوانين التجارية بما يتواءم مع متطلبات الاتفاقيات الدولية.

- معالجة الطلق في هيكل التجارة الخارجية لدولة الكويت.

والأصل أن تقدم الدول أعضاء المنظمة بالتصاريح أصلاً، ومنذ انضمامها إلى المنظمة، إلا أن الدول النامية أعطيت فترات انتقالية لتوفيق أوضاعها، وقد كان هناك محاولات لإدراج الكويت ضمن الدول المتقدمة استناداً إلى معدلات الدخل الفردية فيها فقط بحراًها من فترات السماح الانتقالية المنوطة للدول النامية (الإسكوا ١٩٩٧).

### ٢- الدعم الحكومي والآثار الاقتصادية:

من المعلوم أن الصناعة الكويتية تتمتع بأوجه عديدة من الدعم الحكومي متمثلة في:

- خدمات البنية الأساسية في الدولة، وهذه الخدمات لن تتأثر، حتى ويمكن التوسع فيها

بما يكفل رفع كفاءة الصناعة الوطنية.

- العون الفني والمساعدة في مرحلة ما قبل الاستثمار، ويتجلى (نظرياً) في تقديم المساعدة في مجال دراسات فرص الاستثمار، وكذلك في مساعدة الحكومة في بعض نضجات دراسات الجدوى الاقتصادية المشاريع الصناعية. إن الملتحق لقانون الصناعة الكويتي لا يحدد نصاً صريحاً يشير إلى مساعدة المستثمرين في تحديد فرص الاستثمار المتاحة، وإن كانت المادة (١٥) تشير إلى إمكان المستثمر الحصول من وزارة التجارة والصناعة على معلومات وبيانات إحصائية وخرائط هنية ودراسات متعلقة بصناعة معينة تهم صاحب المشروع بشروط، توافقها لدى الوزارة.

كما نصت المادة (١٦) بأنه يجوز للدولة أن تساعده مادي في نطاقات الدراسة والبحوث للمشاريع الصناعية الحديثة، وذلك للتأكد من الجدوى، وبناء على توصية لجنة تنمية الصناعة وموافقة الوزير. وفي حال نجاح المشروع يتكفل صاحب المشروع بكامل التغطيات وفي حال الفشل تتحمل الدولة نصف التكاليف.

إن هذا النوع من العون أيضاً يعتبر من الدعم غير المحظور، ويبقى موضوع النقاضي فيه مجالاً غنياً فيما إذا أثبتت دولة ما أن هذا العون يشكل ضرراً لها.

- إنشاء المدن الصناعية وتوفير الطرقات وأسعار مدعمة، أجراً لقانون الصناعة لذلك المشروع الصناعي التقدم بطلب تخصيص قطعة من الأراضي المخصصة للصناعة، وذلك إلى وزارة التجارة والصناعة والخطوط والمرافق. كما تقدم الحكومة بأشعار تشجيعية كلاً من الكهرباء والماء والغاز. ووفقاً لاتفاقيات الكويت تجاه المنطقة هذه فإن يكون هناك اعتراض على إقامة المدن والمناطق الصناعية فإن هذا لا يُلزم بل على وسائل الدعم المتوافرة داخل هذه المناطق.

- الدعم المالي والقروض والتسهيلات المالية الميسرة،

لقد أشار قانون الصناعة إلى أن لأصحاب المشاريع الصناعية افضلية الحصول على قرض من بنك الكويت الصناعي بعد موافقة وزير المالية ووزير الصناعة ويحدد البنك شروط القرض وقيمه وسمعة الفائدة وفترة السماح وفترة السداد. ويعفى القرضات الممنوحة بموجب إعادة النظر في هذا النوع من الدعم مما يشترط المستثمرين الصناعيين للاقتراض بسمعة السمو، وهذا سيؤدي بالضرورة إلى زيادة تكاليف الإنتاج وإضعاف القدرة التنافسية للمنتج الوطني من جهة أخرى.

- الإعفاءات الضريبية والجمركية،

حيث تتمتع بعض السلع المستوردة بإعفاء من الرسوم الجمركية كأحد حوافز التصنيع، وكذلك إعفاء الصادرات من الرسوم والضرائب مما يقوي القدرة التنافسية. وقد وضعت الكويت ضريبة جمركية بمعدل ٢٠٪ على المستوردة وإعفاء المستوردة الصناعية من التعريف والآلات والواد الأولية من الرسوم الجمركية.

## أثر الإعفاءات من صناعة الكوييت العالمية

وفي مجال الاتفاقيات الدولية فمن غير المنظر أن تقدم الصناعة الكوييتية هذه الميزة بحكم أن شروط الكويت هي (2000 + 2010).

- الحماية الجمركية للمنتجات الوطنية، حيث وضعت الحكومة إجراءات حماية للصناعة المحلية بوضع نسبة معينة للمعرفة الجمركية 20% لبعض المواد و 25% لباقي المواد، ومنع أو حظر استيراد مواد وسلع محددة تكون منتجة محليا. إلا أن هذه الإجراءات ستقلد فعاليتها مع نهاية الفترة الانتقالية الملوحدة للكويت لإلغاء إجراءات الحماية وفق متطلبات اتفاقيات المنطقة.

- الأفضلية في المشتريات الحكومية

نصت المادة (18) من قانون الصناعة على إعطاء الأفضلية في المشتريات الحكومية لمنتجات الصناعة المحلية بشرط تماثلها مع المنتجات الأجنبية من حيث الجودة والسعر المماثل. وكذلك قرار مجلس الوزراء في 1982/7/2 الذي أعطى أفضلية للمنافسات الحكومية للمنتجات المحلية للمطابقة للمواصفات المطلوبة في حال عرض سلع مستوردة معادلة للمحلية، وذلك دعما وحماية للإنتاج المحلي، كما يمكن في مناقصات التوريد إعطاء الأولوية للمطابقات المحلية، حتى لو زادت 20% على أولى سعر للسلع مستوردة معادلة.

وتطبيقا لهذا عدم التمييز بين السلع المحلية والأجنبية ومبدأ الدولة الأولى بالرعاية، فإنه يستعين على الكويت وفق العمل بهذا النوع من الدعم أو تخفيضه تدريجيا حسب الحد الزمنية الملوحدة، مما يثير جدل هذه الاتفاقية الأجنبية مع الإشارة إلى أن الكويت لم توقع بعد على اتفاقيات المشتريات الحكومية التي ملزمة التجارة العالمية حيث إن هذه الاتفاقيات غير ملزمة للدول الأعضاء في WTO/للاتضمام إليها <http://www.wto.org>

### الخلاصة: التحديات والفرص أمام القطاع الصناعي الكويتي

❖ التحديات أمام القطاع الصناعي: (الهيئة العامة للصناعة، من

دون تاريخ)

1- من خلال ما أسفرض سابقا، وخاصة في مجال الدعم

الحكومي، فإن مطالبة المنظمة بإزالة الدعم تدريجيا تشكل تحديا كبيرا للصناعة الوطنية على رغم أن الكويت غير مطالبة بإزالة الدعم الحكومي عن الصناعات المحلية بشكل فوري، بسبب أن الكويت قد صلت ضمن الدول القائمة كما أسلفنا، مما يعني أن هناك مهلة تصل إلى تسع سنوات (ابتداء من عام 1995) لإزالة الدعم نهائيا.

إلا أن مهلة السنوات التسع للالتزام بأحكام الاتفاقيات مشروطة بمجموعة من النصوص والعضويات القانونية التي قد تمنع الاستفادة من كامل الدد، خصوصا في الصناعات الوطنية ذات الميزة التنافسية الكبيرة كالبتروكيماويات، وكذلك صناعات مشتقات البترول التي تعتمد بشكل أساسي على الطاقة في عملياتها الإنتاجية. إن هذه الصناعات يفترض (نظريا) أن

تفتتح أمامها أسواق الدول المتقدمة هي أوروبا واليابان، (والصين حالياً بعد انضمامها إلى المنظمة رسمياً في نوفمبر ٢٠٠١)، إلا أن هذه التسهيلات تطغى حالياً، وبشكل فعلي، لنظام الحصص والقيود الجمالية متعددة، وسيبقى هذه الدول مستمرة بفرض أشكال جمالية غير معهودة أو غير متوقعة من قبل دولة الكويت. فقد تلجأ إلى مبدأ مكافحة الإغراق أو غيره ما دامت لديها قوة تفاوضية كبيرة، ومعرفة تامة بعيشات ودقائق بنود الاتفاقيات، ويظهر التحدي هنا مرة أخرى أمام الصناعة البتروكيمياوية الكويتية متمثلة في ضرورة رفع القدرة التفاوضية والإتمام التام بنود الاتفاقيات، إن هذا التحدي لا يمكن مجاوبته على المستوى الكويتي الوطني فقط، بل لا بد من أن يجابه على مستوى دول مجلس التعاون من جهة وعلى مستوى الدول النامية الأخرى ذات المصالح المشتركة والتي لها عزايها نسبية في الصناعات البتروكيمياوية من جهة أخرى. (بن عبيد، ٢٠٠١).

٢- تتعرض الصناعة الوطنية الكويتية بسبب اتفاقيات المنظمة لشهد مزيج آخر يتمثل من جهة في إمكان خصاصة جزء كبير من السوق المحلية التي ستفتح أمام المستوردات الأجنبية من دون قيد أو حماية، وذلك بعد انتهاء الفترة الانتقالية المشار إليها أعلاه، وعلى رغم أنه من جهة أخرى وفي المقابل فإن القدرة التنافسية قد لا تكون قوية بشكل كافٍ لاختراق تلك الأسواق، وخاصة على المدى القصير الذي يتطلب إعادة هيكلة القطاع الصناعي.

٣- ناحية أخرى نشيط بأن تقوم الحكومة الكويتية بقيادة وزارة الدعم عن الصناعات الوطنية بأن ترفع نسبة الرسوم الجمركية المطبقة حالياً وفي ذلك إلى نسب أعلى وتفتح ضمن صفوف الاتفاقيات المصدرة سابقاً وهي  $(21\% + 21\%)$  كإجراءات حماية مضمومة ما دامت ضمن صفوف الاتفاقيات، إلا أن ذلك قد يصعب مستلزمات الإنتاج، مما يعني زيادة تكاليف الإنتاج وفقدان جزء من القدرة التنافسية، أي أن صفوف الاتفاقيات سلاح ذو حدين، والتحدي يكمن في كيفية استخدام هذا السلاح بشكل يؤدي إلى أقصى منافع ممكنة وأقل التكاليف (الضائقة) على الصناعة الوطنية.

٤- في مجال الرسوم المالية والتضامنية، فإن توقعات المزيد من تحرير تجارة السلع الصناعية لا بد من أخذ بعين الاعتبار عقد وضع استراتيجيات القطاع الصناعي الكويتي، حيث إن الرسوم الجمركية رغم تخفيضها وزيادتها (تجهيزتها) في عدد من القطاعات الاقتصادية، إلا أن رسوماً عالية وتضامنية ما زالت تعيق الصادرات الصناعية للدول النامية ومنها الكويت.

٥- هناك تحدٍ كبير آخر يتعلق بالاندماجات الصناعية على مستوى دول مجلس التعاون، والاندماجات الإقليمية لتعب دوراً أساسياً في العلاقات التجارية الصناعية الدولية، لقد شهدت الاندماجات الصناعية في دول العالم، وما لم تكن أهداف هذه الاندماجات متعارضة مع



## أثر اتفاقيات منظمة التجارة العالمية

اتفاقيات المنظمة، فإن المنظمة تسمح بإنشاء وتطوير هذه التجمعات الاقتصادية. وقد سمحت قواعد المنظمة بإمكان تبادل الاستثمارات الجمركية والتجارية فيما بين أعضاء التكتلات أو الانتماءات الإقليمية من دون سعيها على دول أخرى خارجها، وذلك استثناء من مبدأ الدولة الأولى بالرعاية MFN - إن لهذا البعد انعكاسات مهمة على القطاع الصناعي الخليجي عامة والكويتي على وجه الخصوص (البنك الإسلامي للتنمية، ٢٠٠١). إذ يتطلب الأمر أن نوضح الاستراتيجية على مستوى دول المجلس، وحتى على مستوى دول أخرى ذات مصالح مشتركة.

كما أن الانتماءات الإقليمية على مستوى دول المجلس تشكل عصباً أساسياً في توسيع الأسواق وتخفيض القيود على الاستثمار والتصدير وتوحيد القوانين والأنظمة، وتحقيق التكامل الصناعي الخليجي بدلاً من التنافس، إلا أن المشكلة تكمن في إيجاد الشافع والتنسيق بين السياسات الصناعية الإقليمية من جهة والدولية من جهة أخرى وهي إطار الاتفاقيات الدولية للمنظمة WTO.

٦- أيضاً لدى القطاع الصناعي الكويتي تحدٍ آخر يتعلق بالمعايير الإلزامية والأختيارية التي تضمنتها اتفاقيات المنظمة. حيث تلعب المعايير واللوائح الفنية والمواصفات دوراً أساسياً في تفاعل السلع الصناعية الكويتية إلى الأسواق العالمية. على رغم أن اتفاقيات المنظمة الخاصة بكل من نظام الحواجز الفنية للتجارة T.B.T، وكذلك اتفاقية تايبر الصعقة والصحة النباتية، قد وضعت قواعد تلح استحداث هذه المعايير واللوائح الفنية كقيود أمام التجارة الدولية، فإنها قد تستعمل لإعاقة تداول السلع الصناعية الوطنية، أي أن التحدي يكمن في تطوير وسائل الإنتاج والعرفنة التامة بتناسيل تلك المعايير في إطار قواعد المنظمة مما يساعد على وضع خطط تنافس إلى السوق من دون فقدان الميزة التنسية للصناعات الوطنية. بمعنى أن تحسين جودة المنتج وفق المواصفات الدولية لتنظم الجودة يعتبر من أبرز التحديات التي ستواجه الصناعات الكويتية. (منظمة الخليج، ٢٠٠٠).

## ♦♦ الفرص أمام القطاع الصناعي الكويتي:

١- يعتبر التدرج في رفع الدعم عن الصناعات الوطنية (على مدى سبع سنوات) دافعاً لتوثيق الصناعات لأوضاعها مع المتطلبات اللازمة الجديدة، وبمما لتراجع أوضاعها ومزاياها التنافسية.

٢- فرص دخول الصناعات البشروكيمياوية والصناعات الأخرى ذات الزايف التنسية للأسواق الأجنبية، بسبب تخفيض أو إزالة القيود المفروضة عليها حالياً، وضرورة معرفة كيفية إليات الضرر في حال بقاء هذه القيود أو بعضها أمام الصناعات الوطنية.

٣- إن الانضمام للمنظمة يعني فتح الأسواق المحلية أمام المنتجات الأجنبية مما يؤدي إلى شدة المنافسة التي قد تدفع لرفع الكفاءة الإنتاجية للصناعة الوطنية وتحسين الجودة فيها.

- 1- تطرقنا سابقا إلى أن العضوية داخل المنظمة تعطي الحق لاستخدام أية مكافحة الإغراق، مما يعطي فرصة لحماية الصناعة الوطنية من عمليات الإغراق. لكن هذه الفرصة مشروطة بالمعرفة التامة لشروط إثبات الضرر.
- 2- أمام القطاع الصناعي فرصة أخرى هي استغلال ميزة موقع الدولة الجغرافي وقربها من السوق الأوروبي. وكذلك السوق العراقي الكامن والمترقب، وكذلك الاستقرار السياسي والتقدمي. وهذه عوامل تعطي ميزة تنافسية للصناعة الوطنية.
- 3- من الفرص المتاحة أيضا، ولفتح أسواق خارجية، فرصة استخدام منتجات الصناعة الوطنية كجزء من برامج الإعانات الخارجية، وخاصة الهيئات وهذه من المواضيع التي تعتبر كدعم غير محظور، وحتى إن كان قابلا للتناقص، إلا أن إثبات الضرر فيه يكتسبه الكثير من الصعوبات.
- 4- ضرورة التنسيق بين السلطات الصناعية على مستوى دول المجلس من جهة ومع تكتلات اقتصادية عالمية أخرى، مما يعطي قوة وميزة تفاوضية أكبر، وإذا ما كانت القوة التفاوضية موسعة مع تكتلات عالمية فهذا ما يمنح الأطراف التفاوضية صفة المجموعة الاقتصادية ذات الطبيعة التبادلية الداخلية (داخل الجميع) وليس دولة، أي تخرج من إطار الدولة الأولى بالرعاية، (مصرف الإمارات الصناعي 2001).
- 5- إذا إن ما سبق من فرص يفرض على دول المجلس الإسراع بالوسائل الإجرائية التالية:
  - الاتفاق على التدرجة الجغرافية الطبيعية للوحدة والإسراع بإقامة منطقة تجارة حرة (المتوقع إقامتها عام 2003).
  - الاتفاق على ميثاق مشترك لعمليات دول المجلس كخطوة على طريق الوحدة التفضية.
  - السماح بحرية نقل رؤوس الأموال وتلك الأسهم (بدأت بعض دول الخليج بتطبيقها).
- 6- ختامنا نقول إن الاتفاقيات الدولية في إطار منظمة التجارة العالمية WTO توفرت الحل الأمثل لمحوري مشاكل القطاع الصناعي الوطني ما دامت هذه الاتفاقيات لم تدرس بعقل ودقة شديدة كما أنها في الوقت نفسه ليست الشر المستطير ما دام متعلق القرار في القطاع الصناعي (الصناعيون - واتحاد الصناعيين - وغرف التجارة والصناعة) قاموا بالدراسة التفصيلية لما يهمهم من مواد اتفاقيات المنظمة وآليات تطبيقها بشكل نوعي متخصص حسب كل نشاط صناعي على حدة.

## الاقتصاد السياسي للبطالة

## تحليل لأخطر مشكلات الرأسمالية المعاصرة

تأليف: د. ومزي زكي (\*)

عرض وتقييم: د. عباس الجبرن (\*\*)

## تقديم:

صدر كتاب الاقتصاد السياسي للبطالة مؤلفه الأستاذ الدكتور ومزي زكي ضمن سلسلة عالم المعرفة، وهي سلسلة الكتب الثقافية الشهيرة التي تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في شهر أكتوبر عام ١٩٩٧. ويبلغ الكتاب في نحو ٥٠٠ صفحة من القطع الصغير، ويتضمن ثلاثة أبواب رئيسية هي:

الباب الأول:حنة البطالة في عالم اليوم.

الباب الثاني: تفسير البطالة في الفكر الاقتصادي.

الباب الثالث: الخروج من مأزق البطالة.

ويضم كل باب من هذه الأبواب حزمة من الأبحاث أو التفسيرات تبدأ بعد البحث الأول بعنوان: البطالة، معناها، قياسها وأنواعها. وهذه الأبحاث التي تقدم كل حزمة منها هي كل باب مقدمة تمهيدية معروضة على النحو التالي:

أولاً، مباحث الباب الأول، وهي أربعة تعرض لشكليات البطالة في البلدان الصناعية الرأسمالية، والدول التي انتقلت من النظام الاشتراكي إلى النظام الرأسمالي، والبلاد النامية، ثم البلاد العربية.

(\*) كان أستاذاً للاقتصاد بجامعة القاهرة وأديراً اقتصادياً في الكويت.

(\*\*) قسم الاقتصاد - كلية العلوم الإدارية - جامعة الكويت.

## البطالة في الاقتصاد السياسي

تلك، مباحث الباب الثاني، وهي ثمانية ويتناول كل منها أحد الموضوعات النظرية التالية: تفسير البطالة في الاقتصاد السياسي الكلاسيكي، تفسير البطالة في الفكر الماركسي، تفسير البطالة عند النيوكلاسيك، تفسير البطالة في المدرسة الكينزية، نماذج النمو الكينزية ومشكلة البطالة، النظريات التقنية في تفسير البطالة، صعود وهبوط مذهب فيليبس، والتفسير التكراري في البطالة.

ثالثاً، ضم الباب الثالث مبحثاً واحداً استعرض فيه عدد من المحاور تحت عنوان رئيسي تضمن تسائلاً مهماً: تحدي أزمة البطالة، هل يمكن العودة إلى هدف الشوغل الكامل؟ وتضمنت محاور هذا البحث ما يأتي:

أولاً، حماد الحوار حول تجاوز أزمة البطالة، حيث استعرضت وجهات نظر كل من مدرسة شيكاغو، مدرسة اقتصاديات جانب العرض، مدرسة التوقعات الرشيدة، المدرسة المؤسسية، ووجهات نظر الكينزيين الجدد.

ثانياً، الحلول العاجلة المقترحة لعلاج البطالة، حيث استعرض المؤلف ثلاثة حلول هي: الارتفاع بمعدل النمو الاقتصادي، خفض تكلفة العمل، ولتمثيل ظروف سوق العمل، ثم تحدثت عن الحاجة إلى بيئة دولية مواتية.

ثالثاً، مواجهة أزمة البطالة في البلاد النامية، حيث جرى تصنيف التوجهات إلى نوعين من الإجراءات، الإجراءات العاجلة للأجل القصير، وإجراءات الأجل الطويل. واختتم الكتاب هذه المباحث بخاتمة ضمت مجموعة من التيسلات العميقة التي مازالت تتطرق الإجابة.

### المؤلف:

والكتاب علم من العلوم الاقتصاد السياسي، وهو حائز على شهادة الدكتوراه في العلوم الاقتصادية من ألمانيا في عام ١٩٧٤، وعلى جائزة الدولة في الاقتصاد والثافة العامة، وسام العلوم والفنون من الدرجة الأولى من جمهورية مصر العربية في عام ١٩٧٤، وكان مستشاراً في البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة UNDP، وعمل مستشاراً في وزارة التخطيط في الكويت وأستاذاً في جامعة الكويت، وله نحو ٣٦ مؤلفاً في قضايا التنمية الاقتصادية والاقتصاد الكلي... ويعالج كتابه «الاقتصاد السياسي للبطالة» واحدة من أخطر المشكلات التي تواجهها مختلف بلدان العالم، التقدم منها والتنمية، على حد سواء، وهي مشكلة البطالة التي وصل عدد المتضررين تحت تعريفها إلى ما يقرب للمليار شخص.

ويحاول الكتاب تقصي مسببات هذه المشكلة وبحث الآثار والقنوات الاجتماعية والسياسية المتغيرة التي تترتب عليها، ويحاول البحث عن مخرج من مأزق البطالة، ويحدد الشروط اللازمة لذلك.

## توطئة:

ويجهد المؤلف لكتابة بتوطئة جميلة يشير فيها إلى قصاصة صحافية عشر عليها هي التمساء أثناء مهمة علمية، وكانت السبب وراء انشغاله الطويل بمشكلة البطالة في العالم، نقول القصاصة:

«وقف طفل صغير أمام والدته وهو يرتعش من قسوة البرد في أحد أيام شتاء عام 1979، وسألها ببراعة: لماذا لا تعطيتني التوتل يا أمي؟ قالت الأم: لأنه لا يوجد لدينا نعمم بالتوتل يا ولدي. فسألها الطفل: ولماذا لا يوجد نعمم بالتوتل؟ أجابت الأم: لأن والدك متعطل عن العمل، وعاد الآن يسألها: ولماذا يتعطل أبي عن العمل؟ قالت الأم: لأنه يوجد نعمم كثير بالأسواق يا ولدي».

## فصول الكتاب:

## المبحث الأول: البطالة: معانها، قياسها، أنواعها

في هذا البحث يشير الكاتب إلى ما استقر عليه رأي الاقتصاديين والخبراء بشأن تعريف المعطل عن العمل وهو «كل من هو قادر على العمل، ورغب فيه، ويبحث عنه ويتقبله عند مستوى الأجر السائد

ولكن دون جدوى» ثم يعرض البحث لطرق حساب معدل البطالة، ويشير إلى عدم تجانس فئات المعطلين عن العمل، ثم ينتقل إلى تعداد أنواع البطالة، حيث يعرف البطالة الدورية والبطالة الاحتكاكية والبطالة الهيكلية، ثم يميز بين البطالة الباصرة والبطالة الخفية، وبين البطالة الاختيارية والبطالة الإجبارية، ويعرف بعد ذلك معنى مصطلح التوظيف الكامل، وما يعنيه معدل البطالة الطبيعي، ثم يقرر جزئاً عرض مشكلة إعصانات البطالة.

## المبحث الثاني: البطالة في البلدان الصناعية الرأسمالية: نهاية عصر وبداية عصر جديد

يعرض البحث الثاني للتحقية التي انتقل فيها العالم الصناعي من مرحلة النمو المزدهر والاستقرار الذي حقق التوظيف الكامل بعد الحروب العالمية الثانية إلى مرحلة الأزمة الاقتصادية المستمرة التي بدأت في عقد السبعينات، حيث حل عصر «البطالة المستمرة» ويستعرض البحث أهم التغيرات التي أدت إلى مشكلة البطالة وهي: تحول نظام النقد الدولي وما تبع ذلك من فوضى في أسواق النقد الدولية، الصدمات النفطية، تزايد وزن أوروبا واليابان على حساب الولايات المتحدة، وما أدى إليه ذلك من ظهور عناصر الصراع والتوتر، تعاظم دور التمويل والعولمة، اضطراب حالة السيولة الدولية بسبب اندماج أسواق المال العالمية، تعاظم علاقات العجز والفضل بين الدول النامية والدول الصناعية، السياسات العامة الانكماشية، وشروع ظاهرة الخصخصة. وخلص هذا البحث إلى القول بأن مشكلة البطالة مازالت هي المشكلة الأولى التي تهدد بالفساد الوضع الاقتصادي والسياسي في البلدان الصناعية.

### المبحث الثالث: البطالة في الدول التي كانت الاشتراكية: هذه الأنظمة الوظيفية التي البطالة الصاعدة

يتلخص هذا المبحث الأضواء على واقع البطالة في الدول التي شهدت عملية انتقال من النظام الاشتراكي إلى النظام الرأسمالي في فترة التسعينات، وهو واقع يشهد بالقسوة ويشكل مشكلة ضخمة وخطيرة لهذه الدول، ويستلج الكاتب أن هذه المشكلة تشكل مازقا ضخما وقعت فيه شعوب هذه الدول، حيث فشلت «مزيا الاشتراكية» في مجالات الضمان الاجتماعي والأمن الوظيفي والحماية الاجتماعية ولم تحصل على «مزيا الرأسمالية» في مجال الاستهلاك.

### المبحث الرابع: البطالة في البلاد النامية: آثار فقد التنمية وتأثيرها على التنمية

يعرض هذا المبحث أسباب البطالة في البلاد النامية، وفي مقدمتها النمو السكاني السريع مقارنة بالنمو الاقتصادي، ثم يعرض أهم ملامح البطالة في هذه البلدان، وهي ملامح قاسية وتزداد قسوة عبر الزمن بسبب تدهور الأوضاع الاقتصادية وتراجع جهود التنمية وضعف الدور الحكومي، فضلا عن آثار رياح العولمة وضغوط برامج التثبيت والتكيف الهيكلي التي تفرضها للمنظمات الدولية مثل صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، ويضيف الكاتب إلى كل ذلك ما يتعرض له أنظمة الضمان الاجتماعي في البلاد النامية من صعوبات وتراجعات، فرافقت مع تزايد موجات البطالة وعمليات تسريح الموظفين من مشروعات القطاع العام.

### المبحث الخامس: البطالة في البلاد العربية: آثار البطالة على التنمية

يتسم هذا المبحث بالانحياز العربي إلى مجموعة من البلاد العربية النفطية والبلاد غير النفطية، ويعرض لشروط التوظيف والمشكلات الاقتصادية في كل من هاتين المجموعتين، ويخلص المبحث إلى حقيقة مفادها تدهور أوضاع المتطلعين عن العمل في البلاد العربية غير النفطية، تحت تأثير فقدان الدخل وفرض التشغيل، وتأثير الاتجاه التصاعدي لأسعار السلع والخدمات، وزيادة الضرائب غير المباشرة، وتقليص الإنفاق العام الموجه للخدمات الاجتماعية الأساسية مثل الصحة والتعليم والإسكان، ومحدودية مشروعات الضمان الاجتماعي.

### المبحث السادس: تفسير البطالة في الاقتصاد الكلاسيكي

يشكل هذا المبحث الفصل الأول في الباب الثاني من أبواب الكتاب، وهو يتناول البناء الفكري للاقتصاد الكلاسيكي، ومشكلة البطالة عند الكلاسيك، ثم يعرض لما أسماه الاستثناء الكلاسيكي في أفكار روبرت مالتوس الذي حذر من انتشار البطالة والتضرر في الأجل القصير.

### المبحث السابع: تفسير البطالة في الفكر الحديث: المبدأ الكلاسيكي إلى عهد البحث للتنظيم على المدى الطويل

يعرض المبحث السابع من الكتاب للفلسفة الاقتصادية التاركسية، كما يتناول التحليل التاركسي للبطالة، ودور الاقتصاد الرأسمالي في تفاقم مشكلة البطالة، ويعرض المبحث لأفكار

روجر لوكسمبورج في كتابها الشهير «تراكم رأس المال»، والتي خلصت إلى أن استمرار نمو الرأسمالية لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال التوسع والسيطرة على بيئات وأسواق جديدة (غير رأسمالية). كما يعرض لأفكار بول سوزي وبول باران، وصولاً إلى أفكار جبرارد دومينيل ودومينكو ليفي التي تمثلت في دراسة نشرت عام 1992 تحت عنوان «اقتصادات معدل الربح»، والتي خلصت إلى تصور ثلاثة سيناريوهات محتملة للمستقبل هي:

السيناريو الأول، يفترض استمرار تسور معدل الربح، وهو افتراض يقود إلى وضع التكاثف حيث تحاول الحكومات خفض عجز موازنتها العامة، مما يؤدي إلى التأثير سلباً على توزيع الدخل ومن ثم تفاقم مشكلة البطالة.

السيناريو الثاني، يفترض استمرار حالة التباطؤ في معدل الربح، وإذا ما حدث تدهور محتمل في المعدل، فإن ذلك سيكون على حساب وقف التقدم التكنولوجي، ومن ثم حدوث أزمة لا تقل خطراً عن الأزمة التي نتجت عن السيناريو الأول.

السيناريو الثالث، وهو أكثر السيناريوهات تعقلاً، ويقوم على تصور بدء اتجاه معدل الربح نحو الصعود مرة أخرى لفترة قادمة. وهو يفترض أن تحقيق ذلك سوف يتطلب استمرار الاستخدام المكثف للكمبيوتر ونظم المعلومات، وبوجه أشكل جديدة سرعة من العلاقات بين الشركات والمؤسسات، وبين الشركات والمؤسسات وباقي المجتمع، كما أن ذلك يتطلب التمويل المبدعي لمعاملات البحث والتطوير، وإنجاز ثورة إدارية جديدة بإمكانها التحرك باتجاه زيادة معدلات التراكم والنمو والتوزيع والأجور.

أخيراً، ألاحظ: فليس المبالغة من التيوكلاسيكية

جاء هذا البحث في سياق المنطقي، حيث تناول في مقدمته الآثار التي نتجت عن خريطة الواقع الاجتماعي الذي نشأت من خلاله أفكار المدرسة التيوكلاسيكية، والتي تعرف بالمدرسة الحديثة، ويخلص الكاتب من هذه الآثار إلى القول بأن مدرسة التحليل الحديث تمثل إرثاً من إرثات النخبة البورجوازية، وأن الهدف من أفكارها كان هو التصدي للهجمات والانتقادات العنيفة التي تعرض لها أسلوب الإنتاج الرأسمالي، وأن المهمة الرئيسية لهذه المدرسة كانت ابتكار أسلوب جديد للتحليل الاقتصادي يتأقلم مع الاقتصاد من نطاق تحليل العلاقات الاجتماعية إلى دائرة التحليل السلوكي لتصرفات المنتج والمستهلك، مستمدة في ذلك إلى فلسفة المذة والألم، ولذا أهمل عنصر الزمن من التحليل وأصبح التحليل الحدي متناهيها إلى حد كبير. وذلك على النقيض من الفكر الاقتصادي الكلاسيكي، ويستنتج لؤلؤف من هذا العرض الأسباب التي أدت إلى إهمال قضية البطالة في الفكر التيوكلاسيكي، الذي آمن بشاؤون ساي للأسواق ومن ثم افترض حالة التوظيف الكامل.

### المبحث الخامس: تفسير البطالة في المدرسة الكينزية

يعرض البحث التاسع أفكار المدرسة الكينزية التي قلبت المائدة على رؤس الاقتصاديين الكلاسيك والنيوكلاسيك، وذلك بعد أن حل الكساد الكبير في الدول الصناعية، وهو الكساد العمور الذي وضع الفكر النيوكلاسيكي في معلة شديدة، حيث لم يعجز عن توقع الكارثة فحسب، بل عجز عن تفسير أسبابها أيضا. ويصور الكاتب في عرض مشوق تداعيات كارثة عام 1929، وآثارها العميقة على المجتمعات، قبل أن يعرض البناء الفكري لكينز، ويخلص الكاتب إلى نتيجة مهمة بقوله إن كينز وهو يهدم البناء الكلاسيكي والنيوكلاسيكي لم ينجح في إقامة بناء أكثر قوة منه، بسبب العيوب الكثيرة التي شابت نظريته، وهو الأمر الذي ألبته واقع النظرية العامة ونزواتها في الوقت الحاضر على الرغم من طغيانها على مدى ثلاثة عقود زمنية متتالية.

### المبحث السادس: نتائج النمو الكينزية وحلقة البطالة

يقدم هذا البحث موضوعه بالتأكيد على رؤية كينز لفكيلة حل المشكلة الاقتصادية، وذلك من خلال الدعوة إلى تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي، أي على تقييد ما كان يؤمن به الفكر الكلاسيكي، ثم يستعرض البحث نتائج علاج النمو في نموذج هارود وكالغور وجوان رومسون، التي هدت إلى إبطاء النمو طويل المدى للنظام الرأسمالي دوره في التحليل بعد أن اقتصر تحليل كينز على مستويات المدى القصير. وقد حاولت هذه المباحث تحديد معدل النمو الضروري الذي يجب أن يتحقق في الاقتصاد حتى يمكن تجنب البطالة والتوصل إلى حالة التوظيف الكامل للمناعة الإنتاجية والموارد البشرية.

### المبحث الحادي عشر: النظريات النقدية في تفسير البطالة: هوزي، فيكسل، هاجك، فريدمان

يعرض البحث الحادي عشر أفكار كبار معبر في الفكر الاقتصادي حاول تفسير البطالة الدورية من خلال التركيز على العوامل التقيدية البحتة Monetary Factors، ومن ثم يرى هذا التيار أن علاج هذه المشكلات يتحقق من خلال استخدام أدوات السياسة النقدية. وينتهي رواد هذا التيار بهذا القدر أو ذلك إلى المدرسة الكلاسيكية في التفكير التي ترى أن الرأسمالية نظام ينتج بالقدرة على التصحيح التلقائي للاختلالات دولما حاجة إلى التدخل الحكومي في النشاط الاقتصادي. ويعرض البحث لنظرية هوزي حول الدورة الاقتصادية، ثم نظرية فيكسل في تفسير هذه الدورة من خلال تتبع الظروف بين ما أطلق عليه سعر الفائدة الطبيعي، ونظرية هايك التي تأثرت بالنظرية النمساوية في رأس المال في تفسيرها لأسباب البطالة الدورية، ثم نظرية ميلتون فريدمان الذي صار يعرف مع تياره بالمدرسة النقدية Monetarist أو مدرسة شيكاغو، والذي طور معادلة كمية النقود الكلاسيكية، وأعطى للنقود أهمية رئيسية في



تفسير التقلبات التي تحدث في مستويات الدخل والتأثير والتوظيف، ويخلص التحليل النقدي إلى اعتبار البطالة المسألة في البلدان الرأسمالية بطلانة اختيارية، لأن العمال يتعمدون بعضهم إرادتهم لأنهم يطالبون بأجور أعلى من الأجور المسندة، ومن ثم فإن البطالة الإجبارية ليس لها مكان في هذا التحليل. ويشير الكاتب في ختام مبحثه هذا إلى سبب الدراسة النقدية من توفير إجابات مقنعة لأسئلة كثيرة حول أنواع البطالة الأخرى.

### المبحث الثاني عشر: نموذج هيربوت منحنى فيليبس: حول البطالة وري البطالة والتضخم

يستعرض هذا المبحث ما توصل إليه فيليبس في عام 1968 من علاقة إحصائية قوية بين نسبة العاطلين إلى إجمالي السكان، ومعدل التغير في أجر الساعة للعامل خلال مدة زمنية تقرب من القرن، ومن ثم انتشار فكرة فيليبس في التحليل الاقتصادي، وهي الفكرة التي أعطت انطباعاً بأن البطالة هي الثمن الذي يتوجب على المجتمع أن يدفعه مقابل تحقيق التوظيف الكامل، وسرعان ما انتقلت هذه الفكرة إلى البرامج الاقتصادية في الدول الصناعية التي اعتمدت سياسات تهدف إلى الوصول إلى نقطة محددة على منحنى فيليبس تمثل معدلاً معيناً من البطالة يقابله معدل معين من التضخم، وهما العدلان الرضويان من وجهة نظر السياسة الاقتصادية المعنية. ثم ينقل المبحث إلى بيان اعتبار تحليل منحنى فيليبس بعد أن ثبت من الناحية العملية وجود أكثر من معدل للتضخم مقابل معدل معين للبطالة، مما يشير إلى عدم استقرار منحنى فيليبس.

### المبحث الثالث عشر: نظرية التناقص عند البطالة الطويلة

معدل البطالة الطبيعي يتحدد به المعدل الذي تكون عنده القوى المؤثرة في ارتفاع أو انخفاض الأسعار (الأجور) في حالة توازن، بحيث لا يكون هناك ميل لزيادة أو انخفاض معدلات التضخم. وقد حاول تبار فكري معاصر أن يعيد النظر في تقدير هذا المعدل الطبيعي، لتفسير مشكلة البطالة في الاقتصادات الرأسمالية المعاصرة، ويرى رواد هذا التفكير أن معدل البطالة الطبيعي قد اتجه إلى الارتفاع في العقود الأخيرة بسبب عدة عوامل، ويعرض البحث لهذه العوامل بقدر واف من التفصيل، ويخلص أنصار هذا التفكير إلى القول بأن هناك معدل بطالة وحيداً، يتوافق ويتناسب مع حالة الاستقرار النقدي والسمري، وأن أي محاولة لخفض البطالة من دون هذا المعدل سوف تؤدي إلى تسريع معدل التضخم، وهو التضخم يمول من خلال زيادة كمية النقود.

### المبحث الرابع عشر: التفسير الكونولوجي للبطالة: كينز، ليف وشوميتز

يستعرض هذا المبحث لأفكار كونترايف بشأن الموجات (الزواج والركود) التي يشهدها النشاط الاقتصادي في الدول الرأسمالية في الأجل الطويل (50 و 70 عاماً)، وأنتجت هذه

## الاعتماد المتبادل البطالة

الأفكار نقاشنا عسكيا بين الاقتصاديين في محاولة لتفسير مسببات هذه الموجات، وجاء شومبيتر ليحسم الجدل في هذا الموضوع في كتابه «الدورات الاقتصادية»، حيث استنتج أن مثل هذه الدورات تكون مقترنة بحدوث تغير هيكل في البلدان الصناعية ناجم عن تغيرات ابتكارية وتكنولوجية من شأنها دفع صناعات وقطاعات معينة للأمام-هنا- ولعروض صناعات وقطاعات أخرى للانهيار، على النحو الذي من شأنه إعادة تشكيل بنى الإنتاج القومي. ويخلص الكاتب إلى القول بأن برامج إعانات البطالة والضمان الاجتماعي كانت قد أسهمت حتى عهد قريب في تخفيف حدة هذه التغيرات الهيكلية، إلا أن صعود الليبرالية الجديدة وتساعد الدعوة إلى العودة إلى آليات السوق المطلقة، ومن ثم إعادة النظر في مشاريع إعانات البطالة والضمان الاجتماعي، من شأنها أن تؤدي إلى تفاقم آثار البطالة الناجمة عن التغيرات الهيكلية.

### المبحث الثالث عشر: ندى أزمة البطالة، هل يمكن العودة إلى هذا التوظيف المأثور؟

يحاول هذا المبحث، وهو في الباب الثالث من الكتاب، التقديم للإجابة عن سؤال يتعلق بكيفية الخروج من مأزق البطالة، وبعد عرض سريع لمخاطر وأثار البطالة، يعرض الكاتب المدارس الرئيسية الأربع التي دار بينها صراع فكري حاد بشأن سبل الخروج من الشكوة (مدرسة شيكاغو، مدرسة اقتصادية جانب العرض، مدرسة التوقعات الرشيدة، والمدرسة الوظيفية). كما يلمح وجهة نظر الكينزيين الجدد الذين رأوا أن اختلالات كراهل السياسيات من القرن العشرين وما بعدها ناتجة عن الصدمات وهي مدفوعة بصدمة ارتفاع أسعار النفط، وارتفاع أسعار الواردات، وأسعار الفائدة، وتقلبات سعر الصرف... إلخ.

ويتناول المبحث بعد ذلك الحلول العاجلة المقترحة لعلاج مشكلة البطالة، حيث يسلط هذه الحلول إلى ثلاث مجموعات رئيسية هي: الارتفاع بمعدل النمو الاقتصادي، وخفض تكلفة العمل، وتعديل ظروف سوق العمل، ثم ينتقل المبحث إلى الحديث عن مواجهة أزمة البطالة في البلاد النامية، والتصدي لها من خلال مستويين من الإجراءات، إجراءات الأجل القصير، وإجراءات الأجل المتوسط والطويل.

### خاتمة وتوصيات لتفكير الإجابة

في نهاية الكتاب خاتمة تلخص بعضا من النقاط والتركيزات الأساسية للاحتياجات التي خلص إليها المؤلف من تناوله لهذه القضية الخطيرة والمهمة. وينتهي الكاتب إلى التأكيد على أن وجود البطالة واستمرارها لفترة طويلة تعبير عن فشل واضح لآليات السوق في تحقيق التوظيف الكامل، وأن علاج الأزمة بحاجة إلى سياسات وأدوية وقاطعة، وأن الدولة التي كانت

تتولى مثل هذه السياسات، تتعرض إلى حالة من الإضعاف الشديد والتسليم على يد الرأسمالية المعولة، وي طرح المؤلف، حزمة من الأسئلة من الجهة التي ستقوم مثل هذه السياسات الضرورية في ظل هذا التراجع السريع لدور الدولة في النشاط الاقتصادي، وهي أسئلة ما زالت تبحث عن إجاباتها.

### الخلاصة

لقد اعتمد كتاب «الاقتصاد السياسي البطالة» تحليل لأخطر مشكلات الرأسمالية المعاصرة، على قائمة ثرية من التراجع والإسنادات العلمية الفنية، فضلاً عن إلحاق كل فصل من فصوله بهرمانس مغلطة مما يدل على موضوعية المنهجية العلمية التي اتبعها الكاتب في تسليط أفكار الكتاب وبالله التوفيق. ولا يقل التوجه الفكري للكاتب، وهو توجه واضح في الجوانب التحليلية والنقدية، من الأهمية العلمية والموضوعية لهذا الكتاب الذي يسلط الضوء على مختلف زوايا مشكلة البطالة، وهي مشكلة شائكة وبالقوة التعقيد، على مدى القرنين الماضيين. ويشكل هذا الكتاب إضافة غنية إلى المكتبة العربية في هذا الموضوع ذي الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وهو كتاب يستحق الدراسة بعناية واهتمام شديدين.

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

# آفاق نقدية

● تطوير أقطار المعلومات المتاحة للشرائح المتعددة العامة

● نشر دور دورية بيت المادية **المعارف** العلمية والتقنية الحديثة

ARCHIVE

● بحث الأثر والتأثيرات بين القديم والحديث

<http://archive.assass.com>

● استغلال التراث والهدايا وعرضها

● تطوير مقاييس البناء وبناء المقاييس وفق مضمون الدين المعاصر

## تقديم أقطار الملوثات البيئية الخطرة ملحة الحاجة العامة

د. عادل عوض (\*)

### ١ - المقدمة

أدت زيادة الإنسان في تحسين جودة المياه التي تستعمل مستعمل في معايير مياه الشرب المأهولة، وشعبها تأمين مياه شرب آمنة، وخصائصها من النواحي الكيميائية والبيولوجية المستهدفة، وفي الوقت نفسه، تلبية الاحتياجات المطلوبة، وحاليا هناك تحول في الاهتمام من النواحي المرضية المرتبطة بالتلوث الجرثومي إلى مشكلات أكثر تعقيدا وجديدة وخطورة على الصحة العامة، تتعلق بالإحالات المسببة للأمراض السرطانية والتشوهات الخلقية الناتجة عن المركبات السامة الموجودة في مياه الشرب.

إن تحقيق شروط المياه الصالحة للشرب يتطلب توفير مياه التزويد للشرب، ومن أهم المواد المشبعة المستخدمة بشكل واسع عالميا الأمونيا وشوارد الهيدروكلوريد وحمض الهيدروكلوريد والأوزون<sup>(١)</sup>. ومن بين هذه المواد تلاحظ استعمال غاز الكلورين كمادة تعقيم بشكل عادي في مختلف أقطار العالم ومن بينها الأقطار العربية.

ولذلك المعايير القياسية العالمية لمياه الشرب، ومن بينها معايير منظمة الصحة العالمية والمعايير العربية - ولها على سبيل المثال السورية والأردنية - وجود مستوى معين من غاز الكلور الحر المتبقي في مياه الشرب<sup>(٢) (٣)</sup>.

(\*) باحث في الهندسة البيئية والكوارث في جامعة طرطوس - كلية الهندسة المدنية - قسم الهندسة البيئية - الجمهورية العربية السورية.

## تسمية أخطار الملوثات البيئية الخطرة مادة الخطر العامة

يمكن أن يتولد تسميم المياه بالكحلور ومن خلال تفاعله مع المواد العضوية إلى تشكل مركبات جانبية خطيرة جدا على الصحة العامة، وتعد مركبات ثلاثي هالوميثان (THM) مجموعة من هذه المركبات الخطرة ذات علاقة بالتسميم بأخطار السرطانات<sup>(١٠)</sup>. وهناك نتائج بحثية مهمة تدل على وجود علاقة أكيدة بين تزايد المركبات العضوية الموجودة في مياه الشرب المعالجة بالكحلور، وبين تشكل مركبات ثلاثي هالوميثان<sup>(١١)</sup>.

في الولايات المتحدة الأمريكية تم في عام ١٩٩٩ تحريم أربعة من هذه المركبات في مياه الشرب: الكلوروفورم (CHCl<sub>3</sub>)، البروم ثنائي كلور الميثان (CHBrCl<sub>2</sub>)، ثنائي البروم كلوروميثان (CHBr<sub>2</sub>Cl) والبروموفورم (CHBr<sub>3</sub>)، ومن بين هذه المركبات يعد الكلوروفورم أكثرها ظهورا وبتركيز عالية<sup>(١٢)</sup>.

أما المركبات الأخرى الكلور العضوية مثل الهيدرات الزرارية المستخدمة بشكل واسع الانتشار للأغراض الزراعية، فقد أصبح وصولها إلى مصادر مياه الشرب (السطحية والجوفية)، متوقعا إن لم يكن مؤكدا، وخاصة من خلال الهطولات المطرية وجريانها التي تسوق الهيدرات في طريقها، سواء من التربة أو الهواء، لتصب في إحدى البحيرات أو الأنهار. وفي الوقت نفسه ترشح طبقة غشيمة، تنصل إلى الطبقات الحاكمة للمياه الجوفية، ومن بين هذه المركبات الدودة والبرين والديلفرين وغيرها، وهي أساسا من مركبات الكلور العضوية.

كما أن هناك مركبات عضوية منتشرة بشكل واسع في الصناعة كميثينات أو مزيلات الزيوت والدهون، مثل رباعي كلوريد الكربون وثنائي الفينيل التتعدد الكلور (PCP) وثلاثي كلور إيثين أو إيتيلين (TCF)، وهذه المركبات تصل إلى المصادر المائية بشكل أساسي من خلال شبكات الصرف الصحي، التي تجرف فيها نواتج تفصيل الجسوريات المطرية في مناطق انتشارها أو تجمعها بجوار مواقع المنشآت الصناعية، ومخاطر هذه المركبات المذكورة شبيهة بمخاطر مركبات ثلاثي هالوميثان.

ومن المركبات شديدة السمية نجد الديوكسين، ومن أشهر أنواعه مركب البيرين الثنائي والرباعي الكلور (TCDD - 2,3,7,8)، والمعروف باسم سيفيسو. ويحدث انتشاره في البيئة من خلال المياه الملوثة (مياه الصرف الصحي)، حيث يمكن أن يتوقع وجوده في حالة انحصار مع المواد العالقة أو الطافية الموجودة عادة بتركيز عالية نسبيا. وتعد التربة من أكبر وأهم المصادر التي تساهم في نقل مركب (TCDD) إلى البيئة.

إن انتقال الديوكسين في التربة وحركته فيها، يعتمدان على درجة الهلجنة وعلى الخواص الفيزيائية والكيميائية للمركب وخصائص التربة الموجود فيها. كما تقدر كمية الديوكسين حسب نتائج الأبحاث الألمانية المخزونة والمراكمة في التربة بحدود ١٠ سم في السنة<sup>(١٣)</sup>.

كما تشير الأبحاث العديدة إلى حدوث عملية انتقال كبيرة للمواد السامة خلال مسافات كبيرة ومناطق شاسعة، وهذا يؤكد وصول هذه المركبات من المواقع الصناعية (مصادر تشكها) إلى المصادر المائية. كما يلاحظ وجودها في رواسب البحيرات وعند مصبات الأنهار، ويميز وجودها إلى ما بعد عام ١٩٤٠. حيث كان قد بدأ الإنتاج الصناعي لواد تحتوي على مركبات الكلور العطرية<sup>(٢١)</sup>.

وقد حدد استيعاب الإنسان للديوكسين من ثلاث قنوات هي: (التربة، الحيوان، الإنسان)، (النبات - الإنسان)، (النباتات - الحيوانات التي تعيش على الأعلاف - الإنسان).

لا توجد هناك أي فوائد عملية لمركبات الديوكسين، وهي تظهر كمستجبات ثانوية غير مرغوب فيها أصلاً، لصاحب العمليات الكيميائية والعمليات الحرارية<sup>(٢٢)</sup>، وكمصادر ثابتة لإنتاج مركبات البنزين الشائبة والمتعددة الكلور مع الديوكسين يمكن ذكر المصادر التالية:

- ❖ النواتج التي لصاحب مركب «الكلوروفينول» وكل المركبات التي يكون الكلور طرفاً فيها.
- ❖ نواتج العمليات الحرارية، وهي عمليات حرق النعامة المنزلية ومخففات المبيدات الطبية وعمليات احتراق زيوت المحركات، وكذلك من أبحاث الاحتراق الصغيرة كذلك المستعملة في المنازل (الدافن، بوابير الكاز ...).

أما مركبات الكلوروفينولات (أو الفينولات الكلورية) صلباً شبيهاً شبيهاً مادة واقية ومبيداً للفطريات، هي الأخشاب والجلود والمعادن، وتستهلك مادة مطهرة ومقاومة للفطريات، ويمكن القول إن استعمالها مطهراً - بشكل خاص - يشير إلى إمكان مساهمتها في زيادة إنتاج مركبات البنزين الشائبة والمتعددة الكلور في مياه البحاري.

ومن بين مركبات الكلوروفينولات، يحتل مركب الكلوروفينول الضمائي PCP مكانة خاصة، فيما يتعلق بمساهمته في إنتاج مركبات البنزين الشائبة والمتعددة الكلور مع الديوكسين في البيئة، فهو يستعمل بشكل واسع وعلى نطاق عالمي، مبيداً للفطريات ومادة واقية للأخشاب، ومادة حافظة للمواد الجلدية والتسوجات، والمواد اللاصقة. وقد فُرض حظر على إنتاج هذا المركب (PCP) واستعماله في بعض الدول الغربية.

أيضاً يوجد مركب البنزين الشائبي والمتعدد الكلور (مع الديوكسين شائبا) في المركبات العضوية عديدة الكلورين شائي الفينيل (PCB). وهي توجد في زيوت المحولات الكهربائية وتعرف بأسماء تجارية مختلفة.

أما البنزين ومشتقاته فقد صنف تحت مركبات مسرطنة مؤكدة، أو كمفترات بيولوجية خطيرة، ويتميز البنزين ومشتقاته بأنها مركبات عضوية متطايرة (VOC) بدرجة غلبان أقل أو تساوي ١٠٠ م/أو ضغط بخار أكبر من ١ ملم في الدرجة ٢٥°م. ويعود الاهتمام الحديث بهذه

## تدوير أنظار الملوحة البيئية النظرة على البيئة العامة

المركبات إلى كونها في حالة بخار، مما يجعلها أكثر حركة وانتشاراً في الوسط المحيط بها وتصبح بذلك السيطرة عليها.

توجد هذه المركبات في مياه الصرف الصحي المتجمعة في المدن بكميات كبيرة، فعلى سبيل المثال قدرت كميتها في مياه الصرف الصحي الداخلة إلى محطات المعالجة في كاليفورنيا بحوالي ٢٢٥ طنًا سنوياً. حيث إن المحطات التقليدية للمعالجة لا تستطيع إزالة هذه المركبات أو معالجتها (٢٣).

إن حوادث التسكاب الخطر من الناقلات أو الشاحنات أو تعبئة سؤلي إلى وصول المركبات العضوية المتطايرة إلى التربة أو المياه الجوفية أو مياه البحار أو الأنهار أو البحيرات المستخدمة لأغراض الشرب، مما يؤدي إلى تلوثها بمواد خطيرة، كما يمكن أن يصل النفط إلى شبكات الصرف الصحي وبمقايير معشيرة من خلال التكرارات والمخازن والشوارع. إضافة إلى عدم وجود مراقبة كافية على الملوثات السائلة التي تطرحها المصانع، سواء في شبكات الصرف الصحي العامة أو في المصادر المائية العذبة أو الملاحية.

وبخصوص الملوثات اللاعضوية مثل المعادن الثقيلة (الزرنيخ، الكروم، النيكل، الأسبستوس وغيرها) فهددت ذات سمية عالية ومسرطنة أيضاً. حيث يمكن أن تصل إلى المصادر المائية المستخدمة لأغراض الشرب من خلال الملوثات السائلة التي تطرحها المصانع دون معالجتها أو إزالتها عند مصرفها.

لقد استلقت المعايير الإرشادية أو القياسية لمياه الشرب في المراحل السابقة إلى افتراض أن وجود الملوثات ضمن الحدود المسموح بها، أو أقل، أن يشكل خطراً أو ضرراً على الصحة، إلا أن المشكلات المرافقة بالملوثات السامة قد ظهرت واعتُرف بوجودها ومخاطرها حالياً. وتجدد من الضروري هنا التحدث عن المخاطر الصحية، والتعرض بشكل محدد لهذه الملوثات المذكورة، لأن خطر السرطان أو الولادات المشوهة أو الطفرات الوبائية الخطيرة أصبح قائماً، وبالتالي يطرح السؤال نفسه: هل يمكن أن نلبي بمستويات دنيا للخطورة

تناقش الدراسة بالتفصيل منظومة تقييم الأخطار من حيث:

١- تقدير أخطار التعرض للملوثات الضارة أو السامة الموجودة في مصادر المياه، وخاصة المستخدمة لأغراض الشرب.

٢- حجم الخطر الكامن نتيجة انتقال هذه الملوثات.

٣- الرتبة أو التلويح في حساب أو نمذجة التأثيرات الصحية نتيجة احتمالات التعرض. هادفين من ذلك كله إلى تحديد الأخطار الصحية بشكل منهجي لتقويعها بالتطبيق على حالات دراسة، انطلاقاً من المعايير العالمية الإرشادية أو القياسية لتوافقات مياه الشرب.



## ٢ - منظومة تقييم الأخطار (Risk Assessment)

تقوم عملية تقييم الأخطار المتوقع أن تلحق بالبيئة على جمع المعلومات (البيانات) المستخدمة في إيجاد العلاقة ما بين التجاوب وجراحة التلوث<sup>(٢١)</sup>. وتدمج هذه التقديرات بشكل عام مع معلومات التعرض الإنساني للحصول على تقدير عام للخطر. وهذا يتطلب استخدام معلومات حقيقية لتحري التأثيرات الصحية التي تترتب نتيجة تعرض الإنسان وأرو البيئة للمواد والظروف الخطرة. مثلاً فليس إلى أي مدى يمكن أن يشتغل تأثير المواد الكيميائية بدءاً من موقع التسريب أو الانسكاب لهذه المواد من خلال حادثة أو أكثر، ليشكل خطراً على مجموعات سكانية مجاورة، ثم تقييم الأضرار التي تترتب على واقعة التلوث وتعرض السكان والبيئة المجاورة للخطر<sup>(٢٢)</sup>. ويبدأ داخل موضوع تقييم الأخطار مع موضوع إدارة الأخطار (Risk management) المعرف بعملية أخذ القرار الشائع برد الفعل الإنساني المسؤول إزاء هذه الملوّات. وهذا يشمل دراسة الإجراءات الطارئة والحلول البديلة لتدارك تلك الأخطار المحتملة. وكذلك التنسيق بين نتائج عملية تقييم الأخطار والمعلومات الهندسية. وإذا ما توافرت معلومات الخطر، فإن الحكم السياسي والاجتماعي يكون لازماً للتقرير الحد المسموح به (مثال جزء في المليون) من الخطر وكيفية تحقيق مثل هذا الحد.

غير أننا لكي نعمل على معلومات إحصائية ذات قيمة، فيما يخص قضايا البيئة، يجب أن نأخذ في اعتابنا أن قدرنا كثيراً من الارتياح أو اللاتيقين (uncertainty) قد يحيط بعملية تقييم احتمالات الخطر. ولا تقتصر مسائل الارتياح أو اللاتيقين على عملية تقييم احتمالات الخطر. إذ إن الارتياح هو الدافع المحرك للمعلومات كافة، فهو لم يكن هناك شك وارتياح لما كان هناك بحث علمي، فالمعلوم هي سلسلة من العمليات التجريبية والبحثية دائمة التغير، والبحث العلمي يقوم على التنبؤ لاستنتاجات قابلة للقياس والاختبار. تعتمد غالباً على حقائق جديدة<sup>(٢٣)</sup>.

## ٢-١-٢: تقييم أخطار التعرض

## ٢-١-٢-١: أخطار التعرض في حالة المواجهة المباشرة للملوثات

إن علوئنا على العديد من العناصر الكيميائية في مصادر المياه سببه الأول هو تطور تقنيات اكتشاف أدق تركيز تلك المركبات الكيميائية في مصادر المياه المذكورة وليس السبب في تزايد استخدام تلك المركبات أو سوء استخدامها، وليس بالضرورة أن يكون تعرضنا للأخطار هو أكبر مما كان عليه منذ بضعة عقود مضت، بل إن زيادة الأمر هي أننا بقنا فعلاً تقنيات أحدث اليوم لاكتشاف المواد

## تقويم أخطار المخاطر البيئية الخطرة على البيئة العامة

الكيميائية الموجودة. هناك نقطتان لا بد من أخذهما بعين الاعتبار حين استخدام الوسائل المتوافرة لتقويم الأخطار:

١ - إن هناك حدوداً معينة لتعاقبية عملية «إدارة الأخطار» في تقليص الأخطار التي تلحق بالبيئة والحد منها. وليس هناك من سلطة تملك القدرة على أن تضع يدماً على كل مصادر الأخطار التي تهدد مجتمعنا ... وعلى سبيل تقريب وجهات النظر حول هذه المسألة أصبحنا اليوم نعد عملية «إدارة الأخطار البيئية» قائمة في الغالب على تقليص احتمالات الخطر إلى واحد في المليون، وهو ما يعرف قانونياً باسم «de minimis Risk» أي الأخطار الطفيفة والمعدومة التأثير. ونحن - أفراد هذا المجتمع - نعرض لمواجهة بعض الأخطار التي لا نملك أن نتفادها، كأن نعبرنا صاعقة، وهو احتمال نسبته واحد في المليون<sup>(١)</sup> (الجدول ١).

لقد وصلنا الآن إلى نقطة نعد فيها الخطر القبول بواقع نسبية واحد على مائة ألف (١/١٠٠٠٠٠) لاحتفال الموت نتيجة التعرض للخطر طيلة حياتنا<sup>(٢)</sup>. إن قولنا الخطر بنسبة واحد في المليون عن الذي يلجم مثلاً من عملية تطهير مرفق ملوث وإعادة تأهيله يعني محاولة تقليص الخطر الناجم عن تطهير المرفق إلى حجم الأخطار الأخرى التي تصيب بأفراد المجتمعات الحديثة.

٢ - إن ما يعجز معطيات تقويم الأخطار المعقدة عن عدم توفير المعطيات الكافية اللازمة، وهكذا فإن أهم الزئبج بالنسبة إلى عملية تقويم الأخطار تلك هو درجة الثقة بتلك العملية.

<http://Archivebeta.Bakhril.com>

إن هناك ارتياب أو لايقين فيما يتعلق بتقويم احتمال تعرض البشر للظواهر البيئية، ونحن قد نستخدم معطيات ناتجة عن المراقبة أو الرصد للوصول إلى تمثيل للمعدلات والتركييز، وبالتالي تقويم أخطار اعتماداً على المقارنات مع المعايير والمقاييس التي تعنى بحماية البيئة. ويمكن تطبيق هذه الطريقة فقط في الحالات التي تتوفر فيها معطيات المراقبة (الرصد) في المنطقة المطلوبة، كما يتضح في الشكل (١) سيناريو A.

وبالتفصيل، قد نحتاج إلى استخدام المعطيات الواردة إلينا من أبار المراقبة والرصد بفرض قياس العوامل (البارامترات) اللازمة لاستخدامها في نماذج رياضية حيث نستخدم النماذج المذكورة عقب ذلك لقياس قيم التعرض ومعدلاته (انظر سيناريو B من الشكل ١).

وعند إجراء عملية النمذجة الرياضية علينا أن نهتم بطرق انتقال العنصر التكون البيئي من المصدر، بحيث إنه يطلق أخطار تعرض على التفتيل. وفي حالات كثيرة نجد هناك العديد من الطرق التي تؤثر في درجة دقة حساب قيم احتمالات التعرض للخطر<sup>(٣)</sup>.

الجدول (١): الأخطار التي تزيد احتمالات الموت بنسبة واحد في المليون

لدخول عدد ١، ١ سيارة.
شرب ٥ - ٦ لتر خمر.
قضاء ساعة واحدة في منجم فحم.
المسفر مدة ٦ دقائق بوساطة زورق تجديف.
المسفر لمسافة ١٠ أميال بوساطة دراجة هوائية.
المسفر لمسافة ١٠٠٠ ميل بالطائرة النفاثة.
تناول مياه الشرب في مدينة ميامي لمدة سنة واحدة.
تناول عدد ١٠ ملعقة كبيرة من زبدة الفستق.
تناول عدد ١٠٠ شريحة لحم مشوية على فحم الخشب.
المصدر (Wilson, 1974).

٢-١-٢: الأوبئة (الأوبئة) في المختبرات الحاصلة نتيجة أخطاء التعرف البيئية الخاطئة

إن العنصر الأساسي في تقديم احتمال الخطر هو تحديد النقطة التي يتعرض فيها الناس للأذى. وتتوافر المعلومات اللازمة لهذا الغرض اعتماداً على نتائج الدراسات السمية والوبائية ... ومعظم الدراسات السمية تتجهل عليها بنوع تصنيف الدراسات الاختيارية التجريبية ... ففي مثل هذه الدراسة تكون كل الشروط البيئية ثابتة إلى أقصى درجة ممكنة، بينما لا يختلف سوى شرط واحد فقط، أو عدد قليل من الشروط، مع توقع أن تؤدي عمليات تعديل احتمالات التعرض للأخطار إلى إعطاء نتائج مختلفة في المحصلة النهائية.

وتتزايد ثقتنا بالنتيجة بشكل يزداد إلى التعرف على كل العوامل السمية، ومن ثم التحكم بها من خلال الاختيار الجاري. وفي المقابل فإن معظم الدراسات الوبائية ذات الأهمية والنسبة إلى عملية تقديم الأخطار تعتمد على الملاحظة والملاحظة، أي أن العملية لا تقوم على تناول الظروف والأوضاع التي يعيش فيها الناس، بل إن الدراسة تعتمد في تصميمها على الإفادة من الاختبارات الطبيعية، حيث تعرض فيها مجموعات من الناس والأفراد - بصورة عارضة عادة - لمستويات مختلفة من المؤثرات والمواد ذات الخطورة.

إن القوانين والأنظمة الاقتصادية تضع قيوداً على عدد الحيوانات التي يمكن أن تقطعها الدراسة الانضمامية. ومعظم التشريعات البيئية الشاغرة لاستخدام المواد والمركبات المسرطنة وتداولها وضعت بشكل يراعي ضمان عدم زيادة احتمال التعرض لخطر الإصابة والمسرطمان على مدى عمر الإنسان من ١٠<sup>-٦</sup> أو ١٠<sup>-٦</sup> أو ١٠<sup>-٦</sup>. وإذا تعرضت الحيوانات الاختيارية الماخلة في دراسة مؤثرات المعالجة الدوائية لمواد كيميائية مسرطنة بتركيز

معادلة تلك التي توجد في البيئات الملوثة نسبياً يكون احتمال حصول الورم الخبيث أقل من  $10^{-6}$  عادة. وهذا يتطلب أن تشمل الدراسة أكثر من 100 ألف حيوان لأجل التوصل إلى نتائج ذات أهمية إحصائية عالية. وحيث إن هذا غير مجد يتم تصميم الاختبار عادة باستخدام تراكيز مركبات كيميائية عالية نسبياً مع عدد قليل من الحيوانات لكي نحصل على نتائج تعرض أكثر خطورة. وبعد ذلك نستخدم تلك النتائج لكي نستعرض أو نحسب التأثيرات الحاصلة في معدلات تعرض أقل بكثير، وضمن الحدود الاعتيادية. في البيئة التي نقيم فيها الإنسان أو الوسط الذي يحيا وسطه وشملة. ونشير التقديرات إلى أن قيم الاستقراء الفلوقيني في النتائج الإحصائية عند التراكيز جرعات مؤثرة صغيرة من الملوثات قد تختلف بنسبة 10 ضعفاً. وذلك بحسب نموذج الاستقراء  $(10^2)$ . ومن ناحية أخرى، تقوم الدراسات الوبائية عادة على مجموعات منتهية معينة، وهذا يتم لتقويم احتمال التعرض لخطر الإصابة بالسرطان - على سبيل المثال - لدى العمال المعرضين لخطر المواد الملوثة بتراكيز عالية أكبر مما نراه عادة في البيئة الطبيعية. كذلك مطلوب استكمال أو استقراء النتائج والمعطيات من معدلات تعرض عالية إلى معدلات تعرض أدنى بكثير. وعلى الرغم من ذلك تمتاز النتائج الوبائية بأنها أفضل من المعطيات الانسماعية الحيوانية. فبما يخص عملية تقويم الأخطار، نظراً لعدم وجود حاجة إلى الانتقال بنتائج الاختبارات الجارية على الحيوان وتعميمها على البشر. هناك أوجه اختلاف بين الإنسان والحيوانات الاختبارية فيما يتعلق بجملة سمات منها: الحجم ومساحة الاستقلاب والأجهزة والأعضاء. موضوع الدراسة. إضافة إلى أوجه الاختلاف فيوكيميائية. <http://www.>

ولذلك، فلو أننا حصلنا على أدق القيم لحساب التأثيرات السمية المحتملة بفعل التعرض للبيئة الملوثة، لظل هناك قدر من الارتباك أو الغلظين يحيط بتلك القيم، وعلى أساس ذلك نكجأ إلى الاقتصاد والحذر في عملية استقراء أو تعميم المعطيات الناتجة. إننا نملك قدرًا كبيراً من المعطيات ذات العلاقة بالأثار المحتملة لتعرض الإنسان لبعض الأخطار.

وحتىما تجري سلسلة من الدراسات التي تهدف إلى تفعيل أوجه الاستفادة من معطيات الدراسات الوبائية لحساب احتمالات الخطر، فغير أن أخطاء جسيمة تحدث عند قياس مواقف التعرض لتراكيز صغيرة في الظروف البيئية الواقعية  $(10^3)$  كما أن معطيات الدراسات الانسماعية تشير إلى وجود مؤثرات بسيطة تتضائل سريعاً (لا تتناقض بصورة خطية) حين تكون تراكيز العناصر الملوثة منخفضة  $(10^2)$  تعتمد طريقة عامل الأمان (Safety Factor) أولاً على قياس حجم التجربة الاختبارية الأكبر، التي لا تختلف جذرياً عن حجم الجرعة الصفر (zero-dose control group) لدى مجموعة مقارنة (مستوى الآثار الضارة غير الشظورة أو NOVEL). وهذا المستوى يمثل القيم الدنيا المسموحة (الحدية) لاحتمال

التعرض لخطر معين. وبعد ذلك تقوم بتعديل مستوى NOAEL لتمثيل مختلف مستويات الأثر، وهو عامل أمان يصلح صيانة للحصول على حجم جرعة مرجعية RFD (REFERENCE DOSE) أو حجم تركيز مرجعي (REFERENCE CONCENTRATION) RFC. تشمل النتائج المترتبة على هذه الدراسات والقياسات المخرجات التالية:

١ - الجرعة المرجعية RFD، تعني حجم التعرض الأعظمي المسموح به في اليوم لمدة ملوثة غير مسرطنة نسبة إلى وزن جسم معين، مع عدم وجود احتمال التسبب في حصول أضرار وأضرار جهازية جسيمة طيلة حياة الشخص المعرض للجرعات بواسطة التعرض أو بأخرى (وحدات مع/ كغ وزن الجسم/ يوم).

٢ - معامل ميل أو اعداد السرطان CSF (CANCER SLOPE FACTOR) أو قيمة الفعالية، وهو مقياس لمدى احتمال الخطورة حسب تعديل حجم الجرعة لمدة كيميائية مسرطنة بعينها، ويفترض هنا وجود تعرض للإصابة بالسرطان نتيجة أي جرعات مسرطنة.

وعند عام ١٩٩٠ قامت وكالة EPA الأمريكية (١٧) بتعيين قيم الجرعات التالية الأعظمية من  $10^{-6}$  إلى  $10^{-1}$  كحدود لقيم الأخطار المقبولة عموماً، ويبدأ من حجم الجرعات  $10^{-6}$  وما فوق يجب أن نمد احتمالية الإصابة بالسرطان وحجم السكان المعرضين للخطر غير مقبولين بالنسبة إلى أي نموذج سيناريو للسكان أو للتعرض.

## ٢ - ١ - ٢ - تقدير حجم التعرض الفعلي للملوثات

هناك دليلاً مصدر موجود لا احتمال وحصول خطر تعرض المواد الملوثة للبيئة المحيطة. غير أنه لكي يكون هناك احتمال خطر يجب أولاً ثلاثة عناصر رئيسية تساهم في ذلك، وهي:

- ١ - وجود مصدر للمواد الملوثة. ٢ - توافر واسطة أو أكثر لانتقال المواد الملوثة.
- ٣ - وجود التلقي الذي سيحلقة الأذى في حال تعرض الكائنات وحجم جرعات عالية، حيث نشاهد هذه العوامل الثلاثة معقدة في الشكل (٢). وفي حال انتفاء وجود أي عامل من العوامل الثلاثة عندها لا يكون هناك أي خطر. ولذلك فإن تقويم الخطر هو في الحقيقة عملية منهجية تهدف إلى تقويم أهمية ودرجة تأثير مصادر التلوث وطرق التعرض المحتملة للخطر وقياسها الموجودة في نطاق كامل من وضعيات الفشل و/ أو سيناريوهات التعرض. قد تحدث واحدة من العمليات أو أكثر تؤدي إلى تعرض السكان والحيوان والبيئة المحيطة للخطر. وتشمل العمليات التي تؤدي إلى وجود الأخطار طرق انتقال التلوث الجيئي من المصدر إلى التلوث (الشكل ٣).

وحين تتلوث البيئة بأحد المركبات الكيميائية تقوم الخواص الفيزيائية للعناصر الملوثة وكذلك خواص وطبيعة البيئة المعرضة بدور مؤثر، ومن الضروري للغاية إجراء دراسات وقياسات لحجم تأثير ودور طرق انتقال المركبات الكيميائية الملوثة للبيئة من المصدر.

## تقديم أطر المخططات البيئية للتخفيف من الأثر البيئي العام

مسوراً بالبيئة، ثم إلى التآكل المتلفي أو المتفصيل. ويمكن في هذه الحالة اللجوء إلى استخدام النماذج التوضيحية العوامل المؤثرة والمساعدة. إن توافق مخططات مراقبة ورصد لأجل معايرة أو ضبط تواتر تحويل النموذج يساعد كثيراً على زيادة درجة الثقة بنتائج عملية النمذجة.

مثلاً استخدم شارما وآخرون (1997) عام 1996 للمخططات القياسية (المراقبة) لضمان صحة ودقة توقعات النموذج الرياضي للتوضيحات مركبات الهيدروكربونات العطرية متعددة الحلقات (PAHs) (الشكل 1). ويؤدي هذا إلى زيادة درجة الثقة بتوقعات التوضيح الناتجة اعتماداً على النموذج الذي نستعمله في الواقع التي لا تجري فيها قياسات أو مراقبة. ففي بعض الحالات تكون إحدى طرق انتقال الملوثات هي الصفة الأبرز. وبالتقابل نشاهد وجود أشكال متعددة من طرق الانتقال ذات الأهمية. وهذا يعكس لنا درجة صعوبة القيام بعملية تقويم احتمالات الخطر الشاملة (الجدولان 1 و 2).

قد تشمل طرق الانتقال المختلفة هذه وصول المواد الملوثة عن طريق وسط معين (ويشمل الهواء، والتربة والرواسب، والمياه السطحية والمياه الجوفية) إلى متقبلين مستعجلين عن طريق الجهاز التنفسي مثلاً أو ملامسة الجلد أو الجهاز الهضمي. وإن وجود العديد من الطرق لتعرض مختلف أجهزة وأعضاء الجسم للملوثات (طريق التشقق يعني أن الجهاز الهضمي بالخطر هو الرئتان. أما وصول الملوثات عن طريق التعرضات إلى تعرض المعدة للخطر). هو مؤشر إلى ضرورة القيام بعمل كبير لدراسات المخاطر وتقويم طرق وصول الملوثات إلى الإنسان والحيوان.

<http://Archivbase.Sakhr>

### الجدول (1): أمثلة على آليات انتقال الملوثات من منطقة المصدر

انبعاث الغبار في الجو.

انبعاث الغبار وترسبه فوق التربة المجاورة.

سيلان وتدفق رشاحة التلوث السحي إلى مستوى المياه الجوفية.

التعرض البشري عن خلال الملامسة المباشرة أو الابتلاع أو التشقق.

الجزيئات المعلقة المنجذبة نحو الأنهار عقب تساقط الأمطار.

سيلان المياه الجوفية نحو الأنهار.

التشريب إلى الحياة المائية من خلال الملامسة.

## الجدول (٣ ب): وسائل الحد من التعرض للملوثات

الوسيلة	
المياه الجوفية	شرب المياه الملوثة. تشق الغازات المتطايرة. تلوث الجلد من الاستحمام بالماء. شرب المياه الملوثة.
مياه سطحية	تشق الغازات المتطايرة. تلوث الجلد من الاستحمام بالماء الملوثة. مقدار الماء الداخل إلى المعدة بطريقة القم خلال السباحة.
التربة	تناول أسماك ملوثة. الابتلاع عن طريق القم. تشق الغازات المتطايرة (الخصيفات). تشق الغازات المتطايرة. تشق الخطرات الملوثة. تلوث الجلد عند ملامسته للبيئات الملوثة.

ومن المهم كذلك تحديد الأهمية النسبية لاختلاف أنواع سيناريوهات التعرض، ويجب عند تقويم وفهم احتمال الخطر الناجم عن التعرض للملوثات إلى إيضاح خصائص عملية التعرض والخواص الفيزيائية، خاصة عملية انتقال المواد الملوثة من مصدر التلوث البيئي إلى مواقع التعرض، وكذلك تعيين طرق انتقال الملوثات والتعرض لها والعمليات الكيميائية والجرعات التي يتعرض لها أي متقبل.

إن النماذج الرياضية لحساب وتقويم سيناريوهات التعرض هي عناصر مهمة في هذه العمليات. هناك العديد من أنظمة تصنيف النماذج الرياضية، خاصة منها ما يلي:

- ١ - نماذج الصندوق الأسود، ٢ - النماذج التحليلية، ٣ - النماذج العددية.

وتخضع عملية اختيار النموذج لما لا يقل عن ثلاثة شروط<sup>(١٥)</sup> وهي:

- ١ - رغبة وتقدير الباحث فيما يخص استخدام مختلف تقنيات النمذجة.
- ٢ - حجم وامتداد قاعدة البيانات المتوفرة.
- ٣ - النظام الفيزيائي موضوع النمذجة.

## نموذج أخطار الملوثات البيئية الخطرة مادة التربة العامة

هناك تفاصيل توضيحية عن مميزات وإشكالات مختلف النماذج يمكن العودة إليها في المصدر<sup>(1)</sup>.

وهكذا تتم عملية حساب احتمالات الخطر من خلال التوسيع بين طرق انتقال الملوثات المواد الملوثة واحتمالات حدوث التعرض. ويتميز نماذج ARA<sup>(2)</sup> أو AERIS<sup>(3)</sup> أمثلة على النماذج المستخدمة لإنجاز العمليات الحسابية المذكورة.

### أخطار التعرض للملوثات غير المسرطنة

بالنسبة للملوثات غير المسرطنة تحسب محصلات أو رواتج الخطر (HQ) ومؤشرات الخطر (HI) لأجل كل مادة ملوثة ذات علاقة ولأجل كل طريقة تعرض اعتماداً على العلاقة التالية:

$$HQ = \frac{CDI}{RFD} \quad \text{حيث يكون}$$

$CDI$  = الاستمصاص أو التراكم اليومي المستديم لطريقة التعرض (من المادة الكيميائية)؛

$RFD$  = الجرعة المرجعية لطريقة التعرض (من المادة الكيميائية)؛

$HQ$  = محصلة أو راتج الخطر غير المسرطن للمادة الكيميائية (من خلال طريقة التعرض)؛

وحيث إن أخطار التعرض للمواد الكيميائية غير المسرطنة تولى عملية إضافية تحسب مؤشر الخطر لأجل كل طريقة تعرض لجميع المواد الكيميائية الملوثة.

$$HI = 1 \quad \text{إذا كانت المواد الكيميائية } HI = \sum HQ \quad \text{حيث يكون}$$

$HI$  = مؤشر الخطر لطريقة التعرض (أو بعد ذلك بخصم مؤشرات طريقة التعرض في جميع

الطرق معاً)؛  $\sum$  = للحصول على إجمالي مؤشر خطر التعرض  $HI = \sum HI$  وإذا كان الدليل الإجمالي لخطر التعرض أكبر من واحد فتمتلك تعبئة عملية إدارة الأخطار المطلوبة.

### أخطار التعرض للملوثات المسرطنة

تحسب احتمال التعرض للخطر التراكم على مدى عمر الإنسان للمواد المسرطنة (ELCR) كما يلي:

$$ELCR = CDI \times CSF$$

حيث  $ELCR$  = احتمالية إصابة شخص بالمسرطن نتيجة التعرض لتركيب كيميائي (أمون وأحد)

$CDI$  = الاستمصاص أو التراكم اليومي على امتداد فترة زمنية معينة (مغ/كغ/يوم) للتركيب الكيميائي مع طريقة تعرض (أو  $CSF$  معامل ميول أو انحدار السرطان (مغ/كغ/يوم)<sup>(4)</sup>.

وتحسب خطر التعرض بالمسرطن كلياً طيلة حياة الإنسان بالإضافة لخطر التاجم عن عملية التعرض. وإذا كان خطر الإصابة بالمسرطن طيلة الحياة نتيجة التعرض أكبر من خطر التعرض يعتبر مقبولا (مثلاً  $10^{-6}$ ) يجب اللجوء حينئذ إلى إدارة الخطر.

وبذلك فإن عملية تقييم الخطر تؤدي إلى تقسيم المسألة إلى عناصرها المنطقية. غير أنه قد تكون هناك مشاكل مهمة في النموذج المستخدم في تمثيل خواص عملية انتقال المكونات الملوثة وتوضيحا من المصدر إلى التمثيل والمعطيات المستخدمة كإدخالات إلى النماذج والنهم



العلمي للجبرعات المرجعية. ولإثبات هذه المسألة نأخذ الحالة المذكورة في الشكل (5) الذي يوضح أبعثات الدخان من مدخن مصنع فولاذ التي تسبب أخطارا على المدى البعيد للمناطق السكنية المجاورة، وتتضمن الغازات القابلة متجهها (vector) للمكونات البيئية (هيدروكربونات عطرية متعددة الحلوى (PAHs) والمروضة بتأثيرها المسرطن، ونشير هنا إلى وجود جملة من الاعتبارات المهمة، وهي كما يلي:

- 1 - مدى دقة حساب الغازات القابلة.
- 2 - إلى أي درجة تؤثر الترسبات على انتقال مكون PAHs قبل وصوله موقع التمثيل.
- 3 - مدى تأثير معدلات اتجاه الرياح وتأثير سرعات الرياح في حدوث التلوث والخطر.
- 4 - في حال بلوغ معدلات التعرض فيما معينة فما هو احتمال تعرض صحة المواطن للخطر؟ ما هو مقدار الثقة بحجم الجرعة المرجعية؟

نل التناقص من 1 حتى 4 على بعض حالات عدم الثقة المرتبطة بتقويم احتمالات التعرض للخطر. وكذلك الأمر لشاهد وجود حالات أرتباب وعدم ثقة بما يتعلق بقيم التركيز في الهواء الجوفية في موقع أو نقطة معينة بعيدة عن موقع الطمر الصحي حيث يكون احتمال انتقال وشاحنة الطمر الصحي (trucks) مرتبطة بخواص التربة والآليات المعلقة، ونستطيع هنا نموذج انتقال للمكونات الخطرة للربط بين مختلف العوامل العشوائية للوصول إلى تقدير نوعية المياه في الموقع المذكور.

إن تعرض التمثيل للملوث يؤدي إلى احتمال إصابته بالمرض، حيث نستخدم عادة نوعين من التقديرات: الصغار السن والبالغين. يتم تخصيص الأخطار والمخاطر بنماذج سلوكية وظروف معيشية لأجل تمثيل قيم الاستداس الأحيائية التركيبية للشخص في موقع التعرض. ونفترض أن تتراوح سن التمثيل البالغ بين 20 و 40 سنة، ووزنه 70 كغ ومعدل لنفسه اليومي 22م<sup>2</sup>. نفترض أن عمر الطفل الصغير يتراوح بين سنتين وثلاث سنوات ووزن جسمه 10 كغ ومعدل لنفسه اليومي 2م<sup>2</sup>. هناك ثلاث طرق للوصول للملوثات إلى أجهزة وأعضاء الجسم في كل تمثيل وهي:

- طريقة الابتلاع وطريقة التعرض الجلدي وطريقة الجهاز التنفسي.
- وتقوم الخطوة الأخيرة في عملية تقويم الخطر على تكامل مختلف نتائج تقويم التعرض والتأثيرات السامة.

## 2-2- مراحل تقويم الأخطار

تعتمد منهجيات تقويم الأخطار على تحديد الخطوات الأربع التالية<sup>(10)</sup>:

- 1 - تحديد الحدث أو الخطر (Hazard Identification) - 2 - تقويم الجرعة - 3 - التجاوب (Dose - Response Assessment) - 4 - تقويم التعرض (Exposure Assessment) - 5 - تصنيف الأخطار (Risk Characterization).
- وفيما يلي وصف مختصر لكل خطوة من هذه الخطوات.

## 2-2-1- الخطى

وتتمثل هذه الخطوة عملية موجهة للتعديد الآثار الصحية مثل السرطانات أو التشوهات الولادية المشتقة عن مواد أو مركبات كيميائية ذات علاقة. مستخدمين نتائج الاختبارات على الحيوانات أو كائنات اختبارية أخرى.

في البلدان النامية، تهيئ المتطلبات التنظيمية والثقافية من إمكانية إجراء الدراسات والبحوث العلمية للكشف عن الأخطار المرتبطة بمركبات كيميائية معينة، لذا ينصح في هذه الحالة باستخدام المعلومات ونتائج البحوث المنشورة دولياً من قبل جمعيات أو منظمات أو وكالات علمية متخصصة معروفة مثل الوكالة الدولية لبحوث السرطان (IARC) ووكالة حماية البيئة الأمريكية (EPA). استناداً إلى الحوادث المتراكمة من حالات دراسة عديدة وإلى دراسات وبائية ومعلومات عن التجارب الحيوانية، تستخدم وكالة حماية البيئة الأمريكية التصنيفات الخمسة التالية (B1) للمركبات الكيميائية ذات العلاقة بالتسبب بالسرطانات:

المجموعة 1A: مسرطنات مؤكدة للإنسان. هناك طواهر وبائية كافية تدعم العلاقة الثابتة ما بين التعرض لجزءة تلوث معرضة و حدوث السرطان.

المجموعة 1B: احتمال إصابة الإنسان بالسرطانات وتتضمن مجموعتين (B1B2). B1 تشير إلى حوادث وبائية محدودة، ولكن حوادث كافية من السرطانات على الحيوانات، B2 تعني معلومات إنشائية غير كافية، ولكن حوادث سرطانية كافية على الحيوانات.

المجموعة 2: يمكن إصابة الإنسان بالسرطانات. يستخدم هذا التصنيف لواء معرضة معينة مرافقة بحدوث محدودة من السرطانات على الحيوانات. ولكن مع عدم توفر معلومات إنشائية.

المجموعة 3: غير مصنفة سرطانياً. وتشمل المواد المعرضة ذات الآثار الضارة أو المؤذية غير المرافقة بحدوث سرطانية كافية سواء على الحيوان أو الإنسان، أو عدم توفر معلومات عنها.

المجموعة 4: حوادث غير مسرطنة. وتستخدم لواء معرضة لا يظهر من جرارتها أي حوادث مسرطنة على الأقل في اختبارين كافيين على الحيوانات في أنواع مختلفة منها أو في الدراسات الكافية الوراثية الإنشائية والحيوانية معاً.

مركبات الكلوروفورم للتشككة كنواتج جانبية عن كاثورة مياه الشرب مصنفة ضمن المجموعة 2B. وكذلك مركبات البهدات الزراعية (DDT والديلدرين) وثاني الفوسفيل للتعديد الكلور وثلاثي كلورو الأثيلين (الآثيلين) ورايع كلوريدالكربون والديوكسين والبيزنزو (P) بيرين كلها مصنفة أيضاً ضمن المجموعة 2B (الجدول رقم 3). ويعني ذلك أن احتمال الإصابة للإنسان بالسرطانات قائم ما دامت هناك حوادث سرطانية كافية على الحيوانات ولكنها غير كافية على الإنسان.

أما مركبات البنتزين والزنزينس والكروم والنيكل فهي مصنفة ضمن المجموعة A (الجنول رقم 1) أي أنها مواد مؤكدة تسببها بإصابة الإنسان بالسرطانات.

هناك تجارب الماتية أخرى أجريت على الحيوانات وبالتحديد مركب البنتزين الثنائي والرباعي الكور مع الديوكسين (TCDD - 2,3,7,8) وبيئت اختلاف درجة سميته وأثره بين حيوان وآخر. فهو في الخنزير البحري يعادل 1 ميكروغرام/كج من وزن الحيوان في اليوم. وفي حيوان الهامستر يصل إلى 5000 ميكروغرام/كج من وزنه، أما العمر النصفى لمركب الديوكسين فهو 17 يوما في الجرذان و 7 سنوات في جسم الإنسان. ويكثر في الأنسجة الدهنية<sup>(17)</sup>.

تعتبر بذلك الفئران والجرذان وحيوانات الهامستر المحتوية أجسامها على المركب ضمن المجموعة (B2) حيوانات مصابة بالسرطان. ولكن التيكاتيكية النولدة للسرطان هنا ما زالت شامضة، حيث إن خصوصيات الجينات أو المورثات تدل على التدرج في مستويات الورم السرطاني. بينما تدل الفحوصات طويلة المدى على الجينات المورثة للسرطان. وهذا يعني أن تبدأ بعض المواد بالاتحاد مع الحامض الأميني DNA، حيث يؤدي ذلك إلى بدء عملية السرطنة. وتعمل مستحضرات الورم السرطاني على تحويل الخلايا المعرضة إلى خلايا سرطانية. وتكون هذه المستحضرات ذات تأثير بيولوجي فعال. عندما يتم تجاوز القيمة المحددة (النموذج رقم) مدة أطول وبالتالي فإن ممرض السرطان ما هو إلا خروج الظاهرة الطبيعية عن معدل النمو أو التكاثر الطبيعي.

### 2-2-2- تقييم الجرعة - التوليد

وتعتبر هذه الخطوة صفات العلاقة ما بين جرعة المادة المتأولة (الملوث) ويظهر الآثار الصحية الضارة. فهي التجارب لحالات أو لود غير سرطانية، فإنه يفترض أن هناك عادة جرعة قياسية (تكون ذات مستوى شراخيص محدد لا يجوز تجاوزها). إذا ما تم التعرض لها، لن تكون هناك آثار ضارة. أما في حالة المواد المضرمة للتجاوبات سرطانية، فإنه لأسباب الوقاية نفترض أن التعرض لأي كمية من الملوثات السرطانية سيخلق أو سيسبب مرضا سرطانيا. وهذا يعني أنه لا توجد معايير قياسية لشراخيص محدد. من دون أي تجارب! ونظرا لعدم وجود معطيات حقيقية لتجارب على حيوانات تمت في منطقتنا العربية، فإن ذلك يضعنا دوما أمام نواح جدلية في اختيار الطريقة التي بها نسحب نتائج الجرعات من التراكيز العالية إلى التراكيز المنخفضة. هناك العديد من النماذج الرياضية الموجودة والمطبقة للتكشاف من التراكيز العالية إلى التراكيز المنخفضة. إن بعض النماذج الشائعة هي نماذج الطور الواحد والنماذج

## تطوير إطار الملوثة البيئية النظرية على الجهد العامة

المتعددة الأطوار أو المراحل (Multistage Model) وما دام الاختيار ليس قائما على معطيات متوافرة فإننا نطلقنا من طريقة اعتمادها وكالة حماية البيئة الأمريكية (EPA)، حماية للصحة العامة، وهي اختيار نموذج يقدر الخطر بالشك الأمثل، وكان ذلك محققا في تبني النموذج الاستقرائي الخطي المتعدد المراحل أو الأطوار (Linear Multistage Model) الذي هو نموذج خطي عند الجرعات الصغيرة أو للتلفئة المراقبة بشكل طردي مع متغير الخطر المحدد خطيا بحيث يكون مجال الثقة إحصائيا أكبر من 95% (أي حدود الخطأ أقل من 5%). وهذا يعني بشكل أدق أن احتمال تعرض الإنسان لخطر الإصابة بالسرطان مرتبط خطيا مع قيمة أو تركيز جرعة الملوثة. يسمى ميل منحني (الجرعة - التجاوب)، عند الجرعات للتلفئة باستخدام النموذج الاستقرائي المتعدد الأطوار، بمعامل اتحدار أو ميل السرطان أو بمعامل الضعالية (Cancer Slope Factor Or Potency Fac.) (الشكل 6). وتعطى المعادلة المستخدمة في حساب الخطر السرطاني التراكمي على مدى عمر الإنسان على الشكل التالي:

الخطر السرطاني التراكمي على مدى عمر الإنسان =

الجرعة اليومية الوسطية x معامل اتحدار أو ميل السرطان

$$LIFETIME RISK = AVERAGE DAILY DOSE (MG/KG/DAY)$$

$$\times POTENCY FACTOR (1/MLG/KG/DAY)$$

$$LIFETIME RISK = CDI \times CSF$$

وتؤخذ الجرعة كقيمة وسطية محددة على طول فترة عمر الإنسان المفترضة (٧٠ عاما). وتدعى هذه القيمة بالمعدل اليومي المستديم لتجرع الملوثة (CDI). ويسمى نظام المعلومات المطلوبة لإجراء هذه الحسابات المستندة إلى قواعد المعلومات الخاصة بالمواد السامة، نظام المعلومات للخطر التراكمي، (RIS). وهي بهذا تشكل الإطار التقييمي للخطر الإنساني.

### ٢-٢-٣ تطوير الخطر

وتتضمن هذه الخطوة تحديد حجم وطبيعة السكان الذين تعرضوا للمواد السامة المعتبرة، ولأجل تقدير الخطر المسبب بواسطة مياه الشرب الحارثة لبعض المواد السامة، فإنه من الضروري تحديد المعدل اليومي المستديم لتجرع الملوثة (CDI) ووزن جسم الإنسان.

ويقدر المعدل اليومي لتجرع الملوثة من خلال معرفة كمية المياه المستهلكة يوميا وتركيز المادة السامة في مياه الشرب. (الجدول 5) يعطي القيم المعيارية (القياسية) الناتجة المستخدمة في تقييم التعرض.

الجدول (٥) - التقييم المعيارية الموصى بها لفرض حسابات المعدل اليومي للتعرض حسب وكالة حماية البيئة الأمريكية (٣٠)	
العامل	القيمة المعيارية
الوزن الوسطي لجسم الإنسان (بالغ)	٧٠ كغ
الوزن الوسطي لجسم الإنسان (طفل)	١٠ كغ
كمية المياه المستهلكة يوميا (بالغ)	٢ لتر
كمية المياه المستهلكة يوميا (طفل)	١ لتر
مدة التعرض على مدى متوسط عمر الإنسان	٧٠ عاما

## ٢-٤: تصنيف الأخطار

إن عملية التكامل والربط بين الخطوات الثلاث السابقة تمكنا من استنتاج تقدير حجم المشكلة الصحية الواقعة في مجتمع إنساني ما ينشجع المياه الحارة لواء مسرطنة وبذلك تستطيع تحديد الخطر الإجمالي الصحي ككل على أي مدينة أو أي تجمع سكاني.

## ٢-٥: دراسة مع التلوث

في تحديدنا لخطر الأخطار المواقف من أمراض السرطانات، نطلقنا من المعايير الإرشادية (للملحظة الصحة العامة أو السورية المشددة منها) المسموح بها لبعض المركبات الخطرة في مياه الشرب (الجدولان ٣ و٤ العمود الثالث)، فهي على سبيل المثال في حالة الكلوروفورم (Chloroform) محددة في المعايير السورية بتركيز أعظمي مسموح به ٢٠ ميكروغرام/لتر، بينما هي في المعايير الإرشادية لمنظمة الصحة العالمية ٢٠٠ ميكروغرام / لتر.

وبالنسبة للمبيد الزراعي دلت فإن المعيار المسموح به هو ١ ميكروغرام / لتر وبالنسبة للمبيدات الزراعية مع الدرين والديترين فإن المعيار المسموح به هو ٣ - ٠ ميكروغرام/لتر، وبالنسبة لتركيب هيد الكورين ثنائي الفينيل (PCB) فهو ٥ - ٠ ميكروغرام/لتر، وهكذا بالنسبة لبقية المركبات الواردة في الجدولين (٣ و٤).

ولحساب الخطر المتوقع من السرطانات على طول فترة عمر الإنسان، افترضنا أن كمية تراكيز الملوثات الخطرة الموجودة في مياه الشرب هي نفسها ضمن المعايير المسموح بها، ولتبيان ذلك بالتفصيل افترضنا مركب الكلوروفورم كمثال حسابي بتركيز مسموح به حسب المعايير السورية وهو ٢٠ مكغ/ل.

المعدل اليومي المستديم لتجرع الطوث =

$$CDI = (30\mu g/l \times mg/l) / 1000 \mu g \times 31days/30 kg$$

$$= 0.000657mg/kg/day$$

الخطر السرطاني المعتمد على طول عمر الإنسان =

المعدل اليومي المستديم  $\times$  معامل الانحدار أو الهول

$$Pisk = 0.000037 \times 0.0006$$

$$2.22 \times 10^{-6} =$$

يمكن أن نلاحظ من هذه النتيجة أن الخطر السرطاني المعتمد على فترة عمر الإنسان حسب المعايير الإرشادية السورية نتيجة استهلاكه مياه الشرب المحتوية على تركيز اعظمي من الكوروفورم مساويا لما هو مسموح به يؤدي إلى موت خمسة أشخاص لكل مليون نسمة، وإذا أجرينا الحساب على أساس التركيز المسموح به حسب المعايير الإرشادية لمنظمة الصحة العالمية وهو 200مك/ل، فإن الخطر السرطاني المعتمد على طول فترة عمر الإنسان سيكون مساويا حوالي 25 شخصا لكل مليون نسمة.

وطبقي أن الأمور ستكون أسوأ بكثير فيما لو أجريت قياسات لتركيز ثلاثي الهالوميثات في مصادرنا المائية العذبة المستخدمة مصدرًا لمياه الشرب في البلدان العربية، وكانت قيمة لتركيز الكوروفورم المقبولة (أي مسموح به) حسب معايير منظمة الصحة العالمية (20) ولكن على سبيل المثال كبير - (10) اختلاف بين ما يمكن أن يكون الخطر السرطاني هو موت (250) شخصا لكل مليون نسمة.

<http://Archivwebeta.Sakh>

ليس هناك قياسات تجري حاليًا في بعض البلدان العربية إن لم يكن معظمها أو كلها، وذلك لتركيز ثلاثي الهالوميثات (THM) في مياه الشرب المعالجة أو مياه الصرف الصحي المعالجة، هناك دراسة وحيدة في المنطقة العربية على حد علم المؤلف قد أجريت لتقدير مستويات الـ THM في مياه الصرف الصحي الخارجة من محطة المعالجة، وذلك في الأردن<sup>(31)</sup>. وقد بينت نتائج هذه الدراسة أن مركبات ثلاثي الهالوميثات التي تم التحري عنها كانت من مركب الكوروفورم، والتي ازداد تركيزها بشكل كبير وسريع جدا مباشرة بعد عملية التنظيم لمياه الصرف الصحي المعالجة بيولوجيا، وهذا يدل على أن هذه العملية كانت مسؤولة عن تشكل هذه المركبات، كما دلت نتائج هذه الدراسة على أن الكوروفورم شكل أكثر من 90% من تركيز ثلاثي الهالوميثات الكلية.

وبشكل مشابه لما سبق تم تحديد الخطر السرطاني الناتج عن المركبات الأخرى التي هي ضمن التصنيف B2 مثل BDT حيث قدرت الوفيات بـ 10 أشخاص لكل مليون نسمة، والديلدرين حيث قدرت الوفيات بـ 24 شخصا لكل مليون نسمة، وثلاثي الفينيل المتعدد الكلور

(PCB) حيث قدرت الوفيات بـ ١٠٩ أشخاص لكل مليون نسمة، وإل TCE حيث قدرت الوفيات بحوالي شخصين لكل مليون نسمة، ورايع كلوريد الكربون حيث قدرت الوفيات بـ ٢٠٠ أشخاص لكل مليون نسمة، والديوكسين حيث قدرت الوفيات بـ ٢١ شخصاً لكل مليون نسمة، والبنزول (أ) بيرين حيث قدرت الوفيات بشخصين لكل مليون نسمة.

أما الخطر السرطاني الناتج عن المركبات المصنفة ضمن المجموعة الأولى (أ)، فقد كانت نتائجها كما يلي (الجدولان ٢ و٣):

في حال وجود كلوريد الفينيل في مياه الشرب: قدرت الوفيات بـ ٢٢٨ شخصاً لكل مليون شخص، وفي حال وجود البنزين في مياه الشرب: قدرت الوفيات بـ ٨ أشخاص لكل مليون شخص، وفي حال وجود الزئبق في مياه الشرب: قدرت الوفيات بـ ٥٠٠ شخص لكل مليون شخص.

تلاحظ مما سبق الأعداد الكبيرة المتوقعة لحدوث وفيات من أمراض السرطانات الناتجة فقط، من مياه الشرب، هذا فيما لو وجدت هذه التلوثات مجتمعة أو بعض منها في مياه الشرب، حتى عندما تحقق هذه المياه أو تتلزم بالمعايير القياسية العالمية المسموح بها، خاصة أننا نجد الخطر الكبير يأتي من المركبات المصنفة عديدة الكلورين ثنائي الفينيل (PCB) وكلوريد الفينيل والديوكسين، ويبدو الأمر خطيراً جداً في حال معدن الزئبق الذي تصل نتائجه خطورته إلى حدوث وفيات بمعدل ٥٠٠ شخص لكل مليون نسمة.

ولكن كيف ستكون النتائج فيما لو كانت هناك قريحتان محيطية حقيقية للمركبات الخطورة المذكورة في مصادرنا المائية العربية وأعطت فضلاً تركيز أكبر مما هو مسموح به بكثير، وبالتالي سيكون عدد الوفيات المتوقع بشكل أكبر من أمراض السرطانات عالياً جداً.

## ٤ - المطافعة

في حالة مركبات ثلاثي الهالوميثانات، صحيح أن عملية التعقيم هي خطوة مهمة في وحدات تقنية المياه ولتستخدم عدد مواضع معينة في هذه الوحدات إلا أنه يمكن أن تسبب نواتج جانبية شديدة الخطورة مرتبطة بحدوث أمراض السرطانات، ففي الحالات التي تحتوي فيها مصادر مياه الشرب على ملوثات عضوية فإنها من الأفضل هنا، تجنباً لخطر السرطانات عدم تعقيم مياه الشرب بالكلور. لأن ذلك سيؤدي إلى تشكل مركبات هي أكثر خطراً وضراً من إيجابيات تعقيم المياه بالكلور للتخضاء على البكتيريا الجرثومية، وقد أفردنا الحديث هنا حول هذه المركبات أكثر من أي ملوثات أخرى، نظراً لأهميتها وتوقع وجودها في مياه الشرب بشكل أكبر.

لقد تم حساب المخاطر الصحية الناتجة عن أمراض السرطانات على مدى عمر الإنسان استناداً إلى العوامل الموصى بها من قبل وكالة حماية البيئة الأمريكية (EPA) أي مدة تعرض

## تطوير أنظمة الملوثة البيئية الخطرة: حالة البيئة العامة

الإنسان على مدى ٧٠ عاماً، واستهلاكه يومي للمياه بمعدل ٢ لتر للشخص الواحد، ووزن الجسم ٧٠ كغ، ولدى تغيير أي قيمة من هذه العوامل، يمكن تقدير التعرض اليومي المستديم لتجرع الملوثة (TD) من خلال تقسيم الجرعة الكلية المحددة من خلال (تركيز الملوثة × معدل استهلاك المياه ×

مدة التعرض × معدل الامتصاص) على وزن جسم الإنسان وعلى متوسط عمره.

إن الحسابات أو التقديرات المثقة هنا في الدراسة جاءت استناداً إلى التراكيز الأعظمية للملوثات المدروسة المسموح بها، حسب المعايير الإرشادية أو القياسية السورية أو منظمة الصحة العالمية. ولأجل الحصول على تقديرات حقيقية، فإنه يجب إجراء قياسات ميدانية ومخبرية لكل الملوثات المدروسة بدءاً من الكلوروفورم إلى جميع الملوثات التي تشكل خطراً سرطانياً أكيداً أو احتمالياً أو ممكناً، وإذا ما كانت القيم الفعلية المقاسة ذات تراكيز عالية فعندها منعتني الحسابات فيما أعلى لتقويم الخطر الصحي.

إن المعالجة التي لمياه الشرب المحتوية على الملوثات الخطرة المدروسة مثل الكلوروفورم والبيدات وغيرها من المركبات العضوية الهالوجينية والتركبات العضوية الأروماتية أو العطرية مثل البنزين يمكن أن تتحقق من خلال وحدات معالجة متقدمة مثل المرشحات النجمية للمنطقة (GAC) ووحدات أبراج التهوية (PAKED TOWER AERATION OR GAS STRIPPING) (٣١).

إن تحديد الخطر الإجمالي الكلي المتشكل من عينات المياه المحتوية على تراكيز ملوثات مختلفة مثل ما هو جارٍ هنا في الدراسة، يمكن أن يحسب من خلال تكامل مجموع الأخطار المترتبة، والنتيجة من كل ما ذكره من قبل، وإجراء الحسابات أو التقديرات هي متشابهة لكل الملوثات، إلا أن لكل ملوث معامل ميل سرطاني أو معامل تجريبي (CANCER SLOPE FACTOR) يختلف عن الآخر.

وهي حالات التعرض للملوثات الخطرة المسرطنة بطرق أخرى غير التي تعمل عن طريق الشرب. عند ذلك سيكون هناك معاملات ميلول مختلفة حيث يكون معامل الميل للملوث عن طريق مياه الشرب مختلفاً عن معامل الميل تنفس الملوث ولكن عن طريق الهواء من خلال الاستنشاق. أما في حالة الملوثات الشظيفية غير المسرطنة فإن تحديد خطورها يكون بإجراءات أخرى وإرادة (في الفقرة ٢-١-٣) وهي ترتبط أساساً بمقارنة تراكيزها مع المعايير الأعظمية المسموح بها.

ينتهي إجراءات تقويم الأخطار (risk assessment) التي جاء عرضها في هذه الدراسة خاصية أنواع جدلية، ما دامت لا تتوافر معطيات عن قيم الجرعات المنخفضة (low dose) التي تشكل خطراً أكيداً مع تراكمها الزمني، ولكنها ومهما يكن فهي تبقى الإجراءات العملية التي أوصت بها وكالة علمية مرجعية متخصصة على المستوى القومي، مثل وكالة حماية البيئة في أمريكا التي تتعلق من الحماية الأفضل أو الوافية للناس للسكان.



## ٥- التوصيات

- وضع برنامج مراقبة للمصادر المائية السطحية والجوفية المستخدمة لأغراض الشرب في الأقطار العربية ورصدها ضماناً لحمايتها من التراكبات الخطيرة الخطرة (سواء الهالوجينية أو العطرية أو المتطايرة) ومن المعادن السامة، إضافة إلى تحديد مصادرهما وضبطها.
- وضع معايير حازمة لتصريف النفايات الصناعية الخطرة ومنتجاتها الثانوية الأكثر خطراً إلى المصادر المائية العذبة.
- تزويد محطات معالجة مياه الشرب التقليدية القائمة حالياً ب وحدات معالجة متقدمة مثل عمليات الأسمصاص بواسطة المرشحات الضخمية المنشطة أو من خلال وحدات التبادل الأيوني، وذلك من أجل تنقية مياه الشرب المحتوية على الملوثات الخطرة.
- في حال وجود ملوثات عضوية في مصادرنا المائية العذبة (السطحية والجوفية) المستخدمة لأغراض الشرب يلزم هنا استبدال أسلوب التعقيم المتبع بالكlor بعيت تتم عملية التعقيم أولاً للمياه المعالجة بالأشعة فوق البنفسجية (UV) أو بالأوزون لأغنية للملوثات العضوية قدر الإمكان، ومن ثم يليها التعقيم بالكlor بعيت الضعيف وجود الكلور المتبقي في المياه تنقية للشرب لمنع أي عملية لإعادة التلوث في شبكات التوزيع بمياه الشرب.

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

## بير بورديو بين المادية الحرة كسيرة

### والروائية الجديدة

« نحو اقتصاد سياسي للنظرية الجديدة »

أ. عبد الكريم درويش (\*)

#### ملخص

يعد بير بورديو واحدا من أهم علماء الاجتماع في فرنسا اليوم بل لعله أهمهم على الإطلاق. وهو ينتمي من حيث العمر الزمني إلى الجيل الذي تلا جيل سارتر ورومان رولان واليهي ستروفس. على الرغم من اختلاف هؤلاء فبعض بينهم ولد عام 1930 في باريس في منطقة البيرين جنوب غرب فرنسا (جبال البيرينيه) ولما شهدوا الأنظمة الشيوعية (التيبرين) في الفلسفة من مدرسة المعلمين العليا عام 1961.

وفي عام 1965 أصبح مديرا لأحد أقسام الدراسات في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا في باريس. وعندها أصدر كتابا بعنوان « الورقة ». وذلك بالتعاون مع جان كلود باسرون. وكان السبب في شهرته. ثم تالتت كتبه ومقالاته العديدة حتى أصدر عام 1970 كتابه الشهير المهم « الحبس العنفي ». وفي عام 1987 أصبح استاذاً في الكولوج دوفرانس وراج يلقي دروسه منذ ذلك الوقت تحت عنوان « دروس في علم الاجتماع العام ».

ينتمي بورديو إذن إلى الجيل الذي أتى لكي يحدث القطيعة مع الوجودية السارترية أو الفينومينولوجيا الوجودية على الطريقة السارترية. ويحول إلى الأستيمولوجيا وفلسفة التصلب والعلوم الإنسانية. وكان رائد هذا الاتجاه في فرنسا شخص غير معروف من قبل الجمهور العام هو: جورج كاتيليم. أمثالا فلسفة العلوم وخصوصا العلوم الطبيعية. في

(\*) باحث وكاتب من سوريا

الواقع، انه لكي نفهم «عقلية» هذا الجيل المسيطر الآن على الساحة الثقافية الفرنسية، يلزم ان نأخذ بعين الاعتبار وجود تيارين عريضين كانا قد سيطرا على الساحة مثقلة الأربعين عاما الماضية هما:

١ - «التيار الوجودي»، ويمثله سارتر وصارثو بولتي. كان هذا التيار مهووسا بالبحث عن المعنى، معنى الظواهر والوجود، وكان منغمسا في السياسة من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه. كانت تلك هي الفترة التي ازدهرت فيها فلسفة الذات والحرية والالتزام والثورة.

٢ - «التيار الأبستمولوجي»، الذي يمثله في فرنسا غاستون باشلار وأليكساندر كويري وخليفتهما جورج كاتنيليم. وقد ركز هؤلاء على أهمية المصطلح والمفهوم والعقلانية وفلسفة العلوم، أي ما يسمى بشكل عام بالتهجئة الأبستمولوجية. كان هذا التيار يبدو، ظاهريا، بعيدا عن السياسة وهوومها بالمعنى المباشر للكلمة، ولكنه في الواقع كان أكثر تأثيرا على المدى البعيد. وهو الذي انتشر في النهاية وأثار موجة العلوم الإنسانية التي نشهدها اليوم.

كان يورديو، كممثل هوكو، قد أحس بالحاجة إلى الانعراط في النهجية «الأبستمولوجية» واعتناق «الروح العلمية الجديدة» بشكل كامل. وذلك بعد أن سقط في نظره الخطاب الفلسفي العمومي والتقليدي السائد في السوربون. لقد بالقت «الفلسفة» ولا بد من أن يحل محلها شيء آخر هو العلوم الإنسانية. ولكن الفرق بينه وبين هوكو وبارت وغيرهما من كبار المثقفين هو أنه لم تكن له «مساكنات» لكي يصفها مع عائلته الـ «بورجوازية». فهو قد ولد في جبال البيرنيه في بيئة ريفية قديمة في حين أن الاثنين الآخرين نشأوا في عائلات بورجوازية، أو على الأقل بورجوازية متوسطة. ولهذا السبب لم يتحسس يورديو كثيرا للموضوعات الأساسية التي كان يشيعها جورج باتاي، وموريس بلانشو في مجلة «نقد» هذه الموضوعات الخاصة بنقد القيم العائلية والخرق العائلي الأخلاقية التقليدية في مجالات شتى. ويعترف يورديو بصراحة عالم الاجتماع الذي يعرف ما يقول بأن ذلك غلط فعلا إلى «أسباب سوسيولوجية».

كان يورديو مشغولا من جهة باختراق المعايير المؤسساتية وغيبوسا الجامعة. وكان يشعر نحوها بالكره ويرى أنها مثبته على العنف أو احتزان العنف. كما أنها مثبته على الخداع والغش والظواهر والحقائق التي تتخذ شكل القوانين الأدبية. هكذا كانت تبدو له السوربون في سني الخمسينات، وكان يريد أن يتحداها ويتحدى من خلالها كل النظام الاجتماعي القائم.

لقد مر يورديو بـ «فلسفة» كيفية مشاهير جيله، ولكنه أحس بالخواء والعدم في الفلسفة وأراد التحول عنها بشكل أو بآخر. كان هناك استنساخ واحد يعجبه نسبيا في هذا القسم في السوربون هو «هنري غوهيه». وقد حضر تحت إشرافه أطروحة جامعية صغيرة بعنوان «الابتنز نافدا ليدكارت». ما عدا ذلك لم يكن هناك شيء يعجبه. كان تدريس الفلسفة محسورا آنذاك في تكرار النصوص الكلاسيكية المفصلة ذاتها، هذه النصوص المقطوعة عن

الواقع والحياة والشغولة بالتهويم في مناهات الميتافيزقا والكلام الغامض المعقد الذي يعني كل شيء ولا يعني شيئاً يذكر.

لهذا السبب راح يورديو الشاب يبحث عن دروس لها معنى في باريس. ويبحث عن الأساتذة الذين يصلحون العلم الحقيقي. ولم يكن أمراً سهلاً، لأن هؤلاء الأساتذة لم يكونوا معروفين كثيراً، كما أنهم لم يكونوا مقرّبين في البرنامج العام للامتحن.

وبذلك كان على الطالب الذي يريد أن يلتفت نفسه فعلاً أن يبحث عنهم على «ضوء القليل» في مجاهر باريس وأروقة معاملها المبعثرة. كان هناك غاستون باشلار وجورج كانفيلم المذكوران آنفاً. وكان هناك أيضاً الشخصا في مدرسة الدراسات العليا والتكنولوجيا دوفراتس من أمثال: أريك هيل، أليكساندر كويري، غيرو، إتيان جيلسون... يقول يورديو واصفاً تلك الفترة: [ كنت أحاول ككل أولئك الذين لعبوا من الوجودية أن أذهب إلى أبعد من مجرد دراسة المؤلفين الكلاسيكيين وأن أحاول إعطاء معنى ما للظلمة، وكان جورج كانفيلم وغاستون باشلار بالنسبة إلي بمثابة «الأنبياء المذاهبين أو الأنبياء القدوة» بالعلم الذي يعطيه ملكس فيبر لهذه العمارة، ولما كانت الحركة الفينومينولوجية - الوجودية مسيطرة على المساحة، فلم يكن أحد تقريباً يعلم بوجود هذين الفكرين. على الرغم من أن دروسهما كانت تفتح خطاً جديداً<sup>11</sup>.

لم تبدأ المؤسسة الجامعية التقليدية بالانتهار بكل مناهجها البالية والإرهاب المخزون في أعضائها أو العنف الموقوت في شهادتها، إلا بعد أسبوعين من مايو ١٩٦٨. لكن «جرائم التغيير» كانت قد ابتدأت منذ أوائل الستينيات عندما أصبح ليفي ستراوس كتابه «الأنثروبولوجيا البنيوية» عام ١٩٥٨، والفكر للتوحش عام ١٩٦٦، وفي ذلك الوقت كان ميشيل فوكو أيضاً يترجم كتاب كانط «الأنثروبولوجيا من وجهة نظر براغماتية» ويقدم له (مصدر عام ١٩٦٤ عن دار قران الفلسفية). وقد ساهم ليفي ستراوس في إعادة الاحترام والتقدير لعلوم الإنسان عن طريق الإشارة إلى موسور والأنبيات وتطبيق مصطلحاتها في مساحة الأنثروبولوجيا ودراسة بني القرابة. وبعد ذلك ظهرت العلوم الجديدة التي اكتسحت المساحة فيما بعد، والتي نشأت باللاحقة «لوجيا» من مثل «أركيولوجيا» (ميشيل فوكو) أو «غراماتولوجيا» (جاك دريدا) ومذهب التفكيك) أو سيميولوجيا (رولان بارت وعلم الدلالة)... إلخ. ثم بلغت هذه الحركة الثقافية والاحتجاجية الواسعة ذروتها بانفجار الثورة الطلابية والعمالية عام ١٩٦٨. وقد أدت هذه الحركة إلى الإطاحة بنظام التعليم السابق وبفريقه، وأحدثت معطلة نظاماً آخر جديداً، وكان لأفكار يورديو بعض الفضل في ذلك، بالإضافة إلى الآخرين.

لكن يورديو ليس راضياً تماماً عن فلاسفة جيله الذين سيطروا على المساحة منذ الستينيات حتى أوائل الثمانينيات، وهو كثيراً ما يهاجم الفلاسفة في دروسه أو كتاباته، كما كان يفعل سلفه دوركهيم. يقول عنه: [ صحيح أنهم أحدثوا قطيعة مع الفينومينولوجيا الصارتية

والنزعة الإنسانية الهشة أو الجردة والمثالية، ولكنهم انضموا نصف انضمام إلى التهجية الأبيستولوجية واعتبروها نصف اعتناقاً<sup>(1)</sup>.

عندما يقول بورديو هذا الكلام فإنه يريد أن يوحى ضمنياً أنه الوحيد الذي أحدث القطيعة الكاملة مع الفلسفة التقليدية والتخبط بشكل كامل وتم في مجالات البحث العلمي الدقيق. في الواقع، إن بورديو يعيب على الفلاسفة (التوسير، شاتليه، دريدا، وغيرهم) أنهم ينظرون من موقع عالٍ يعلو على الواقع ويتجاوز الآخرين. بل أكثر من ذلك، أنهم «يسرفون» أعمال الباحثين المتخبطين على أرض الواقع في دراسات ميدانية عملية. ويسبقون على نتائجهم هيئة فلسفية تمهيمية من دون أن ينكروا مصدرها أو يتبعوا في التوصل إليها. حتى قال: إن فرانساو شاتليه قد فعل ذلك معه بالإضافة إلى التوسير وآخرين.

أما موقفه من ميشيل فوكو، فقد كان كلامه عنه أكثر اعتدالاً وأقل سلبية. قال عنه بما معناه: لم يتم بأبحاث ميدانية محسوسة مثل بقية الفلاسفة. ولكنه كان يتميز بذكاء حاد تارك الوجود. وكان يشغل عن طريق الحدس أكثر مما يشغل عن طريق الفهم، وإقناعاً ما كان حدسه يصيب نظراً لذكائه. بمعنى آخر، فإنه كان يتوصل إلى النتيجة نفسها التي يتوصل إليها الباحثون الميدانيون بجهود أقل ووقت أقصر. يضاف إلى ذلك أنه أول فيلسوفاته انتهت إلى أهمية علم التاريخ وعلمه.

مهما يكن الرأي في تأكيديات بورديو هذه، وحتى لو خالفناه في هجومه الحاد على الفلاسفة، فإننا لا نشك إلا في الحقيقة على دعواه لأن التخبط الباحث على أرضية الواقع للعيش، وعدم اكتشافه بأنفسه العلم من بطون الكتاب ولما يشاء من واقع الحياة والتجارب الميدانية والتجارب المخبرية إلا أن تكون.

<http://Archivebeta>

إن المصحية التي يستخدمها بورديو مادية، ولكنها ليست مادية سلبية أو ميكانيكية. وإنما هي مادية ناشطة فاعلة. وهو يقوم المفكرين «الدايين» لأنهم تركوا الساحة خالية للمثاليين يصولون فيها ويجولون. في حين راحوا هم يلقون عقولهم ويستسلمون لنظرية الانعكاس والعشوائية الضيقة. إنه يرى أن ذلك هو الذي جمد نظرية المعرفة في الماركسية وأضرها كثيراً. وهو هنا يستشهد بهارزس نفسه الذي يقول في إحدى أطروحته الشهيرة حول فيورباخ ما معناه: «تكن مأساة الثرية هي أنها تخطت للمثالية عن الجانب الناشط للمعرفة». ولهذا السبب ينبغي إعادة الجانب الناشط و «الروحي» الفعال للمعرفة إلى المادية. وهذا ما يزمع بيير بورديو القيام به عن طريق تأسيس نظريته المرتكزة على «مادية الأشكال الرمزية».

ولكن من أجل تزويد الذات المعارضة بالمنهجية المادية المحسوسة، ومن أجل تزويدها بالمقدرة على اكتشاف عالم الأشياء وإعادة تشكيله من جديد، فإنه ينبغي عدم الاكتفاء بالتطوير البحثي لأن ذلك يؤدي إلى الوقوع في الطرف الآخر. طرف المثالية، وإنما ينبغي «صنع المعرفة بشكل فعلي» ومن داخل الممارسة الميدانية.

لهذا السبب راح بيير بورديو يطوّر بنفسه الأوساط الاجتماعية - الثقافية كافة، وقد مارس البحث الميداني في أكثر من عشرين وسطاً وبيئة، ضمن بيئة الملاحين القيثاريين في الجزائر، إلى بيئته الأصلية الريفية في جبال البيرنيه، إلى الأوساط «الحضرية الراقية» في باريس (وسط الأرباء الغنية والموضة... إلخ)، مروراً بأوساط نقابات العمال وأرباب العمل والطلاب ونظام التعليم... إلخ. يكون بورديو قد تعرف المجتمع بكل حقوله وفتاته، ولعل هذا هو السبب الذي جعله ينقسم العالم الاجتماعي إلى مجموعة حقول أو ساحات مغلقة ومستقلة نسبياً لكي يفهم آلية كل حقول ووظائفه وطرائق اشتغاله قبل أن يطاير بإطلاق حكم ما على المجتمع ككل. لقد خلقت هذه التجربة الميدانية الواسعة من بيير بورديو عالم اجتماع مائة في المائة، وفتحت عينيه على حقيقة الإنسان الاجتماعية وعشرونية الإنسان في هذا العالم الاجتماعي الذي لا يرحم.

هل يعني ذلك أن بورديو مثلاً هل يعني أنه مع الحتمية ضد الحرية كما يكرر بعضهم كثيراً؟ عن هذين السؤالين المزعجين أجاب عالم الاجتماع الشهير أكثر من مرة، واشتكى من اتهام الناس له بأنه «حتوي»، أو «قشري» مثلاً، يقول: «إن من يمارس علم الاجتماع والتحليل الدقيق لأوضاع البشر في العالم الاجتماعي لا يستطيع أن يكون متفانلاً جداً. إن العلم الذي يبره أن يفهم ويكتشف علماً ما هو موجود من طواهر يفترض علماً أنه لا شيء موجود من دون علّة وجود، لكن عالم الاجتماع يضيف إلى هذه العبارة كلمة «اجتماعي» فتصبح: من دون علّة وجود اجتماعية»<sup>(1)</sup>.

ولكن الناس يغلطون، حيث أنهم الحتمية بين شطرين مختلفين جداً، الأول: هو الضرورة الموضوعية الكامنة في الأشياء، والثاني: الضرورة «المعيشية الظاهرية» الذاتية، أي عاطفة الشعور بالحتمية أو بالحرية، إن درجة الحتمية التي تتحكم في العالم الاجتماعي تعتمد على معرفتنا له، هذا من جهة، ومن جهة أخرى قلنا نجد أن الدرجة التي يخضع بها العالم الاجتماعي للحتمية أصبحت مسألة رأي شخصي. (إفاناً كعالم اجتماع لا يعقل لي أن أكون مع «الحتمية» أو مع «الحرية»، هذا شيء لا معنى له في نهاية المطاف، وإنما تكمن مهمتي في استكشاف الضرورة إذا كانت موجودة، وحيثما تكون موجودة، وكلما تقدم علم الاجتماع في معرفة العالم الاجتماعي واستكشاف قوانينه تزايدت أهمية الضرورة ووجودها في كل مكان. ولهذا السبب يفهمون علم الاجتماع بأنه «قشري» أو «حتوي» كلما كان أكثر تقدماً»<sup>(2)</sup>.

وفي مكان آخر يتحدث بورديو عن المثقفين ويقول ما معناه: إحدى السمات الخصوصية التي تميز موقع المثقفين داخل الفضاء الاجتماعي تكمن في أنهم يشبهون الاستغلائية بالنفاس إلى الحتميات والإكراهات الاجتماعية، ولهذا السبب بالذات فإن الحتمية الاجتماعية تضغط عليهم بشكل أكبر عن طريق وهم الحرية الذي يتغنون به، ثم يفتنم بورديو كلامه بهذه العبارة الجميلة: إن علم الاجتماع يحرقنا عن طريق تحريرنا من وهم الحرية...!

هل يعني ذلك أن التغيير غير ممكن، وأن الوضع القائم واسع لأنه يمتلك قوة وجود معينة؟ هل يعني ذلك أنه أبدي وأن للسيطر مسيطر حتى آخر الدهور والغلوب مغلوب حتى آخر الدهور؟ يجيب بورديو بالنفي الفاطح، وذلك لأن المجتمع في حالة تغير مستمر حتى لو بدا هادئا وكاديا على السطح. ثم إن بورديو يدعو إلى تأسيس علم اجتماعي نقدي صارم وباتقاني تفهيري، لا ثبوتي ولا سكوتي محافظ. لكنه كأي باحث كبير يعرف أن التغيير ليس مسألة كفاءات وشعارات وأحلام رومانطيقية، أو ليس كل هذا فقط، إنه شيء آخر، يقول: «أ من أجل أن يحصل التغيير ينبغي علينا كمرحلة أولى استكشاف القوانين السائدة في العالم الاجتماعي (المجتمع) ثم استغلال التناقضات الموجودة في هذا العالم وخصوصا عندما يمتدئ أزمة موضوعية، عندما يكون هناك حظ ما في إجراء التغيير وتجاح التغيير، وإلا فإننا نضيع وقتنا سدى وتكون كمن ينطح الصخر...»<sup>(١)</sup>.

بمن يستعني بورديو في عمله التحليلي - النقدي هذا الذي يشمل في طريقه كل شيء ما الأسلحة التي يستخدمها والخصيصات التي يتكئ عليها لمواجهة علم الاجتماع الدجن والرسمي، الذي يقف دائما إلى جانب السلطات الهيمنة (من مؤسسات وأرباب عمل ويعين سياسي وظيفات مترفة... إلخ).

في أحد الدروس التي ألقاها بورديو في الكوليج دو فرانس راح يقيم تجربته العملية فلسفيا ويعود على علماء السياسة لكي يتأمل «ولو للحظة» سنوات الطعاس يقول: «أ سوف تلغون أنكم في درس فلسفة لا في درس علم اجتماع ولكن في درس أن تعرفوا أن ما افعله ليس عملا نظريا بحتا، وإنما هو عمل نظري يفرض بعد انتهاء الممارسة التي بعد إجراء البحوث الميدانية والتطبيقية. إنه يهدف إلى التحقق من صحة العمل الميداني والسيطرة النظرية عليه. كان السؤال الأساسي الذي طرحناه هذا العام يخص العلاقة بين السلطة والمعرفة. وكان آخرون قد فعلوا ذلك في الفترة نفسها التي كنت أجري فيها أبحاثي الميدانية (يقصد فتوك لكن من دون أن يسميه). وقد رأيت أنه ينبغي تجاوز الموقف الأفلاطوني الذي يعكس السياسة بالنظرية ويقيم جدارا عازلا بين الهموم السياسية والهموم الفكرية الصرفة للفيلسوف. أريد أن أتجاوز ذلك لكي أبرهن على أن هناك سلطة للنظرية، أو سلطة نظرية. النظرية هي مبدأ التروية بالمعنى الأيتولوجي للكلمة، وهي مبدأ التقسيم والتصنيف أي تقسيم العالم الاجتماعي إلى فئات وأصناف، إلى خير وشر، وطوق ولعنة، ومذكر ومؤنث، وغير ذلك. لقد قمت بهذا التمييز النظري كعالم اجتماع وبأبحث ميداني، وحاولت تحديد قوانين الممارسة النظرية وأليات اشتغالها: أي الشروط الخصوصية لممارستها ونوعها على البشر أو الفاعلين الاجتماعيين ضمن حقل معين. وهذا ما يتساءل الفلاسفة عموما، لأنهم يلبثون دائما في مصطلحات الجواهر الخالصة. إنني أعود إلى الوراء بعد أن اجتزت الشوط عمليا، وبذلك بغية استخلاص

النتائج. لقد حان موعد الحصار النظري. وما هذه الخلاصات أو التوثيقات التتالية، إلا عبارة عن تجميع لمساهمات قام بها فلاسفة وعلماء اجتماع ومنظرون. وهي تبدو كقوله الأولى أو للأنظار الساذجة أنها غير متوافقة بعضها مع بعض. أقصد بالتوثيقات هنا النتائج الأساسية لفكر ماركس وماكس فيبر وموركهيم. يلومني البعض لأنني ماركسي وفيلسوف وموركهيمي معا. أعتقد أن هذا مضحكي لأنني أخذ بعين الاعتبار الراسمال النظري التواكم من قبل مفكري التامس. وأعتقد أن العمل العلمي لا يتمثل في محاولة التمايز والاختلاف عما قطعته مفكرو التامس من أجل التبرجج بالتفرد والخصوصية، وإنما يتمثل في تجميع النتائج التي توصلوا إليها ولكن، ليس بطريقة تلقيفية، وإنما عن طريق تجاوز التناقضات الموجودة بينهم. إن هذه التناقضات ناتجة من وجهات النظر التي يكونونها عن العالم الاجتماعي. ولهذا السبب ينبغي أن نأخذ أيضا بعين الاعتبار وجهة النظر التي يشكها كل واحد منهم عن الآخرين. قد حصلت لدى كل منهم من خلال وجهة نظر محددة. وإن كلا منهم سجين وجهة نظره. وأقصد بوجهات النظر هنا النقاط التي انطلاقا منها تشكلت النظرات والرؤى عن العالم الاجتماعي. أقصد نظراتهم ورؤاهم. أعتقد أن علماء ماركس مثلا أو نواقصه قد اكتشفت بشكل رابع من قبل رجل مثل ماكس فيبر. لقد رأى ماكس فيبر ما لم يره ماركس في العالم الاجتماعي. السبب بسيط، هو أن ماركس قد رأى ما رآه ولم يره غيره... وكذلك يمكن القول إن موركهيم قد رأى ما لم يره فيبر... (الخ)<sup>٢٩</sup>

يرى بورديو أن نظراته هؤلاء المفكرين الكبار تبدو متناقضة أو متضادة فيما بينها. ولكن، إذا ما قمنا بمحاولة نقد جذري لها وإرجاعها إلى منشأها الأساسي وإلى عطلها الأولية عرفنا أنها متكاملة لا متناقضة.

## أولاً - في المقدمة: توليفة جديدة من ماركس وفيبر وموركهيم

### ١ - ١: البناء الاجتماعي للحقيقة

ما الشيء الجديد الذي يميز بورديو من غيره من علماء الاجتماع؟ يقول بورديو: إذا كان هناك حقيقة فهي أن حقيقة العالم الاجتماعي عبارة عن رهان من الصراعات، لأن العالم الاجتماعي تصور وإرادة من ناحية، ولأن التصور الذي تشكله المجموعات عن أنفسها وعن المجموعات الأخرى يؤدي من ناحية ثانية مهمة إلى فعل ما هي عليه المجموعات وما تقوم به. ليس تصور العالم الاجتماعي معطى أو تسجيلا وانعكاسا، إنما هو نتيجة أفعال كثيرة من البناء التي سبق أن حصلت أو ستحصل من جديد وباستمرار. فهو موضوع في الكلمات المتداولة، كلمات سبق أن تكونت. تعطي معنى للعالم الاجتماعي بقدر ما تسجله، كلمات أوامر تؤدي إلى إنتاج النظام الاجتماعي. وذلك بالإعلام عن فكر هذا العالم وإنتاج المجموعات التي تشير إلى



هذه الكلمات وتحركاتها، باختصار، فالبناء الاجتماعي للحقيقة الاجتماعية يتم من خلال (بوساطة) أفعال البناء الكثيرة والمتناقضة التي يقوم بها الضامون، في كل لحظة، في صراعاتهم الفردية أو الجماعية، العضوية أو المنظمة، وذلك لغرض تصور العالم الاجتماعي الأكثر توافقاً مع مصالحهم، صراعات بال تأكيد غير متساوية على الإطلاق، لأن سيطرة الضامون على أدوات إنتاج تصور العالم الاجتماعي (وأكثر من ذلك على أدوات إنتاج هذه الأدوات) هي متوعدة جداً. ولأن الأدوات التي تقدم مباشرة (إلهم تكون محضرة كلها، وبشكل خاص اللغة العادية والكلمات المتداولة التي هي، بسبب الفلسفة الاجتماعية التي تحملها بشكل خفي، متوافقة بشكل مختلف مع مصالحهم تبعاً للوضع الذي يحتلونه في النسبة الاجتماعية<sup>19</sup>). يمثل الجديد إذن في ربط ما هو ذاتي بما هو موضوعي، وعدم الفصل بينهما، فلا وجود لذاتية مستقلة وأساسية في فهم الواقع الاجتماعي كما هو الأمر عند ماركس هيبير أو تالكوت بارسونز أو إدموند هوسرل أو جان بول سارتر، كما لا وجود لموضوعية قائمة بذاتها كما عند كارل ماركس أو جورج فوكاتش أو إميل دوركايم وكلود ليفي ستراوس. والحقيقة الاجتماعية، تبعاً لذلك، في حالة من الصراع، وبالتالي من التغيير الدائم. والحقيقة الذاتية لا تفسر ذاتياً، بل على أساس ارتباطها بالحقيقة الاجتماعية، أي على أساس أنها جزء منها. والتناقضات في المفاهيم غير متصلة من التناقضات في الواقع الاجتماعي. ما يتميز به فكر بورديو هو أن الذاتية التي يعيد إليها الأهمية لا تشكل عنصراً من الحقيقة الاجتماعية متوعدة إنما تصف بالجوهر والإبداع، فهي التي تعطي معنى جديداً للواقع، وتؤدي إلى مفاهيم جديدة. ولهذا السبب، فالمفاهيم تسمية، والحقيقة غير ثابتة أو أولية. يقترب بورديو من ماركس هيبير حين يعيد الاعتبار إلى العنصر الذاتي الفردي، لكنه يبتعد عنه حين يربطه بالحقيقة الاجتماعية وبالظروف الاجتماعية. ويقترب من ماركس حين يربط الذاتي بالموضوعي على أساس جدلي، ويبتعد عنه حين لا يقر بوجود حقيقة موضوعية قائمة بذاتها. لذلك لا تعتبر مقارنته تطبيقية بقدر ما تعتبر جديدة تدعو إلى إعادة النظر في أمور كثيرة، كما تدعو إلى مناقشات وآراء جديدة.

## ١ - ٢ : المختل والمفكك

كيف يربط بورديو بين الموضوعي والذاتي؟ يقول: « ولكن خلافاً مع الظاهر، يرفع درجة الضرورة المدركة وبإسقاط معرفة جيدة لقوانين العالم الاجتماعي، يقدم العلم الاجتماعي صيغة أكثر. إن كل تطور في معرفة الضرورة هو تطور في الصيغة الممكنة. وفي حين أن تجاهل الضرورة يحتوي على شكل من معرفة الضرورة ومن دون شكل الضرورة «الأكثر مطلقة» والأكثر كلية، ولأنها تجعل نفسها كما هي، فمعرفة الضرورة لا توجب على الإطلاق ضرورة هذه المعرفة. وبالعكس، فهي تظهر إمكان الخيار في كل علاقة من نوع: إذا كان لدينا هذا

فسيكون لدينا ذلك، إن الحرية المتمثلة في اختيار القبول بـ «إذا» أو برفضها هي خالية من المعنى مادامنا نجهل العلاقة التي تجمع مع الـ «أفتألف»، إن وضع القوانين التي تفرض حرية الفعل أي «القبول اللاواعي» لشروط تحقيق تأثيرات متوقعة، يوسع من ميدان الحرية، القانون المجهول هو طبيعة، مصير (أي حالة العلاقة بين رأس المال الثقافي الموروث والتجاذب الدراسي)، والقانون المعروف يظهر كإمكان للحرية<sup>(٢٧)</sup>.

يعتبر بورنيون أنه لا توجد قوانين بذاتها ومستقلة عن الوعي، بأي قوانين تكون خاضعة للتعديل مع تطور الوعي، هذا يعني أن الضرورة غير منفصلة عنه، وبالتالي عن الحرية. ونظرا إلى هذا الارتباط لا توجد ضرورة مطلقة، كما تحل طبيعة هذه الضرورة بقدر ما يتطور الوعي، يوضح بورنيون فكرته هذه من خلال العلاقة بين رأس المال الثقافي الموروث والتجاذب الدراسي، مادامت هذه العلاقة مجهولة، أي مادامت مجهولة الأسباب الحقيقية أو الظروف الاجتماعية التي لا تساعد هناك معينة من التلاميذ أو الطلاب، مثلا، على نجاحهم الدراسي أو الجامعي، مادامت عبارة عن طبيعة أو قدر، فمصير هؤلاء الطلاب هو الفشل، لأنه مقدر عليهم ذلك، إلا بنقصهم الذكاء والثقافة والمعرفة، فالذكاء هو من نصيب طلاب من فئات اجتماعية مختلفة لا يتداعوا، ومن تعرف الأسباب الكامنة وراء هذا الإرث الثقافي أو وراء هذا «الذكاء» وهي في الحقيقة أسباب اجتماعية طبيعية، ونحن نعدّل هذه الشروط، عندها تتغير الصورة عن هذا التمييز ونصبح حرية، ونعطي بورنيون أمثلة أخرى فيقول إن أولئك الذين يتصورون أي ظاهرة اجتماعية كأنها قدر مرسوم في الطبيعة الاجتماعية، فإنهم في الحقيقة لا يدركون أنه لا وجود، بل لا معنى، لهذه الظاهرة من دون هذا الوعي، إذا ما تغير تغير الصورة عن هذه الظاهرة وبالتالي تغير حقيقتها، إذن لا وجود لحقيقة اجتماعية من دون تصورات معينة أو فهم معين.

أليس من الخطورة التحدث عن قانون؟ إنهم من دون شك، أو لجانب قدر الإمكان القيام بذلك وأولئك الذين لهم مصلحة في الفعل الحر (أي في عدم تغيير «إذا») يرون القانون (عندما يرونه) كمتصير، كقدر في الطبيعة الاجتماعية (مثلا قوانين الأولمبارشية القاسية للكيفافيليين الجدد كما يرى بعض المؤلفين)<sup>(٢٨)</sup>، وهي الواقع، فالقانون الاجتماعي هو قانون لاوعي، يدوم طويلا بقدر ما نتركه يعمل، أي بقدر ما أولئك الذين يستخدمونه (أحيانا بلا طمعهم) هم في إطار استدامة شروط فعاليتهم، ما يتعين السؤال عنه، هو ما تقوم به عندما نعلن قانونا اجتماعيا مجهولا حتى ذلك الحين (مثلا قانون الرأسمال الثقافي / المعنوي)، يمكن به الادعاء بتثبيت قانون أبدي، كما يفعل علماء الاجتماع المحافظون بخصوص النيل نحو تمركز

(٢٧) القوانين القاسية الأولمبارشية هي عبارة عن اتجاهات معطية طبيعة لا بد منها نحو تمركز السلطة في بعض الأيدي لدى السلطات (مثلا الأحزاب السياسية) حسب الضرورات التقنية لتقسيم المهام وتعبير الوظائف.

السلطة. وهي الحقيقة، فعلى العلم معرفة أنه لا يقوم إلا بتسجيل (تحت شكل قوانين ذات اتجاهات) النطق الخاص بعمية معينة في لحظة معينة، والذي يعمل لصالح أولئك الذين يهيمنونهم على اللعبة. هم في إطار التعريف الواقعي أو القانوني للقواعد اللعبة<sup>11</sup>. بورديو هنا يؤكد صفتي النسبية والتغير للقانون، وعلى بعد التاريخي، فعلماء الاجتماع الذين يقولون بالقانون الأبدى يتجاهلون حقيقة أن أي قانون مرتبط بوعي محدد وتصورات محددة، وبأنه لتغير حقيقته بقدر ما يتغير الوعي هذا أو التصورات هذه. وهذا ينطبق على الوقت من الاتجاه نحو تركز السلطة، لا يبدو أن هذا الوقت يختلف كثيرا عن الموقف الماركسي إلا من حيث الدور المعطى للوعي. ففي حين يشير البعض أن ماركس يعطي أهمية للحقيقة الموضوعية على حساب الوعي الذاتي، فإن البعض الآخر يعتبر أن بورديو يعطي أهمية للوعي على حساب الحقيقة الموضوعية. استنادا إلى هذا، فالعلم بالنسبة إلى بورديو عبارة عن قوانين ذات اتجاهات تمكن أوضاعا في لحظات معينة. وفي هذا الموقف يقترب من جورج غورفيلش في مقاربة التجريبية للواقع، أو من غاسقون بلشار في عقلانيته التجريبية، أو من جان بياجيه في إبستمولوجيته التوليدية، ولكي تكون على صلة وثيقة بالحقيقة الاجتماعية علينا أن ندرك طبيعة هذه الحقيقة المتغيرة بالقوانين غير ثابتة.

يتابع: «وبعد إعلانه، يصبح القانون **رهانا من الصراعات**، صراع من أجل الحفاظ على شروط عمل القانون، **صراع من أجل تحويله** وفق الشروط. إن وضع قوانين ذات اتجاهات يعتبر شرطا لنجاح الأعمال التي تهدف إلى تحويلها والتغييرات المرتبطة بالقانون، إذ يتغير هيئاته لا يعود إلى تلكا من ليكاليترام ما تحت "الوعي" والمركس، فالهيمن عليهم مرتبطون بالتشاف القانون كما هو، أي كقانون تاريخي، يمكن أن يحمي أو يمحى شروط عمله، ومعرفة القانون تعطوهم خطأ، وإمكانا لمواجهة تأثيرات القانون، إمكانا لا يوجد لفترة طويلة مادام القانون مجهولا ويحارب ويعزل عن أولئك الذين يخضعون له باختصار، ولكون علم الاجتماع يبعد سلف القانون، فهو يبعد سلف القدرة. سؤال: ألا يخشى من معرفة متعمقة أكثر فأكثر بالاجتماعي من إحباط أي فعل سياسي لتحويل العالم الاجتماعي؟ - إن معرفة الأكثر احتمالا هي تلك التي تجعل تطبيق الأقل احتمالا ممكنا، تبعاً لأهداف أخرى. ومن خلال العمل بوعي مع منطق العالم الاجتماعي، يمكننا إحداث الأشياء الممكنة التي لا يبدو أنها في هذا النطق، يتعامل الفعل السياسي الحقيقي في استخدام معرفة المحتمل وذلك لتقوية الممكن ... والعلم الاجتماعي لن يقوم بدوره بشكل صحيح ما لم يتق في أن معا ضد الإرادية غير المسؤولة وعند العلمية التقديرية، وإذا لم يؤد إلى تعريف الطوبىوية المعقدة، الفادرة على معرفة المحتمل من أجل إحداث الممكن<sup>12</sup>. يبدو تأثير بورديو بماركس واضحا حين يعتبر القانون الاجتماعي رهانا من الصراعات. لكن ما يبدو جديدا في موقفه هو دور الوعي الذاتي في عملية إنشاء

القوانين وإحداثيات أخرى جديدة، وكما فعل ماركس، يعتبر يورديو أن وضع القوانين وتغييرها مرتبطان بمصالح اجتماعية أو طبقية متناقضة. فالثقورون بالسلطة لهم مصلحة في تغيير القانون، بينما القاهرون لهم مصلحة في الإبقاء عليه.

ما الدور الجديد الذي يحاول يورديو إعطاؤه لعلم الاجتماع؟ نظراً لأهمية المعرفة الذاتية بالقوانين في الحصول على قدر كبير من الحرية في تغيير الواقع الاجتماعي، فإن المهمة الجديدة لعلم الاجتماع تتمثل في كشف الضرورة والفرد والصور، أي في كشف الظروف الاجتماعية والتاريخية للقوانين. وفي مواجهة الإرادية غير المسؤولة المتمثلة في التأكيد على حقائق يمكن أن تكون موضوع لسؤال في لحظات مختلفة. وهي مواجهة العلموية أو الانعلاء بكشف قوانين علمية. وعلى علم الاجتماع أن يدرك وجود طوباوية مغلقة في كل اللحظات. وهذا ما يكون مصدراً للاعتراف بوجود حقائق غير ثابتة وقوانين ذات اتجاهات.

### ٦ - ٣. العلوم والواقع

ما الذي يميز يورديو عن ماركس أو دوركهايم بخصوص فهم الواقع الاجتماعي؟ يقول يورديو: ليس أكثر خطأ من الفكرة الشائعة بأن «الواقع» تحدث عن نفسها، وهذا ليس فقط في نظام العلم بل في كون «الواقع» نتيجة اختيار. وبذلك هو دائماً معرفي وتقويمي في الحقوق السياسية والقانونية أو حتى الصحفية، مع أنه يأخذ من مثالية تاريخية للموضوعية ومن القناعة بأنه يمكننا بوضوح تقريب «الواقع» عن «الذات». فالواقع، ناتجة عن السرعات ومن أجلها وذلك لغرض معنى وثيقة العالم الاجتماعي. وهذا ينهض في حالة الأحداث السياسية الكبيرة كـ أعمال العولمة... ولكن ليس هذا أول مشكلة من مشاكل «الواقع» المتنوعة: التوركة عادة لإستراتيجيات الثورة اليومية. مهمة، مضطربة، اغتيال وثورة أو اقتراعات، أو لـ «حكايات» الصحافة التأسعة الانتشار، التي تشكل ضدها «الإعلام، السمن» موضوعها، للصحف التي تود أن تكون محترمة. فالتحليلات والافتتاحيات والبيانات والطاوعات والعرائض والاستجابات والتصريحات عبارة عن ضروب ورمزية تهدف إلى بناء «الواقع» أكثر مما تهدف إلى شرحها وبطريقة أن يوجه الإدراك والتقدير للذات، كالتدخلات البشوية (التبشيرية) للمبشرين الكبار، يدعيان قول «ما يجب التفكير فيه» أكثر من قول ما هو عليه. لا يمكننا التفكير في إضضاع الواقع للتحليل العلمي ما لم نقطع مع الوهم بأنه يمكننا فهم كل شيء دفعة واحدة. والذي يعرف العلاقة الطورية مع هذا المعطى المباشر للتجربة الاجتماعية. وتتمثل القطيعة في الحقيقة هي أن نسوغ سؤالاً مما يظهر خارج السؤال أمراً بدنياً، من هذه البديهة التي تفرض على القنص الأخلاقي، وعلى التعاطف التضالي أو القناعة المعلقة<sup>١٣٣</sup>. بعكس كل من ماركس ودوركهايم، يعتبر يورديو أن «الواقع» لا تكلم عن نفسها، أي لا وجود لواقع اجتماعية قائمة بذاتها. إنها على علاقة جدلية بالوعي الذاتي. أو حتى هي نتيجة خيار ذاتي، هو معرفي وتقويمي، أي مرتبط بالقيم والتصورات

الذاتية. هذا الموقف يذكرنا بماركس هيبير الذي يربط فهم الواقع بالقيم والمثل. ويعتبر يورديو أن هذا الخيار واضح في الحقل الاجتماعي المختلفة. الشيء الذي يؤكد ربط الوقائع بالقيم هو أنه لا يمكن فصلها عن الصراعات التي تجري بين الفئات والطبقات الاجتماعية. وبالتالي لا يمكن فصلها عن المضامين أو المعاني المختلفة التي تعطي لها. ويمكن التحقق من ذلك مثلا من خلال المواقف إزاء الأحداث السياسية، كونها تمس مباشرة مصالح الناس. وهناك الكثير من الوقائع السياسية التي تبين أنها عبارة عن قوى رمزية، أي عبارة عن معان وقيم والصورات الذاتية. وما مواقف كبار المفكرين وادعائهم النبوية هي وصف الوقائع إلا تأكيد على اتجاهاتهم وتصوراتهم ومثلهم الذاتية.

وفي النتيجة، يعتبر يورديو أن العلم أن يتقدم مالم تحصل القطيعة مع النظرة الكلية الشمولية إلى الأمور. أو مع القوانين العامة التي تحدد فهم أي واقعة. ولكي يخطو العلم إلى الأمام عليه أن يركز على خصوصية الواقعة، أي على فهمها مباشرة، والتركيز الأساسية لهذه القطيعة تتمثل في عدم التسليم باليديولوجيات مهما كان نوعها.

### ١ - ٤ : الملائمة والملائمة

في بداية كتابه «الحس العملي» خصم يورديو صفحات مطولة لانتقاد المنهجية الذاتية من خلال أعمال جان بول سارتر الفلسفية. ثم انتقد أيضا المنهجية الموضوعية «البارزة» من خلال أعمال كلود ليفي سترانس. وفي أثناء مناقشاته في الكوليج موهرائس تحت عنوان «مدرس في علم الاجتماع العام»، تحدث عن هذين الموقفين من خلال بحثه وكلفه. إذن فالملائمة قديمة جدا. ليست هي مسألة الذاتية والملائمة وهل يورديو أقرب إلى كلفه من توبشيه. وأقرب إلى المادية من الملائمة إذا جاز لنا أن نطرح الأمور بهذا الشكل الحدي والتعسفي... أم أنه يريد أن يشرح خطأ ثالثا يتجاوزهما؟

كان أحد أهداف أعماله. ولا يزال، يتمثل في معالجة الظواهر الرمزية ضمن منظور مادي. ذلك أن أشياء الثقافة أو (الأشياء الثقافية) مصنوعة أو (مبنية) تاريخيا ضد الاقتصاد والسياسة. وبدا ماركس هيبير ضمن هذا المشروع انتقاد الأكبر له، لأن سوسيولوجيا الأديان التي أسسها تغفل تقديرا كبيرا يذهب إلى أبعد من ماركس. ويحلو لبعض علماء الاجتماع أن يعتبروا باستمرار فكرة التضاد الشائعة التي تعاكس ماركس بماركس هيبير. وتراهم يعارضون بين المادية الماركسية و «الروحانية القهيرية» أو «التأقية القهيرية». هذا خطأ شائع. ذلك أن هيبير كان رائدا لما يمكن أن ندعوه بالماركسية الرمزية<sup>(١٦)</sup>.

وإذا كانت الماركسية تعني أن القواعد الاقتصادية هي الحاسمة، فإن الشيء الذي حاول هيبير أن يفعله هو اليرتهن على وجود قاعدة اقتصادية للظواهر الرمزية بعيدا عن مسألة الملاءمة والتحول.

(١٦) إن التفكير علم الاقتصاد في علم الاجتماع واضح في تعليقات يورديو وتعليقات ماركس هيبير أيضا.

وقد برهن بورديو في «اقتصاد السلع الرمزية»<sup>(17)</sup> على أن فيبر قد ذهب مبالغة أبعد من ماركس في مجال تحليل الأديان، وكان أكثر جذرية منه بما أكثر مادية، وهو يعتقد أن النظرية القادية للدين موجودة لدى ماركس. لأن ماركس كان قد اكتفى بتحليل وظيفة الأيديولوجيا الدينية. أما فيبر فقد تجاوز ذلك واتخذ موضوعاً لدراسته موسيولوجيا الفاعلين الدينيين، وعندما يلزم مفهوم الحقل الديني<sup>(18)</sup> شكل هذا الفضاء المستقل نسبياً، والذي تدور فيه رهانات خاصة، ويتصارع فيه الفاعلون الاجتماعيون أي (البشر) بوساطة استخدام أشكال مختلفة من الرأسمال الديني<sup>(19)</sup> بغية «احتكار التلاعب (أو التحكم) الشرعي بالسلع الروحية»<sup>(20)</sup>. إن منطق هذا الصراع والاستراتيجيات الخاصة التي يستخدمها الفاعلون الدينيون بحسب كمية رأسمالهم ومواقعهم داخل موازين القوى الدينية البعثة، هو الذي يتحكم في الغلاف الواقف الدينية.

والشيء نفسه ينطبق على الشعر وفن الرسم والعم<sup>(21)</sup>. فهل هذا يعني أن بورديو يريد أن يتجاوز التضاد المشهور بين المثالية والثباتية؟

1 - يبقى الخطي من نظرية الانعكاس وذلك لأن المنتجات الثقافية هي تركيبات أو هياكل مشكلة لواقعها من العالم، بل أكثر من ذلك أنها تصنع في صنع العالم. وليست فقط مجرد انعكاس للعالم المادي كما كانوا يقولون سابقاً. وكما ورد أثناء قرائنا نجد أنس النظرية المثالية للأنظمة الرمزية، وخصوصاً الدين الذي يشكل فيبر أهمها عندما لدى ماركس. لم يحل ماركس النطق بخصوصي للإنتاج الديني لأنه كان مشغولاً بشيء آخر، في حين راح فيبر يؤسس ما يدعو بورديو باقتصاد الأديان. لقد حاول دراسة فضاء الإنتاج الديني عن طريق مقارنته وموازنته بفضاء الإنتاج الاقتصادي المادي نفسه.

2 - الشيء الذي فعله بورديو هو أنه حوّل فيبر وأعاد التفكير في نظريته من جديد ضمن منظور بنيوي. لقد بين في دراساته حول الموضوع أن هناك حقلاً دينياً وفاعلين اجتماعيين متناظرين داخله. وهم يستخدمون وسائل مختلفة وبعيدة على طريقة الشركات الاقتصادية من أجل إنتاج السلع الدينية، ومن أجل بيعها واستغلال الربا<sup>(22)</sup>... إلخ. الشيء الجديد ولهم الذي أتى به فيبر هو تركيزه على المصالح الدينية البعثة، ذلك أن الممارسات الدينية تخلق أو (تثير) لدى التنجيز المحترفين من الكهنة وغيرهم مصالح ليست اقتصادية فقط، على الرغم من أنها تتضمن عاجلاً أو آجلاً مصالح اقتصادية.

(17) كان يقول شخص ما يحمل شهادة البكالوريا (الإجازة) في الآداب مثلاً عن شخص آخر يحمل شهادة الدكتوراه التي اقتضاها بسببها وضمن ظروف معينة أنه ألقى منه «إن كل ما يفعله صحيح لعدم أنه يحمل شهادة البكالوريا» أما أنه بذلك يساهم في إضحاك نفسه الآخر. ولتوضيح هذه الشهادة التكميلية معترفاً بلفظ الرمزي الذي يفرقه المجتمع بالقدرة على الآخرين. الواقع أن الشهادات ليست مهمة وخطيرة إلا لأن لا يمكنها، وأما الأساتذة الجديرون الذين وصفوا إليها فقاموا بغيرهم مدى سطوتها.

## ١ - ٥ : نقد الحداثيات النظرية

ولأنه توجد في علم الاجتماع صعوبة أكثر من غيره في التخلص من وهم الشطافية (تخمين للعلى الخفا) وهي تحقيق القطوع حتى النهاية مع المفاهيم المسبقة، ولأنه يعطي لنفسه غالباً، سواء أراد ذلك أم لا، مهمة الإجابة عن الأسئلة النهائية حول مستقبل الحضارة، فهو مهيباً حالياً ليقيم، مع جمهور لا يتحول أبداً إلى مجموعة من الأشخاص المتساويين، علاقة شير واضعة يفتش من أن تجد من جديد ويستمرار منطق العلاقة بين المؤلف الناتج وجمهوره ... وأكثر من جميع الاختصاصيين، يكون عالم الاجتماع ممرضاً لحكم غامض ومزدوج من قبل غير الاختصاصيين الذين يعتبرون أنفسهم مغلوبين إعطاء أهمية للتحليلات المشرحة طائفاً أيقنت الافتراضات المسبقة لعلم الاجتماعهم المعرفي. لكنهم بذلك يحملون على النساؤل بخصوص صوابية علم لم يقرأ به إلا في إطار معناه المزودج. وهي الحقيقة، عندما لا يتناول عالم الاجتماع سوى مواضيع الحس المشترك والتفكير المشترك حولها، فإن يكون لديه جديد يعارض به التأكيد المشترك حيث يحق لكل فرد التحدث عما هو إنساني والحكم على كل حديث، حتى العلمي، بما هو إنساني، وكيف لا يشعر كل فرد قليلاً بأنه عالم اجتماع عندما تتوافق تحليلات «عالم الاجتماع» كلياً مع التوقعات الشرة اليومية، وحيث لا ينفصل حديث المحلل عن الافتراضات المحللة إلا بهامز بسيط من المزودجين<sup>١٩</sup>.

يرى يورديو أن «عالم الاجتماع» ما زال يعاني مشاكل عديدة تنبع من الترخس كعالم، مع أنه خطا خطوات عديدة على طريق تطور وتقدمه، والعائق الأساسي، بل الخطر الرئيسي الذي يواجهه، يتمثل في الاتجاه نحو التنبؤ، فالعلم في رأيه، لا يتنبأ أو لا يفترض به التعبير عن عقله أو مذاهبه، لأن ذلك لا يكشف الواقع أو الظواهر الاجتماعية فيه، وإنما يعمل على تضليله وتشويهه وإبراز على غير ما هو عليه. وكما هو معروف، فالنصوص التنبؤية ليست بأفكار أو مفاهيم علمية. فهي لم تشكل علمياً بواسطة مناهج علمية بقدر ما تشكل من أفكار غامضة تعبر عن رغبات وتصورات ومطامح وأهداف. وهي لهذا السبب تحتوي على الكثير من المفاهيم المسبقة، إلى جانب هذه المشكلة، يمكن التحدث عن تعديدية المعنى والناتج السلبية التي تؤدي إليها في علم الاجتماع. تجدر الإشارة هنا إلى أهمية إعطاء معنى موحد للظاهرة الاجتماعية. لكن للموسول إلى ذلك، علينا تخطي عوائق إبستمولوجية عديدة وكبيرة سواء على المستوى النظري أم على المستوى التطبيقي. يعين التحقق من المفاهيم النظرية عن طريق النقد والتجربة. كذلك التثبت من المناهج النظرية والتجريبية. في الواقع اللغوس يدعو يورديو إلى القطيعة مع المفاهيم المسبقة أو مع علم الاجتماع المعنوي. لأن هذه المفاهيم عامية، لا تعكس حقيقة الواقع الاجتماعية أو كما يقول دوركهيلم: لن تسمح باكتشاف القوانين التي تحكم في الواقع. فهي وليدة التجارب العامية القاصضة، كما أنها مرتبطة بالانطباعات والمشاعر

والانفعالات. لذلك لا تعد مفاهيم علمية مبنية على أساس منهج علمي أو على أساس الشك، كما كان الأمر عند رينيه ديكارت، أو النقد. وهي تمكس المعرفة اليباشرة الفاعضة للأحاساس بدل المعرفة العقلية المرتكزة على التحليلات العلمية. وهذه القطيعة تعد شروطاً لبناء علم اجتماع صحيح. موقف بورديو هذا يعبر عن الرغبة في محاربة المناهج التقليدية التي ما زالت مستمرة حالياً. وفي استخدام مناهج حديثة أكثر علمية، ومهما كانت طبيعة علم الاجتماع والنظريات السائدة فيه، فهو على علاقة بالناس، وبالتالي بمصالح وأهداف اجتماعية، لهذا السبب، لا بد أن يطرح تساؤلات بخصوص واقع المجتمعات، ماضيتها وحاضرها ومستقبلها، ونظراً لإعطائه هذه المهمة يخش من أن التحول غايته العلمية إلى غايات أيديولوجية، ولهذا السبب أيضاً، فعين يتوجه عالم الاجتماع إلى الجمهور غير الاختصاصي بعلمه، فهو يحاول تخطي الأهداف العلمية وذلك من أجل تحقيق مصالح ومطامح شخصية معينة، فالعلاقة التي على عالم الاجتماع إقامتها مع جمهوره يفترض أن تكون مبنية على أساس كشف الحقائق، لا على أساس تقليدها بقضاء من الشكافية الخداعة، فلا يتعين على عالم الاجتماع حديثاً الإكثار من مؤيديه وأنصاره من خلال طرق رخيصة غير علمية أو طرق مضللة، وبعبارة بورديو من منطق العلاقة التاجعة بين المؤلف المشهور وجمهوره، فمن غير الجائز أن يتوجه عالم الاجتماع إلى أصحاب العقول البسيطة كي يكتب رسائلهم ومقالاتهم وتلهمهم له، لأن غايته ليست المعرفة العلمية البسيطة، أو المعرفة العلمية الفاعضة، إنما المعرفة العلمية التي تتجاوز المصالح الضيقة، ويدين بورديو بشدة موقف غير الاختصاصيين من علماء الاجتماع الذين لا يركزون في أحكامهم على حقيقة التحليلات، أو على ما هو اعتقادي فيها، ويميلون أن أراقم التي تدعم المفاهيم المسبقة لديهم هي آراء غير علمية. وعلى الرغم من موقفهم هذا، فهم مضطرون إلى التسلل بخصوص المعاني المختلفة في تفسير الواقع، لأن الاختلاف لا يعبر عن صحة الموقف العلمي ويطلق كليا مع دوركهايم حول ضرورة ألا تشكل المعرفة المشتركة أو المفاهيم المسبقة موضوعاً لعلم الاجتماع، حيث إن دور عالم الاجتماع ليس التأكيد على أفكار فاعضة وحقائق مشوشة، وإنما كشف ما هو موجود في الواقع، وقول ما هو جديد. لهذا الأمر يستغنى بورديو من «علماء الاجتماع، الذين تتوافق تحليلاتهم مع المصالحات العلمية التي لا يحصل بعضها عن البعض الآخر شيء، من الأهمية.

وهي الإشارة إلى موقف الكيمياء حديثاً من ضرورة محاربة الاتجاه القديم اللاعلمي والسائد عند، والتي على التقلبات السرية والنظرية الصوفية، يخلص إلى ضرورة محاربة الاتجاه القيني عند عالم الاجتماع الذي لا يتوافق مع ضرورات العلم لأنه لا يخاطب أصحاب العقول الثيرة بقدر ما يخاطب العقول البسيطة التي تود الحصول على نتائج تتوافق مع مخيلاتها وتصوراتها، وإذن، كما يقول باشلار، «على الكيمياء أن يحارب في نفس الكيمياء



القديمة، وهكذا، على كل عالم اجتماع أن يحارب في نفسه التمسك الاجتماعي، حيث يطلب جمهوره منه تجسيده، فالمصانعة العاقلة ظاهريا لليديولوجيات الأفضل سمعا لإيجاد جمهور لأنها يديولوجيات عامة، واستخدام لغة ذات كتب متعددة لطع جنباً إلى جنب الكلمات المشتركة والكلمات التقنية بقصد دعمها، يقدمان إلى علم الاجتماع غطاءه الأفضل عندما ينوي، مع كل ذلك، مفاجأة أولئك الذين يحجب على توقعاتهم بإصطلاحاته تسميتها أكبر لواضعيهم المضطلة، ويتقدم حديث في الظاهر موجه إلى جمهور ضيق من التلاميذ، وهو يستخدم في الحقيقة الوظائف الموجهة إلى جمهور واسع من ضمن مشروع نبوي<sup>114</sup>، إلى جانب أن هذا الاتجاه يطفي آراء، ويديولوجيات وأفكاراً ضائعة، ويغير عن رغبات ومصالح خاصة، فإنه يعمل على تقطيع الواقع بجمع «علمية» وبأساليب ومصطلحات لا تدعم في الحقيقة سوى افتراضات مسبقة عن عالم الاجتماع، ما قيمة علم الاجتماع إذا لم يهدف إلى كشف الحقيقة والارتباط بجمهوره على هذا الأساس؟ وهل قيمة المشروع العلمي في تحوله إلى منعب أو عقيدة؟ وإذا طبق الحذر الإبيستيمولوجي من استخدام الافتراضات البسيطة، فهل يعد هذا كافياً، أو ضعفاً أكيدة لعدم اعتمادها؟ الوقت المبني لكل من سينسر أو كونت أو دوركايم أو ماركس أو دوركايم تؤكد عكس هذه الحقيقة، ما يميز بورديو عن هؤلاء أنه لم يدع إلى محاربة أو تجنب هذه المفاهيم فقط، بل إخضاعها للنقد الدائم.

### ١ - ٦ : نقد المنهجية الماركسية الماركسية

ينتقد بورديو الفهم الموضوعي التقليدي للواقع الاجتماعي: [يدرك التقليد الموضوعي العالم الاجتماعي كعالم من الانتماءات الموضوعية المستقلة عن الفاعلون والبنية انطلاقاً من وجهة نظر مراقب حيادي خارج الفعل فوق العالم الملاحظة]<sup>115</sup>، الاتهام موجه بشكل أساسي إلى كل العلماء الذين حاولوا تنظيم الواقع أو الظواهر الاجتماعية من خلال قوانين أو انتظامات موضوعية، وهذا يمكن ذكر سينسر وكونت ودوركايم وماركس... إلخ. نقطة الضعف الأساسية عند هؤلاء في رأي بورديو هي أنهم لم يدركوا الدور الحقيقي للفاعلين الاجتماعيين، وأنه لا توجد ظاهرة اجتماعية خارج الوعي الذاتي، من هذا المنظار مثلاً، لا توجد حيادية للمراقب، ولا خصائص موضوعية للظاهرة فكلما بذلنا، وأي ملاحظة مرتبطة بتصورات وإدراكات محددة، وأي واقعة غير منفصلة عن طبيعة الملاحظة. فالمراتب هو الذي يربطها لأنه هو الذي يعطيها معنى محدداً. ومن هذا المنظار أيضاً يعتبر بورديو أن عملية تشكل أو تشكيل [توضيح] الظواهر الاجتماعية ليست عملية ميكانيكية تحصل بمعزل عن إرادة الإنسان ووعيه، تجاه ذلك، يهاجم ساوتر موضوع، في نقد العقل الجدلي، لبني ستراوس وتأثير التشييز [التوضيح] الذي نسبته الموضوعانية... في النهاية، كما يوحى بعض النصوص لكولمان، فالعالم الاجتماعي نتيجة أفعال فردية<sup>116</sup>، فهي لا تحدث خارج تأثيرات الأفراد ومواقفهم

وتصرفاتهم، وما التبدل فيها إلا نتيجة لتغير في الأفكار والآراء والمواقف، لذلك فهي ليست خارج الإنسان ووعيه وتمازج عليه، كما اعتبر دوركايم، فسرًا خارجيًا منفصلًا عن إرادته أو أنها موجودة في عالم خارج عالم الأفراد - إنها، هي الحقيقة، ولادة الفعل الأفراد أو نتائج للعلاقات التي نشأ بينهم.

كيف يفهم بورديو عملية تشكيل الوظائف الاجتماعية يقول: (وريمدا عن أن تكون للناس تصرفات محترمة بسبب وجود ترانزيات، فإن عدم حيودية الأفعال الفردية من الاحترام والاعتبار ... هو الذي ينتهي بإنتاج التراتبية<sup>(1)</sup>، فهو يشير أن التراتبيات الموجودة في المجتمع، أي الأهمية للعظة للمؤسسات أو لظواهر اجتماعية على حساب مؤسسات أو ظواهر أخرى، غير عائدة إلى خصائص موضوعية مستقلة عن وهي الإنسان ومراقبة هذه الظواهر أو هذه المؤسسات، فهذه الخصائص من الأهمية والاحترام والتقدير مرتبطة في الحقيقة بمواقف الأفراد وتصرفاتهم وإدراكاتهم، وتبعًا للعنصر الذاتي هذا تعطى معان أو تقديرات مختلفة للوظائف الاجتماعية، فليس الوجود الموضوعي للتراتبيات في المجتمع هو الذي يخلق تصرفات أو تصورات الأفراد عنها، بل إن أفعال وتصورات الأفراد عنها هي التي تعطي درجات من الأهمية والاحترام، وسلفة الموضوعية. وللدلالة على هذا الموقف يمكن الإشارة إلى بعض الظواهر السياسية، فالسلطة مثلاً تظهر وكأنها تتشكل أو تنشأ بمعزل عن إرادة الإنسان ووعيه، (ونرى على الأثر الموضوعات السياسية، من ناحية لغة البنى الموضوعية للهينة، ميزان قوى موضوعي، ومن ناحية ثانية، هو حجم الأفعال الاحترام كغير المنتهية والتي تحدث موضوعية العلاقات الاجتماعية<sup>(2)</sup>، تظهر السلطة كقوة جنسية لا بد منها، قوة فرضتها الضرورة، فالهينة تظهر كأنها من فوق مفروضة على الناس، خارج تصرفاتهم وتصوراتهم وأفكارهم ووعيمهم، كقوة قسرية لا رأي للإنسان فيها يكون التحدث في هذه الحالة عن وجود ميزان موضوعي للقوى، أي عن وجود ظروف موضوعية أدت إلى ظهور هذا الشكل من السلطة، واستنادا إلى هذا الكلام، لا تعطي أهمية للوعي في وجوده، ينتشر كلام آخر يعطي كل الدور للوعي والفكر وتصرفات الأفراد على حساب الظروف أو العلاقات الاجتماعية الموضوعية. لأن احترام الأفراد لهذا النوع من المؤسسات أو لظواهر هو الذي أدى إلى وجودها، بل هو الذي حافظ على بقائها حتى الآن. ويكون الصراح بين تيار الحتمية الذي يقول بالفهم الموضوعي وتيار الحرية الذي يقول بالفهم الذاتي المرتكز على إرادة الإنسان ووعيه.

من خلال هذا العرض، يتبين لنا أن بورديو لا يؤيد الفهم الموضوعي وطريقته ولا الفهم الذاتي وطريقته، (الحتمية من ناحية، والحرية والعفوية من ناحية أخرى) (إذا توقف الناس عن تعبيد الكبار ...) نرى جيداً أن هذا رهان مهم، ونرى في الوقت نفسه على أرض المجتمعات التقسمة إلى طبقات، وفي ميدان علم الاجتماع، أنه من الصعب أكثر من الإثنولوجيا فصل

## يور بورديو بين العادة العارسية والتاريخية العصرية

موضوع المعرفة عن موضوع السياسة، مع أننا نقوم بذلك بشكل شبه دائم<sup>17</sup>، فالفهم الحقيقي في رأيه يركز على العلاقة الجدلية بين الذاتي والموضوعي. لأنه لا توجد ذاتية من دون موضوعية ولا موضوعية من دون ذاتية. ولتوضيح موقفه يعطي أمثلة عديدة، فيقول إن شهرة الأشخاص الكبار من علماء ومفكرين وفنانين وسياسيين وعسكريين، مرتبطة بوعي الأفراد الذين يعتقدون بها وإذا توقف هذا الاعتقاد، وما يستتبعه من مواقف وتصرفات، تزول شهرتهم لا محالة، إذن وجود أي ظاهرة اجتماعية أو سياسية أو ثقافية أو فنية، مرتبط بتصورات الأفراد عنها ويتقلبهم إياها، بكلام آخر، العلاقة بين السلطة والناس مثلاً عبارة عن رهان حيث يمسود جو من التجاذب والتنافس والتصادم والصراع. يمكن توضيح هذا الموقف أكثر من خلال القول إن الناس على دين ملوكهم، أي أن سلطة الملوك وتجبرهم واستبدادهم وظلمهم غير منفصلة عن وعي الناس بها، لذلك فلا تغير وعيهم تغييرت، هذا لا يعني أن الوعي عامل منفصل عن طبيعة السلطة أو عن الظروف الاجتماعية والتاريخية التي وجدت فيها، الوعي في هذه الحالة عنصر منها.

يخلص بورديو من موقفه هذا إلى التأكيد على العلاقة التي تربط بين المعرفة والسلطة (السياسة) أو بين الوعي وأي ظاهرة اجتماعية (إلى أنه لا يجوز الفصل بينهما كما يحصل عادة. ويصعب الفصل في ميدان علم الاجتماع أكثر منه في ميدان الإثنولوجيا، لأن واقع المجتمعات الحديثة، بسبب الانقسام الطبقي والتراجع حول السلطة وتاريخ هذا التراجع، يظهر العلاقة بوضوح أكثر مقارنة مع المجتمعات البدائية البسيطة التي تحاول الإثنولوجيا دراستها، يعني بورديو موقفه على أساس التمييز بين النظرة الموضوعية والنظرة العنوية الذاتية: لوفي التقليد الماركسي يوجد صراع دائم بين ميل موضوعاتي يبحث عن الطبقات في الواقع (حيث المسألة الأبدية، كم هناك من طبقات؟) ونظرية إرادية أو عنوية تكون الطبقات تبعاً لها شيئاً نصنعه. من زاوية نتحدث عن شروط طبقية، ومن زاوية أخرى عن وعي طبقي. من زاوية عن وضع في علاقات الإنتاج. ومن أخرى عن «صراع طبقي» وفعل وحركة، والنظرة الموضوعية ستكون نظرة عالم، والنظرة العنوية نظرة مناضل. أعتقد أن الموقف الذي نتخذه حول مسألة الطبقات يتعلق بالوضع الذي نشغله في البنية التطبيقية<sup>18</sup>، إذ لا النظرة الموضوعية تعتبر صحيحة لأنها تتجاهل الوعي والعنصر الذاتي، مع أنها أقرب إلى العلم لأنها ترى ضرورة تجنب تأثير الذات أو للعنصر المسبقة في الفهم، ولا النظرة الذاتية صحيحة كذلك لأنها تتجاهل تأثير الظروف الموضوعية، مع الإشارة إلى أنها تعبر عن رغبات وآمال ومطامح. لهذا السبب يلف بورديو بين فيبر وماركس، يأخذ عن فيبر دور العنصر الذاتي، أي دور التصورات والفهم والبل في الفهم، وعن ماركس دور العوامل الموضوعية (الظروف التاريخية والاجتماعية) في تفسير الظواهر، ويربط بين الاثنين بحيث يكون العنصر

الذاتي جزءا من الواقع الموضوعي، لأن وجود أي واقعة مرتبط بإدراكات وتصورات ومواقف وأفعال معينة. وموقفه من الطبقات يوضح وجهة نظره. فلا الموقع في علاقات الإنتاج هو الذي يحدد الانتماء الطبقي، ولا الوعي الطبقي يعزده. ما يحدد الصفة الطبقيّة، بالنسبة إليه، هو الموقع في البنية الطبقيّة الاجتماعيّة. والموقع هنا يتخطى طبيعة العلاقة بالإنتاج الذي إلى طبيعة العلاقة بالسلطة السياسيّة. فالموقع الطبقي لأي فرد لا يتحدد بالموقع الاقتصادي الذي يشغله في الإنتاج فقط وإنما بالنشاط السياسي والاجتماعي الذي يقوم به. إن موقفه في علاقات الإنتاج غير منفصل أبدا عن وعيه وتصوره للسلطة السياسيّة، كما أنه غير منفصل عن تصرفاته إزاء هذه السلطة.

#### ٦-٧ : محاولة تجاوز التناقضات الموضوعية ومنح في التماسك :

من خلال عرض وجهتي نظر ذاتية ماركس فيبر-وموضوعية ماركس، يدعو بورديو إلى تجاوزهما، لا أرضية في ذلك. وإنما لأن الواقع يؤكد هذه الحقيقة: إلا يمكننا العمل على تقدم العلم في أكثر من حالة إلا شرط التوصل بين نظريات متعارضة. غالبا ما يتكون بعضها ضد البعض الآخر. والأمور لا يتعلل باستخدام هذه التركيبات العاطفة الانتقائية التي كثيرا ما شعرت بها بشدة في علم الاجتماع. وقيل بأن إدانة الانتقائية غالبا ما استبعدت كحجة ضد الجهل (اللاشكافية). وبالتالي من السهل والمريح الانطلاق ضمن تقليد، والماركسية، للأسف، ملأت أحيانا وظيفة الأمان الكسوف هذه، والتركيبات التي يمكن إلا بتساؤل جذري يؤدي إلى مبدأ التضاد الظاهر<sup>١٢</sup>، فإدانة مع لها تجاوزت إلى كونها تلك الصفة الموضوعية للواقع الاجتماعي، رأت جانبا منها. لقد تحدثت عن أهمية التصور الذاتي في فهمها. بالمقابل، فالموضوعية، مع تأكيدها على الخصائص الموضوعية للواقع، فقلت من أهمية العنصر الذاتي، أي من أهمية الأفعال والمواقف والآراء التي تعتبر جزءا منها. إذن، لكل من الذاتية والموضوعية إيجابيات وسلبيات. ولهذا السبب، ومن أجل تقدم العلم، يجب جمع كل هذه الإيجابيات، والتخلص من كل هذه السلبيات. كيف يكون السبيل إلى ذلك؟ يكون من خلال نظرة جديدة لتوافق مع الواقع للمعوس، أي من خلال التمسك بين النظرية والواقع، وهذا ما حاول تطبيقه بورديو، وهو ما يعبر عن غير من العلماء. لذلك فحين يدعو إلى الربط بين النظريات المتعارضة، فهو لا يقصد الرغبة في التوفيق من أجل التوفيق، وإنما التجمع بين ما هو صحيح. من هنا كانت إدانة التركيبات العاطفة الانتقائية تبعاً للرغبات المنتشرة بكثرة في علم الاجتماع. من هنا أيضا اختلاف الانتقائية عنده (وهي مشروطة بالحقيقة والواقع) عنها عند غيره. حيث قد تصنف بالجهل أو اللاشكافية، يعتمد على موقف بورديو هذا إلا ينسب محصورين عند تقليد معين، كما هو الأمر مثلا بالنسبة إلى الماركسية التي لا تحيد نظرتها في فهم الواقع. بل تعتبرها كأنها النظرية الوحيدة العلمية. وبناء على هذا الاعتبار أدانت كل نظرة

معارضة وأطلقت عليها تهما شتى، ليس هذا بالوظيفة العلمي في رأيه، لأن من أصول النظرية العلمية ألا تتحول إلى عقيدة أو مذهب أو فلسفة، وهذا ما شدد عليه هيجر من خلال إدانته للمناهج التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر - ومع أن ماركس أكد في مؤلفاته المتوعدة ضرورة النظر الجديدة للواقع، وأن كل المفاهيم تخضع للتغير بسبب تغير الظروف الاجتماعية والتاريخية، إلا هذا ما يعطي أهمية للنظرية العلمية - فهو أن التباين هيموا نظريته كعقيدة أو كمذهب، فتحوّلت مقولاته إلى مفاهيم ثابتة وأبدية، فالدولة مثلاً أصبحت أمراً ضرورياً في المرحلة الاشتراكية، وحتى كل مرحلة اجتماعية، كذلك بالنسبة إلى الحزب.

بين يورديو وظيفة الحلول الجاهزة والتحليلات الثابتة للموقف الماركسي هذا - ويمتدح وظيفة الأمان هذه، أو وظيفة العودة إلى الرؤية الأحادية الجانب أو وظيفة عدم كشف التناقضات، غير علمية ويجب وضع حد لها، والتركيبات الصحيحة في رأيه هي تلك التي تطرح تساؤلات مهمة وأساسية بخصوص التناقضات بقصد تحليلها وكشفها علمياً - إن اتهامات يورديو لا تطول الماركسيين فقط وإنما ماركس نفسه - مثلاً، يعكس الانعصار الطبيعي للماركسية نحو الاقتصادية، الذي لا يعرف الاقتصاد إلا بالمعنى الضيق للاقتصاد الرأسمالي والذي يشرح الكل من خلال الاقتصاد المعروف بهذا الطريقة، فإن ماركس هيجر يوسع التحليل الاقتصادي (في المعنى المصمم) إلى ميادين تركت عادة من قبل الاقتصاد، مثل الدين، فهو بالتالي يصف الكيفية من خلال صيانة تأثير الأعصاب، كمختلفة باختلاف الهيمنة على الأملاك العامة، ويدخل في صيانة جذوة بحث عن الجدليات الاقتصادية (في المعنى الواسع) في ميادين، حيث توجد هيمنة الأيديولوجيا - بعدم الاهتمام بكل الفن أو الدين<sup>32</sup>، معوز هذا الانتقاد أن الاقتصاد كعامل غير كاف في تفسير الواقع الاجتماعي، لأنه لا يوجد اقتصاد بعته، أو حقيقة اقتصادية بعته، بل هناك حقيقة اجتماعية متعددة الجوانب، إلى جانب ذلك، يبقى شرح الظواهر الاجتماعية والسياسية والفنية من خلال الاقتصاد الرأسمالي الذي يعد شكلاً معيناً للحياة الاقتصادية، غير كاف أيضاً، ولهذا السبب لا يعد شرحاً علمياً كاملاً وصحيحاً، في المقابل، يشيد يورديو بموقف هيجر من شرح الرأسمالية، فيقول إنه لم يكن محصوراً بالفهم الضيق للاقتصاد الرأسمالي، فعاول مثلاً فهم امتدادات هذا الاقتصاد في الحياة الاجتماعية، ونظر إلى الدين وتأثيراته، وكذلك إلى الكنيسة، من المعروف هنا أن هناك أنواعاً معينة من الأخلاق والمعتقدات والتقاليد لدى طوائف مسيحية معينة تساعد على العمل الاقتصادي الحر وتبرر هذا التصرف (البروتستانتية بمختلف تفرعاتها، الكاثوليكية الفرنسية واللوثرية الألمانية والصاحبون أو الكويكرز الأيرلنديين والزنغلية السويسرية)، في حين توجد طوائف أخرى تشدد إزاء هذا الوضع (الكاثوليكية)، من هنا كانت نظرة هيجر إلى الاقتصاد الرأسمالي مرتكزة على قاعدة أعم وأشمل من تلك التي استند إليها ماركس.

فالاقتصاد يمكن تفسيره بعوامل اجتماعية متعددة: كالدين أو القانون أو السلطة، ويعتبر بورديو أن جانباً أساسياً من فهم فهم مفهوم الشرعية بعد صحيحها لأنه ربط بين أشكال الشرعية المختلفة والمعتقدات والتصورات لدى الأفراد بخصوصها. وهذا الربط برآيه من صلب الحقيقة الاجتماعية.

يؤمن بورديو إيجابياً موقف ماركس من فهم الظواهر الاجتماعية، ومن رفضه المفاهيم العامة والانعكاسات الظاهرة أو الخارجية للمعرفة: (والشيء نفسه مع مفهوم الشرعية، قطع ماركس مع التصور العادي للعالم الاجتماعي بمحاولة تبيان أن العلاقات «الساورة جداً» للأبوية مثلاً تعبر ميزان قوى، وعند فهم حس المعارضة الجذرية لماركس: يذكر أن الانتماء إلى العالم الاجتماعي يوجب جانباً من الاعتراف بالشرعية. هذان الأستاذان - كمثل جيد عن تأثير الوضع - يتمسكان بالاختلاف، وهما يفضلان المقابلة بين المؤلفين على التوفيق بينهم<sup>(١٧)</sup>.

هذه العلاقات الأبوية تمكس ميزان قوى أكثر مما تمكس علاقات «ساورة جداً» بين أفراد العائلة. لكن مع ذلك، يعتبر أن ماركس تجاهل العنصر الذاتي الذي يشكل جزءاً مهماً من الحقيقة الموضوعية، والذي أكدته فهم من خلال الاعتراف بأشكال الشرعية من قبل الأفراد مثلاً.

والاعتراف هو نتيجة الانتماء إلى مجتمع ما، أي نتيجة لتقبل وجود مؤسسات أو ظواهر اجتماعية معينة على أساس تصورات وإفراكات ومواقف وتصرفات محددة. وهذان المؤلفان

في رأي بورديو يعتبران مثليين واضحين من الاختلاف في الرؤية وعن الإيجابيات والسلبيات عند كل منهما. لهذا السبب، مع أن مساهمتهما يفضلان اتفاقاً على الاختلاف في الشرح، فمن

الأجدر يمكن البحث عما هو مشترك بينهما، أي فيما هو صحيح وعلمي، وهذا هو منطق البحث العلمي، وهذا أكثر بساطة وسهولة من أجل بناء معاضرات واضحة، الجزء الأول

ماركس، الجزء الثاني هيبير، والجزء الثالث أنا<sup>(١٨)</sup>. ويخلص بورديو إلى تأكيد الحقيقة التي سبق ذكرها وهي أن الحقيقة الموضوعية التي بينها ماركس غير صحيحة كلياً إذا لم تفهم

كميزان قوى معترف به من قبل أفراد معينين، أي إذا لم تشمل العنصر الذاتي، (أي حين أن منطق البحث يؤدي إلى تجاوز التعارض، في الرجوع إلى الجذور المشتركة. أبعد ماركس من

نموذجه الحقيقة الذاتية للعالم الاجتماعي وطرح عكسها الحقيقة الموضوعية لهذا العالم كميزان قوى، لكن، إذا أرجع العالم الاجتماعي إلى حقيقته كميزان قوى، وإذا لم يعترف به

كعالم شرعي، في إطار ما، فإن ذلك لن يكون صحيحاً. فالتصور الذاتي للعالم الاجتماعي كعالم شرعي يشكل جزءاً من الحقيقة الكاملة لهذا العالم<sup>(١٩)</sup>. بهذا يتميز موقف بورديو هذا؟

يدعو أن بورديو توصل إلى رؤية الفجوات والتغيرات في الماركسية، فألقى أضواء جديدة على طبيعة الواقع الاجتماعية والسياسية، وكشف عن أن تشكيلها أو تفكيكها لا يحصل بمعزل عن

تصورات الأفراد وتصرفاتهم إزاءها، حتى أن هذه التصورات أو الأفعال تشكل جزءاً منها. ومع

أن ماكس فيبر تحدث عن الحقيقة الذاتية، إلا أنه لم ير شيئاً غيرها، إلى أن أتى بورديو واعتبر البعد الذاتي جزءاً من البعد الموضوعي للحقيقة الاجتماعية، وهذا هو الاكتشاف المهم الذي أتى به، إلى جانب هذه المسألة، تحدث بورديو عن الجوانب المختلفة للحقيقة الاجتماعية وعن طبيعتها المعقدة وعن طابعها الاجتماعي. ودعا إلى التفسير الأنثروبولوجي، ورفض التفسير الاقتصادي. علماً أن ماركس نفسه أشار إلى صعوبات هذا التفسير الأحادي الجانب بالنسبة إلى بعض أشكال الظاهري الضافون أو الفين. ومع أن التفسير الأنثروبولوجي الذي اعتمد لا يتجاهل الظروف الاجتماعية والتاريخية، وعلى الرغم من أهميته نظراً لمحاولته فهم الخصائص البنيوية للعلاقات الاجتماعية المعقدة، فهو لا يراعي حجم تأثير أي عامل مقارنة مع العوامل الأخرى مع الإشارة إلى فائدة ذلك في كشف الحقائق.

### ١ - ٨: نحو أنثروبولوجيا كبرى وناسئة الإنسان في كينته

ما طبيعة علم الاجتماع الذي يريد بورديو يعتبر أن وجود علم يفترض تجاوز التناقض الوهمي كما يسميه بين الذاتية والموضوعية، وهذا التناقض وهمي وتعسفي لأن أي طرف من الطرفين يشهد على وجود جانب معين من الحقيقة دون الجانب الآخر، (بسبب وجوده بالذات، يفترض علم الاجتماع تجاوز التعارض الوهمي الذي يولده الذاتيون والموضوعيون تعسفاً<sup>(١٦)</sup>، فالذاتية لا ترى إلا العنصر الذاتي (الأفكار والتصورات)، والموضوعية لا ترى إلا العنصر الموضوعي (خصائص الظواهر)، في حين أن الحقيقة الاجتماعية تشمل العنصرين معاً، وهكذا، فأي من الانتماءين لا يمكن الحقيقة، ولذا فإن علماء الاجتماع الموضوعيين، وبشكل خاص دوركايم، وماركس، أي أولئك الذين يعتقدون أنه لا يوجد علم اجتماع موضوعي إلا لأنه توجد علاقات موضوعية (وقائع موجودة خارج وعي الأفراد، قائمة بذاتها، ومشروطة عليه) تشكلت بمعزل عن إرادة الإنسان وعيه. ينتقد موقفهم الذي يعتبر العلاقات لا واعية وأنها لا تعطي للتفكير البسيط، (وإذا كان علم الاجتماع علماً موضوعياً ممكنًا، فلأنه توجد علاقات خارجية، ضرورية، مستقلة عن الإرادة الفردية، وحتى لا واعية (أي بمعنى أنها لا تعطي للتفكير البسيط)، وهي لا تفهم إلا من خلال تحول الملاحظة والاختيار الموضوعيين<sup>(١٧)</sup>، بكلام آخر، الموقف الذي يقول بأن العلاقات أو الوقائع لا تكون مرتبطة بالوعي إلا إذا أدركت علمياً، وأنها لن تكون مستقلة وموضوعية إلا مع التفكير البسيط، وينتج عنه بالتدريج كذلك إلى طريقهم في التفكير والتحليل التي لا تعطي قيمة إلا للملاحظة والاختيار الموضوعيين، أي الطريقة التي تفهم بطريقة وفهم وتحليل ما هو موضوعي موجود في الواقع، وتتجنب ملاحظة أو اختيار ما هو ذاتي، (بكلام آخر، لأن الأشخاص لا يدركون معنى كل تصرفاتهم كمعنى مباشر للوعي، ولأن تصرفاتهم تتطوي دائماً على أكثر من معنى لا يعرفونه ولا يريدونه، قد لا يكون علم الاجتماع علماً انعكاسياً محضاً يسمح بالوصول إلى التأكيد المطلق بواسطة

الرجوع الوحيد إلى التجربة الذاتية. وربما يكون في الوقت نفسه علما موضوعيا للموضوعي والد «الذاتي» أي علما اختياريا<sup>(31)</sup>. إن يسلم الذاتيون أيضا من انتقاداته، فهؤلاء لن يتمكنوا من فهم الحقيقة (تصرفات الأفراد مثلا) من خلال التجربة الذاتية فقط، لأن الأفراد لا يتمكنون من إعطاء وصف دقيق علمي لتصرفاتهم لأسباب عديدة: أولا، لأنهم لا يدركونها مباشرة، ثانيا، لأنهم يعطونها معاني متعددة، ثالثا، لأنهم يرفضون إعطاء بعض تصرفاتهم معاني لا يريدونها. إذن، يبقى التحليل من خلال التجربة الذاتية خاضعا لقياب المعنى العلمي الوحيد. ولهذا السبب فعلم الاجتماع لن يكون علما انعكاسيا خاضعا للتفكير الذاتي وللمعاني الذاتية.

التحليل العلمي في رأي يورديج هو ذلك الذي يكون بمنزلة اختبار للذاتي والموضوعي في الوقت ذاته، أو للعلاقة بينهما، أو الاختبار، كما يقول كلود برنار هو «التوسيط الوحيد بين الموضوعي والذاتي»... لكن بخلاف علم الطبيعة، فالأنثروبولوجيا الكلية لا تريد بناء علاقات موضوعية لأن تجربة المعاني تشكل جزءا من المعنى الكلي للتجربة: وعلم الاجتماع الأقل شيعة ذاتية يستعين بمفاهيم وسيطة ووسيطه بين الذاتي والموضوعي، مثل الاستلاب والموقف والأخلاق التطبيقية<sup>(32)</sup>. فلا يجوز مثلا تحليل مواقف أو تصورات أو آراء أو أفكار بشكلها المجرد بمعزل عن معانيها الموضوعية في الواقع للموس. بناء على هذا الموقف، ليس من الضرورة أن يكون موضوع الأنثروبولوجيا الكلية عبارة عن علاقات موضوعية أو واقع قائمة بذاتها، كما هو الأمر بالنسبة إلى علم الطبيعة وعلم الاجتماع عند الموضوعيين. لأن التحقّق من خلال التجربة الذاتية من المعاني المختلفة للتصرفات بعد جزءا من المعنى الكلي للتجربة التي يجب أن تشمل المعاني الذاتية والموضوعية معا. من هنا كانت دعوة يورديج لرفع الشيعة الذاتية عن علم الاجتماع من خلال استخدام مفاهيم وسيطة أو وسيطة بين الذاتي والموضوعي. أي مفاهيم تشمل المعاني الذاتية والموضوعية معا. فلا يجوز مثلا البحث عن معنى الاستلاب في نفسية الفرد فقط من دون البحث عنه كذلك في الواقع أو في الظروف الاجتماعية، أي أن معناه غير مقتصر على الأسباب الذاتية المتعلقة بشخصية الفرد فحسب. وإنما على الأسباب الموضوعية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والفنية.

وعلى الباحث رؤية هذه الأسباب جميعا، والأمر نفسه بالنسبة إلى الموقف الذي يتخذه الإنسان إزاء أي مسألة، حيث يجب البحث عن المعنى، ليس في التفكير الذاتي فقط، بل أيضا في الواقع للموس. وكذلك بالنسبة إلى مفهوم الأخلاق التطبيقية، تصدر الإشارة هنا إلى أن معنى الأخلاق التطبيقية للمثلية في القواعد والقوانين الاجتماعية غير منعزل عن معنى المثل والتصورات والقيم الأخلاقية المجردة. إذ مهمة علم الاجتماع تكون على أساس بناء نظام من العلاقات يشمل المعاني الموضوعية للتصرفات [المحددة اجتماعيا من خلال الأنظمة والقوانين]



والعلاقات التي يقيمها الأفراد مع وسطهم الاجتماعي والتاريخي، أي مع وسطهم الموضوعي، أو مع المعاني الموضوعية لتصرفاتهم: إحقق له بالتالي بناء لنظام من العلاقات الذي يعمل على الموضوعي لتصرفات المنظمة تبعاً لانتظامات مقبولة. والعلاقات المفردة التي يقيمها الأشخاص مع الشروط الموضوعية لوجودهم، ومع المعنى الموضوعي لتصرفاتهم، معنى يعكسهم لأنهم مخلوقون به<sup>(٣٣)</sup>. يعني بناء نظام من العلاقات التي تشمل التأثير المتبادل بين الأفراد وشروطهم الاجتماعية، بعبارة أخرى، تتمثل مهمة علم الاجتماع أو الأنثروبولوجيا الكلية في وصف الضرورة التي تتطلبها الموضوعية من خلال الاختيار الذاتي وذلك لتجميع الذاتي بالموضوعي [كلمات أخرى، يعود وصف الذاتية للمنظمة إلى وصف استبطان الموضوعية، والعلاقات الثلاث للسير العلمي هي بالتالي غير منفصلة: المعيش القياش، والمعرفة من خلال التعابير التي تغطي المعنى الموضوعي بقدر ما تكشفه، يعود إلى تحليل المعاني الموضوعية والشروط الاجتماعية لإمكان تحقيق هذه المعاني، تحليل يستلزم بناء العلاقة بين الأشخاص والمعنى الموضوعي لتصرفاتهم ... باختصار، على الأنثروبولوجيا الكلية الانتهاء في تحليل الضرورة التي وفقها تجنر الموضوعية في / بوساطة الاختيار الذاتي، عليها تجاوز الأمر بشمولها لحظة الموضوعية وتركيزها في نظرية الاستبطان واستبطان الإظهار<sup>(٣٤)</sup>، أي وصف كيف تتموضع الذاتية، أو كيف تؤدي تصورات الأفراد ومواقفهم وإراهم إلى تشكل وتشبذ التوافق الاجتماعي، ومن ثم كيف تستبطن الموضوعية الذات أو كيف تؤثر الشروط الموضوعية فيها وكيف تشكل المعاني.

وبما أن المعاني أو التماثيل الذاتية للأفراد قد تكشف أو لا تكشف المعيش المباشر نظراً لامتدادها واختلافها بخصوص أي تصرف، فإن معرفة هذا الواقع المعيش تعود إلى تحليل المعاني الموضوعية لتصرفات. أعني إلى تحليل الضامرين المحددة من خلال نظم وقواعد معينة، وتحليل الظروف الاجتماعية والتاريخية التي تسمح بتحليلها. وبالتالي، هذا التحليل يرتكز على العلاقة بين الأشخاص وشروطهم الموضوعية، بكلام آخر، يكون كشف التوافق المعيش من خلال تحديد الظروف الاجتماعية المختلفة [تبعاً لفئات والطبقات الاجتماعية] التي تسمح أو لا تسمح بتحقيق المعاني الموضوعية لتصرفات المحددة من خلال مواصفات ومؤهلات واستعدادات ودرجة معينة من المعرفة. أحياناً تتوافق المعاني الموضوعية مع استعدادات الأشخاص لدى فئات معينة، وفي هذه الحالة يتم التوافق بين المعنى الموضوعي والمعنى الذاتي. كأن ينجح مثلاً في امتحانات الدخول إلى كليات الطب والهندسة وغيرها من الفروع العلمية الشخاص من فئات اجتماعية متوسطة أو ما فوق المتوسطة. وأحياناً أخرى، ينتفي مثل هذا التوافق، كأن يرسم في امتحانات الدخول إلى الفروع العلمية التطبيقية الطلاب المنتمين إلى الفئات الشعبية، وفي هذه الحالة يكون التناقض بين المعنى الذاتي (أعمال

ومطامح الأفراد)، والمعنى الموضوعي (الشروط التي تسمح لهم بتحقيقها). وقد يعمل المعنى الذاتي أحياناً على تغطية المعنى الموضوعي، خاصة عندما يقوم القشل أو الرسوب في الاستجابات بأسباب ذاتية.

## ١ - ٩ : نقد النيوية وبروزها

يعاول بورديو أن يتجاوز النيوية، وأن يذهب إلى ما وراءها، كان الفكر النيوية قد طوق بشكل خاص على الأنظمة الرمزية من لغات وأساطير وأديان... إلخ. وقد مثلت النيوية ثورة في علم الأناسة (الإثنولوجيا). لقد تبين أنه لكي ندرس الشعائر والمفردات والأساطير كأنظمة متكاملة ومستقلة بعد ذاتها، أي كأنظمة لها تماسكها الخاص. لقد أحدثت النيوية بذلك التطهيرة مع الإثنولوجيا الاستعمارية والعنصرية التي غالباً ما تكون مقبولة من قبل المستعمرين أنفسهم؛ كانت الإثنولوجيا السابقة تقول بأن الأساطير والشعائر، وهي عبارة عن خطابات أو ممارسات قوضوية، غير متماسكة، ولا معنى لها. وبالتالي فإن ثقافة المستعمرين التي ينقلب عليها المطامع الشفهي والروفي «متدنية وسخيفة وبدائية» بالنسبة إلى الثقافة «العلمية الأوروبية». إن شخصاً مثل بورديو - كان قد شهد النظام الاستعماري في الجزائر - يعرف جيداً كم كانت النيوية ظاهرة ثورية (في مجال الأنثروبولوجيا على الأقل)، كان شيئاً شورياً أن يعامل عالم الأنثروبولوجيا «التصورات الخاصة بنهر الشعوب الأوروبية، كأنها أنظمة لها منطقتها الخاصة، وتماسكها الخاص، الذي لا ينبغي الاستهانة به أو ترفيقه من المعنى. وكان ذلك يمثل قطعة حقيقية من الرقعة الاستعمارية التي تقوم عليها معظم الأعمال الإثنولوجية السائدة في ذلك الوقت».

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

ولكن على الرغم من ذلك فقد جاء وقت أحس فيه بورديو بالحاجة إلى إحداث التطهيرة مع الإثنولوجيا النيوية وليفي ستراوس بالذات، ذلك أن ليفي ستراوس قد حصر عمله فقط في تحليل الأنظمة الرمزية وخصوصاً الأساطير. أي هي التصورات والبنى القوقية. أما بورديو فقد أزم عليه أن يذهب إلى أبعد من ذلك لكي يحلل العلاقات الاجتماعية بصلتها أنظمة متماسكة وذات دلالة. بمعنى آخر فليد نقل النيوية من مستوى التصورات والأساطير والمخيلة إلى مستوى الممارسات الواقعية والعلاقات الاجتماعية. يوجد فضاء اجتماعي للعلاقات التي تشكل تصوراتها أو التصورات المشكل عنها التمييز الرمزي. هذا ما حاول دراسته في كتابه «التمييز». «النقد الاجتماعي للحكم التقني أو للرائي»<sup>(٢٧)</sup>، حيث يتحدث عن أشياء كثيرة من بينها «الوجبات الشمسية» (وجبات الطعام)، «الوجبات البيروقراطية» والنوق الشعبي، والنوق البيروقراطي. ثم معادلاتها على أرضية الواقع للمادي ونظام القيم الخاص بكل منهما.

وهذا ما فعله في الجزائر أيضاً، فقد درس هناك نظام الألبسة التقليدية، ثم النظام الأوروبي (مطعم - كراوات -...) وقد كان النظام التقليدي تسمة متنوعاً. ويتخذ شكل الترتيب

الهرمي، وقد فهم بسهولة بعد أن فكر في الظاهرة أن هناك علاقة بين نظام الواقع داخل الفضاء الاجتماعي (المجتمع)، ونظام الواقع داخل الفضاء الرمزي للأعيمة والبراز، والناس هناك يعرفون ذلك، ولكن فقط على مستوى الممارسة العملية؛ فتدعما بورديو شخصيا في الشارح فإنهم يهتمون بموقفه الاجتماعي انطلاقا من التضمن في لباسه وهيبته، إنهم يعرفون هل هو جبلي أم حضري، هل هو فقير أم غني، هل هو تقليدي (عندئذ تكون قطع اللباس «متناسكة ومتسجمة») أم مثقف (وعندئذ يكون اللباس خليطا من الزي التقليدي والأوروبي). هناك إذن نوع من التنازع بين نظام الألبسة ونظام الواقع أو الراتب الاجتماعية، وقد تعمل عمله بدراسة العلاقات الاجتماعية ونحوها الرمزية مما يصفها تشكل نظاما متناسكا، تقصد بالأنظمة الرمزية هنا: الألبسة واللغة والسكن والشعائر... إلخ<sup>(37)</sup>.

وبورديو يريد هدم الحدود الفاصلة بين عالم الأناس (الإثنولوجيا) وعالم الاجتماع (السوسيولوجيا)، فالتفريق بين هذين العلمين هو نتاج الفترة الاستعمارية، ولم يعد له أي مبرر وجود الشيء الذي حاول تبسيطه الأثنولوجيا بالمجتمع الذي يدرسه، تقصد تأثير العلاقة الخارجية في الموضوع المدروس والمادة المدروسة. كان عالم الإثنولوجيا البنيوي قد أجعل هذه العلاقة تعالما (القصود ليفي ستراوس)، فعنينا درس بورديو المجتمع الجزائري (عاداته، طقوسه، علاقات القرابة والزواج، وأرتكاز كل ذلك على مفهوم المرض أو الشرف) اكتشف أنه مشروط بوضعه كمراقب غربي، بكل سياقاته وإيديولوجيته، ينبغي أخذ العلم بذلك وعدم إغفاله كما فعل ليفي ستراوس، الذي قضى بالتقول: «لنا طريقتا خارجي وساحلي خارجيا، ولن أطبق قيم العقلية المركزية الأوروبية على «جسرات» الآخرين، لأن الآخرين مختلفون جذريا» هذا موقف ينطوي ضمنا على عرقية مركزية واضحة.

لهذا السبب ألهم جاك دريدا أيضا ليفي ستراوس بالعرقية المركزية، وقد رد عليه ليفي ستراوس قائلا: «إن هؤلاء الذين يرددون هذا الكلام يرددون شيئا من القيام بأي محاولة لفهم الثقافات الأخرى، وهم بالتالي يستقون في ظلامية جديدة. ذلك أن الفهم يتطلب هذا أدنى من التماثل والهوية»<sup>(38)</sup>.

كان ليفي ستراوس، قد حقق تقدما كبيرا في فهم ودراسة الفكر الأسطوري لمجتمعات عديدة ومختلفة، ولكن رفضه للعرقية المركزية أدى به إلى رفض تحليل موقعه بالذات كدارس لمجتمع آخر، إنه يحترم الثقافات الأخرى ويمجد بها، ولكن هذا الاحترام يقوده إلى تأييد المسافة بينه وبينها، فهو شيء وهي شيء آخر، ما دامت لم تتخذ خط تطور الغرب نفسه. يمكن القول بأن ليفي ستراوس قد وقع في نوع من العرقية المركزية البورجوازية أيضا. هناك نوعان من العرقية المركزية، الأول عرقية مركزية ثقافية (أي الغرب مركز الحضارة البشرية والثقافات الأخرى وحشية وبدائية)، والثاني عرقية مركزية طبقية، وهذا النوع الثاني نجده

لدى المثقفين البورجوازيين في البلدان المستعمرة سابقا. إنهم هم أيضا ينظرون إلى أبناء شعبيهم من الطبقات الشعبية والفريقية نظرة استعمارية. وقد لمس ذلك بيورديو عندما كان يقوم بأبحاثه الميدانية في الجزائر، حيث اشتغل مع بعض هؤلاء المثقفين، إنهم يحملون عقلية المستعمر الموهمن من دون أن يدروا ذلك. أومن دون أن يعودوا<sup>(14)</sup>.

لقد عاش بيورديو كل هذه التجارب من «إثنولوجية» و«سوسولوجية» وعندما عاد إلى فرنسا راح يدرس نظام الزواج وعلاقات القرابة في منطقته الأصلية «البيرنيه» (جنوب غرب فرنسا) وهنا راح يشرح ذاته الخاصة، يشرح مجتمعه الذي ولد فيه، ولم يعد مراقبا خارجيا. واكتشف أن الخطر على نجاح دراسته عندما كان في الجزائر كان يكمن في زيادة السافة، وأن الخطر هنا في مجتمعه يكمن في نفس المسافة أو انعدام المسافة مع المجتمع المزدوس. هكذا نلاحظ معه أن هناك طبيعيات وإجائيات بحسب موقع الدارس من الظواهر المدروسة، ينبغي ألا يكون بعيدا جدا. ولا قريبا جدا وذلك لكي يرى الأشياء على حقيقتها الموضوعية. وينبغي أن يقوم باستمرار بمودة تقديرة على ذاته، وعلى أدواته ومنهجياته، أو أن عالم الإثنولوجيا البيوردي قد حلل موقعه العلمي كمراقب خارجي واعترف به منذ البداية، لاكتشف أن ما يدعوه بـ «الفكر التوحشي» ليس شيئا آخر إلا منطل فكري الخافس بالذات في الحالة العملية، أي في حالة الممارسة اليومية المعنوية. إن الفريون بدائيون أيضا على طريقتهم الخاصة، عندما يتعدون في مختلف شؤون الحياة والذوق، وهنا يعبرون بـ «كروون... إلخ». وقد حاول في كتابه «الحس العملي» أو «التفكير العملي» أن يدرس إلى أي حد يمكن أن يكون هذا النوع من الفكر العملي المباشر والمعنوي، أي فكر الفلاحين الجزائريين مثلاً عندما يدبرون «مزامرة زواج» «صفة زواج» ليس فقط بين شخصين (رجل وامرأة)، وإنما أيضا بين عائلتين وعشيرتين بكل ما يتضمنه ذلك من موازين قوى وتحالفات ومصالح... إلخ. وقد درس الشيء نفسه في منطقته بالذات (منطقة البيرن في جبال البيرنيه) واكتشف أشياء مشابهة ومماثلة، إنكر أن أمي قد قالت لي يوما: إن العائلة الفلانية (x) قد أصبحت تسب نفسها إلى العائلة (y) منذ أن أصبح أحد أبناء هذه الأخيرة موهنا في البوليتكنيك! وراحوا يعطون بتزويج ابنتهم منه. إن الفلاحين «بدائيين» ليسوا أسيادا، وإنما هم بارعون «سطار» يعرفون ما يريدون، وهم يستخدمون لحل مشاكلهم منطقا عمليا أو منطق ما قبل المنطق. وهذا ما تفعله نحن بالذات هنا في باريس الحضارة في أعضائنا اليومية وأحاديشنا الشخصية المعنوية، أي عندما نتوقف عن التفكير المنطقي الحسابي والمنهجي المنظم، الذي نستخدمه فقط في أثناء البحث والتحليل، أو عندما نراقب أنفسنا كمثقفين جادين أو مسؤولين. هذا ما نفعله عندما نتحدث في السياسة مثلاً، أو عندما نطلق أحكاما معينة على العرب أو الإسلام أو القارة أو السود أو الشيوعيين أو الصهيونيين<sup>(15)</sup>.

## ١ - ١٠ : نقد لتأويل السلطة / المعرفة

أما فيما يخص السلطة ودراساتها فلاحظ أن هناك تقارباً بين بورديو ووكو، فكلهما يركز على مفهوم السلطة المساندة في مجال معين أو في حقل محدد، إلا ما استخدما تعبيريهما الخاص بالذات، هذا من جهة، وأما من جهة أخرى فقد وجدنا مكسيم رودنسون يهاجم مفهوم ووكو للسلطة ويصعب عليه إعماله للمسألة الأساسية، أي مسألة تحليل السلطة المركزية وليس فقط السلطات الوضعية والمحلية.

إن موقف بورديو، في الخطوط العريضة، قريب إلى حد كبير من موقف ووكو، ومع ذلك فهو مختلف جداً لقد حاول أن يعزل منطق وألية ما كان قد أسماه بالسلطة الرمزية، أي السلطة التي تعارض نفسها على هيئة القوة التي تجعلنا نرى أو نفهم أو نعرف أو نؤمن. والتطابق من ذلك يمكننا أن نتحدث عن السلطة النظرية أو سلطة النظرية إذا ما أعطينا لكلمة النظرية معناها الإيديولوجي الأصلي، أي برنامج الرؤية.

كيف تعارض هذه السلطة دورها؟ كيف تعارض عملها؟ هنا ندخل في منطقة المعرفة/ الجهل، أو المعرفة/ واللامعرفة. ذلك أن السلطة الرمزية هي سلطة تصفية في الأصل، ولكن الناس يعترضون مشروعيتها لأنهم يحفلون أنها تصفية. وهذه هي الحال فيما يخص نظام الشهادات مثلاً في المجتمع الفرنسي الحالي، فإذا قال قائل عنه بأن ذلك يمثل علاقة معنى محتوية وراء حقيقة ما فلا فائدة من ذلك يعني الإبقاء بأن الهيئات عليهم بما همون في ترسيخ نظام الهيمنة على طريق لا يعرفه، أو ينبغي أن نستلج من ذلك القول بأن الهيئات عليهم متواطئون مع عيوديتهم، وأن السلطة فجية من تحتها ربما. في الواقع أن السلطة ليست شيئاً متبوضها في مكان ما، وإنما هي عبارة عن نظام من العلاقات المتشابهة، ونجد أن كل تنمية العالم الاجتماعي (المجتمع) ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار من أجل فهم آليات الهيمنة والسيطرة.

لقد تحدثت خلاصة كثيراً في أثناء سني السبعينيات عن السلطة، وراعوا يسائليون: هل السلطة تأتي من فوق؟ أو من تحت؟ يبدو لبورديو هذا السؤال مسلجاً جداً، في الواقع أنه لا توجد سلطة واحدة، وإنما سلطات عديدة، وكل سلطة مرتبطة ومتضامنة مع الفضاء الذي تمارس نفسها داخله. إن تدرس سلطة معينة فهذا يعني أن تدرس بشكل رئيسي الشروط الاجتماعية لإمكان ممارسة هذه السلطة، وإذن لكي نعرف ماذا تعني السلطة الاجتماعية أو سلطة السلطة الجامعة فإنه ينبغي أن تدرس هذا الفضاء الذي تتشكل فيه هذه السلطة، وتتشكل فيه في الوقت ذاته شروط ممارستها، تبدو لبورديو دراسة السلطة الاجتماعية معقدة جداً لأنها أبعد ما تكون عن السلطة التي تمارس دورها في العقل الاقتصادي مثلاً، وإذا كان هناك من سلطة ترفض في أن تقول بأنها آتية من تحت، فإنها السلطة الجامعة، هذا الكلام خاطئ تماماً، ولكنه هنا أقل خطأ منه في أي مكان آخر.

إن السلطة الجامعية هي سلطة تمارس دورها من خلال العلاقة التي تربط بين «الهيئتين» «الهيئتين عليهم»، ولا يستطيع السيطرون ممارسة هيبتهم وسلطتهم إلا عن طريق حصول توافق (غالبا ما يكون لأوعيا نوعا) من قبل السيطر عليهم. والسؤال المهم المطروح هنا هو، كيف يحصل التوافق؟ لقد حاول يوردو أن يجيب عنه من جملة أسئلة أخرى عندما درس الموضوع بالتفصيل في كتابه «الإنسان الأكاديمي». ليعضف أن السلطة المركزية التي يتحدث عنها روجنسون ليست إلا تجميعا (أو محصلة) لكل السلطات الفرعية المنتشرة في مختلف نواحي الجسد الاجتماعي.

## ١ - ١١ : نقد التحليلات الأدبية

في كتابه الصادر عام (١٩٨٢) بعنوان: «ماذا يريد الكلام أن يقول»، نلاحظ أن يوردو ينتقد بشكل مضى، ومقتنع تصور كل من سوسير وشومسكي لفهمي اللغة والكلام (أو بحسب مصطلح شومسكي: «الكفاءة» الاستعماري)<sup>(١١)</sup>. فشومسكي يجمع مسألة الشروط الاقتصادية والاجتماعية التي تتم ضمنها عملية اكتساب الكفاءة اللغوية الشرعية (أي القدرة على امتلاك الطواعد النحوية والتركيبية للغة السائدة). ثم يذهب في الكتاب نفسه أيضا إلى أن كل قدر الأمنيات الحديثة قد حسم عن طريق الانقلاب الاجتماعي (التشيعي) الأول الذي فصل به سوسير نهائيا بين «الأسئيات الداخلية» و «الأسئيات الخارجية». وقد الأولى وحدها جذيرة بأن تلعب علم الأسئيات «أما الأسئيات المتعلق بالبنوية» أيها، أيها، طارجية على علم اللغة، كالمجتمع والاقتصاد ... إلى وبالتالي فلا علاقة لسوسير بها.

وانتقاده هذا ينطلق حزافيا على النقد الأدبي البنوي المعاصر، الذي يزعم بأنه يهتم بالنص كشئ مستقل عن كل العوامل الخارجية. ليس التحليل البنوي إلا تنوعا محدثا (أو تحديثيا) على التحليل الداخلي القديم، الذي يعالج النص كشئ مستقل لا علاقة له بالخارج. وليس من قبيل المصادفة أن كل النسررين الدينيين الذين لعاطوا ولما طريقة التحليل الداخلي للنصوص يتحولون البنوية بكل سهولة وإترحاب، في حين أنهم ينفرون من المناهج الأخرى. يعتقد يوردو فيما يخصه أنه ينبغي الربط بين الفضاء الذي للموضع فيه النصوص والفضاء الذي يتموضع فيه المتن (أي الكتاب).

ينبغي أن تحدث القطيعة مع القراءة الداخلية للنصوص المعزولة بعضها عن بعض كذلك التي حصلت للصيدة «القطط» لبودلير من قبل جاكيمون وليفي ستراوس، التي حلت بشكل رديء جدا، ينبغي أيضا أن تحدث القطيعة مع منهجية لانسون أو فرويد التي تربط بشكل مباشر بين النص الأدبي وكتابته. وتعتبر النص مجرد انعكاس لحياة الكاتب الشخصية. الشيء الذي يدعو إليه يوردو يتمثل في الكشف عن بنية العلاقات بين نصوص فترة زمنية محددة (وليس نصا معزولا بعشده) وبين بنية الواقع التي يحتلها مؤلفوها داخل العقل الأدبي. أما رأي يوردو في

منهجية جولدمان هي التحليل الاجتماعي الماركسي للخصوص الأدبية، فهي في تعامل تحليل الأعمال الأدبية إحدى الصيغ اللطيفة للمنهجية الاختزالية السوسيولوجية. وهي تشكل بلا ريب تقدما بانقياس إلى الرحلة الجيدانوية السابقة، ولكنها مع ذلك تبقى غير كافية في توضيح الملائق بين الأدب والمجتمع، ذلك أن هذه الطريقة (أو المنهجية) تقيم علاقات مبالغية وفجة بين المتغيرات الثقافية ومواقع منهجها داخل الفضاء الاجتماعي (أي داخل المجتمع)، وعندئذ يطلقون أحكاما من نوع: هذه الرواية تعبر عبر البورجوازية الصاعدة، أو الطبقة العاملة، أو البورجوازية الصغيرة... إلخ. إن منهجية جولدمان تقع هي أيضا في نوع من الاختزالية واختصار الرأجل، إذ تقيم علاقات بين شيئين متباينين جدا، وتطمس عندئذ (أو تعظم) مسألة الوساطة أو التوسيط المهمة جدا. يقصد بذلك وساطة الفضاء الموضوعي الذي ينتج الكتاب من داخله، وهذا ما يدعو به فضاء الإنتاج الثقافي، صحيح أن هذا الفضاء الصغير يقع داخل الفضاء الاجتماعي الأكبر، ولكن تبقى له خصوصيته ورمزيته الذاتية وسرعاته ومفاسده. ويمكن أن تكون مصالحه مختلفة عن مصالح العالم الخارجي. ينبغي تحليله لذاته وبذاته قبل أن تربط بشكل قصوي وبغامض بين الأعمال الأدبية والتشكيلات الاجتماعية الكبرى.

يعيب البعض على بورديو (ريمون آرون مثلا) أنه يريد تفسير كل شيء عن طريق منهجية علم الاجتماع، بل لقد وصل به الأمر - حسب ريمون آرون - إلى عدم تحليل كسائط سوسيولوجيا والسؤال: هل هناك من حدود معينة للمنهجية السوسيولوجية التي يمارسها؟ وإذا لا يولي «التوضيح» أهمية كبرى في تحليلاته؟ هل هي شيء غير موجود، أو ليس له معنى؟ هكذا يلتقي جزء آخر ومن طريق آخر بتلك المسألة المزعمة، مسألة التحتمية والحرية... وبورديو يعيب بأنه، عندما يكون المرء، عالم اجتماع، فإن عليه أن يدفع بالتفسير السوسيولوجي حتى مداء الأقصى ويوصل إلى أبعد نقطة ممكنة، وما يلجأ منه أو يستعصى عليه يبقى شيئا مهما ومثيرا للبحث. يعتقد بورديو أن مفاهيم من نوع «التوبة» و «العنفية» هي مفاهيم قبلية لم تلزم بعد، إنها مفاهيم قبلية مشككة تاريخيا، وهي تشكل حجر عثرة يمتدح من فهم الأثر الخاص بـ «الميدم الخلاق»، وهو يقصد بذلك أنها تعطلنا عن أن نفهم أن المبدع هويا سلقا عن طريق أوضاعه الاجتماعية الخاصة والملائمة لكي يحتل موقعا محددا داخل حقل ما، وغالبا ما يكون هذا الموضع غامضا في البداية، لقد حاول أن يبرهن على ذلك من خلال دراسته لحالة فلوري وهابديجر. ليس الهم البحث عن سر العبقريّة، وإنما الهم هو أن نفهم كيف تتم عملية إنتاج الأعمال الأدبية وإنتاج الفنان (ولادة الفنان) كتصميم أو كشيء مخلوق لكي يعتقد به ويمنح وييجل. ثم ينبغي أن تتساءل كيف أن العمل الفني والأدبي العالي يتولد بواسطة لقاء استثنائي بين مجموعة من الفئات والاستعدادات، والمواقع الاجتماعي المحدد الذي يحته الفنان داخل الفضاء الأدبي أو الفني.

## ثانياً : فيما يخص حالنا العربي

يقول البعض ما يلي: بما أن العلوم الإنسانية والاجتماعية قد ولدت في الغرب فهي مرتبطة بتطور مجتمعات الغرب الصناعية، وبالتالي فإنها لا تنطبق على المجتمعات العربية والإسلامية. يعتقد يورديو أنه ينبغي ألا نفرق بين علم غربي وعلم شرقي، كما أنه كان من الخطأ في الماضي التفريق بين علم بورجوازي وعلم بروايناري، هناك علم بشري واحد للجميع. وإذا ما التقينا نظرة على يورديو في العلوم الاجتماعية فإننا نرى أنه يطبق منهجيات التحليل ومجموعة المفاهيم نفسها التي كان قد بلورها استناداً إلى أبحاثه الميدانية في منطقة القبائل الجزائرية أو في منطقة «البيرن الفرنسية»، ويطبقها على دراسة نية العائلة في اليونان والهند وفرنسا معاً. كان دوركهام يقول: «أساس علم الاجتماع هو المنهجية الشاربية» ذلك أن المنهجية العلمية إذا ما طبقت على عوالم مختلفة ومجتمعات متعددة تؤدي إلى إنتاج أدوات ومصطلحات علمية كثرية أو شعولية أكثر فأكثر. نعتقد على سبيل المثال لا الحصر أن مفهوم رأس المال الرأسمالي الذي كان قد بلوره يتيح لنا أن نفهم طواغر السلطة في مجتمعات ما قبل رأس المال كالثقافة التسويق ورياسة الشركة والعلاقات العامة... إلخ، ولا نملك إلا أن نقول بكل أسف إن رفضها يمثل شكلاً من أشكال الترفيع والمحافظة الثقافية التي تتميز بـ **أولاً: أزمة الدفاع عن الهوية والخصوصية.**

ينبغي على المجتمعات المستعمرة أن تتجاوز منهجها وتخرج في عملية البحث والكتشف، على الرغم من كل الصعوبات والتحديات. يدور لنا أن هناك صعوبة خاصة تعيق تحررها الثقافي وتحول دون دخولها في عصر التمييز، ألا وهي: إن كل جهد يذلل من أجل تنمية الثقافة واللغة يبدو وكأنه خيانة للتراث، خصوصاً إذا كانت هذه الثقافة وتلك اللغة مطبوعتين بعمق بالطابع المحلي. نقول ذلك، وخصوصاً أن ظاهرة العلمنة والتحرر العقلاني آتية من القوى المستعمرة سابقاً أو المهيمنة حالياً. هذا وضع تناقضني سبب ينبغي على مثققي العالم العربي مواجهته بكل وعيائه وتعدياته. فالنقاش حول العلمنة لا يزال مستمراً، وهي تمثل إحدى المشاكل المصخصة بالنسبة إلى المجتمعات العربية الإسلامية. نجد المستشرقين والمسلمين يقولون بأن الإسلام يرفض العلمنة بطبيعته. هي حين أن المسيحية تقبل بها منذ البداية. ولكننا نجد مفكرين آخرين يرفضون هذا التفسير ويقولون بأن المذبح هو الذي يصوغ وجه الدين لا العكس، وأن المسألة هي عبارة عن مسألة تفاوت زمني تاريخي بين المجتمعات العربية والمجتمعات الغربية. يعتقد يورديو أن المسألة مطروحة بشكل سيئ جداً، فالتباين الغالب يجهل التفريق بين الرسالة الدينية وظاهرة الدين التاريخي، الذي هو عبارة عن منتج اللقاء العاصف بين هذه الرسالة والبيئة العقلية المحيطة بالرسالة الاقتصادية والاجتماعية. وكان قد حاول حل هذه المشكلة في الفصل المخصص للإسلام في كتابه «سوسيولوجيا الجزائر».



# بحث الأثر والتأثير بين القديم والحديث دراسة تطبيقية عن أشكال التفاعلات النحوية في رواية « شجرة بناء وفجر »

أ. عبد الله آيت الأعشير (\*)

أولاً : تقديم

قبل الإقدام على الكشف والإبارة عن توضيح  
التفاعل وتأثير السابقين في جملة رواية  
« شجرة بناء وفجر »<sup>(1)</sup> لأحمد التوفيق، يؤكد  
أن عملية الكشف عن التفاعل وتحديد المصطلح  
والظواهر على النثر المستفهم التي أصدت  
نص الرواية بماء الحياكة موضوع قديم  
جديد، خاص فيه الخاطئون، وخاص فيه  
القصاصون، قدامى ومحدثين، عرباً وأجانب،  
وذهبوا فيه كل منذهب حتى انتهوا إلى أن  
تداخل الموضوع وتداخلها.

واستفادة لاحظها من سابقها، أصبح حتمية لا غنى عنها، بل إن الانقضاء والأخذ أصبحوا  
قانوناً لا مناص منه بالنسبة إلى القارئ الفطن، والأديب البليغ، الذي تتضح كتاباته بآثار  
قراءاته، وتصبح صدق لها، بها يتوب السائد، ومن حوزها أثر يستقره مواد لطيفة، حتى يبلغ  
الغاية في إجابة وجوه الخطاب، وطرائق البلاغة.

(\*) باحث وكاتب مغربي.

وإذا كنت أعني أن الخوض في هذا الباب يستلزمي عرق القربى، ويلزمني أن أبذل التكلفة في الخوض على الدور واللائح، لأنه موضوع «لا يتنهي به إلا الناقد البصير، والعالم اللبز، وليس كل من تعرض له أدركه، ولا كل من أدركه استوفاه واستكملها»<sup>(1)</sup>، فإني توضيحت، ما استطلعت، الإحاطة علما بالتمسوس المستطفي منها، ودققت التبش والتفتيش وشيئة وميزت، ووقفت عند كل شاهد، أقرته بمثيله، وإن كان خفيا عدل به من نوعه وصنعه، أنعم فيه الفكر قصد التبيين والتثبت، أسوة بالرفقاء الأثبات الذين ارتقوا ذروة البحث والتقصي، فلما رأوا بديع الفصل، وتقرروا تفرد من لا يخلق غبارا، ومطروا غباب بهم أمات المسائر حتى تمكثوا من الإمساك بقواصي الأخذ والاتباع، فحسلا عن الأطراف والنواحي، فإنيهم الأخذ بنواصي كل ضروب من ضروب الاستعداد، استعدادا كان أو استعانة، حلا أو تلميحها، قلبا أو اقتباسا وتضمينا، تواردا أو اشتراكا، مسحا أو نسخا، وسلطا وسرقا.

## ثانيا: نظرية العرب القدامى إلى صناعة النص الأدبي

الناظر إلى ما حثروه النقاد العرب القدامى في شأن ضروب تجويد الكلام شعرا ونثرا، يبين أن العدة في الإجازة، والحذافة في الصنعة يتنهضان على الأسس الآتية:

### أ- طهر الاستعداد النفسي

وهي مرحلة تنهض على مجموعة من الأوصاف النفسية والمزككات الذاتية، كاللفظة والطبع، وقد ألمح إليهما ابن خياطيا العلوي في قوله: «فمن صح طبعه وذوقه لم يحشج إلى الاستعانة على نظم الشعر بالمعروض»<sup>(2)</sup>، أما ابن وهب الكاتب فقد أوضح في باب صنعة العقل «أن العقل الموهوب أصل، والوهوب القطب، والتكسوب فرع، والأشياء بأصولها، فإذا صح الأصل صح الفرع، وإذا فسد فسد». وقد شبه بعض القدماء العقل القويز باليد، وشبه التكسب بالغذاء، فكما أن الغذاء لا يستحيل إلا بالأيدان المعيلة له، ولا ينفع إلا بحصوله فيها، فكذلك العقل المستفاد بالأدب لا يتم إلا بالعقل القويزي<sup>(3)</sup>، أما ابن أبي الأصميصي المصري فقد نفس وصية أبي تمام الليثري منتهيها إلى أهمية هذه المرحلة قائلا: «يجب على من كان له ميل إلى عمل الشعر وإنشاء النثر، أن يعتبر أولا نفسه... فإذا وجد لها فطرة سليمة، وجيلة موزونة، ذكاء وقادة، وخاطرا سمحا، وفكرا ثاقبا، ونهجا سريعا، وبصيرة مبصرة، وألمعية مهبذة، وقوة حافظية، وقسرة حاكية، وهمة عالية، ولهجة فصيحة، وقلعة صحيحة... كان موصوفا في هذه الصناعة بكمال الأوصاف النفسية»<sup>(4)</sup>.

## ب- طور الاشتغال العقلي

ويطغى عن ابن طباطبا العقلي قائلا: «والشعر أدوات يجب إعدادها قبل مراسه وتكلف تنظيمه. فمن تعصت عليه أدباء من أدوائه. لم يكمل له ما يتكلفه منه. وبأن الخلل في ما ينظمه. وإحقيقته الميوب من كل جهة. فمنها: التوسع في علم اللغة. والبراعة في فهم الإعراب. والرواية لفتون الأرباب. والمعرفة بأيام الناس وأصنافهم. ومناظيرهم ومثالبهم. والوقوف على مذاهب العرب في تأسيس الشعر. والتصرف في معانيه. في كل فن قالت العرب فيه. وسلوك مناصبها في صنفاتها ومناظيراتها وحكاياتها وأمثالها...»<sup>١٠٠</sup>. وهي الأدوات نفسها التي يبدن حولها ابن وهب الكلاب في الاستعداد لصناعة الشعر والنثر حيث يقول: «ويحتاج الشاعر إلى تعلم العروض ليكون معيارا له على قوله. وميزانا على فنه. واتعوا ليصلح به من لسانه ويقيم به إعرابه. والنسب. وأيام العرب والناس ليستعين بذلك على معرفة الملقب والمثالب فيذكرهما ... وأن يروي الشعر ليعرف مصالفة الشعراء ومناظيرهم وتصرفهم فيحذري مناصبهم ويملك سبيلهم. فإذا لم يجمع له هذا. فليس ينبغي أن يتعرض لقول الشعر ... فكل ما ذكرناه هناك من أوصاف حد الشعر. فاستعمله في الخطابة والرسالة»<sup>١٠١</sup>. أما ابن فتيحة. فإنه لما رأى كذاب أهل زمانه قد أعفوا أنفسهم من كذا النظر. وبلغوا اليقظة بغير آلة معيطة. فقد تصح لهم بالنظر في علوم الأرضين. وعلوم الفقه والحديث. مع دراسة أخبار الناس بآلة اشتراط جودة الفريضة. مؤكدا أن «لا بد من دراسة أخبار الناس والحفظ بيون الحديث. ليدخلها في تضاريف مبطورة متمشاة ليد كتب. ويصل بها كلامه إذا حاور. ومدار الأمر على القطب. وهو العقل وجودة الفريضة»<sup>١٠٢</sup>. مما تقدم يتضح أن اكتمال الآلة في العلم بأسرار صناعة النصوص تنهض على الحفظ إذ «لا بد من كثرة الحفظ. لمن يزوم تعلم اللسان العربي. وعلى قدر جودة الحفظ وطيبته في جنسه وكثرته من فنه. تكون جودة الملكة الحاصلة عنه للحفظ. فمن كان محفوظه من أشعار العرب الإسلاميين شعر حبيب أو العنابي أو ابن المعتز أو ابن هانئ أو الشريف الرضي. أو رسائل ابن المقفع أو سهل بن هارون أو ابن الزيات أو البديع أو الصائغ. تكون ملكته أجود وأعلى مقاماً ورثية في البلاغة ... وعلى مقدار جودة الحفظ أو التمرغ. تكون جودة الاستعمال»<sup>١٠٣</sup>. من أجل ذلك لم يخف الشعراء التحاير كثرة محفوظهم. فهذا أبو نواس يؤكد أنه: «ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة من العرب غير الحسناء. فما ظنك بالرجال؟ وإنني لأروي مائة أرجوزة لا أعرفها»<sup>١٠٤</sup>. وإلى مثل هذا يخبر أبو تمام قائلا: «لم أنظم شعرا حتى حفظت سبعة عشر ديوانا للنساء خاصة دون الرجال»<sup>١٠٥</sup>. وقد مال أغلب العارفين بأسرار الكتابة إلى اشتراط تسيان ذلك المحفوظ حتى تزول رسومها. وتتكيف الفريضة به فتتسا عن التكيف والتسيان ملكة ينسج على منوالها. كما هو الشأن بالنسبة إلى خالد بن عبد الله القسري الذي حفظه أبوه ألف خطبة وأمره أن يتناساها.

## ج - ظهور الصياغة الفنية

إنه طور بناء الأثر الأدبي كعمارة قوية تفرض معارضة النظر في الكلام لتهدية وتقييده حتى يخرج في أبهى حلة، من خلال تصيد الألفاظ الفصيحة المؤلفة الصالحة للمعاني الأكار. وتصلح الكلمات الغير التي لم تضبطها السنة اللاتنين. مع تجنب خلطها بالغير المبتذلة التي لاكتها الأسنة، وبذلك يدرك الصانع الفنية ويبلغ المراد، فتتلق بضاعته التي اجتلب لها هرائد الألفاظ وفلاذ المعاني، واقتبس لها الطرائد النادرة المكتسبة في أسلوب عربي مبدع، ثم أخذ من القصيدة بزماتها، وأحاط من البهالة بجوانبها، من دون تكلف أو تعسف، وإنما من ألقاظ وتراكيب محكمة النظم والفرصيف، لم تخرج من جدران الخيلة إلا بعد أن اكتمل بها اكتماء العاشق بمشوقته، يرمي منها التراب، ويستلقي التبر، ثم بهجر الصدفة للإعساك بالفلوذة، وقد عبر شعراء الحوليات عن هذا الميل، حينما دعوا إلى كتابة العمل الأدبي، وتركه حولا كاملا، لتتم العودة إليه من أجل التغيير والتجوير والإضافة والتحكيف حتى يخرج العمل الفني تام الخلق لم تترك فيه أي بارقة تثير عن مطعن أو مغمز، قال الحطيفة: «خير الشعر العربي التقيح، وقال البيهوت الشاعر: وكان أخطب الناس: إني والله ما أرميل الكلام قضيبا طشيبا، وما أريد أن أخطب يوم العمل إلا بالثبات المحكم»<sup>11</sup>. وقد مثلت هذه الطريقة في المبدع والتسويق للذهب الفني الذي دعا إليه العلماء بأسرار خواص تركيب الكلام، حتى أنهم دعوا الأدباء إلى اختيار أوقات نشاطهم وقايات الفراغ والخلوة كإطار زمني يساعد على استكمال أدوات العمل الإبداعي، وفيه في كثرة الاستعداد النفسي لعملية ولادة النص، ولا سيما أثناء الليل حين نهما الأصوات وتهمد الحركات، وتلتمش العقول، وتنشط الأبدان فيصدر عنها كلام يفيض بالإحساسات الصادقة، لأنه ابن نفسه وملكه وذوب روحه مع مرآة ما يجب لكل مقام من مقال، والابتعاد عن تأليف الكلام عند الضجر. وقد عبر بشر بن المتعر في صحيفته الشهيرة عن هذه الرؤية المتكاملة لمراحل الصنعة الفنية الذي يشمل كل المكونات البهوية للنص الأدبي، في قوله: «خذ من نفسك ساعة نشاطك، وفراغ بالك، وإجابتها أياك، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرا، وأشرف حسبا، وأحسن في الأسماح، وأحلى في الصدور، وأسلم من فاعش الخطأ، وأجلب لكل حين وفرة من نطق شريف، ومعنى بدوح، وأعلم أن ذلك أجدي عليك مما يعطيك يومك الأطول، بالك، والمطاول والمجاهدة، والتكاف والمعاناة، ومهما أخطأتك لم يخطئك أن يكون مطولا قصدا، وخفيا على اللسان سهلا، وكما خرج من ينبوع، ونجم من معدن، وأياك والوهر، فإن الوهر يملك إلى التعبد، والتعبد هو الذي يستهلك معانئك، ويشتت أفاقك، ومن أراغ معنى كريعا فليتنس له لفظا كريعا... والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من

المقال. وكذلك القسط المعاصر والخاصي... فإن ابتليت بأن تتكلف القول وتتعاطى الصنعة، ولم تسمح لك الطبع في أول وهلة، وتعمى عليك بعد إجابة الفكر، فلا تمجول ولا تضجر، وبعه بياض يومك وسواد ليلتك. ولعلك عند نشاطك وقرارك مالك، فإنك لا تقدم الإجابة والموافاة، إن كانت هناك طبيعة، أو جرئت من الصناعة على عرق<sup>١٢٠</sup>، إذا كانت لك طبيعة في كتابة الشعر والشعر، ولم يطرأ لك عارض يفسد قريحتك كما هو الشأن بالنسبة إلى الشاعر الفريزيق حين قال: «أنا عند الناس أشعر الناس وربما مرت علي ساعة ونزع شربس أهون علي من أن أقول بيتا واحدا<sup>١٢١</sup>». وفي باب صناعة الشعر يورد ابن طباطبا العلوي مجموعة من المعايير الدالة على الصنعة الفنية، منها: مشاكلة اللفظ للمعنى، وشدة توافقهما مع الثقافية، مناسبة الوزن، التوفيق بين الأبيات بسلك ناظم لها حيث يوضع كل بيت مع أخيه، التهذيب والتفتيح من خلال لوجي الألفاظ السهلة النقية في موافاتها، والألفاظ الغريبة مع جاراتها، الصدق مع الالتزام بمعاملية كل طبقة بما يشاكلها، حسن التخلص من غرض إلى آخر، بلا انفصال للمعنى الثاني عما قبله، وفي ذلك يقول: «فلما أراد الشاعر بناء قصيدة مخض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره مشرا، وأعد له ما يليه إياه من الألفاظ التي تطابقه، والقوافي التي توافقها، والوزن الذي يمسلي له القول عليه... فلما كملت له المعاني، وكثرت الأبيات وفق يلونها بأبيات تكون نظاما لها وسلكا جامعا لما نشئت منها... ويبدل بكل لفظة مستكرهة لفظة سهلة نقية... ويكون... كنظام الجواهر التي تولد بين المتكلمين كقول الأحمق الرائي، ولا يشين مقوده، بأن يفاوت بين جواهرها في نظمها وتسميتها. وكذلك الشاعر إذا أسس شعره على أن يأتي فيه بالكلام البدوي القصيح، لم يخلط له المعنوي اللول، وإذا أقل بلفظة غريبة لثريها أخواتها... ويعتمد الصدق... ويحضر إليه عند كل مخاطبة ووصف، فيخطب الملوك بما يستحقونه من جليل المخاطبات... ويعد لكل معنى ما يليق به، ولكل طبقة ما يشاكلها... ويسلك منهاج أصحاب الرسائل في بلاغتهم، وتصرفهم في مكاتباتهم، فإن للشعر فصولا كقصود الرسائل، فيحتاج الشاعر إلى أن يعدل كلامه على تصرفه في قوته صفة لطيفة... بألفاظ تخلص وأحسن حكاية، بلا انفصال للمعنى الثاني عما قبله<sup>١٢٢</sup>». وهي القواعد نفسها التي يمدن حولها ابن أبي الإصبع، حيث عقد بابا في تحرير التعبير سمعها باب التهذيب والتأديب، وضع فيه للأديب قواعد لصناعة الكلام قائلا: «التهذيب عبارة عن لرداء النظر في الكلام بعد عمله لينقح، ويتبه منه إلى ما مر على الناثر أو الشاعر حين يكون مستغرق الفكر في العمل، فيغير منه ما يجب تغييره، ويحذف ما ينبغي حذفه، ويصلح ما يتعين إصلاحه<sup>١٢٣</sup>» حتى ينقي الكلام من كدر المعى، ويقوم من أود التهم، لذلك يدعو الرافض في الإجابة الفنية أن يحصل المعنى قبل اللفظ، وأن يروم اللفظ الجزل، دون الرذل، والسهل دون الصعب، والعذب دون المستكره، وأن يلتزم حسن التأليف والتسليق، ويوجد المطالع والتخلص والمطالع<sup>١٢٤</sup>، بل إنه يدعو الأديب

الخلق ألا يجعل كل الكلام شريفاً عالياً، ولا وضيعاً قارلاً، بل ضلله لتفصيل العيوب، فإن العبد إذا كان كله نقيساً، لا يظهر حسن فرائده، ولا يبين كمال واسطته... فإن الكلام إذا كان ملوحاً اختلت الأسماع فيه، ولم يخلق النفوس بل من أفضائه ومعانيه»<sup>14</sup>.

### ثالثاً: نظرات النقد العرب القدامى إلى إشكالية الأخذ والاستعداد

#### هذه تصورات العارفين

يشهد تاريخ الإبداع الأدبي أن تعامل النقاد العرب القدامى مع الأثر الأدبي، كانت تحركه نزعة الإضافة الجديدة والتميز، فظهر أن تراكم التجارب السابقة، وسبق المتقدمين إلى طرق المعاني الأبتكار، فرض على المتأخرين النظر إلى المعاني الإنسانية المشتركة، يتبنسون منها سمات تروجع عواطفهم، ويفزعون إليها لتفجير حاجس الإبداع والتميز. أملاً في حيازة قصب السبق إلى معنى يندع مطروح أو وصف رائق مبتدع. يلقي عنهم وصمة السرق في لأن أغلب العارفين بفسوب الصناعة الكلامية نظروا إلى التداخلات النصية تحت مظلة السرقات الأدبية، حيث أورد صاحب المعركة في محاسن الشعر وأدابه وشعره باباً سماه «باب السرقات وما شاكلها»، كما عنون صاحب عيار الشعر باباً يسمي: «المعاني المشتركة: السرقات»، وخصص صاحب أسرار البلاغة فصلاً «في الانتزاع في الأخذ والسرق والاستعداد»، أما صاحب التلخيص في علوم البلاغة فقد أنهى الكتاب بملحق «في السرقات الشعرية وما يتصل بها وغير ذلك»، وأورد صاحب الصنائع باباً يسمي «حسن الأخذ وحل المنظوم». أما صاحب الوساطة بين القتيبي وخصومه فقدراً له العنوان الأبي: «السرقات الشعرية»، بينما أسرف صاحب المثال السائر في إيراد ضروب السرق في القسم الثالث من الكتاب شأنه في ذلك شأن ابن أبي طاهر الذي خرج سرقات أبي تمام تخريباً فيه الكثير من الغفلة وعدم الإنصاف، الأمر الذي جعل صاحب الموازنة في إطار الحديث عن سرقات أبي تمام يصحح ما ادعاه ابن أبي طاهر مسروقاً لديه، كما صحح في إطار الحديث عن سرقات البحتري ما ادعاه أبو الضياء بشر بن تميم أن البحتري قد سرقه من أبي تمام، وليس بسرق طرد التثيت والتحقيق.

وإذا كنت لا أقصد أن أفضل القول في قضية السرقات الأدبية ومختلفاتها، فإن التطور إلى ما أوردته التحارير المصنفون من المصطلحات النقدية التي تعود في محيط من الأخذ والاستعداد من السابقين، يؤكد، ولا شك، أن نقاد العرب القدامى، لم ينظروا بعين السخط إلى هذه الإشكالية، وإنما نظروا إليها نظرة منصفة «لا تنتكر لهذا الأخذ والاحتذاء، بل تعدد عملاً قنياً لا غنى للأدب، عنه شاعراً كان أو ناثراً، وإن سمعوه في أكثر دراستهم سرقاً»<sup>15</sup>، ولا سيما بالنسبة إلى المعاني المشتركة التي يتصرف فيها الأدباء تصرف اقتدار بيرزها في أبيي الحال، وإن ظلت مشمومة فكراً ورؤية إلى معنى مطروق سبق إليه، إلا: «لا غنى بالكتاب

البليغ، ولا الشاعر المقل، ولا الخطيب المصقع عن الاقتصاد بالأولئ والافتقار من المتقدمين، واحتذاء مثال السابقين، في ما اختروه من معانيهم وملكوه من طريقتهم. كان الأول لم يتركه للأخر شيئاً، فمن أخذ منهم معنى بلفظه فقد سرقه، ومن أخذ من بعض لفظه فقد سلبه، ومن أخذ من عازبها وكسده من عنده لفظاً فهو الحق به فمن أخذ منه<sup>(٢٠)</sup>، وهو الحكم نفسه الذي أورد ابن رشيق القيرواني منسوباً إلى بعض الحذائق فائلاً، يقول بعض الحذائق من المتأخرين: من أخذ معنى بلفظه كما هو، كان سارقاً، فإن غير بعض اللفظ، كان سائخاً، فإن غير بعض المعنى ليخفيه أو قلبه من وجهه كان ذلك دليلاً حذقاً<sup>(٢١)</sup>، وهو الشرط ذاته الذي اشترطه ابن طيماط العلوي في تناول المعاني المشتركة، مؤكداً أن الشاعر إذا تناول المعاني التي قد سبق إليها، فأبرزها في أحسن من التكرار التي عليها لم يعب، بل يجب له فضل لطفه وإحسانه فيها<sup>(٢٢)</sup>، ولا سيما إذا أحسن دمج النصوص السابقة في النص المبتدع، وأخفى ديبجه بكيفية مشتركة تستر ظلال الأثر المستمدة منه حتى يلتبس الأمر في الصياغة، ولا ينظر إلى ما فيه من الاستعداد والأخذ، إلا الجهادية الحذائق بأسرار الصناعة الكلامية الذين أعرفوا في البحث عن أصول الكلام، وكتبوا ظهوره لبطنه، وبطنه لظهوره، أملاً في العثور على رسوم كلام السابقين التي يحتمل أن يكونوا في إختفائها من خلال اعتماد إستراتيجيات قلب المعاني أو حل الشعر وعقد الشعر، من أجل ذلك فإن الأدب الذي ينشد الإجداد في القول بحاجة أشد تناول المعاني المشتركة، إلى المطابقة الحقة وشيخوخة النظر في تناول المعاني واستعاراتها وتلبسها حتى تطفئ على نقادها والبشراء بها، وينعقد بشهرتها كأنه غير مستنقذ إليها، فيستعمل المعاني المأخوذة في غير الجنس الذي تناولها منه، فإن وجد معنى لفظياً في تشبيب أو تحزق استعماله في المديح، وإن وجده في المديح استعماله في الهجاء... فإن عكس المعاني على اختلاف وجوهها غير متعذر على من أحسن عكسها واستعمالها في الأبواب التي يحتاج إليها، وإن وجد المعنى الطلوف في المتنور من الكلام، أو في الخطب والرسائل فتناوله وجعله شعراً كان أخطى وأحسن، ويكون ذلك كالصانع الذي ينهب الذهب والفضة المصوقين، فيعيد صياغتهما بأحسن مما كانا عليه... قبل للمعاني، بماذا قدرت على البلاغة؟ فقال: بعل معقود الكلام، فالشعر رسائل معقودة، والرسائل شعر محلول<sup>(٢٣)</sup>، ولقد تطلقت النقد القديس، أو على الأقل بعضهم، مع الكتاب والشعراء مردين أن الاتفاق في عموم الغرض لا يعد سرقة ونقصاً، ومن ثمة يجب ألا يتحدث فيه عن سلف وخلف، وألا يفضل فيه بالتفاضل بين الشترتين، لأنه عام متداول بين كل الناس، بله أنه من الأمور التي تترك بالطبع والجملة، ولا يحتاج فيها إلى إعمال الفكر واستيعاب الرأي، بل إن بعضهم جعل هذا التشاؤك دليلاً على شركة الفكر، ووحدة الخيال العربي والإنساني، والاتفاق الهواجس، مع إمكان التوارد، الذي يصل التخاطرة الأدبية السابقة بالتخاطرة الأدبية اللاحقة، في إطار من التمسلسل الذي يحل مشهوداً إلى

التي لا ينفك التجدد الذي لا يفقد الصلة بالأمل، لأن المعاني شيء يتناولها الأديب، لا أغنى للباحثين من تناولها ممن تقدمهم، والعصب على قلوب من سبقهم، ولكن عليهم - إذا تناولوها - أن يكسوها الطلاقة من عندهم، ويبرزوها في معارض من تأليفهم، ويوردوها في غير حليتها الأولى، ويبرزوها في حسن تأليفها وجودة تركيبها وكمال حليتها ومعرضها، فإذا فعلوا ذلك فهم أحق بها ممن سبق إليها... قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أولاً أن الكلام يداد لشد» وقال بعضهم: «كل شيء شئت فصر إلا الكلام فإنه إذا شئت طال»<sup>١١١</sup>، يتضح مما سبق أن أغلب النقاد البلاغيين القدماء يحرصون المعاني المشتركة من باب السرى والغصب، لأن الاتفاق في عموم الفروض من الأمور التي لا يكون الاشتراك فيه داخلاً في الأخذ والسرقة والاستمداد والاستمالة، لا ترى من به حس يعني ذلك، وبأي الحكم بأنه لا يدخل في باب الأخذ<sup>١١٢</sup>، بل إن الذين حققوا النظر وأنعصوا التأمل وأدوا أن الأخذ والاستمداد عادة قديمة مركزية في الفروض لا يستغني عنها المتأخر الذي يظل يستعين بظواهر الأخر، ويستمد من قريحته، ويعتمد على معناه ونطقه... وإن تجاوز ذلك قليلاً في الفروض، لم يكن فيه غير اختلاف الأنطاط، ثم تسبب المحدثين إلى إخماته بالنقل والقلب، وتغيير النهج والترتيب، وتكثفوا جبر ما فيه من القويضة بالزيادة والتأكيد والتعريض في حال، والتسريع في أخرى، والاحتجاج والتفيل، فصار أحدهم إذا أخذ معنى أضاف إليه من هذه الأمور ما لا يقدر معه من الضمائر والإدراج منه<sup>١١٣</sup>، لهذا السبب لا يرون في الاشتراك في المعاني أي مظهر أو مظهر، ولا سيما إذا كسبت تلك المعاني الطلاقة شائقة ولفظة، وعمل بها من الفروض الذي جاءت فيه الأمر الذي يبعدها عن الأخذ الظاهر للذموم، لأنه محض سرقة، تبعاً كانت أم سلفاً ومسطاً ونصباً، أما الأخذ غير الظاهر الذي يتشابه فيه الثعبان، أو ينقل أحدهما إلى الآخر، ويجعل نقبضاً للأول، أو يضاف إلى المعنى الأول ما يجعله، ويخرجه في أروع صورة، وأجمل هيئة، فإنها أشكال مقبولة محسوبة، ولا سيما إذا أخرجها - حسن التصرف من قبيل الاتباع إلى حيز الإبداع، وكلما كان أشد خفاء كان أقرب إلى القبول، هذا كله إذا علم أن الثاني أخذ من الأول، لجواز أن يكون الاتفاق من قبيل توارد الخواطر، أي مجيئه على سبيل الاتفاق من غير قصد للأخذ<sup>١١٤</sup>، كما يحكى عن ابن ميادة أنه أنشد لنفسه:

مُفِيدٌ مُسْتَلَفٌ إِذَا مَا تَبَيَّنَتْ

تَهْلِيلٌ وَأَعْنَزٌ أَعْتَصَرَ الْمُهْنَدُ

ف قيل له ابن يذهب بك هذا للحطبة؟ فقال: الآن علمت لي شاعر، إذ وافقته على قوله من دون أن اسمعه<sup>١١٥</sup>، وكما وقع لأبي هلال العسكري في صفة النساء، حيث وجد العنق ذاته لدى بعض الأديب البغداديين، لذلك عزم ألا يحكم على متأخر بالمسرى<sup>١١٦</sup>، شأنه في ذلك شأن



القاضي عبدالعزیز الجرجاني الذي يؤكد أنه «منى الجهد أحدينا نفسه، وأعمل فكره، وأتعب خاطره ونهته في تحصيل معنى يثقله غريباً مبلدماً، ونظم بيت يحسبه فرداً مخطوئاً، ثم تصح عنه الدواوين لم يخطئه أن يجده بعينه، أو يجد له مثلاً يفضي من حسنه، ولهذا السبب أحظر على نفسه، ولا أرى لغيري منه الحكم على شاعر بالسرقه»<sup>٣١</sup>، لا سيما إذا توارداً والحقا في معنى مشترك لا يختص بمعرفته قوم دون آخرين، ولا يرجع فيه إلى إنعام الفكر والتطور. ولذلك أخرج الأموي قضية السرقات من مساوئ اليهودي وأبي تمام قائلاً: «وكان ينهي إلا أذكر السرقات في ما أخرجه من مساوئ هذين الشاعرين، لأنني قدمت القول في أن من أدركته من أهل العلم بالشعر، لم يكونوا يرون سرقات الصلي من كبير مساوئ الشعراء، وخاصة المتأخرين، إلا كان هذا باباً ما نرى منه متقدماً ولا متأخراً»<sup>٣٢</sup>.

يتضح من هذا الجرد الإجمالي لأراء العلماء العرب القدامى اللغويين في صناعة الكتابة شعرها ونثرها، أن قضية السرقات الأدبية، وإن ظلت محكومة بسياق تاريخي يبحث عن عثرات حملة البزاع العربي، في إطار الصراع الحثم بين جعفلين: الأول يجعل لواء الانتصار لكل قديم، ويود أن ينافس كتائب الجيل الثاني، الذي يشهر سلاح الجديد بغيره به الوصال الدائقة القديمة بكتابة موزونة الشاعر، بمقابلة الباطن، فإن هذه المعركة، وإن عثرت بابوس الخلقي أفضى إلى ذم الوجه **المسافر المفسر**، لأنه ليس سوى نسخ وبلغ ومسخ وإغارة، قد أثمرت البحث عن التميز أدبية النص ورواية الإبداعية فيه، وكشف هويته ورواياته، من خلال إشباع البحث بالنسبة إلى قوليل ثقافته، من خلال التفتن إلى دلائل ثقافته، وموارده أو تقيه وقلة المصادر الشاذلة التي تقع في دائرة استعداده، وبالتالي تحديد التروايد التي تعد محور الدوران في البنية التركيبية للنص سواء تعلق الأمر بالأفكار والمعاني المختزنة في النص المستفيد، أو بالطبقات الأسلوبية التي يلتجئ إليها لكي يغطي بواسطتها الفن ديبه إلى المعنى المسبوق من خلال اعتماد إستراتيجية حسن الأخذ والاتباع التي يعرفها ابن أبي الإصبع قائلاً: «وهو أن يأتي للكلام إلى معنى اخترعه غيره، فيحسن التبايع فيه، بحيث يستحقه بوجه من وجوه الزوائد التي وجب للمتأخر استحقاق معنى التقدم، وذلك باختصار لفظه، أو قصر وزنه أو عنوة قافيته ولمكنها، أو تنميط لنفسه، أو تكميل لتمامه، أو تحليله بعلمه من البدع يحسن بعلمها النظم، ويوجب الاستحقاق»<sup>٣٣</sup>.

كما الثرت هذه المعركة جهازاً مفاهيمياً اصطلاحياً يعد بحق مقدمة لوكائز نظرية التفاضلات النصية العربية التي تجعل في أرائها جده، لم تتطور لدى الغرب كإجراء نقدي إلا في أواخر عقد الستينيات من القرن العشرين، كما يتوضح ذلك في أعمال: كروستيفيا - بروب، ريفاتير - تودوروف - بارت - جيتو، ومن لف لفهم، ويوضح المشير الأتي حسن استغلال التفاد العرب القدامى لقضية المعاني المشتركة التي أرست أسس نظرية التفاضلات النصية العربية:



أو أكثر، لذا فإن النقصانية هي الممارسة التقليدية للاستشهاد (استعمال التزويجين والإحالة التطبيقية على النص) أو بشكها الأقل وضوحا، والأقل قانونية وهو الانتحال... وهو اقتباس غير مطع، ولكنه حرفي، أو بشكها الأقل وضوحا وغير انحرافي وهو الإيهام أي على شكل قول يفترض فهم معناه الكامل إدراك العلاقة بينه وبين نص آخر تحيل عليه بالضرورة أنشطة من أنشأت النص المعنية<sup>(\*)</sup>. أما جيهنار جنيت Gérard Genette، فيؤكد: «التصور اليوم (١٢ أكتوبر ١٩٨١) خمسة أشكال من العلاقات عبر النصية «Transfertextual» التي أعدها هي ترتيب شبه تصاعدي تجريدي، تضملي وشمولي، الأول اكتشافه جوليا كريستيفا Julia Kristeva منذ سنوات تحت اسم الناقص، وهذه التسمية هي التي أمدتها حفيظة بجهازنا الثقافي. أما من ناحيتي فأحضر مفهوم الناقص في علاقة حضور متزامن بين نصين أو أكثر، أي الحضور القطعي غالبا نص داخل نص آخر، وفي شكله الأكثر جلاء وأدبية، وهو ما كان يعرف تقادريا بالاستشهاد (سواء كان بعلامة تسميى أو غيرها). وفي صيغة أقل جلاء الانتحال والسرقة الأدبية كما هو عند «Lauréarments» مثلا وهي اقتراض غير مطع، أو طابع أدبي، وفي صيغة أخرى أقل جلاء، وأقل أدبية كما هي التلميح، أي تقديم بكيفية تذكير قطعي إدراك العلاقة بينه وبين فكرة أخرى تحيل عليه في هذا الموقف أو ذاك»<sup>(\*\*)</sup>. في حين يؤكد المصنف الكبير للآداب أن الناقص مطور من لدن «جوليا كريستيفا» اعتمادا على جهود «ميتاليل وأخرون، حيث إن: «هذا المفهوم يسمي إلى توضيح العلاقات التي يقيمها نص أو مقالة أو كلمة عند إنتاجها مع نصوص أخرى. ويمكن أن يتعطى في الاستشهاد، السرقة الأدبية، التلميح، في إطار أشكال مختلفة من العلاقات مع نصوص أخرى سابقة أو لاحقة»<sup>(\*\*\*)</sup>. بينما يرى كلود دوشيه Claude Duchet، أنه ليس هناك نص نقي، وهو التصور نفسه الذي ينطلق منه جيهنار جنيتي - Gérard Vignier، الذي يورد قول «كلود دوشيه» السالفة مؤكدا أن «النصوص لا توجد إلا في علاقة مع نصوص سابقة عليها، في إطار من التقاطع أو التضام مع خطاطة نصية (Stache textual) موجودة من قبل، ولكن في علاقة واضحة»<sup>(\*\*\*\*)</sup>. إن إعادة قراءة إنتاج جملة هذه الترميزات توضح أن الناقص اتصال، وأشكال، فكرة تبدو ظاهرة مصرها بناء، وأخرى طبقية غير معلنة، على رغم تكرارها لوحدة أو وحدات النص المعاني. وهي: الاستشهاد سواء كان بالتوثيق، أو من دون توثيق. السرقة الأدبية، وهي نوع من الاقتراض غير المصرح به، ولكنه يبقى حرفيا غير شرعي في الغالب الأعم. التلميح، وهو نوع من حسن الأخذ الذي لا يمكن من العثور عليه في النص المستفيد سوى ثقافة البصير بأسرار الصناعة الكلامية.

(\*) Grand dictionnaire des lettres, Larousse, 1987, page 769.

(\*\*) Gérard Vignier, Lire: du texte au sens, c.le International, 1979, page 62.

العارضة: وهي نوع من قلب المعاني الذي يقضي إلى إنتاج دلالة جديدة لا تستطیع أن تقی وجود علاقة بنوة مع النص الأصلي.

وبعد، ماذا یقی لهذه الآراء والأعطاف التناسية من حداثة إذا ما قورنت بالآراء الرصينة والتقریعات المیزة لأشكال الاستعداد التي أشبع نقادنا العرب القدامی بحتها؟ ألم یعرض ابن طباطبة العلوی فی القرن الرابع الهجري، لما یحتاج إليه الأديب من ضرورة تدقیق النظر فی تناول المعانی المشتركة، وتلبسها بأنواع من التوشية حتى تخفی علی البصراء بها؟ ألم یفصل القزويني الطول فی عرض أشكال الأخذ والسرفقة ألم یحدد أشكال الأخذ الطاهر، من نسخ وطلع ومسخ؟ ألم یرى أعطاف الأخذ غیر الطاهر من اقتباس وتضمین وحل وعقد وتلمیح، وقلب وحسن تصرف؟ ألم یوضح القاضي عیة العزیز الجرجاني أن باب الأخذ والسرفقات لا ینهی به إلا الناقد التحریر، والعالم المتطیس الشاعر علی الإحاطة علما بأنعطاف ورتب الأخذ لیفصل بین السرقة والنصب، و بین الإضارة والاختلاس، و بین الإقام والملاحظة، ویفرق بین المشترك الذي لا یجوز ادعاء السرقة فیه، والمبتذل الذي لا یمکن أن یدعی أحد أنه أولی به من الآخر، و بین القرائد التي یحوزها البتدئ فیمثلها، و بین ما لا یمح أن یقال فیه هذا لفلان دون آخر؟ ألم یعین الناقد نفسه علامة التحذیر فی المدول بالكلام عن نوعه وصفته، وعن وزنه ونظمه، وعن رویه وقافيته، حتى إن غیر المتطیس عندما یمر بالكلام، یحدد صفتها بغيرها؟ ألم یتحذیر ابن أبي الإسیم عن حسن الاتباع، و بین وجود الزیادات التي توجب للمتلعب أن یحذف عن التقدمة ألم یعرض لضروب الاختصار والإتمام والتحلیة؟ ألم یتحدث العسکري عن بطلان الأخذ وحل المنظوم وعن أسباب إخفاء السرقة من حل وعقد ونقل؟

أي صیابة فضل إذن لآراء المعحدثین إذا ما قورنت بالآراء التقیة التي لبست إلى بعضها بالنسبة إلى نقاد العرب القدامی؟ لا شك فی أن الساحة التقیة العربية تملأ الدنيا بمثل هذه الآراء منذ بداية القرن الثالث الهجري، حیثما ثبته البلاغیون القدامی إلى استعالة وجود نص نقی خالص من تأثیرات النصوص السابقة، ولکن كان استخدام مصطلح السرفقة، یقضي من مجهودات السابقین، فإنه من النصف التاكید أن أغلب الذین خاضوا فی هذا الباب لم یقتصروا جهودهم علی الاستخدام الأخلاقی الذي ینبغي إلى ذم الوجه السافر للسرقة، بل عرضوا إلى أوجه حسن الأخذ ونصحوها للكتاب والشعراء، موضحین لهم طرائق حسن التصرف فی المأطوط من نقص أو زیادة، أو قلب أو تحلیة، رغبة منهم فی الوصول بالتأخرین إلى امتلاك معانی السابقین، وإذا ثبت بالدلیل الذي یقطع دابر كل معترض، أو متردد كاد أن ینسلخ من جلسته العروبية، فأصبح یملك كلامها المبین علك اللجام، فإنه تدعو نقادنا الرصفاء إلى تجاوز عقدة النص التي دثرت بها

الأجنبي، أصلاً في نفس القيار من اللغات الشعبية الرائدة الرائجة في تراثنا النقدي العربي الذي سببني منا على طرف الثمام إذا جعلناه منبع العذب الذي يجب أن نوجه إليه ناهية الأمة.

## خاتمة: أشكال وانماط حصص الأخرى والتناقص في رواية «شجيرة

حناء وقهر» :

٥-٦ : تقديم

في ظل هذه القارة الشاسعة من التصوص الروائية العربية التي تقتنف بها الطباعات كل يوم، ليس من العسير على الباحث المتقدر أن يعثر في ما يقرأ من نصوص على بصمات وعمرات التأثير المتسللة من الآثار السابقة إلى النصوص اللاحقة في شبه تفاعل كيميائي، يصور على التصادم مع العناصر المكونة للعمل الفني أحياناً، وفي أحيان أخرى بمعنى في التماثل والتلاقي السلمي معها، فهو أنها في تصادمها وتماثلها تلضي إلى إنتاج نص أدبي متسجج يعكس التعدد في التفرد من خلال المساحة الواسعة التي تتحرك فيها العناصر التفاعلة فيما بينها، من دون خيانة للتصوير المنطقي منها، والتي تعد النص المولد (بفتح اللام) بروايد متعددة من هذا وهناك حتى تصوير عجايزة بالقلة العضوي، على الرغم من الحرص الشديد على إغناء النص بجموعها لأنها في الأصل ليست بأصابعها الذين شاقوا كتبها، وبالتالي يصبح من العسير فهمها إلى غير حد فتكون لها من المتقدمات، ومن ثمة يفقد حضورها في النص النجيب (بفتح الجيم) ففاجئنا صورة القرواة المدرسة في لا وهي الكتاب، أو بتعبير القدامى بنت محفوظه الذي درّب عليه فهمه، وهذب به طبعه، وإقبح به ذهنه، فها أصبح مادة فصاحتها ولسان بلاغته وقوب روحه وجبيلته، حيث تلف الكلمات والمعبارات أو المعاني المستمدة من نصوص سابقة في ثياب أنيقة معككة النسيج والصياغة من خلال صرف كثير من المعاني المطروقة إلى وجه غير المعنى الذي أسس عليه التتبع.

والحق أن الأسلاف أحمد التوفيق بعد، من خلال أعماله الروائية، من الأدباء المتفلقين الحُرّص على أمثالك السخر اللغوي اللافت الذي يمتدح الأكياف بواسطة براعة المزج، بين اللغة التراثية الفريدة، وأختها المعاصرة الأنيفة، مزج يهوج أريجها على العبارة التي تبدو صورها بمنزلة أشكال وألوان قوس قزح، لغة تأسر وتفتن بسموها، وتجليات تشكلاتها، ينسجها الروائي ببراع طالع، كلما أحسست بقرب اختفاء أسراب التمايز الأسرى أعقبت بأسراب أشد أسرار، لغة كأنها في جمال تناسقها، وبراعة سبكها وحنن تأليفها تحاكي ريش الطاووس حلية وجمالاً، وكان الروائي يغرف أدائها التشكيلية والتفاعلة من بحر زاخر بعد «أبو عذرها»، وهو أول من استعملها وأغترها، مع أننا كنا نعرف ذلك اللفظ من قبل.

ولكن لا، سواء معرفتك لفظاً قايماً في المعجم، واستعمالك ذلك اللفظ الذي كان قايماً في المعجم فتحويله إلى صيغ مجزأة... وإلى ورثة تعيق بالشذوي، وإلى كنان يطغى بالحياة والعقول<sup>١٢٨</sup>، هذا هو دين التوفيق الذي غير بالتجربة أنه لا يبقى للأثر الأدبي عامة، والرواية خاصة شيء غير جمال اللغة وبراعة السبك التي لا تجعل الكلام كله شريفاً ولا هابطاً وضيقاً، بل يجب لتسهيله تفصيل العقد الذي لا يظهر فنته إلا وبسطه التي تأخذ من الجمال والفتنة أخذاً صعباً ينفذ إلى بواطن الأعماق، وتلك هي المزية العليا للغة الرواية التي إذا لم تكن لغة «شعرية، أنيقة، شديدة، عيقة، مفردة، مختلفة... منزلة، متفجرة، لا يمكن إلا أن تكون شاعرية، نابغة، علية، قليلة، حسيمة، خلقة، بالغة، قاتية، وربما شعراء غيراء»<sup>١٢٩</sup>، تأسسها على هذه الحقيقة، فإن الأساطير التوفيق مال - في ما عر لي - إلى اختيار لغة شعرية نابضة بالشاعر الإنسانية المؤثرة، كثيفة موجية، تبعث كثيراً من الألفاظ من مرقدها وشحي مواتها من دون تلطخ ثوبها القشيب بأساليب العامية التي يستمر بها دعائها ضحالة بضاعتهم، وشيق ذات أيديهم، حتى إن الخرس أولى بهم من الحديث والكتابة على هذه الشائكة الشائكة، التي يقدحون فيها بالكلمات الشعراء القراء المسوخة من مصالهم القوية الرديئة، استجابة منهم لمدح ملازمة أوضاع التشعيبات المختلفة في العمل الروائي، حيث يجب أن يتكلم الشخص باللغة التي يمرها، إلا لا يمكن أن تكون لغة العامي، هي لغة المثقف وهذه المعاني هي لغة الوظيفة، وهم جرا، وهي كلها مسوغات بعض الكتاب المتعاصرين المتأخرون الذين الخطأهم اختيار اللغة الفصحى، يتلقون بالعامي والسوفي ليحسبوا مع السواد الأعظم غير عابثين بما ينشئون من سموم في ثوب العربية القشيب، وما يخطونه من كلام غث يجمع بين الحفصة والعرز، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، كما أحسن أسلافنا الذين فصلوا الكلام تفصيل العقود، وجعلوه متوناً لكي لا يمل من دون تلك سبيل الفصحى، كما هو الشأن بالنسبة إلى صنيع جلال الدين السيوطي الذي ظل «بعض هذه التجربة القوية فالفناء يكتب عشرين مقامة، موزعة على عشرين شخصية مختلفة، فينخذ لكل شخصية لغتها الوظيفية، ولكن في إطار الفصحى العالية»<sup>١٣٠</sup> البعيدة عن التعابير الخداج، والأساليب العامية المزدولة، التي تكثر طلائها في ما ينشئون من ترجيعات وشعارات عكرت صفاء العربية، معتقدين أنهم يؤسسون لزمان التهادن، وهم لم يلجوا بعد وصيد الهذبات، ومن يضل الله فما له من هاد!

إذا افترض أن «المسألة القوية، في السردانية، تحتاج إلى براعة المزج، كالعصير المزوج من جملة من المواكبة مزجا مدروسا تراعى فيه رقة الذوق»<sup>١٣١</sup>، فإن مؤلف رواية «شجرة حناء وقمر» يمتلك كفاية وصافية شائقة، يجليها تضافم الإيقاع اللغوي مع موضوع الرواية المرتبط بتعربة معيش الناس في قرى جبال الأطلس الكبير، من خلال علاقتهم بسلمة القواد والشيوخ

إبان القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. فعلى الرغم من حرص المؤلف على تسجيل التفاصيل اليومية لحياة القائد «همو»، في إيلاته، ونزوح الرواية نحو اقتحام عوالم غريبة (السحرة، الجن، الكنز...)، بل تعدد الشخصيات المتفاعلة في العالم الروائي، واختلاف مضامينها المرجعية (الفراد، الشيوخ، الفقهاء، الصحفيون، العرب، الأمازيغ، المجاثون والعشويون، اليهود...)، فإن الرواية لم تتأثر عن شعورية اللغة وتدقيق الذاكرة التراثية التي تعمل لحياتها في شبه السهول، فتنسج بين المصادر التي يهجر منها الكاتب أدواته الفنية، وبين الإيمان في شعيرة خيالها النفس الإنسانية مع الحرص على إدانة نزعات الشر وحجب التملك والأشياء التي تكون السبب في الإيقاع بالقمعي، وفيها قيل رُبَّ مَن حنقه في أعينته.. الروائي إذن متعاطف في لغته الشعرية، صانع ماهر في انتقاء الأساليب، بل انتقاء أشكال الحلبي وصفها بدقة مثالية، بارع في إضافة خيالها القوس، فمن في القوس على البحر، لا ترى قلنا ولا أمنا هي ما يهجر من هرائد أساليب القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والشعر العربي القديم، ناهيك عن عبارات الأمثال والخطب والرسائل والتوقيعات. وذلك مزجة لا تنافر إلا أن أعرق في البحث عن القرائد، وبذل الجهد في تحلية المعاني المزينة بالأنشاد الوجيزة القصصية، بخلاف النحويين الذين تكلمهم القيسية التي تظهر ما يهجره إلى كتاباتهم بعفوية وقع بالية شريفة عن روح القصور أو كالأحجار القديمة المستعمدة في بناء جديد، وروح الفرية والعفوية وعدم الانسجام شديدة على قلتها في الأماكن التي أنزلت فيها، غير أن جديفة المستعمدة الأسلوبية التي وصفها بطريقه الوصف (وصف قيم الشيء، وما يجب أن يتعلم به من شياخة وسهارة في حركاته وسكناته، قبل، وأثناء، وبعد عملية إعداد الشاي.. وصف أشكال الحلبي التي تفتت السائلة في اختيارها استعدادا لذهابها.. وصف الطبيعة الجبلية، وأخلاق الروائح العطرة، وصف شجرة الحناء، وصف كيفية استخراج الكنز، مع عرض أشكال التعزيمات...) لا ينبغي أن تضع على بصيرة الباحث القنصف عصابة تخفي ما تبين فيه خلل الروائي في حق العربية، مثل إيراد لفظة الكأس مذكور، وهي مؤنثة كما ينطق بذلك القرآن وكثير من الأشعار الشعرية، أضف إلى ذلك أن الكأس لا تنطق إلا إذا كانت مملوءة، أما إذا كانت فارغة فهي إما زجاجة أو كوب.. كما أورد عبارة (لا سيما) مجرورة عن (لا) وهذا مخالف للمصواب، ثم عرف (غير) وهي مفرقة في التنكير، ولهذا يصح ألا يدخلها التعريف الذي لا يضيف إليها شيئا، كما جمع السوار هكذا (أساور) وهي في القرآن والشعر من دون ياء، أساور وأسورة، ثم جعل جمع حرمين، حريمون، وهو مخالف للمصواب الذي هو: حرم، حرامين وحرماء، وزاد البرهة باللحظة الزمانية الثقيلة مع الفرق الشاسع بينهما حيث إن البرهة هي الحين الطويل الذي يصل إلى سنة، وشهرها من الأخطاء التي أشرت إليها في بحث آخر، سينشر قريبا.

## 2-0 : منهج الأخصائى القرآنى

إن عرض نص «شجيرة حواء وقمر» على النص القرآنى المقدس، يظهر أن المؤلف نظر إلى رياض القرآن الكريم، نظرية المرتشف لآلال ملكه، المستشقى لعبير أزهيرود المقتطف لأطيب ثماره. وما أرى للمؤلف إلا قنصاً ماعراً ينتج الطريقة القاهرة المكتنزة حتى يدخلها تحت لوائه، بعد أن ينمها بطابعه الأسلوبى الخاص، بعد أن فجر له القرآن الكريم منابع القول، واستمد منه ما طاب من ثمار عرضاته، لم يترك طائفة إلا اقتنيتها، ولا إشارة إلا احسن ضمها. حتى أنى في هذا الإطار بالفتير اللباب الذى يبدو فلانده التخصيت من مخرزاتها، في أحسن صياغة ينزلها التضمين والاقتباس والتلويع والإشارة، كما ينصح بذلك بوزل المعارفين بأسرار الصلعة الكلامية على شاكلة قول القلقشندي: «واعلم أن تضمين الكلام بعض أي القرآن الكريم، ينقسم عند أهل البلاغة إلى قسمين، أحدهما الاستشهاد بالقرآن الكريم، وهو اقتباسه وقومها في الكلام، ودوران في الاستعمال، وهو أن يضمّن الكلام شيئاً من القرآن الكريم، وينبه عليه... الثاني: الاقتباس، وهو أن يضمّن الكلام شيئاً من القرآن، ولا ينبه عليه...»<sup>116</sup>، وكأنى بالروائي يمثّل وصية القدامى في الاستعداد من القرآن الكريم كما أكد التورج ضياء الدين ذلك في قوله: «والطريق في استنباط المعاني من القرآن الكريم، واستعمال الآيات في خلال الكلام، أن نعود إلى سورة من القرآن، ونأخذ في تلاوتها، وكلما مر بك معنى ألبته في وقتاً مشرفة حتى نقف إلى الآية ثم نأخذ في استعمال تلك المعاني التي ظهرت وإدخالها في خلال الكلام، وكلما عايناه التلاوة وكرويتها ظهر لك من المعاني ما لم يظهر لك في المرة التلقا قبلها»<sup>117</sup>، ونظافراً أن الاستتلا التوفيق يعود إلى مجموعة من الآيات القرآنية، يقدّمون فيها الأسلوبية، ويستمدعي طريقتها التمييزية ومحتواها الدلالي من دون تغيير أو تبدل خشية أن يزيغ عن مقصديّة النص القرآنى التي لا يجوز الاختلاف معها، وهذا هو السر في سهولة العثور على الآيات القرآنية التي يتناس معها المؤلف من خلال تقنية التلويع والإشارة كما يتضح ذلك في ما يأتي: «أن ينزل منها عليه في يوم من الأيام شر مستطير»<sup>118</sup>، الذي يلتقي مع قوله تعالى من سورة الإنسان آية رقم ٧ «يوهون بالتذر ويخاضون يوماً كأن شرهم مستطير»<sup>119</sup>، وقول المؤلف: «ومن يظنون أنهم يحسنون الحساب»<sup>120</sup> الذي يلتقي مع قوله تعالى من سورة الكهف آية ٩٩ «وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا» وفي قوله من الصفحة رقم ٥ من الرواية «الوالتى للسهل نون أن يشعر به أحد»<sup>121</sup> المستمد من قوله تعالى في سورة الكهف آية 1٩ «وليتلطّف» ولا يشعرن بكم أحداً». أما قول الروائي «في شريعة من القاتلون»<sup>122</sup> فيتناس مع قوله تعالى من سورة الشعراء آية رقم (٥٤) «إن هؤلاء لشريعة قاتلون»<sup>123</sup>، كما يلتقي قوله «نظر بعضهم إلى بعض»<sup>124</sup> مع قوله تعالى في سورة التوبة آية 1٢: «ولذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من



أحد...». أما قوله: «جلس إلى الأرض وظن أنه وامرأته ناجيان بعد تلك المحنة»<sup>(٢٢)</sup> فينظر إلى قوله تعالى من سورة يوسف آية (٤٢): «وقال للذي ظن أنه ناج منهما... كما يستعين قوله: «إن رحمة الله أقرب إليهما من عطف الزوج الفائد»<sup>(٢٣)</sup> بقوله تعالى من سورة الأعراف آية ٥٥ «إن رحمة الله قريب من المحسنين» أما قوله: «يصنع سلاسل تنوء بحملها الدواب»<sup>(٢٤)</sup> فيتناص مع قوله تعالى من سورة القصص آية ٢٦ «وأنتناء من الكتوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصية أولي القوة»<sup>(٢٥)</sup>. أما قوله يقول هل من مزيد<sup>(٢٦)</sup> فيلحق مع قوله تعالى من سورة ق آية رقم ٢٠ «يوم نقول لجهنم هل امتلأت ونقول هل من مزيد»<sup>(٢٧)</sup>. أما قول الروائي: «أن تكون الظاهر الذي من قبله الرحمة» ويكون هو ذلك الباطن الذي من قبله العذاب»<sup>(٢٨)</sup> فيستعين بقوله تعالى من سورة الحديد آية ١٢: «فطمرب بينهم بمور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب»<sup>(٢٩)</sup>. وحتى لا أطيل على القارئ الرصيف اكتفي بالإشارة إلى الجمل التي اقتبسها المؤلف من القرآن الكريم مع تحديد أرقام آياتها والصور التي استلهمتها منها على الشكل الآتي:

- «تعيب القمر» حيا جماء - انظر سورة القمر آية ٢٢.
- «ارتفعت وعضت أظفارها» - انظر سورة آل عمران آية ١١٩.
- «يأتي لهم من حيث لم يحتسبوا» - انظر سورة الزمر آية ٤٤.
- «لا يعرف أحد سرهم وإحرامهم» - انظر سورة الزمزم آية ٥٢.
- «كان صدره في حرج وحقيق شديد» - انظر سورة الأنعام آية ١٢٦.
- «قد حال بينهما كما يقول الموج بين نهرين» - انظر سورة هود آية ٤٢.
- «ما قلقي به وعطري» - انظر سورة الأحزاب آية ٢٧.
- «حتى لواهد سراء» - انظر سورة البقرة آية ٢٢٢.
- «على حين فرقة» - انظر سورة القصص آية ١٤.
- «فقد يكون ثالث ثلاثة» - انظر سورة المائدة آية ٢٥.
- «حتى إن الواحد منهم يمشي على أربع» - انظر سورة النور آية ٤٢.
- «لقد أرسلت الهندل ليهاني بالخيزر» - انظر سورة النمل آية ٢٠. وكذلك في سورة من الأياتان ١٧ و١٨.

- «وجدت السائلة ما قالت خادمتها»... حقا - انظر سورة الأعراف آية ٤٢.
- «أخذته العزة» - انظر سورة البقرة آية ٢٠٤.
- «وربطته بالعمود ليهذوق العذاب الأليم» - انظر سورة الصافات آية ٢٨.
- «مما فوق الأرض» أو مما تحت الثرى - انظر سورة طه آية ٥.
- «لن أبرح هذا المكان إلى أن تطلع الشمس» - انظر سورة يوسف آية ٨٠.

- «أن يعاقب كل مخطئ لا تقصوا» من حواله: انظر سورة آل عمران آية ١٥٩.
- «وهي بشر سوي» انظر سورة مريم آية ١٦.
- «كلم فيه غيظه» انظر سورة آل عمران آية ١٣٤.
- «واتخذ طريقه إليهم» انظر سورة الكهف آية ٦٢.
- «أفلق سجنه وجعله دكا» انظر سورة الكهف آية ٩٤.
- «هارباً من القروض» ومن التمس أجمعين» انظر سورة السجدة آية ١٢.
- «وجرت البنت إلى مكان قصي» انظر سورة مريم آية ٦١.
- «لا يخاف في الله لومة لائم» انظر سورة النازعة آية ٥٦.
- «منيمة حصونه» انظر سورة الحشر آية ٢.
- «علما الله عما سلف» انظر سورة النازعة آية ٩٧.

وبعد أن ألغت لهذا النوع من حسن الأخذ باليسير على وجه التمثيل، يؤكد أن المؤلف لم يلجأ إلى قلب معاني القرآن إلا نادراً، وهو قلب لم ينع فيه إلى تحويل المعنى الذي ينتج شيئاً مغايراً لتقصيدية القرآن كما هي قوله «وكانت ملاقيتهم يمسراً» الواردة في الصفحة ١٦٧ من الرواية الذي قلب فيه المعنى في القرآن الكريم كما يتضح ذلك في سورة الطلاق آية رقم ٩ التي يقول فيها تعالى: ﴿فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً﴾. من خلال هذه الاستعمالات يتضح أن القرآن الكريم دخل إلى قلب المؤلف، وترعرع براعه على أساليبه، وارتقت ملكته البيانية، فكان كثير أوصاف من حيث البناء، وأسلوب من حيث الأداء، والرواق، وأغلب من حيث النطق والمعنى. ولا أريد أن أصبح الهراع من هذا التأثير القرآني في أسلوب التوفيق من دون الإشارة إلى نص الرسالة التي أرسلها أبناء الطوبى أحمد نابت إبراهيم إلى القائد «ولد الشهيد»<sup>(١٢)</sup> التي لم يجد فيها غير رؤوس الآيات القرآنية الأتية:

«(إن فرعون... ومن اعتدى... بل تأتيهم... لقد علمت... إن موعدهم... خذوا زينكم... قال عسريت... التي تدخل في باب التوقيعات الملقاة، التي يقتضي فهمها استحضار الآيات القرآنية، ناعيك من حرص المرسل على التنبؤ على القارئ العادي الذي قد تقع الرسالة في يده، إن تقع المخطوط لستدعي شأهة القارئ المخطوب الحلاق بأسرار كتابة التوقيعات، بله القارئ المحافظ لكتاب الله حتى يتمكن من القبض على المعنى المراد، بعد العثور عليه في تضاعيف الآيات القرآنية التي اكتفى فيها المرسل بالتلميح والإشارة، حيث إن رأس آية: ﴿إن فرعون﴾ الواردة في سورة القصص تستدعي إتمام ما سكنت عنه المرسل ليتضح المعنى المراد على هذه الشاكلة ﴿إن فرعون هلا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم﴾<sup>(١٣)</sup> كما أن رأس آية «ومن اعتدى»

المتبوعة بنشاط الحذف يستدعي عرض منطوق الآية بأكملها وهي: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾<sup>(١١١)</sup>، كما أن رأس الآية الثالثة ﴿فَبِمَا تَأْتِيهِمْ﴾ يفرض البحث عن الآية التي تقول: ﴿فَبِمَا تَأْتِيهِمْ بِنُفْثَةِ هَتِيبِهِمْ فَلَا يُسْتَطَاعُونَ دَهْأً وَلَا هِمًّا يَنْظُرُونَ﴾<sup>(١١٢)</sup>، أما رأس الآية الرابعة الواردة في الرسالة فيدعو القارئ إلى استحضار الآية هكذا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكُمْ لَسَلْعُمْ مَا تُرِيدُ﴾<sup>(١١٣)</sup> أما رأس الآية الخامسة المفتحة من سورة (هود) فليقرأ: ﴿إِنْ مَوْعِدُهُمْ...﴾ فإن استحضار آخر الآية يبين المراد على هذا النوال فإن موعدهم الصبح، ليس الصبح بقریب<sup>(١١٤)</sup>، كما أن إتمام رأس الآية السادسة ﴿فَلَمَّا دَرَأُوا نُفُوسَهُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾<sup>(١١٥)</sup> يبين مكان الحدث الذي سيقت صباحاً، أما رأس الآية الأخيرة الواردة في الرسالة فقال صفرید... فإن إتمام منطوق الآية هكذا ﴿فَقَالَ صَفَرِيَّتٌ مِنَ الْجِنِّ إِنَّا أَتَيْنَاكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِي أَعِزٌّ﴾<sup>(١١٦)</sup> يظهر وجه السرعة الذي سيطلق بموجبه الأمر.

إن الرسالة السابقة نموذج من رسائل التوقيعات التي كان الملوك والرؤساء والأعيان يتبادلونها في ما بينهم، وهو نوع كلامي معروف بالإيجاز والاختصار. حتى أنهم جعلوا من التوقيعات ما يأتي بالكلمة أو بالحرف أو بالآية من القرآن<sup>(١١٧)</sup>، وواضح أن هذه الرسالة التي أحكم أبناء الشيخ أحماد نابت إبراهيم صياغتها من حيث تعبيرها وفقراتها فشيء ما عده ابن عبد الغفور الكلامي الأنطوني من أغرب التوقيعات اعتماداً على ما حكاه ابن جني حيث قال الكلامي: «ومن أغرب التوقيعات ما حكاه أبو الفتح بن جني قال: لما انشد أبو الطيب سيف الدولة قصيدته التي يقول فيها:

<http://Archive.ksars.net>

يَا أَيُّهَا الْحَسَنُ الْمَشْكُورُ مِنْ جِهَتِي  
وَالشُّكْرُ مِنْ قِبَلِ الْإِحْسَانِ لَا يُبَلِّغِي  
إِلَّا: إِنْ أَطْلَعَ أَحْمَدُ عَلَى سِلِّ أَحْمَدُ  
رَبِّ هَشِّ بَشِّ نَفْسُكَ أَنْ سَرُّ صِلْ

ونالوه لمسختها وخرج، نظر سيف الدولة فيها، فلما وصل إلى هذا وقع تحت أثره، فاختلكه وتحت أثره، يحمل إليه من الدراهم كذا، وتحت أطلع: قد أظفناك الضميمة الفلاتية... وتحت أحملا: بغداد إليه الفرس الفلاني، وتحت عل: قد فعلنا، وتحت سل قد فعلنا فاسأل، وتحت أحمدا: قد أمدناك إلى حسن رأينا فبك، وتحت زد: يزاد كذا، وتحت كلفعل: قد فعلنا، وتحت أن: قد أمتناك، وتحت سراً: سرورناك، قال أبو الفتح، فبلغني أن أبا الطيب قال إنما أردت: سر، من السرية، فأمره بعبارة<sup>(١١٨)</sup>، هذه شيد وثقت تبين أن المؤلف سلك مسلك الأخذ بالحسن من القرآن الكريم، وجرى فيه ملة غنائه، فأدرك الغاية من الاستعداد الحسن، وجاء بالخطير، وتشتم ما فاج من الزمير رياض القرآن المطرود.

## ٥-٢ : الاستعانة والاستعداد مع الأحاديث والأخبار النبوية في الرواية

بعد الحديث عن ألقاب الأحاديث النبوية التي اقتصرها الروائي، بما خطبنا لا يدرك قهره، ولا ينكشف عمقه، وما أطن المؤلف، إلا أنه قد طيق الضمحل، ووضع الهناء مواضع القرب في اقتطافه لجموعة من الألقاب التي سمعت في أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم، التي تعد بمنزلة المادة الثابتة التي يستعين بها الأعداء في ما ينشئون من كلام، لما تواطوا لها من خاصيات البلاغة والفصاحة التي يفرغ بها طير من لطق بالفضاء في البدو والحضر، وفي عن اليهان أن الحمولة الدينية التي تنبض بها كثير من التعابير في رواية «شجرة حناء وقهر»، مستعمدة في الغالب الأعم من الأحاديث النبوية الشريفة التي يتناسق معها المؤلف بالكيفية نفسها التي يتناسق فيها مع القرآن الكريم، حيث يحرص كل الحرص على الحفاظ على السياق العام الذي يرد فيه الحديث، ومن ثمة فإن التعالي، والمفردات التي يستعين بها الروائي ويستند بها، تبقى على حالها، لا يؤدي نقلها إلى تغيير دلالتها وإنتاج دلالة جديدة، وإنما يظل المؤلف يستحضر الأجواء نفسها كما هو الشأن في قوله من الصفحة ٧٠ في الرواية: «الحاكم الضوي خير من الحاكم الضعيف» الذي يستحضر قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «المؤمن الضوي خير من المؤمن الضعيف»، وفي قوله من الرواية الوارد في الصفحة رقم ٨٢: «الليم أجعل في قهره الكلف» الذي يمد أجواء الدعاء نفسه لدى الرسول الكريم. كما بعد قوله من الصفحة رقم ٦٠ من الرواية: «ركبته ينظم نظريته»، توجهاً لتحذير الرسول صلى الله عليه وسلم، من شر التطور الثانية. كما أن قوله من الرواية في الصفحة رقم ٧٩: «نحمد الله على لطفه بعد قهره»، يستمد الألفاظ وظلال المعنى ذاته الذي لا يفتارق الرسول الأعظم عندما تلم بالمسلمين ثانية، أما عبارة «يشبهوا تركبته أيضاً يدركات جهنم» الواردة في الصفحة رقم ٢١، في وصف المسجون المزج ينأى بجوار القصبة فهي عبارة لا تختلف عن الحديث الذي يشير فيه الرسول الكريم إلى أن الجنة درجات، وجهنم دركات، كما يتضح ذلك من حديث العباس الذي قال للرسول صلى الله عليه وسلم: «أما كان يطلع عمك ما كان يطلع بلدك كان يحفظك ويحذب عليك فقال: لقد أخرج بسببي من أسفل دوك من النار، فهو في ضحضاح من نار...»<sup>(١٣)</sup>. أما عبارة «ما عساهما فاعلة» التي جاءت على لسان الناس الذين أحضروا لتهنئة القائد «عمو» بمناسبة تعيينه قائداً على قبائل الأطلس الكبير، والذين ينتظرون كيف تتصرف المجنوبة «فاضما تاعجالت» فهي تتناسق مع قوله صلى الله عليه وسلم لأهل طرابلس عندما تمكن منهم: «ماذا نظنون أني فاعل بكم؟ قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم، غير أن الروائي في اقتراحه لهذا المعنى حرص على تغيير دلالاته السجاسما مع مقصديته التي يروم من خلالها التفتيح على القائد «عمو» وتكسبه أنف نظوته منذ اليوم الأول لتلقي التهنئات من لادن كبار الأعيان والشيوخ، حتى ولو صدرت هذه الطريقة من لادن المجنوبة (فاضما تاعجالت) التي

كانت عاطفتها إبداعها السجج حتى ينظر القاصد ومشاوره (ابن الزاوية) في امرها، بخلاف أهل فريش الذين قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم: انهبوا قاتكم الطفلاء... أما عبارة «سار الركب لا يخترق التماثل إلا إذا حمت الأوطان» وحلفت الرهبنة الواردة في الصفحة ١٤٤ من الرواية، فهي تعكس نص الحديث الوارد في فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، وتصبره لبناء دلائل جديدة تعتمد التشويش اللغوي. (جمعة الأبطال) مشيوقهم الرحمة، حلفه الرهبنة / حفتهم الملائكة) إنها محاوره تنفيًا تفكيك نص الحديث النبوي، من دون القدرة على إخفاء المثال الحقيقي الذي طرأت العبارة على حديثه، كما يتضح من قوله عليه السلام: «... وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكروهم الله فيمن صعد» ومن أبطأ به عمله، لم يسرع به نسبه»<sup>٣١</sup>.

هذه لف من الأحاديث التي تحلور معها المؤلف واستعان بها من حيث الصياغة ومعانيها، وهي تفسر توضح أن المائدة التي بقشات منها المؤلف مائدة دينية تصور وتمعن في الحفاظ على ذاكرة المصنوع المقدسة، وقدما قبل، بطول الرجال تحت أسنة أقتلها، حيث نزل المؤلف بتداع الفصل، وانتلى ما شاء من القلائد والأيقونات الأبحار فأوردتها في ما حبر من كلام بدت ألقاضه عرائس مجلوة، ومعانيه ذورا خلاصة لشهد للميداع على عرافته في الكتابة، وقدرته على الجمع بين القصيد والرائق، والجنس المبدع، كما يجمع الرجل في الكفنة، وسهارته في بناء كلامه على أصل لا يزلزل.

ARCHIVE

http://Archive.w

٥-٤ : حب الشعر والاعتناء به في الرواية

يقول النقاد العرب القدماء على أن توظيف الشعر في الكتابة الشعرية يتمظهر على ثلاث حالات، الأولى، والتمثيل في الاستشهاد، حيث يورد الشاعر البيت من الشعر أو البيتين، أو أكثر ضمن الكلام المنثور. أما الحالة الثانية فيتمثلها بمصطلح التضمين، وهو أن يتضمن المؤلف كلامه بيتا من الشعر أو نصفه. أما الحالة الثالثة فيمصطلح عليها، الحل وهو، «أن يعتمد الكاتب إلى الأبيات من الشعر ذات المعاني، فيعطلها من عقل الشعر، ويصحبها في كلامه المنثور، فإن الشعر هو المادة الثالثة للكتابة بعد القرآن والأخبار النبوية... قال صاحب «الريحان والريمان»: وهو شأن حذائق الكتاب في زماننا، وفيه من الجمال فنون، منها أنه يدل على حنونة أدب الجهد، واتساع الحفظ، والتوسر والتأني لسبك اللفظ، ومنها أنه ليس يشهر منها إلا النادر للغاية في الحسن، فهي إذا حلت يعاورها المنشئ بما يناسب حسناتها في البراعة، وهذا كثير في هذه الصناعة»<sup>٣٢</sup>. ويشترطون في الحل أن يكون جيد النسيج، لا يقتصر عن الأصل الذي منه أخذ، وأن يقع في الموقع الحسن، من دون قلق أو نبوغ من المكان الذي وظف فيه الكلام المحلول.

والحق أن الناطق إلى الشعر الذي حله الروائي يتبين أنه أحسن استيعافاً للشعراء المفلطين الذين اقتبس منهم أطواقاً وقلائد وشي بها كلامه، على الرغم من أن تلك الألفاظ والمعاني ظلت مختصة بأصحابها الذين شغلوا كمها، حتى أصبح من العسير نسبها إلى غير من ألفرد بها من يوازل الشعراء القدماء، أمثال امرئ القيس وطرفة بن العبد، وأبي ذؤيب الهذلي ومن آلف قلوبهم. كان هذا يهدم المؤلف الذي سعى إلى إدراك ما عفا من كلام السابقين بجبر به ما يقع له من تقصير في مراعاة قواعد العربية، ويتفب في أمثال المصادر، ما بين به كتاب عصره الذين يقترطون من أجل التابع ما ينفر منهم القراء، ويدعوهم إلى طرس شقاشقهم، ولكي أبدي التصريح عن الرغبة في ما ذهبت إليه من تفرد الكاتب في حسن حله للأشعار التي اقتبس منها تعابير، يؤكد أن هذا الاقتراض من فهم الشعر العربي الفصيح، كثيراً ما طرب لغة الروائي من لغة الأقدمين، حيث تستطيع بأصياغ بدوية منسجمة مع مجتمع البدايات المغربية الذي ظلت ذاقتته الفنية مشدودة إلى القديم كما يؤكد المعجم الأتي ذلك (الحاشوا - سورة - علم - قصي - مناور - فدي - رقة - عقيرة - ظهر النجم - العقة - سدولة - نعل - أناخ - أغوار الصندف - المر - الخنجر - ريات الحجال - البرقع - طرس هيكل - الحابل والتابل - عن - السلك - العنبر - الحوريات - خلفي حنين - البيت - يحمى المؤلف الصلحة - البصرة - المبرة - الشري - التبر - كولاص - الوطر ...).

هذا المعجم الشعري الذي يرمح به المؤلف، يوضح بلا مرأه الحضور الفعلي للشعراء القدماء في نغم الرواية، وهو حضور مركب من أخلاط عديدة، تظهر تارة بوجهها السافر من خلال إهداء القليلة إلى الشهادة كما هو الشأن بالنسبة إلى حكمة الشاعر العربي التي أوردها إمام الزاوية للقائد «همو» على سبيل المبرة<sup>(١٢)</sup>

إذا رأيت نبيــــــــــــــوب البيت بلرزة

فلا تظن أن البيت يــــــــــــــــر

أو بالنسبة إلى كثير من الأشعار الشعبية التي يستمدحها المؤلف من الذاكرة الشعبية، ولا سيما التي تنزع منزع الأمثال مثل ما سطره في الصفحة رقم ٨٨.

الكلام خصو لُفهام

الحكام خصو القوام

واليف يتبع اللام

الأحق يتبع الوشام

أما تقنية التضمين فلا تظهر في الرواية إلا نادراً، من خلال صدور البيت الشعري الذي أورده القاضي بعد عودته من أخذ شهادة عقد زواج القائد «همو» بابنة ولد الشهيد «السالة»، صاحبة القوام المعتدل الرشيق، حيث أورده القاضي الشطر الأول من هجزة

اليومسيري (كيف ترفى عليك الألباء)<sup>٢٢٠</sup> على سبيل التهكم والسخرية من قصر قامة القائد «همو» وطول قامة الزوج الجديدة «السائلة» وهو إدماج أحسن المؤلف قلب محتواء الدلائل الذي أراد عبد الحميد الشمرية في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم. لإنتاج دلالة مضادة ولدها السبيل الذي أجهز على الغنى الأول كما يتضح ذلك من كلام القائد «همو» مع مشاورة (ابن الزاوية) بخصوص القاضى الذي تجرأ على «همو» ورشقته وهو ضاحك بعبارة شعرية ضمنتها إشارة خبيثة.

وإذا كان القائد «همو» قد طالطه العرب حتى صار يقول الشعر كما جاء ذلك على لسان مشاورة (ابن الزاوية)<sup>٢٢١</sup> فإن القامة الشعرية التي تزين عليها أحمد التوفيق طبعت أسلوبه الشائق، الذي تبدو فيه ألفاظ الأشعار المخلوة فلا بد تبهير الناطرين بحسن تأليفها، وجمال موقعها، وعذوبة لفظها، وجودة سبكها، وإصابة وصفها، وبراعة نقل معانيها ولفظها من الشكوى إلى الهجاء والسخرية. كما يتضح ذلك من تصوير هيئة القائد «علاء» أب الشخصية الرئيسية في الرواية تصويراً ساخراً حيث جعله يلمط بجسمه تحت أشعة الشمس ليخيط له خادمه شطراً في قميصه. بخلاف الصورة الشعرية التي لوردها امرؤ القيس لوصف الليل الطويل:

فَنَلَّتْ لَه لَيْلَانِي بِصَلْبِي

وَأَرْوَفَ أَعْمَارِي وَأَهْ بِكُلِّ كَلِّ<sup>٢٢٢</sup>

في حين حافظ على المعنى ذاته في هذه الصورة الشعرية التي نقلها من المعلقة نفسها، في قوله: «لكنه لم يعد إلا والليل قد أرحى سؤوله»<sup>٢٢٣</sup> الذي يشاريع مواصفات ليل امرؤ القيس حين قال:

وليل كسوح البحر أرخى سؤله

على أنواع هموم لي بطل<sup>٢٢٤</sup>

وهي صورة كبروها المؤلف ثلاث مرات<sup>٢٢٥</sup>، والطاهر أن أحمد التوفيق يعد من الأدباء الحرص على التفاعل مع موضوع ذي القروح. سواء لعل الأمر بوصف الفرس الهيكال حيث بدت «نجم» أيلة القائد «همو» «صبية بهية فوق فرس هيكال مكنول»<sup>٢٢٦</sup> وهو المعنى ذاته الذي أشار إليه امرؤ القيس وهو يهزئ الصبي على فرس عظيم الجرم:

وفد أغشني والطارس في وكنكها

بمنجرد فيل الأوبد هيكال<sup>٢٢٧</sup>

وقد عزز المؤلف الاقتراض من منابع الشعر الجاهلي برجوعه إلى معلقة طرفة بن العبد يستعير منها أجواء المعركة والمهانة التي يصاب بها المرء من قلم الأقرباء، حيث جرد أبناء الشيخ (أحمد ناهي إبراهيم) من ممتلكاتهم بأمر من صهرهم القائد «همو» «وذلك مرة في بلادهم لا أقيح منها معرك ومهانة لا أشد منها مضاضة»<sup>٢٢٨</sup> وهي عبارة لا شك في أنها تمسجت على

طريقة قول طريقة،

وعلمت ذوي التفسير أنشد مضاعفة

على اللزء من وقع المسامر المهندسة<sup>(٣٠)</sup>

كما سنكت هذه العبارة، ونشوب انظار الشر في جسم (كيميا)<sup>(٣١)</sup> على طريقة أبي ذؤيب الهذلي في استعارة الأطاظر للموت قتلا:

وإذا للندية أنشيت أفقلاها

أفصيت كل قيسمة لا تمنع<sup>(٣٢)</sup>

غير أن المؤلف لم يقتصر على الاستدعاء من الجاهليين وحل اشعارهم التي تعامل معها تعاملًا إبداعيًا محافظًا على دلائنها الأصلية في القالب الأعم، وهو التعامل نفسه الذي سلكه مع شعر الغزل الأموي في هذه الإشارة على كسان «السلسلة» التي ظلت تحب ضررتها «كعباء» فهي باقية في قلبها كما نبئت في التراخين الأصابع<sup>(٣٣)</sup> التي تسترجع أجواء الشعر العنري في قول القائل:

لقد نبئت في القلب منك مسوعة

كما نبئت في الراحئين الأصابع

كما تسترجع هذه العبارة التي تصف كبير جواريل السجن وما يجب أن يتصف به من شدة وحلق على الآخرين وتلك الأعم من اختيار العرائس اختيار كبيرهم، فهو عنوان السجن الذي سيضفي اسمه على اسم السجن نفسها «عبارة حسن بن ثابت في رثاء عثمان بن عفان رضي الله عنه، أو عبارة إبراهيم بن الحسن بن سهل الهجري في أبناء حيث قال الأول:

ضجروا بأسماء عنوان المسجون به

يتطعم الليل نبيها وقولها<sup>(٣٤)</sup>

وقال الثاني في رثاء أخيه:

قد كنت عنوان كرام مضجروا

فكنت فاعطيت أصول الكرام<sup>(٣٥)</sup>

غير أن المؤلف قلب المعنى الخاص معه، حيث إن نبوة عبارة أحمد التوفيق بالنسبة إلى كلام الشعاعين اكتسفت باقتراض اللفظ فقط، أما المعنى فقد دمروته وعكسته حتى أخلفت ديب الكاتب إلى المعنيين السابقين، وهي الإستراتيجية نفسها التي سلكها مع المعنى الذي يتناص فيه مع الشاعر المملوكي «البهاء زهير» حيث ثغنت «السلسلة» «لو أنها سافرت إلى هناك بأجنحة طير مباركة لتعط فوق سور ذلك البيت وتواسي المكلومات»<sup>(٣٦)</sup>، حيث يقول البهاء زهير في معرض لقوله:

قالت إن سورنا عالي البنا

قلت لها إني فؤقه طائر



أما عبارة «سالت به دموع ماقبها»<sup>(١٢٦)</sup> فهي تستعير صوت ابن زيدون، تأليفك عن صوت أحمد شوقي الذي يعارض قصيدة ابن زيدون نفسها، وهو استمداد ينسج على ترجمة أجواء العزى الذي خيم على «الساعة» أثناء طقس اللاشطات والتحرن الذي سيطر على ابن زيدون من جراء اليبس والفراق بينه وبين محبوبته «ولادة» والتحرن الذي جنم على أحمد شوقي في منفاه الاختياري، الأندلس. حيث يقول ابن زيدون:

يتمر ريثاً قسماً أبدلت جوارحنا

شوقاً إليكم ولا جفنت مائتة<sup>(١٢٧)</sup>

ولقد أصاب الكاتب الفصل في تبهيد ألفاظ النص الشعري من خلال تقنية النقل التي اعتمدت إلى توليد دلالة أخرى كما يتضح ذلك في قوله عن القائد وهو «القائد شطرس أموج سطحي الإحساس لا يستطيع أن يمسر الخوار السدوف ليبحث عن التربة»<sup>(١٢٨)</sup> الذي يستعيره من حافظ إبراهيم في وصفه للغة العربية التي وماها بعض التفاحصين الداعمين إلى العامية بالمعجم على الرغم من أنها بحر زاهر لا ينكش حيث قال:

لأ البحر في أحشائه القم كلس

نهل سائر الخواص عن صفائني<sup>(١٢٩)</sup>

عما تقدم يتبين أن الأسناد التوفيق حادق لمن، فحل خنثية أحسن التأليف بين الألفاظ القديمة ينتضيها من أمليتها، وهي أشد ما يكون تخييراً وصفاء وسلامة، نهش إليها الأسماج، شأنه في ذلك شأن صنيع القاص الذي لا يقل في انتقال من زهر إلى آخر حتى يصنع للطاقات شراباً يشفي الصبور، فهو وإن تقل بين دواوين الشعراء، فإنه أحسن اختيار القمع التي استمد منها قلائد أجاد تأليفها طجاءته المعاني المبتكرة وهو، يلقي منه مثالب النصب والإفارة.

## ٥-٥-٥: خصه الأختار الاستعانة بالخطب في رواية شجية حثا، وقص،

لنمن من العمير على من بذل النكهة في دراسة الرواية أن يتبين ولع المؤلف باقتناسي نثف وعبوات من خطب السابقين التي أودعها في ما حير، من دون تكلف أو قلق في مواضعها التي اندمجت فيها في اعتدال وتوازن نهش لها القلوب، ونستحسنها الأسماج، ونتمتع من نواصعها الأذهان، ولا غرابة في هذا الاستمداد الحسن لأن الخطب تمد «من أكد ما يحتاج إليه الكاتب، وذلك أن الخطب من مستودعات سر البلاغة، ومجامع الحكم، بها تفاخرت العرب في مشاهدهم، وبها نطقت الخلفاء والأمراء على منابرهم، بها يتميز الكلام، وبها يضابط الخاص والعام، وعلى متوال الخطابة نسجت الكتابة، وعلى طريق الخطباء منحت الكتابة»<sup>(١٣٠)</sup> لهذا حرص القدامى على وضع قواعد، تنظمي بالذي يترسم خطاها إلى الإجابة، ومن بين هذه النصائح التأكيد على كيفية تصرف الكاتب في

الخطيب، حيث يوضح الفيلسوف أن من حفظ الخطيب البلاغة، وعلم مقاصد الخطابة، وموارد الفصاحة، ومواقع البلاغة، وعرف مصانع الخطباء، وشاهيرهم، اتسع له المجال في الكلام، وسهلت عليه مستوعرات النثر، وذلك له سبب العاني. وقاض على لسانه في وقت الحاجة ما كمن في ذلك بين ضلوعه فأودعه في نثره وضمنه في رسالته، فاستغنى عن شغل الفكر في استنباط العاني البديعة، ومشقة التعب في تتبع الألفاظ القصيرة، التي لا تنهض فكرته بمثلها ولو جهد، ولا يسمع خاطره بتقيرها ولو دأب، إن الخطيب جزء من أجزاء الكتابة، ونوع من أنواعها يحتاج الكتاب إليها في صدور بعض المكاتبات، وهي البهجات والعهود والتفاويض وكثير التواضيع والراسيم وأقاصير<sup>(١٢)</sup>، ولعل الأستاذ التوفيق من أولئك الكتاب الذين ملأوا ذاكرتهم بجريد الخطيب، شأنه في ذلك شأن ما يحكى عن خالد بن عبد الله القسري حيث قال: «حفظني أبي ألف خطبة ثم قال لي: تأسفها، فتأسفيتها، فلم أزد بعد ذلك شيئاً من الكلام إلا سهل علي<sup>(١٣)</sup>»، فكان لهذا الحفظ، والتطر في آثار الأسبقين تأثير كبير في كلامه الذي يفرقه من بحر لا يساجل، ولا يثاقب في الأملأ، إذ إنه يمعن في اختيار كلمات يجعلها مزمومة مخظومة، تلتقط من بطون أمات المصادر كما تلتقط الجواهر من معادن الأصيل، وأية هذا الالتقاط العبارات الآتية حيث يقول «أين الزارة» من كبير حراس السجن: «بل يكون من مصلحتك أن تكون الظاهر الذي من قبله الرحمة، ويكون هو ذلك الباطن الذي من قبله العذاب»<sup>(١٤)</sup> - فمثل الرحمة من أن هذه العبارة تتصل مع الآية رقم ١٢ من سورة الحديد التي يقول فيها تعالى: «فخضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب...» فإننا لا نعدم مثل هذا الكلام في خطب القدامى كما يشهد على ذلك قول ابن نباتة الخطيب من خطبة ذكر فيها القيامة قائلاً: «هناك يرفع الحجاب ويوضع الكتاب، ويجمع من وجب له الثواب، وحق عليه العقاب، فمخضوب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة، وظاهره من قبله العذاب...»<sup>(١٥)</sup>، كما أن العبارة التي يصف فيها التركيب الذي سارت فيه زوجة القائل فهو (كهيما، المسألة) حيث يقول عن المرافقين المختارين من أصحاب الأمانة والشجاعة الذين يحسن بهم «مرافقة جواهر الخدور وزيات الحجال»<sup>(١٦)</sup> هي عبارة تتناس مع قول الإمام علي بن طالب في إحدى خطبه حيث يقول عن القياحة: «ومنقول زيات الحجال»<sup>(١٧)</sup>، قال الثعالبي: «بنات الخدور من العذارى، ويقال لمن أيضاً بنات الحجال»<sup>(١٨)</sup>، وإلى ذلك يشير حافظ إبراهيم في قوله:

أي ذوات الحجال عشقن للبرّ وعشقن قنود الرجال<sup>(١٩)</sup>

أما العبارة التي أوردها السارد عن «عمود» الذي تمكن بعد جهد جهيد من تكوين وفد الأعيان الذين سيتوجهون معه لطلب توليته فلندعاهم، حيث «استرهب الأفرجين واسترغب

الأبعدين<sup>١٢٢</sup>، فهي عبارة مقتطعة من قول علي بن أبي طالب في إحدى خطبه: «ألا فاعملوا في الرغبة، كما تعملون في الرغبة<sup>١٢٣</sup>». وفي على ذلك كثيرون من العبارات التي أحسن المؤلف دمجها في الرواية، في اقتدار يظهر تشبعا بأساليب الخطباء، واستيفاء لطرق صناعة الكتابة، وألمة البلاغة الذين تناول معانيهم وجردها من أكثر ألفاظها، ثم كساها ألفاظا رائعة، ووشاها بأحسن الوشي، حتى بدت مفتنة بكمالتها في أبهى صور، وأحسن كسوة، وأروع توصيف.

## ٥-٦: استعمال الأمثال والاستعارة عند أبي نويهج بصرية حناء وفخر

إذا كانت عقول الرجال تحت أسنة أعلامها، فإن ما أورد المؤلف من أمثال في الرواية، يؤكد ولا شك أنه يعد بحق جذيلها المحكك، وعذيقها المرجب، لما اشتملت عليه تلك الأمثال الموقفة في النص الروائي من لطائف القدمات التي تشير إلى الأمور الكلية في اختصار تام. كما يشهد على ذلك كثير من الآيات القرآنية التي طرب الله فيها النثر، كما في قوله تعالى من سورة النحل، آية رقم ١١٢: «فوضرب الله مثلا قروية كانت أمية مطمئنة يأتيتها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصومون<sup>١٢٤</sup>». وقد نصح الفيلسوفي للكتاب في وجه احتياجهم إلى استعمال الأمثال في ما يعبرون **فانثلاً: «ولما كانت الأمثال كالرموز والإشارة التي يلوح بها على المعاني تكوينها، صارت من أوجه الكلام، وأكثر اختصارا»**. وحيث كانت بهذه التكلفة لا ينبغي الإخلال بمعرفتها، قال صاحب العقد: **«والأفعال هي وشي الكلام، وجوهر اللفظ، وحلي المعاني، والتي تظهرها العرب، وقدمتها المصنف، ونطق بها في كل زمان على كل لسان، فهي أبقي من الثمر، وأشرف من الخطابة، لم يسر شيء كسيورها، ولا عم عمومها، حتى قالوا: أسير من مثل، قال الشاعر:**

«ما أنت إلا مثل من

يعرفه الجاهل والجاهل<sup>١٢٥</sup>»

والظاهر أن المؤلف كان دائم النظر إلى كتب الأمثال، فشيخها وحديثها، فصيحتها وعاميتها حتى استخدم أسانها عليها، يأتي بها في الموضع المناسب الذي يستدعيها استدعاء، لا تحس في استعمالها قلقة ولا أمثا، لأنها أنزلت في أماكنها الحقيقية. قال الفيلسوفي: «إذا أكثر صاحب هذه الصناعة من حفظ الأمثال السائغ استعمالها، القادت إليه معانيها، وسبقت إليه ألفاظها، في وقت الاحتياج إلى نظائرها من الوقائع والأحوال، فأودعها في مكانها، واستشهد بها في موضعها، والطريق في استعمالها في النشر، كما في حل الأشعار واستعمالها، إلا أن الأمثال لا يجوز تبديل ألفاظها، ولا تغيير أوضاعها<sup>١٢٦</sup>»، لذلك من السهل العثور عليها فيما خطه براع المؤلف، انظر إلى حسن موقع هذا النثر في الرواية:

«وإلعل الهزيمة تجر عليك العزل، وحتى لو اقتضعت قلعة أبت إبراهيم بتعزيز العسكر، فإنهم سيأخذون كل شيء وتعود بخفي حنين»<sup>(١٠٠)</sup>، الذي يستحضر دلالة ذلك الأعرابي الذي أوقعه حنين في السيفدة وأخذ راحلته وما عليها، وذهب الأعرابي للبحث عن الخلف الأول بعد أن تمكن من الثاني، فلما رجع إلى قومه من سفره من دون شيء، قال بعد بأس وخيبة: جئتكم بخفي حنين»<sup>(١٠١)</sup>، هذا هو ديدن المؤلف في إبداع مجموعة من الأمثال في الرواية، رغبة منه في تفسير أحوال وأوضاع القائد «عمو» وإيالكه بالأشياء والتناقض في أوجز قول وأخصب عبارة، وأعمل دلالة كما في قول القائد «عمو» عن زوجته «المالعة» جاء التشنيد بشئ مشيع بالزينة»<sup>(١٠٢)</sup> وهو يشير إلى مجيء المورس في فترة الهالي البيض التي تكون فيها قابلية النساء لحمل أكثر. أما مثل: «سأبحث ليزانك عن كفته الثانية»<sup>(١٠٣)</sup> الواردة على لسان «ابن الزارة» فهو يشير في إيجاز شديد إلى عزم المشاور «ابن الزارة» على تزويجه من أهل الجيل. أما عبارة «كان في مناسبة الغداء أيضا القاضي الذي جاء ليعمد العود للقائد»<sup>(١٠٤)</sup> فتعيل على القائل العربي المشهور «عود أحمد»<sup>(١٠٥)</sup>، كما تعيل عبارة «وبذلك نلقم حجرا كل المعروفات في القبيلة بشرويع الكلام»<sup>(١٠٦)</sup> على المثل العربي: «كأما القصة الحجر»<sup>(١٠٧)</sup> أي أسكتة وهي ذلك يقول الشاعر العربي:

لو كُذِّبَ كُتِبَ عَرَى أَقْبَمَهُ حَجَرًا

لأنه صبح المصنف من خلال أديبنا

أما العبارة التي أوردها المبرّد من المقالة التي بدأ من تفسيراتها تجاه القائد «عمو» ما يدل من جهتها على قلب ظهر الحجر»<sup>(١٠٨)</sup> فإنها تشير إلى المثل العربي القائل: «قلب له ظهر الحجر»<sup>(١٠٩)</sup> الذي أورده علي بن أبي طالب في رسالة له لابن عباس حيث قال: «إني شركتك في أمانتي ولم يكن رجل من أهلي أوثق منك في نفسي، فلما رأيت الزمان على ابن عمك قد كذب، والعدو قد حرب، فليت لابن عمك ظهر الحجر...»<sup>(١١٠)</sup> أي خرجت عن المودة وخالفت العهد. أما عبارة: «وتنصب خيامه ويطن يضرب أعماسا في أسداس يبحث عن الحيلة التي يحقق بها المراد»<sup>(١١١)</sup> فهي تشير إلى المثل العربي «ضرب أعماسا لأسداس»<sup>(١١٢)</sup> الذي يضرب لمن يظهر شيئا ويريد خبيرا، وغيرها من الأمثال التي لوح بها المؤلف إلى القائي الواردة تلويحا فيها راعيا مثل أمثال: «رفع عقيرته، بات بقلب الأمر، هن كعمق البشر في الكتمان، يخيدون خطبا إلى موقد حماسة ابن الزارة، تضرب مصغورين بحجر» مالي أهدي الجواهر للدجاج، والدجاج من سقاظته يحسب كل ما في العالم لقطا من حبات الذرة والشمير، التي ما عنده هو تولى له حمارنو... وهي كلها أمثال حافظ فيها المؤلف على الفاطها، فضلا عن أوضاعها كما نصح الفاتشندي للكتاب بذلك.

## مقدمة : خاتمة

هذا غيض من فيض الاستعداد الحسن الذي أودعه المؤلف روايته التي طرقت بقدح الفصل، ومن ثمة استلقت الفوز بجائزة الإبداع العربي لسنة ١٩٩٨ ميلادية، حيث أبدى المؤلف براعة في الاقتباس من الآثار السابقة، من دون أن تكون كتابته مجرد صورة خائفة لها. انظر إليه مثلاً وهو يشير إلى العادة التي وقعت للإمام أبي حنيفة الذي استمر في جلسته على راس الأعم الذي أحسنه في رجله إكليلاً لأحد الجالسين أمامه لأنه يعلم أن المرء مضطرب تحت لسانه. وعندما تكلم الجالس، وأبان عن سقطه، قال أبو حنيفة في تلفظ (مضطربة) أن لأبي حنيفة أن يمد رجله. وهي العبارة التي أشار إليها السارد أثناء الحديث عن الأعيان الذين «تجسجوا على هامو ومدوا عليه الرجل في طريق السفر، وتصور هو على جسارتهم في طريق الذهاب إلى الحضرة، وقام بعضهم لولام سفرهم حتى أنه كان كالخادم لهم»<sup>(١)</sup>. كما أن عبارات: «لم يطمع له جفن» تعاشوا إلى القائه، كان في سابق الزمان وسالف العصر والأوان، يمد قطع الثيابي والتفاز وخرش الأنهار وركوب البحار، أهي القدر تير أم تراب... تحيل إلى الذاكرة التراثية الغنية لدى أحمد التوفيق الذي يقدم لديه الأخذ والتناسي هاتون الكتابة الذي لا يستغني عنه الأديب اللائق. وفي ذلك يقول القلقلندي: «غير طباقة على من تمنطق مناهضة البشر والنظم أنه لا يستغل أحد باستخراج جميع المعاني بنفسه. ولا يستغني عن التقى في كلام من تقدمه» لاقتباس ما فيه من المعاني الرائقة والألفاظ الفالقة، مع معرفة ترتيب أهل كل زمن وأصطلحهم، فيتمتع على منوالهم، أو يشرح طريقة لفهمهم. وتوارد الكتاب والشعراء على المعاني غير مجهول... ولا يهبط بمثل ذلك إلا من رسمت في صنعة الكتابة قدمه، واسترجع بأجزاء الفصاحة والبلاغة لحمة ودمه. وهذا المنهج هو أحد أنواع الإعجاز في القرآن الكريم. فإن القصة الواحدة تتكرر فيه مراراً في سورة متعددة، ترد في كل سورة بلفظ وتركيب غير الذي وردت به في الأخرى، مع استبقاء حد البلاغة ونهاية أمد الفصاحة، ولذلك قل من سلك هذا المنهج، أو ارتقى هذه الذروة»<sup>(٢)</sup>. لأن الأخذ والاتباع، وإن كان سنة طيبة من سنن الاستمرار والتجديد، ضرب من الصلابة العقلية لا يدركه إلا التخليد المتقن الذي يتطلب مع المعاني المشتركة، يقابلها من أوجهها المعقدة، حتى تظهر بعيدة الصلة عن وجهها المطروق المستهلك، وتلك هي الميزة المهمة التي يدركها القارئ البصير بترسيمات أفكار السابقين في كتابات اللاحقين من أمثال كاتبنا التوفيق، الذي ضرب علينا برواية رائعة اختار لها عنواناً يتناس مع الطروب الأندلسي «غريبة الحسب» ويحرك الذاكرة التراثية في رحلة استكشاف طليعية.

## أسفار<sup>(١)</sup> الترنه والهجرة ومرجعياتها<sup>(٢)</sup>

في شعر سليمان الطليح وإبراهيم الخالدي

د. نجمة إدريس<sup>(٣)</sup>

انطلاقات سليمان الطليح<sup>(٤)</sup> وإبراهيم الخالدي<sup>(٥)</sup> الشعرية تكاد تنبتق من بؤرة معاناة الاختلاف، وعن الإحساس الحاد بالانحراب والحصار حين معاناة الخلق أو الغنى في سفريات تكون «مكاني وزماني» يشجدي تطعاتهما ووجهتهما في الانعتاق والشجود. ومن ثم كانت تلك المحاولات الدويبة والجنسية لتجاوز ذلك الخلل (في الكون الجغرافي)، ولذا الاختلاف (في عالم الذات)، عن طريق طبق الترحل والسعي نحو هجرة واقع زمكاني ومكاني، يبدو في نظريهما، مبحثا ونقصا.

إن ملصح الترحل والسفر والهجرة لدى الشاعرين<sup>(٦)</sup> يكمن متطفا، أو يبدو ظاهرا في شكل التطلع والارتداد والكشف، بحثا عن النقاء والتجديد، واكتشاف الذات، وتخليصها من ركعات التشويه والفسود أو الاستلاب والغنى، أو التكرار والبلادة، لذا تبدو الصمة المعيرة في معاناة الأرحال، من الواقع البليد أو المشوه أو الطائم، إنها انطلاقة وحركة نافرة نحو الغد والآتي لتتخذ سمت الرويا والاستشراق. ولكن هذه الانطلاقة نحو زمن آخر لا اكتسب زخمها وعنفوانها إلا بمرورها عبر رموز وملارات لرائية تبدو ملجذرة وعميقة الغور هي وهي الشاعرين. إنها يعيشان زما «أوسط» يبدو طارعا ومومضا، زما يتأرجح بين «مستقبل» يحملان بارئاده وصنعه، ماض ترائي سحيق يضيء ذاكرتهما بالألق والمنقوان، وبينهما شرارات هداية تنير طريق الرحلة. ماض ترائي يهيهما زوادة من إيمان يقوهم إنسانية

(١) قسم اللغة العربية - كلية الآداب - جامعة الكويت.

«ماضوية» ما تزال مرجعياتها التراثية مصدر إلهام لا ينضب. وعن طريق هذا التماهي بالتراثي والتأصوي يصنع كل من سليمان الفليح وإبراهيم الخالدي أجنحتهما الجامعة للانطلاق من «زمنهما الحاضر» للتخثر بالبالادة والظور نحو «زمن آت» ينهض فوق مشارف الحلم والأمنية.

هذا الشغوص الدائم نحو صهوة «الترحل» و«السفر» لا يعبر بالضرورة عن حالة من الاستجمام والفرح بالانطلاق من الحصار والاستلاب، بقدر ما يعبر عن مرحلة الاصطراع مع عالم خاطئ لا يرضى إلى الطموح، وبالفقر ذاته وشي بالم التحول ومعاناة التغيير حين التجرؤ عليهما. إن الشاعرين لا يوليان ظهورهما لواقعهما الزمني والمكاني، ولا يجترخان حلم السفر والرحلة إلا بعد معاناة وتجريب مضنيين، اتخذوا شكل المايشة، فالمعاناة، فالتفقد، فالترفض، الذي اتخذ في شكله النهائي سمة الرغبة في الخلاص، واكتشاف ذات أخرى بريئة ومتجددة.

## أولاً : سليمان الفليح

### ١- الصعلة طريقاً

يتخذ سليمان الفليح من «الصعلة» أسلوباً للتعبير عن المعاناة والرفض، إذ وجد في الصعلة - بما فيها من إيهامات تراثية غنية - الوعاء الأمثل لتجربته الشعرية البيطوية على الإحساس الفادح بالظلم ورفقة الحال والانكسار أمام مظاهر التسيب والفساد، ومشاهد الطول الاجتماعي وحصار الثقافة المادية. تاهبك عن اغتيال فهم الترواة ملعلة بانسحاق الصحراء واليداعة أمام زحف مدينة جائرة تقزم الإنسان وتبهطه وتنهكه بلا هوادة، لذلك تبدو الصعلة طريقاً لا مفر منه لشاعر مثل سليمان الفليح يعيش تجربته الشعرية بمستوييها الفني والواقعي، إذ تلدو الصعلة قدراً وواقعاً تتلبس الشاعر، فيتخذها مطوثة وإداته الوحيدة لثب معاناته ورفضه واستجلائه لواقع معادية أو يلهذ أو يهشمه. ولعل في ارتداء ثوب الصعلة وإعلانها صهوة انطلاقه ما أمانه على التماهي بشخصيات الصعاليك واكتساب جرأتهم في الشاكسة والمناوشة والسخرية والتهمك، وزعومهم بشجاعة المواجهة والصلف والتعدي، وإخلاصهم للتقر والشطف ورفقة الحال وخشونة العيش.

إن مصطلح «الصعلة»، وحضورها كموقف وسلوك بدأ مع الشاعر في ديوانه الأول، مروراً بالديوانين الأربعة التي تلت، مما يعني أن استخدامها وتعللها غداً موقفها شعرياً باسم الشاعر بهذا الشبح المميز، وأول استخدام للمصطلح نجده في نص «من مفكرة صعلوك» ديوان الغدا في صحراء الأكم.

توحش بالرمل عند أرغالي  
عزوبت بالتمر والنظف كانت طيور الجزيرة  
رفوفاً مع الغيمر والشمس تأتي  
رفوفاً كرفوف

معلقة تحني فوق رأسها

فأرسل هجراتها للمستديرة

توقفت قلعة أرغالي طويل

تبدأت ظلي وقت

وعطى ثياباً ظل الشجيرة

أفقت من التورم غلفت عطلي

وجارعت طعمر التعالي لتعنت

تذكرت زحف الأفاعي الخطيرة

لهذا شعرت لما رأيت الطيور التي في أعالي الشجر

لحد مناظيرها كهي تعري الجزيرة الأخيرة

وواصلت سيرى

فأملت في مشيت ولكن طير الجزيرة أصغلي

ARCHIVE

<http://Archivebata.Sakhr>

يحدث وجهي لصلاب السباح

وحضرت المتخوم التي لا تضفي

لجاسرت، ألفت صمتي

تهدت ملء الضلع / لمزات حزمة شاطئ مني الذمير

وجاءت رفوف النطا لينظمتني / من الموت حزمة

عطلت صوب الرفوف

تبدأت ظل الجناح المرفوف

والصعلة هي هذا النص تأتي موازية للأزجال الكبير المولجف الذي يبدو فيه الترحل مشاهدنا ومتوجسا من «زحف الأفاعي» و«الطيور التي لحد مناظيرها»، وحامسا بالاستخدام «الأسبجة والتخوم» التي تقب برامته وعفوانته وتعلوه حزمة ودما، ولكن الاستخدام بتخوم المدن الجبلية يحدث لا محالة، وتنتهي الرحلة بالانكسار، ولا يبقى من شيء «ظل الجناح المرفوف»، وجاء الاستخدام الثاني لمصطلح الصعلة مرتين في ديوان «أحزان البدو الرحل» مرة في نص «جرة على الرابية» الذي أهداه إلى «شليوب العطاوي» الذي عرّفه بقوله: «إنه من أشهر



## أصناف التراث والفكرة وعروحياتها

فربما الجزيرة العربية الصغاليك في القرن التاسع عشر، بل ومن أتياهم وأشجعهم<sup>(١)</sup>. ومرة ثانية هي نص: «أعاني الصغاليك»<sup>(٢)</sup>، الذي اشتغل على ست مقطوعات: ١- «أهزوجة» ويعلم فيها الشاعر رفض الميودية والمونية والانسحاق، وكذلك يأتي على ذكر التعرض للخلع والتشرد والضمه والضياع. ٢- «أناط شرا» تمثل القطوعة بالإحساس بالحصار الذي يدفع إلى الترحل التطوي على الحزن والحاجة، والترحش بلا أمن أو ظل، والمتوحد بذاته المكسرة. ٣- «المهلك بن المسلك» ١- أبو الطمحيان، وفيهما إصرار على التعسك بالصعلة منهج حياء على رغم الطيانات والهزائم. ٤- الشنفرى، وفيها يؤتب القيلة التي تيدت أبنائها واعتقدت أنها مكتفية بذاتها، بأنها سوف تكتشف حاجتها إلى من تيدلهم. ٥- «عروة بن الورد» وهي المقطوعة الأخيرة التي يرى فيها بأن الحصول على الحقوق يحتاج أحيانا إلى العنف والإفارة معاطلين بالرفض والزهو، وكل تلك الإشارات والمعاني الواردة في المقطوعات الست هي جماع قيم الصغاليك وقانون حياتهم القائم على التشرد والارتحال والإحساس القادح بالظلم، ومجازة مجتمع الصلف والقسوة.

أما في ديوان «كتاب الليالي» هناك نص «الوصاية الأخيرة لصعلوك بني نط»<sup>(٣)</sup>، وكذلك جاءت لفظة «الصغاليك» وأسماء «عروة والشنفرى والمهلك وابن القرية» هي نص «أغنية الولد البقوي»<sup>(٤)</sup>. وقد جاء النص مشحونا بالحنين إلى البراءة والهداة والنقاء الفطري، وهو حين يقلب به على الهموم والبلادة وكلية الكين، وهذا قدوم الصعلة أيضا أرتحالا عن التيات والتكرار وفقر الزمن والتقاء الأسبق.

أما في ديوان «الرماء على مشارف الفجر» فهناك نص: «مجرد صغاليك»<sup>(٥)</sup>، الذي يعبر عن الفجوة بين مظاهر الفن واللدية والترف التي أقصي عنها، وعلة التطوي على توحشه ورفضه وتحديه والظلاله. ربما نتيجة الإحساس بقلة الحيلة وراثا ذات. نحو العفوان والتبل، بحثا عن ملاذ. إنه - دائما - الرحيل والأنبات عن أولئك الغارقين في صلفهم وترفهم الفاحش ولا مبالاتهم، حين لا عزاء إلا بهذا الرحيل.

## ٢- التفاهي والصغاليك ترا

تبدو ظاهرة الصعلة في العصر الجاهلي ظاهرة تطوي على التناقضات حين النظر إليها بمنظور عصري. فهي من جهة تشير إلى من يتجردون للغارات وقطع الطرق من شذا الأفاق والخصاء، الذين خلعتهم فيانهم لكثرة جراثيمهم، أو لكونهم مجموعة من أبناء العششيات، الذين تبرا منهم أبائهم وسما بأغربة العرب لموادهم، فهم إذن نتاج طبقة مسحوقة، مسئولة الحقوق، تمثل لغوسهم بالإحساس بالظلم والتخلي ورفقة الحال<sup>(٦)</sup>. والصعلة من جهة أخرى تعني موقفا حياتيا تطوي على الرفض للواقع الجائر، والثيرة على تقويم القبيلة للمثلة للاستكبار والصلف وفقر الإنسان وتهميشه<sup>(٧)</sup>. ولا شك في أن النظر



وهي ديوان رسوم متحركة، على وجه الخصوص، لتضخ نزعة السخرية من «أصحاب الدينار»، واعتقادنا بأنهم في أشد صورها إثارة، وذلك حين يكون الفن مدعاة لإثبات التفكر وسحقه:

أذل من حاجة/ أقدر من حرص  
أختر من بحوثه/ أخضر من حمار  
لكه/ سبحان معطي الرزق/ لكي قول الحق  
جنونه قوده/ وسيفه القيد  
وفيه ما يكتفه من طيب الأذكار  
لكه وهله وشاية صغيرة/ ليس بها من عار<sup>(١٢)</sup>

وهذرة الدينار، لا تذلل الفطير فقط، بل تقصيه أيضا عن مراتب الجدة، وتطفئ شعاعه، وتعيده صاهرا إلى حياة الطل:

في الزمن السخيف/ هناك لك سيف/ بني وبن الشمس  
لا تقطع الأعناق/ بل تقطع الرغيف<sup>(١٣)</sup>

وبذلك يتحول فن الأخرين ورفاههم، وما يمتدحونه من ثروة وتصيد إلى سيف معاند آخر يقهر الشاعر ويضمه بالضمه إزاء التبعج، وبالتفكر والتمناه إزاء حواجز الاستعلاء:

أبى رجاء/ لا هرا سدي/ حتى قهر  
أست أصح/ من تدبير/ لا يهرا بالهرا  
كلما عركي طار/ سدي عري/ فصر<sup>(١٤)</sup>

إن نزعة «السخرية التهكمية» التي شغص لها الشاعر إصدارا متفردا، وهو ديوان رسوم متحركة، لا شك في أنها تطوي على وجه آخر من وجوه المعاندة وهذه المعاندة لتضخ في عدم القدرة على التأقلم مع واقع يشعر بالفقر والاستلاب، ويزيد من الشعور بالانسحاب والضعف، فتتخضم حينذاك الرغبة في رفض الواقع والتبيل من رجزه، وإيلاهم بتلك السخرية اللاذعة. وكثيرا ما تأخذ هذه السخرية أبعادا غير مبررة، وتتحول إلى لون قائم من السادية الشعورية والتفكك بالانقاس<sup>(١٥)</sup>.

وفي كل أسواق السخرية والتهكم التي يتكلمها الفيلسوف لا يشعر من خلال سخريته وامتداعه بأنه الأفضل أو الأتقن، بل يمثل هجيته الشخصية من خلال هذا الواقع الشائع فهو - كما هي نص «حالة»<sup>(١٦)</sup> - يشارك أولئك المسطور منهم توكهم وغثائهم، ويفرق معهم في جز من الجهامة والإبلادة والخور والفراغ من الطموح وبهجة الحياة. ومن خلال سخرته في أحوالهم يعلم بشكل ضمني بإمكان التجسد من خلال الاضراف والتطهر.

وكما ينتقم المملوك الجاهلي بالفرار والسلب والتهب وإحراق الأضرار المادية بمن سلبوه حق الحياة الكريمة ودفعوه إلى التشرد وشطط العيش. يتخذ مملوك العصر ما يشبه هذا المصطلح، إن لم يكن بالفرار الفعلية التي تتطلب الخيل وهذه الليل وسرعة العدو، فهناك الهاربة والمهاجرة التي تشتت الغاية. والشاعر إذ يعترف بقذارة القطعة، فإنه يراها أهون شرا من التباكي والشكوى:

روح البكاء / يا أيها الحكاء والشكاء

وأقتر زمان النعب / شر السلب / شر النهب

وأكثر الأشياء في زماننا / صارت هي الذكاء<sup>13</sup>

إن السلب والنهب ليسا في عرف المملوك غارا ونقيصة، بقدر ما هما سبيل لنيل الحقوق التي تحتاج إلى عنف وتجاوز، حينها تقوى الفارة مدعاة فخر وخيلاء، وسبيلا إلى العدالة. هي إحدى مقطوعات «الغاني الصعاليك» يتوحد سليمان الفليح مع «عروة بن الرود» قائلا:

لنهر الصعاليك بأنني

وفي بيته الآن ينتظر الماتعون التري

والإقامة

يغير على ثوب كسرى وحيدا

كما الرق قبل المساء

وبأنني قبل العشاء

يسرق النفاق المغاير

كاليد يشعخ فوق الغمامة<sup>14</sup>

من الملاحظ أن إحساس الشاعر بالتكوير والمظالم في محيطه يكاد ينسب مجمله على شعوره بتكوير البشر ومظالمهم وضعية تقبلهم أو التماثل معهم. مشكلة الشاعر الأساسية هي إذن مشكلة «الناس أو الآخرين» الغريب بين شهرتهم والرافض لصفهم وتجاوزهم له. بينما هي المقابل هناك حب للأرض والوطن، ورغبة ساحقة في الانتماء إلى حوض يبدو أنه يرفضه ويقصيه. إن «الوطن» كمنشقر وملاذ، يتحول لدى الفليح إلى أمنية جارحة، لأنه مصدر عاق، أو جنة تغلق أبوابها دون محيطها الأوطى، فيظل مبعثا بئسائه وشغاله تلك البلاد التي لا تنكح «شاجرة» لأنه «يفني لها في المساء» أي يعيها بطريقة الخاصة، على رغم عدائها له:

أنا طائر أعزل في حقول البكاء

شاعرتني - صباحا - بلأني

لأنني أغني لها في المساء

فهل - لها العارفون بكل الأنور -



رأيت بلانا تشاجر أطرافها  
في سبيل الغناء<sup>(٢٢)</sup>

متخذاً قطاع «الشفيري» في مقطوعة بهذا العنوان، يؤكد سليمان التليح مرة أخرى ولاه لـ «القبيلة - الوطن» على رسم صنوف أذهانها، ولكن القبيلة يستغل سادسة في قبيلها، طاقته باكتشافها بذاتها، حتى تكتشف حاجتها إلى من يمدتهم من «أبنائها المخلصين»، إن القبيلة التي فُتِرت هي «الشفيري» دأبها نحو «القباض العذبة» في موسم الجنب، هي ذاتها تعود في عصر التليح لتسميه بـ «الصفات الرقيقة» ظلماء، كما وسعت الشفيري، وستفتقده يوماً حين الحاجة إلى «مخلصين» ومالاه<sup>(٢٣)</sup>

أنتري لماذا حكمت؟ لأن القبيلة / فكرت بما بأن الحمية ستليح حتى خلوع الجبال / ولقد حتى جنود الجبال / ولكنها بعد أن يمضي الوسر لما يجي، الزرع / ويكتشف زيف الروي المستعيلة / أخيراً فكر أن المغاري إلى موطن العشب / في موسم الجنب / أصال بعد بيلة، ويعرف أن الأبناء نحو القباض العذبة، أبنائها المخلصون الذين رمهر - جرافا - بكل الصفات الرقيقة<sup>(٢٤)</sup>

ويبلغ التعلق المضني مدهاء حين لتحويل أمنية التواصل مع «الأرض - الوطن» إلى لون من الارتحال الصوفي الشفيف نحو مشوقة ضوئية ماثلة يستلطر منها الشاعر الأمن والغنى:

وعينا موزني واحدة أمن وظل

واحدة من وقت

جدايل موزني غير من الجنب يعني الجعر

لما لجفت خزاني الصباري<sup>(٢٥)</sup>

<http://Archivebana.Sak/>

ولكن «موزني» التي تتحول هنا في نص «طير الغياض» إلى رمز صميم للأمن والدعة «فقر» تلوكة الشاعر بك مسافراً وراحلاً في «صناعات الغياض»، وقد «هده الأرتحال» وانتظار «وجه موزني يهل»:

أسافر في صناعات الغياض / طيراً غربياً بلا جهة أو صدى

غير أنني لما كرهت الظلام / وحال اصطباري / توجهت في ثمة الغياض

التحست به / شر صار الغياض مداري / صبح لند هبني الأرتحال

أفك عشني على هذه الأرض / منتظراً لك وجه «موزني» يهل

إلى أن ملكت انتظاري / قتلت ما صنعته فرا / أو رغبنا من النور

أعديه للمجائين أو الضالعين / فكان لذلك وجه موزني اختراعني الأخير

وكان الرحيل إليه قراري / وموزني أجعل ما خلق الله في الكائنات

تنبع بروحي منذ قرون فتشعلها بالخرائق / شر شر

لذلك حان إليها هذا الزمان قراري<sup>(٢٦)</sup>

يفجر نص «طير الفياض» سائل الذكر مشككة الاغتراب، التي شملت في الوغبة في الرحيل والسفر عن عالم الآخرين، بحثا عن وطن يشبه الحلم في بقته واحوائه، وخطوه من القسوة، وثقائه من الملوثين والمتنجسين والمذائبن بنفوسهم وتسيدهم. واغتراب الشاعر يشبه اغتراب «الشرق» في «الامية العرب» في مستواه النفسي والروحي. فهو اغتراب يغذيه التوحش والهجرة عن وسط بشرته او يفاقمه العناء، او يسلبه حق الاعتراض والحرية وتحقيق الذات:

وفي الأرض سائل للكرم عن الأذى  
وفيا لمن حاف القلى متعرج  
دلي دونكم لغول سيد عطش  
وأرط زعلول وعرقاء وحيال  
عمر الأهل لا مستودع السر دافع  
لنهم ولا الجاني بما حرّ يخلل

وكما يستعمل الشفوي الغترب عن مجتمع القبيلة بالناس الذين أفوه وانكروه حيوانات البرية وكائناتها الموحشة، ويخلطهم أملا وسيللا يستعيش بهم عن خيبة أمه وإنسانيته الإنسان والوحشة، يتكبد سليمان الملقب **النفوس والتوحش** والتماضي بالحيوان والطير وكائنات البرية فيلج من خلالاته إلى عالم يملكه ويهيم به، وهو عالم الحب والإخلاص المفقودين في عالم البشر. وهذا **التماضي** أرواح الحيوان وعالمه يملكه يرون على مستويات مختلفة:

المستوى الأول: يتضح في ذلك الجنو والفهم المتبادل بين الشاعر وعالم الحيوان والطير، إلى درجة التقمص والاندماج الذين يسمي الشاعر من خلالاتهما ما تتطوي عليه أرواح الحيوان من سمات أخلاقية تطوّر بالإعجاب والتقدير الجيم، في نص «أمير الوحوش» الذي يهديه الشاعر إلى زوهين مكتبتيين، الذئب في حديقة الحيوان، وصديقه مسفر الدوسري في الشقة الوحيدة، يعقد مقارنة بين هذين الكائنين المرتبطين للأمر وعبودية الجسد رفضا لهما، وبينه هو الذي «يلوب يهذي الدلائل منذ اتعدد إليها» «فطعن وأمن وأهين». ومن خلال هذه المقارنة يتوصل إلى أن القاسم المشترك بينهم - هم الثلاثة - هو تلك الروح الوثابة التي تستعصي على القيد وتطلع إلى الانطلاق، وتظل «تزمجر مثل الرياح»:

عن الذئب أولا:

مرحبا يا أمير الوحوش أحبك من قبة الناب  
والخمر نولاً من سهوب البراري إليك  
وأرنبك من لعبة الإزواء  
طئت أسير الزنزين / عيد لحمة الآخرين

ولا تغيب الاربعان كيانها الوحوش / ولا تغيب الاحتواء  
تغرب طوال النهار - "مترين" صارا إليك جميع القطار  
وصارا القضاء

وقلبي يلوب يلهي المديان منذ انحدرت إليها  
طعمت / أعتت / أعتت

ولكن روعي شتى ترسح مثل الرياح  
عن النوسوي

غراب جميل يعيش على الشجر والحب والأصدقاء  
فيكونه عصرة / بلوبة دهره

لكنه كعصا الخيزران / يرفض الالتواء  
عن الكل:

كلهم في البلاء سواه

"سفر" وأسر الوحوش وقليبي  
كانت نداء

وبلداً من حيث لا ينتهي الابتلاء<sup>٣٣</sup>

في هذه المقارنة تبرز صورة الغائب التي تعطي الزخم والوهج للشخصيتين الأخريين في القصص  
وهما: الشاعر وصديقه مسطر الموسوي. إذ تلمس صفة رفض الاربعان من شرائط الغائب  
الأساسية التي تكتسب بعد اخلاقياً جميلاً حين نسبها إلى الإنسان.

والحيوان الذي الفليح لا يدخله بـ "أخلاقياته" فقط، وإنما يشير في نفسه الحزن والشفقة  
على مصيره الذي تهدده ضارسة الإنسان وعيشته التي تغتال براءة الطبيعة، التي تمثل رموزها  
الطيور والكائنات البرية:

فرب جزيرة عوكة

سند صبار أحسن "عرازمة"

نحو اللوحة

ما طارت

وبعنين هما حزن الدنيا

كانت رغبة مشروعة<sup>٣٤</sup>

المستوى الثاني للتماهي مع عالم الحيوان يتضح في تعامل الشاعر لطباع الحيوان  
الفرازية وغرائب تصرفاته. ومن ثم إسقاط هذه الطباع الحيوانية الفرازية على الإنسان  
وتحويلها إلى طباع معجوبة أو مثيرة للسطيرية والتهكم. وهذه إحدى طرائق الفليح في

التعبير عن استهجانها لأولئك الذين يمثلون تهديداً له، لأنهم يحتاجونه أو يحسبونه بقوتهم وسلطانهم أو غنائمهم، هيدافع عن نفسه بأسلوب السطورية والتهكم على فجائهم وغلظتهم واعتقارهم إلى الإنسانية، وذلك بإسقاط طابع الحيوان الموجودة عليهم ورسمهم بذلك الصور الكاريكاتيرية الهازلة. ونظرة سريعة إلى عناوين نصوص ديوان «رسوم متحركة» نزدنا بكم غير قليل من صور الحيوان البرية والبحرية والزواحف والحشرات التي يرى لها شبيهاً من بني الإنسان، مثل: البطريق، الورل، القنفذ، السلوقي، الهر، السحلية، أبو جمل، خروف، حشرة، سقطة، السمكة، الضبع، الوشق، الخرتيش، عضات الهيس، كلب، الخفاش، الرعاش، الكرهيب، القرينة، الخنزة، والأمر لا يحتاج إلى تأمل طويل لمعرفة رأي الشاعر في أولئك الذين يسميهم بأسماء هذه الكائنات.

إن توظيف صورة الحيوان، عامة، هي شعر سليمان الفليح قد تطلعت بشكل أو بآخر عن مثيلاتها في مرجع ثرائي مثل «كيفة ودعنة»<sup>٣</sup>، فهي «كيفة ودعنة» يأتي تعاهي الإنسان بالحيوان استجاباً للحكمة والاعتباط والتعلم والتأمل. وتكون شخصية الإنسان في سياق القصي ضمنية أو افتراضية، في حين تأتي مقاربة الفليح، لإبراز الملقى عن طريق التقابل والتوازي وانعكاس القربا. وهذا التوظيف يحول الغليغ من طابع غرائزية معادية لدى الحيوان إلى طابع مدمجة أو مستهجنة لدى الإنسان، ولكنه لا يخلص الحيوان برأيه وثقافته، بقدر ما يستترك على الإنسان خروجاً عن أزمته ونزيبه يزي لا يتناسبه وسعات ليست له.

### ٣- مرجعية الصخر

يمكن اعتبار سليمان الفليح، الشاعر والإنسان، خبير من غير عن أزمة جبله من أبناء البداية المتأثرين على مشارف مدن المنطقة، الذين لفظتهم الصحراء لشعبها أو لانتهاه صهدها كموطن في زمن التحضر الكاسح، فوجدوا أنفسهم منكشون على تخوم مدن لورفضهم أو لتحفظ في قبورهم، وتعددهم من المتطلعين أو الزائدين على الحاجة، وتكاد معاناة الفليح، من هذا الوضع المقلق واللاإنساني، التقوي على التشرد وهقدان الأمن وضباب البيرة. تشكل بؤرة المعاناة في مجمل أعماله الشعرية، إنه يجد نفسه كائناً منكباً يلف بين هائلين موحشين، أحدهما صحراء غارية تتلاشى روحها الأليمة وبراعتها ومظهرها بكل ما تمثله من قيم الأصالة والانتفاء إلى الجذور والحضن، والثانيها مدينة تطوي على القسوة واليذ ومعاملة أولئك اللاجئين إليها، الذين اعتقدوا، نتيجة للمتغيرات القسرية، عنقوتهم وشموخهم، وأعدوا جماعة من المستعطلين الفراء، المتكئين بالأحزان، والأيلين إلى الانتقاء. يمكن اعتبار نص «البدو الرحلة» من ديوان «أحزان البدو الرحلة» خير ما يعبر عن هذه المعاناة في شعر الفليح هنا وموضوعها، إنه نص يتفجر بالشجن واللوعة، ويوضح بذلك



## أشجار المدن والهدنة وعربياتها

الروح وأرتجاف الإنسان من انكساره ومراوئته، وعذابات الرتحال القسري بتخط بعدد روحها وتنفسها أصغر مدى من بعده الواقعي، إن حكاية آخر جماعات البدو الرحل التلاجئين لبوابات المدن، معقرين بالحاجة والذل والفقر، تقدم في هذا النص أغنية ضاحكة ممدّية تعلن اندثار الصعراء وسقوط رموزها والندحار لسننها:

ها لوسم الصعدوا من مرتفعات الماضي - شُهب الأعين -  
 الجدهم ربح المستقبل نحو الواحات الملعونة بالأخطار  
 ها هم مثل جراد النحط القاذم من آخر القلبي في الدنيا  
 جانوا وانتشروا في عيني الصعراء الرملية مثل الأشجار  
 ها هم عند حدود الغيم الأزرق فأولوا  
 فتوسد كل قنبر منهم عرقعة / عرسجة  
 حللوا بالنهر ولكنهم روف شل الطفلة "يشعن"  
 يتخرج في دائرة الأفق المعلق

لكنه ما يلبث أن يخبر

فأنت من أبعبر عند البحر الروح

الأرض / الأشجار

ها هم قلوبا

ساروا نحو غيوم المدن الكبرى

<http://Archive.sakhril.com>

جوع / عطش

يستعصون الخبز اليابس والماء الأسن والثار

ها هم عند حدود المدن الكبرى محنوا القمامات

منكسرو الهامات

ومشعلون بأسالهم الرقة لا تكسومهم

إلا الأخطار

ها هم لجلدهم / كي تلعدهم

عن أسوار المدن الكبرى

نحو غيوم المدن الكبرى

خيالة جيش التنتر

ها هم يضطجعون هناك

مثل الأخشاب للشجرة خلف الأسوار

ها هم يظنون هناك



عند حدود القمر الأزرق مثل الأنجر  
كفي يسدل عن آخر أخبار البلو الرجل  
في هذا العصر سار<sup>٣١</sup>

أما نص «تحويلات الخيل الزين» في ديوان «الفداء في صحراء الأكم» الذي قدم له الشاعر  
بقوله: «إلى جيلي، شريحي المضارب السوداء، ضيقه تصوير قروب أشبه بالسيرة الذاتية  
المتحصنة، تتناول المفهرات التي مسحت حياة أبناء الياوية إبان الخمسينيات والستينيات  
والسبعينيات من القرن العشرين. متغيرات مفاجئة وكاسحة نقلتهم من دعة الصحراء وشططها  
إلى مدينة النفط والمعدن،

#### ١- الخمسينيات

أذكر في أعراس البلو الرجل نحر الشعر التلي عبر الأك  
وساط الشمس نرحنا بقايا تلك الأسماك  
أذكر إذ أزل في ذهني  
وتلف الذكرى في البال

وجها بلويا محروفا، صلبا، كحمر التمثال  
يركض خلف الأيل العطش

يحتر أبارا وصية، يحتر ألام الأسمال<sup>٣٢</sup>

هذا الوجه الهندوي هو وجه «الخيال الزين»، الذي ظلنا نلتوا نسمعون خداه في ليل  
الصحراء، حين كان ابن الصحراء في تلك الفترة. ولكن ما إن يأتي عند الستينيات على

لحي، سنون المحل المرعب

ويجي، الفقر القتل

يحصد إلى البلو الرجل

يحشرهم للندن الكبرى<sup>٣٣</sup>

وهكذا يجد «الخيال الزين» نفسه «محشورا» ضمن أسوار شركة النفط بعد التحل الذي  
أصاب حياته في الصحراء. وما أن يأتي عند السبعينيات على تغير مدينة النفط سلاخ  
«الخيال الزين»، فيستعصي التعرف عليه، ولا يبقى من ملامحه القديمة غير صدى حدائه  
الذي كان يطلقه إبان الخمسينيات:

«رضعا وسنانه عال

وردت على المر وعال<sup>٣٤</sup>

وهكذا يتزامن سقوط الصحراء مع نهوض المدينة، التي اتخذت، بالنسبة إلى  
الشاعر، صورة الفرد المعدني الذي ينطوي على التوحش والقسوة، فيتضائل أمامه

الإنسان ويفقد عفتواته وزهوه القديمين، ويفقد «قنضاً بلا حراب» أو «حنقطة مقطوعة الجذور» ولا يملك حينها - وهو في هذا الوضع المستشري المنكسر - شبر أن يحلم «بمضارب قبيلة الغارية»:

«دعوني يا رفاق الوجع المر  
أصعب من الغارين كقنض معني بلا حراب  
أعيا نحسني أكف البحر البيضاء إلى مضارب قبلي الغارية  
التي تخلف صوبها كبريات سوداء تعلن عن بدء أزمة النذل  
لأنني بدأت أحس أنني حنقطة مقطوعة الجذور»<sup>٢٣٤</sup>

وكما ينكسر الإنسان البدوي أمام مدينة جاثرة لا تفهم لغة روحه وبراءته. كذلك ينزل «الجميل» ويقعي «الثقب» بلا عواء، ويتحولان من رمزين من رموز الكبرياء والطفوان إلى كائنين مستخزين هينين، لا قيمة لهما في ظل المدينة المزاحمة:

الجميل الذي حلقه الرعاة  
في الغلاة  
مفيداً مهجور  
قد قررت علمه  
كواصر الظهور  
فخرج القود من عيونهم  
وظل حول قسه



يلدور  
ذئب وحيد في الغراء  
يقعي على الحشائش الخضراء  
يرز إلى دخان النفط  
ذئب بلا مأوى  
ذئب بلا عواء  
ذئب لربما ألتفت به الرياح  
إلى مناعه التقلع  
ذئب بلا قطع  
ذئب لربما خربأت من جلسة الصحراء»<sup>٢٣٥</sup>

وكما تغتال المدينة كائنات الصحراء وحيواناتها، تغتال أيضاً واحاتها ومرابعها وتحيلها - حينئذ - في التربع - إلى صورة أخرى ممسوحة من حياة المدينة الصاخبة المعادية:

"هذه النخبة أعرفها ولو تغير الزمان  
كانت مستعمرة للبحاري / ومنبتة للحض والقلان  
كانت مرتعا للأبل / إلا يخرج حليب النوى بنكهة الأهرار  
هذه النخبة ضلت الآن  
في الليل - بالربيع - مدينة تعج بالأشوار  
وحينا يستيقظ النهار  
تعج بالخيام البيض والعربات الأمريكية الصنع والنوار  
تقطعها القنابر المخرقة  
مرحبة من "الشرازين" المصنوعات في العراق"<sup>56</sup>

وبذلك تصبح المدينة ضريبة واجبة، والصحرَاء ورموزها قدشرفها عنها وتتسبح.  
ويبدو أن النقلة العصرية والتغيرات المادية التي دهممت حياة الطارئين على  
المدينة وضعتهم وجها لوجه مع جو شرابي فقد فيه البعض هويته وسيماءه،  
واختلطت لديه القيم والسمات التي أتى بها من الصحرَاء مع قيم المدنية المادية.  
لذلك لم يعد أمثال هؤلاء كما كانوا، وأيضا لم يصيروا مثل أهل المدن في تافلتهم  
السهل مع طوائف التحضر وأدواته وأساليبهم الحياتية، ولعل طهر من يمثل تلك  
الشخصية المذبذبة المتعطشة ما برز من رسم كاريكاتيري مشهور لتشفقة في  
لحظة سهره الجميل، لذلك النبوي الذي تحول إلى رجل مخسوخ مشوه الهوية عندما  
أرشد عبادة لا تلامذه

<http://Archive.org/Sakhril.com>

جمل يدخل إلى الشرايين / يرتقي خرجه الذهبي  
يشد السامر ربطة عنق توشحها الزخرفات  
ضجيج الخنجر في "البست" لا يستلزم لديه الرغاء  
ينوح على نوى الطوارئين  
ويحتر حزمة شولي رطابا بذاك الحريف  
بعد الشوق التي اغترزت في السامر  
لما كما هو يلقي بأبي بغير الياف  
نحور من منه الشيل والحط و"الزرقلات"  
ينافذه بحة "الكسوفون" ويضعي إلى الجاز منزعجا بالغناء العنيف  
جاءه رحلان من "السيكسوزي" أخذاه إلى القبر  
وقفا في ملاسحة بعيدا / أودعاه إلى آخر الليل / في غرفة الانتظار  
بعد يومين / الحبيب بما يشبه الأتجار / يصق يحنيه

يخجل أن الحداثة القديمن قالوا به  
 "أكرمهم بأفعالهم قبل خيال بخضرفين سمع صرخ الجلائد"  
 تعاطف في كبد التبط والمغيط والكدرج عبر القار  
 تناول بقة ورد ودلوا من الماء / راح يمزج فيها مع الكافيار  
 تلال البشر وجه البعير  
 يتفن أن النساء يتكبرن فيه التحولة  
 إذ كن بهمن شوقا إليه استلار  
 فأرغى وأزدا / حطرت كالسفن / ٣١

هذه الوثائق المسروقة هي هيكها - على شموخ بنهار وعضوان يشاوي ويشحول إلى مسخ -  
 تلك لحادي في فجاجتها ما يراء الشاسر من حضور للمعارفك الصارخة في مفردات حياة  
 غلب عليها التفريب والوان الكرتقال والبتااضات المزعجة. إنه لا يملك إزاء هذه المشاهد غير  
 أن يتأمل ويتهم ويلطوي على رفضه والمترابه:

هلا بك تأين مع سنانير دالي وهو يخط  
 على فرشاة الرسر ليسفرح منها الألوان  
 وليرسم مايسر لأجل العشار المسطرة على الخلق  
 هلا بك عطلن من طين القمامة على الكركس  
 وهو يتحدث عن القيلة المعاصرة كالكتابة طويلة القات  
 هلا بك تسعين من هلك الخصال الشرة قنن التوت  
 وهو يتولى إحدى فضائل 'سبح الوجه' ٣٢

ويبدو أن اقتراب الشاسر إزاء هذه المشاهد المسبوقة التي لحاصره وتثير سخطه ورفضه  
 كان مدعاة لسقوطه بين حين وآخر في قوة التوجس والفرق. لذلك تنمو بين صورة الشعرية  
 الرؤى المزعجة الموحشة، ولتكاثر الكوابيس وصور الرعب والطواء في عالم فقد فيه الإنسان،  
 وسادت آلة الدمار والقسوة والتجهم والقتل:

الدقة الإلهية تعرضت لاروجة من اليرثيوم المشع / أصبحت وحيدة الحداثة  
 دخلت محال الفيز العار / فاضربت عظامها الأشعة السينية  
 تحولت الهيكل عظمي من فولاد / وكنته من الأسلاك والأضواء / يدور في فضاءها  
 دمر ملون أحلام / وذررت ليونيك / نعتي / المشج والقصوم  
 والمجنحات والتنداء وأحماض لينة  
 الدقة الإلهية / رعد رغاء مدعنا / ينطق التوان  
 وحلجنت في دماء المعادن الغنية / شنت لهيبا لزرقا يكلس الهواء

وانطلقت من حوزة /أخنة بنية  
صار الخليل أسوداً/ يسير في شروعهما الشفافة الزرقاء  
وتخرج الفارقات من مسامها/ وفجأة طار أعلى سننها/ وانطلقت سحابة كرونية وكانت النافذة/  
في خضم الإحاطة/ وصحوة الإفاقة  
باركة تجرأ غابة ذرية<sup>11</sup>

أما نص «وليمة الكارثة»<sup>12</sup> فهو صورة من صور التفزع الأكبر، فيه تتزاحم الأسلحة  
التجسسية مع هيب الغازات وتغير لون الصحراء، والأطفال المزوَّجين اللاعبين بالمقارب الميتة،  
وكرات النار، والصحالي التي تتدلى كخيال، والأفعار المكسورة الهلالية من عصاف النيران...  
إلخ. ويكاد «التوجس من الزمن الفاسد» يفرق الشاعر في الكوايسس والرؤى المرعبة التي تهدد  
كلها بسوء الحال والتمزق والاندحار الآتي:

ورأيت الليلة يا أمي خيلاً برزيرس متطرعة

ورأيت امرأة فوق البريق مرفوعة

تحتف بأسمي / حارية يغسلها الدم

ورأيت غيوماً تركض فوق مشارق قبة اللون

ترش رجال قبيلتنا بمياه النار وروح السم

ورأيت يا أمي منجوعة، ضوئين الهملاييين تفتل

وتظلم فئات القمر

ورأيت غرباً كبر الليل / ينحني حولي

ويصور كثيراً حول الحيلة يتغافلني / ينهب عفتي

ويظهر بعيداً يتركني

أقرع فوق الرمل الأسود / أفقد عفتي<sup>13</sup>

وإذاً، هذا العالم الملهوي الذي لم يعد يملك أن يغيره أو يعيد إليه براءته المفقودة، يفت  
الشاعر مراراً وتكراراً، يحاول أحياناً أن يواجه القرية الطامحة بالتعدي للخطوي على الصلابة،  
والتمسك بالبدائى في «زمن صعب» يطلب منه أن يكون «ضارباً عن وعول الجيل»، و«صاعداً  
مثل ربيع»، و«مستجيباً مثل حقل قمح»، و«صاعداً كالحصان الذي لم تكن أسرجته القبيلة»،  
وأحياناً أخرى يتكبد النقد اللاذع للأوضاع المقلوبة والنشوية، وبين الواقع المستعصي الفاسد  
في «الزمن الرديء» الذي انعمت فيه الغنى وتقهقر الخير وثامس الفساد والتلوث<sup>14</sup>، وإلى  
جانب التعدي والتفرد الذين قد لا يكونان معجدين مع عالم بهذا الزخم من المشاكسة  
واللامبالاة، تبقى نافذة الحلم مشرقة، ويبقى البحث عن النفس المغشقة النافذة عن طريق  
التشبث بالحلم و«مدن مثل عناقيد الضوء على الشاطئ لوم»:

أن عبا يا واهل الترحيل الجائل أرحلها لمن  
فالعشب هناك ينمو بين شقوق الجدران  
وبعباء ماء الثقافات المضطحة برجاج يشبه "حنين الحراب"  
ويستفي الطائي بالجران"<sup>١٠١</sup>

ولعل من ضمن أفاق الأحلام التي تهدئ الروح وتبلسم روح الشاعر المستوحشة بيزور حلم الصعراء مرة أخرى. الصعراء الغاربة المندثرة التي لم يبق منها غير الحنين إلى مفرداتها وروحها وبرائتها ومظهرها الهارب. لذلك لغوى الصعراء. العلم المائل الأخير للشاعر يبحث عن أمته وهجته وروحه. فيصعد تلك الرؤى العذبة ينسجها في لوحات وهمية لضارب ورعات على مشارف القمر وأجرام من زهر تدفن. «و حشول الونية» و«حشولان للشعر» و«غناء ربابة» حتى يشعل بالأنين الأتيف.

والشاعر إذ يقطع هذه المسافة هاربا ومرتحلا عن مخيلة مفسوخة وقاسية. حالما يروح واحة صحرائية تغفو على الغترابه، فإنه في رحلة خلاصه هذه لا يني بتشتيت بمنايع عطاء أخرى متمثلة بأصدقاء ورجال يمثلون للشاعر فيما عاليا أو شموخا. فيمجدهم ويستنقدهم ويهلي في ظلمهم وحاله. «قال **عبد الله الحميد** : **يشد نجائب صروفه ويمسح فاطما القهافي** رغبتة في الوصول إلى منبع **العطاء أو الأمن والأرواء** الروحي الذي يجعله هذا الصديق و«أحزان عشيقته البردة» بعد قطع الطريق الذي يقود إلى «سباحة وانطلاقا نحو الأسس والأجمل. تلك الرحلة وتكتسب معناها الروحي» **أحمد خضير محمد الحويش** : فهو «الغلة التي ماتحتها الرياح» والتي «تضيء إليها القوافل من وطاء الشمس» . وأما باقي الأصدقاء الذين يمجدهم ويستلمهم غفوانهم فهم «جبال البراري الأصلية» التي «لم تجمعهم في أي إسطنبول» ولم تكن أعرافها للرياح» . ووالدهم «شامخ باتجاه السماء» تداعب أعرافه الريح» و«يمارس أبهى صهيل» .

## ثانياً : إبراهيم الخالدي

### ١- «هواجس الترحيل والعمر ومكانها»

ملامح الرغبة في السفر والترحال والخروج من دائرة الرثابة والتكرار والقيود تظهر بدا عند الخالدي هي نص «فيما يتعلق بقطار طنجة»<sup>١٠٢</sup>.

هني القطار : تكمن فكرة الترحيل والبحث عن الحركة التغيرية والاكتشاف عن طريق «السفر» والانتقال. و«طنجة» تبدو تلك الغاية البعيدة المغرية التي تُشجّل للوصول إليها الأسباب وعدة التهيؤ. ولكن اتخاذ الأسباب (القطار) والتهيؤ للرحلة، قد لا يخلص من وطأة الإحساس برتابة الزمن وبلاذته. ووحشة الوقت (التي تكرسها حركة القطار الرتيبة المملة). لذلك لا مفر

من الاستغراق في تأمل الخواء واللاجدوى ويُعَدُّ المفارقة، ومحاولة تجاوز الإحساس بالثبات (في مستوى النفس)، على رقم حركة «القطار» الرحلة، باللجوء إلى العيث والهبوط الفارغ من المعنى مع تساء، ولغوصات صابرات.

ويتأكد معنى السفر والترحل ويتخذ بعده الروحي متسماً بملحج التضال والشفقة والكتابة في نص «الأقدام بين المدينة والقمامة»<sup>104</sup>. فهناك حديث عن «المسافة» ويعدها الزماني والكمالي. وهناك حديث عن ثمن الترحل الباهظ الذي يتضح في فقدان مسرات الحب والطفه ودعة الاستقوار، ثم هناك التشغال مفروض بهام الكفاح الذي يكسب الرحلة قداستها ويعدها الروحي حين «يتعمق المرحل حبل الثريا»، وحين يستكمل الاستعداد للمناجزة أنها على «سهوة البرق». أما الغاية فهي «السلام» بما فيها من قتل تاريخي وتراثي وعتارات إنسانية ونضالية تتمثل بأشهاد الأمويين، وهي غاية تستحق أن يهجم الشاعر وجهه تجاهها ويتطعم من أجلها المسافة. ويا لها من غاية تغري بالكسب والمغنام.

ويتخذ حلم الترحال طائفة شعورية غنية حين يأتي رديفاً للطيران، ومشروعاً للخروج من جاذبية الأرض وضيق الرمل، وريشة عبوديته. فهي نص «ما قاله الفهم لعميان بن فرناس» أشارت دالة على هاجس الطموح والارتداد، والاكتشاف، الخلق بكر بالطيور نحو «حلم يهيق على صياح وارف بالشمس». وعلى رسم **وجود التحديدات** والمواقف والتأو الذي «تخبز الصحراء شعلة»، والترحيل بين المختلفين والمقارن عند الجاذبية الأرضية وجاذبية الثبات والركون، فإن إغراء الرياح والفهم، والرغبة في التخلص من أدراج الأرض يتكاثف. ويدفع الشاعر للبحث عن التقاء المطلق والتحقق،

فترام كمي أسير  
ورأيي حائط مني  
وطر تخبز الصحراء شعلة  
وأيي للرياح  
ما شئ من عظامي  
كفي بصر الغير أغنية  
وقطن الرب  
يتسبحني قتيلاً<sup>105</sup>

ومن الفهم يراقب المخلق علله الذي تجاوزه بالجناح ولم يتجاوز بالروية، إذ ظلت صورة علله الأرضي تستفز الذكري وتلاحقه نحو فهمه، تثبت به وتعلق بروشاته، «ويهر نحوهم» وجهه القديم الطفل، مدرسته، بيته، أمه، جدته. وإن كان عيمان بن فرناس<sup>106</sup> في النهاية يستطع بعد أن ذاب شمع جناحيه إلى الأرض مرة أخرى، ولم يثقل له تغير مجد المحاولة، كذلك



## أقسام التراث والهجرة وعربيتها

يلتصق الشاعر استحضار «الهجرة» عن ذكرياته ومعتقدات عائلته وقيوده الجميلة والكريمة، فيأخذها معه محاولاً تعليمها فضيلة الطيران وروعة الغيم.

ويظل الانطلاق والعودة أو الإقدام والإحجام قطبين واضحين في شعر إبراهيم الخليلي، الانطلاق بفنائه التوق ورفض الواقع القهقرى مكاناً وزماناً، والعودة تجره نحوها غيبات الأمل والعثرات مكرها، هذا الإحساس بالتذبذب والترحال بين طرفين يبدو جلياً في اختصار الشاعر «عاد من حيث جاء» عنواناً لديوانه الثاني. وقد وردت هذه العبارة في مطلع قصيدة «الفتى الهاشمي» الذي تدور التجربة الشعرية فيه حول غيبة أمل «الفتى الهاشمي» وعودته خلوي الوفاض بعد تاريخ فضائي حافل بالمواقف والأمجاد:

عاد من حيث جاء

الفتى الهاشمي الفتي الزداء

كان في مصر والشام والنهرين

وكان إلهنا بقصر الخليفة حيناً

وسجن الخليفة حيناً

وفي معصية بلاد يوم من حين

وفي مظنة حين لكرب البلاء

جال في الأرض

حتى لململ من سيرة الهنسي

وارتضى / غيمة لا تخون جراتها

وحنّ في السنين المأزاة<sup>(1)</sup>



والفتى الهاشمي مسمى يختاره الشاعر ليدل على شخصية تراثية ما، وعدم تحديد هذا المسمى يعطيه سعة الانتساع والشمول، ليتضمن كل أولئك القناضون في التاريخ من أصحاب المواقف الثلاثة القطر، الذين يشيرون إعجاب الشاعر بتعلمهم ورفاهتهم في تغيير واقعهن المهادن. وقد بدت صورة «الفتى الهاشمي» من خلال نون الشاعر جاسمة لما يحبه في الشخصية الفتيّة الشقاولة فوق الرضوخ والاستقرار، فهو في لقام الأول ممن يتحدون ثبات المكان وحيثه والتحرّك والتجوال. فقد كان في مصر والشام والنهرين، وهو أيضاً ممن يحتاجون ويخاصمون ويشيرون الزواجر، إذ كان إلهنا «بقصر الخليفة حيناً وسجن الخليفة حيناً» وهو ثالثاً ممن يدافعون عن مبادئهم بقوة الموقف والسيف، ولكن كل هذا التوفد والجموح ينتهي بالفتى الهاشمي إلى التوكل إلى الطواء وفراخ الطريق في نهاية المطاف، فقد «عاد من حيث جاء» والشاعر إذ يتوحد مع الفتى الهاشمي، الذي يحلم من التضال والإباء والحاجة، يرى في نفسه شوبها به أيضاً في عودته إلى الوحدة والعربة ووحشة الروح بعد القضاء الرحلة:

خادم من حيث جاء  
الفتى الهاشمي النبي الرءاء  
والأمانة  
- إن شئت صدق الحديث -  
ألا يحسنه

أحفظ الدرر عن ظهر قلب  
أسلك العرب بين المسالك  
أسقطني من أذى وما نفسي  
لي من الأرض رمل خوي  
وفي الشاعرات  
شيع نظول في  
وفي البساتين / وكان هادي / وساد البلاد  
وما فاني / هي / دار عشت  
وعطيت وحيدا إلى أضلعي  
بارد دمعا / تسكيت / رب حزن قار  
فيه من شدة البرد ما لا يخطر بباله



## ٢- الاستعداد بالهجرة والهجاء

إن الاستعداد بالرموز التراثية في شعر إبراهيم الخالدي يأتي أبداً عن مسيرة رحلته المطلقة إلى الأمام، فالرموز التراثية المختارة من الأعلام في شعره هي تلك المتحدية لتقاليد عصرها، والمتصادمة مع الثابت من القيم والعادات، والموسومة بالاختلاف والخروج عن المألوف والمعاد، رموز لها بعد المحاولة أو الترفض أو التمرد. وقد سبق الحديث في سياق التمهيد عن شخصية عباس بن فرناس والفتى الهاشمي، وعن أماكن ومواقع لها قتلها التاريخي والتراثي مثل طنجة، الشام، المدينة، مصر، القيروان، وهي أماكن نهيات فيها الأسباب لتكون مسجراً للأحداث والتغيرات، وموطناً لصناع التاريخ.

من بين الرموز التراثية ذات الألفاظ النفسية الحميم يلقب إبراهيم الخالدي، يأتي طريقة من العهد الشاعر الجاهلي صاحب العلقمة الشهيرة<sup>٣٣</sup>، فقد أهداه الشاعر ديوانه «عاد من حيث جاء»، يضاف إلى ذلك ما عُرف عنه من تسمية عبود الصعالي في إحدى الصحف المحلية بـ «برقة همد»، وطريقة بن العبد يمدو من خلال تقدير الشاعر شامطاً ومتجدداً واليقا، فهو مثير الأسئلة الوجودية الكبرى، الراسخ في اكتشاف عالمه بعيداً عن تصورات وفهم جاهزة، المنسوب عن أناس لا يرون ما يرى ولا يعتقدون ما يعتقد، وهو أيضاً الباحث

## أسفار النور والهدية ومروحاتها

عن معنى الحياة هي لب الحياة وعصيتها الملتهب بالرغبة ولذة التجريب، اقتداح في ذاته الحاضرة الشاحصة في زمنها التناح لها، تستنطقه وتتطرق فيه، من دون التثبث بالغيب والممكن. لقد حولت فلسفة طرفة الوجودية الانكسار أمام جبروت الزمن وحتمية الضرورة وتقرم الإنسان أمام مأساوية مصيره إلى طاقة ديناميكية تستكشف الذات وتلتقي في سبيل صقل معدنها للوهج وتنسج. إن الخوف الرائد من الفناء والموت يتحول عند طرفة إلى مشروع بهجة واحتفال بالحياة واحتفاء بتعها ومباحثها، وقطرة فوق الجهادية والركون والاستسلام. إنه يرى الجاني الآخر الغابر من سفح الحياة وينطلق نحوه وحيدا متفردا إلا من اختلافه وجنوحه<sup>(1)</sup>.

وإذا يرى إبراهيم الخالدي هذا الكون الطافح بالتجدد والتمرد لدى طرفة بن العبد فإنه لا يتوانى عن إلقاء عصا ترحاله في «برقة تهمد» موكب الحب والحنين وسكن القلب الضئلي والروح النائرة المرتحلة في مفازة الحياة. إن «برقة تهمد» التي خلدها طرفة في مشدته الطفولية، تتحول لدى الخالدي من مكان محدد بزمنه ومضمراته ومتعلقاته الكافية إلى رمز متفجر بالإيهامات. لقد غدت «برقة تهمد» رمزا للطمأنينة المتناك متخذة صورة «يونوبيا» ذات بعد وجداني ونفسي يلجأ إليها الفار من الوحشة والحرية، رمزا يتضمن معنى اللجوء والاحتفاء والانتماء إلى مصدر الأتواء والحب والظل. وكلها معان متعنا، لأنها متنتهية ومثالية «أن» في مستواها الواقعي متواجدة في مستواها النفسي التخييلي. والإحساس الضمعي بال فقد والتلاشي يلمح رغبة التثبت والتعلق، ويستجلب اللوعة وغصة الانتعاب (وهة الظل).

<http://Archive.sakhril.com>

وكون الشاعر مسكونا بروح طرفة بن العبد وأطفال خولة، لا يلغي بأي حال رغبته في الانتماء من أسر الماضي ووجوه التقليد. فلما كان طرفة بالنسبة إليه إلا فكرة لتطوي على الشروع بالانطلاق نحو التجدد ومطابقة الثوابت والمسلمات. ويتخذ إعلان التبرؤ من فداية الموروث تاريخا ومنهج حياة، صورته الواضحة في نص: «الخطوط الرهسية لكتابة التاريخ العربي» هالتاريخ والموروث في نظر الشاعر جهد متجز ومتته، وأمجاده من حق صانعيه، والإنسان المعاصر لا يمتلك هذا التاريخ ولم يساهم فيه، وإنما يكتبه باستلهامه واستشراقه والاستهداء بمرور الضيعة في رحلة البحث عن ذاته المتميزة التي لا بد من أن تصنع لنفسها إنجازا يخصها وتاريخا آخر يحمل بصمتها وملامح عصرها. وتحقيقا لهذا البعد يطن الشاعر في نسبه ورغبته في الانتماء من أسر الماضي وثقله، مبدئيا بالترجل عن عبود القصيدة التقليدية ويمرأها الثقيل وتقاليد العريقة، متمثلة في المعطيات:

«أعلن، أعلن، أعلن

أن للشعر أن يترجل عن عبود السطر شيئا

فشيء، ويهدي الحروف إلى صرتها.

عاشدا

أفدح الآن كل النقاير مستورها من دمي

ظفرة ظفرة

شر أستورع الرمل أحصيتي.

أحسني قرب أسلاني الطالرين نبيذ البياض

ذاك طرفة يميني لحرفة أطلالها وأسر كندة

يشتهي طقة منذ عاين يهدي بها قال

للأمر يوم سيأتي وللنار سيف يحد

فلا تشغلوني بأكل طيلا وما هوأت

فأعلن فأعلن فأعلن<sup>1992</sup>

وبذلك ينضو الخالدي عن شاعريته وثابة العروض في شكله التقليدي وتأثير تجارب طرفة وأسر القيس في حدودها اللفظية والزمانية، ثم ينطلق مستشرقا بإيجاز مركز التاريخ العربي الإسلامي في فتراته العاصمة، بناء الكمية، البنية الجديدة، الفتوح الإسلامية، الخيالات والصراعات السياسية، فترة صفين وموقعة الجمل، مفاسد العصر العباسي، وبين كل مرحلة وأخرى من عرضه لهذا التاريخ يطلق الشاعر صرخته المتهجئة على التشبث والخطوع المستعزي لقبوده ومقارنته الفاتية بتكرار فاعلن، فاعلن، فاعلن.

إن الخالدي إذ يلمل ويسنوب كامل التاريخ العربي الإسلامي بكل أمصاه، ويتشرب هذا التراث بكل وعظه، تلمو لديه العزيمة على «التبرجك عن صهوة هذا التاريخ»، الذي لم يعد يمتلكه أو يعيشه بحكم دورة الزمن وتبدل الأحوال، بل إن الأمر الذي يدعو إلى التعلق هو أن محاولة «امتطاء صهوة التاريخ» ضدت محاولة مؤولة وجارحة، لأنها تهبط الإنسان العربي المعاصر حياته وذاته الفاعلة، وتقوده إلى الوهم والاضلال:

«أن للشعر أن يترجك عن صهوة الشعر شيئا

فشيئا ويحرق أردية الخفاء الملوأ ويغير عن

قللهم والجوار الحسن الرائي يتأمن أصلا

منذ ألف سنة

أن للفرح أن يسترج

ويصحر المخرج

معاني ديا

كما السوسة

عائدا وعلى عمل  
أخلق الآن كل الأفكار مستوحاة من ذي  
نظرة نظرة  
أن للخرج أن يستريح  
ويصغر المخرج  
على وجع يغلي  
ويختر على فتحة دائرة  
وأي أرى في المدى  
طارزا سودا  
طارزا سودا ١٣٣

وإذا ينهي النص بإعلان أن استعادة التاريخ غير ممكنة وتذر بالويل، فإنه أيضا يعبر عن يقين الشاعر بأن الإنسان يخلق ذاته وتميزه بارتعاله عن التاريخ نحو الآن، وليس بالارتداد إلى التوراة وكونه إلى أمجاد الفايكين.

### ثالثا : مفهوم الزمن عند الفايك والخيالي

هذه الجولة في الارتباطات سليمان الفايك وإبراهيم الخالدي الشعرية، تقوم للتعامل إلى ورقة مفاتيح ما يشكله «عنصر الزمن» من أهمية وحضور هام في معالجة تلك الشعراء والروا حول مسألة الترحيل والهجرة لدى الشعراء. بل إن السياحات الترحال والسفر والافقها لا يمكن لها أن تكتسب أبعادها بمعزل عن تصور واضح لعنصر الزمن، وتعامل واع مع معطياته. ولعل فهم آلية الزمن وأسلوب التعامل معها في الموضوع المطروح في ورقة البحث يعين على تكوين محصلة نهائية نستشرف رؤى الشعراء ومواقفها الشعرية.

يتعامل كل من سليمان الفايك وإبراهيم الخالدي مع «عنصر الزمن» على ثلاثة مستويات. أولاها، الزمن الحاضر، الذي يبدو بالنسبة إلى الفايك زمنا قاسيا معاديا، يستحق الإنسان وببساطة كرامته وعنفوانه. وهذه القسوة تتمثل لديه في هجوم المدينة ووجوهها البازلية المنيفة، وظفوف ملايح الإنسان في مظاهرها. وتتمثل الخيبة أيضا - من جهة أخرى - في اندثار الصعراء وثلاثي الهراة ونقاء البداوة. وهو أيضا زمن ضيق منصف يخفض البعض ويرفع آخرين. زمن مرعب تحكمه صور التلوث وكوابيس الوحشة والقرية.

ولإزاء هذا الحضور القائم لزمن يسميه الشاعر «الزمن الصعب» والزمّن الرديء»، تتحدد وجوه التعامل معه. فهناك وجه ينعكس فيه الألم والانتكاس. وآخر يشي بالسطورية والتهكم. وثالث يجعل إلى تحدي الجهادة والقسوة ومناجزتهما.

وتكاد رؤية الخالدي «الزمن الحاضر» تشابه رؤية الفليح في بعض وجوهها، فهو أيضا يراء زمانا متغيرا، زحوا، متعبدا لا يثير الدهشة. وبعبارة يدعو أحيانا إلى التلافة والركون والخور، وأحيانا يدفع إلى تحدي زمانه بالخروج عن نمطيته ومواته. ويشترك الشاعران في الجنوح - في نهاية المطاف - إلى هجر «الزمن الحاضر» والخروج عن مقاييسه وحصاره بالسفر والترحال نحو القد والآتي. وهذا الخروج الشاذ يتخذ في البدء سعة النقد والرفض للذين يقودان إلى الرغبة في الفكاك من أسر «الزمن الحاضر» والانطلاق وراء حلم الرحلة والهجرة إلى أزمنة أخرى.

أما ثانيها: (زمن الماضي)، فينقسم في تصور الشعراء إلى: أولا: زمن مئنه ومنجز، وهذا الزمن يستدعي التمرد عليه والتخلص منه والتخفيف من ثقله. وإصرار الإنسان على معاشيته يشود إلى العسر والضلال. ثانيا: زمن فاضل، وهو الذي تمكنه المنارات القرائية الشخصية مشعلة في الأشخاص أو المدن أو الطواهر الإنسانية. وهذه المنارات القرائية لم تكنس حق البقاء ومشروعية الاستهداء بها إلا لكونها تلمعلا خارج زمن مفروض بأعرافه وتقائده وقبمه، (التي قد لا تكون منصفة كما في حالة الصعاليك) أو لا تكون مستساغة كما في حالة طرفة بن العبد أو تقتصر إلى الجنوح والخالفه كما في حالة عيسى بن قرتاس والفسي الهاشمي). هذا الزمن الفاضل يشمله الشاعران ويشخصان نحو زخمه وعفوانته، لأنه حركة المذاف خارج دائرة الثبات والركون. حركة مدعومة بالرفض والرفضية في التجاوز، ولذلك يجعل الشاعران زحاهما في زمان «الزمن الماضي الفاضل»، الموسوم بالطلع وحركة التخيير، مستهدياته في لحظة زمنيةها الحاضر، ليحرك ركوده أو يضفي على وجوهه السلبية بعض الألق. إن المرجعية القرائية كميراث إنساني تبدو، في هذا الوقت، ضرورة وجدانية وفكرية تقدي طموح الإنسان العاصر، وتربطه بجذور راسخة يستمد منها الأمن والثبات والهوية. وكلها معانٍ يحتاج إليها وقودا لاتطلاقة نحو تحقيق ذات مميزة تحسن التعامل مع تحديات عصرها ومزاكية إشكالاته ومستجداته.

هذه الانطلاقة حرة بأن تقلل الشعراء نحو التعامل مع «الزمن الآتي» (ثالثا) الذي يثير في نفسيهما رغبة السفر والترحال وهجرة واقعهما الزمني والكلني. وهذا التعامل مع «الزمن الآتي»، يتخذ شكل الاستشراق والرؤية للموسمين بالطلع والارتداد. والكشف عن أفاق ورؤى يشقها الحاضر القفور.

## تخليد معاهدة البناء وبناء المعاصرة فدح شعر من الديرة المعاصرة

د. سمير شريف استيتية (\*)

### مقدمة

لعلّ الدين القنصوة طريق في الشعر لا  
يكاد يحيد عنها، فقد التزمها أكثر من  
الآلاف سنة، بتطويع منها الزمير لوجاهته،  
وبجعلها إطاراً لجميل أصالة. إنه في الاسم  
الأنطوني يصور وجهين للشعب الفلسطيني:  
وجه الإباء ووجه المعاناة.

أما الوجه الأول وجه الأباء، فقد سميت في هذه الدراسة «جسمان الزيتون»، وهو الجسمان  
الذي حارقه فارسه مدة من الزمن، ثم عاد إليه، على الرغم من التشرد والضياع... إنه  
الجسمان الذي من أرض الزيتون منته... الزيتون الذي يشير إلى الديمومة، لنوام خطوته،  
الزيتون الذي يمثل الثبات في الأرض، والديمومة عليها... الزيتون الذي يمثل العطاء من دون  
أن تكون له شريطة تضاعفه، بل إنه كلما كبر زاد عطائه... الزيتون الذي يحكي قصة الانتماء  
إلى الأرض، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، منذ كتمان الجد، إلى كتمان الحفيد، هو فيها ماض  
وحاضر ومستقبل.

أما الوجه الثاني فهو الذي سميت «جسمان السراب»، السراب الذي كان يعد الخروج من  
الأرض، فجري بعض الناس خلفه، فظنوه باباً للخروج من «البحر الميت» ضلوا وراهم يطوفونه  
فكلموا دنوا منه نأى عنهم وأنتأى... وإذا ارتدوا عنه وجعلوه وراءهم ظهرياً، واجهوه مرة أخرى... فلا  
هم نجوا من خلال إذا بهموا وجوههم شطراً، ولا هو تركهم إذا جعلوه خلفهم ظهرياً... «جسمان  
الزيتون» وحده لم يخذل الشعب الفلسطيني؛ لأنه كان أمهم الوحيد؛ ولأنه كان لا ينبو إذا جعلته  
الأبام والأعداء... ويكر.

(\*) د. سمير شريف استيتية - جامعة فيلادلفيا - المملكة الأردنية الهاشمية.

## تحليل مضامين البناء وبناء المضامين في شعر عز الدين المناصرة

لقد مثل شعر عز الدين المناصرة هذين الوجهين في حياة الكفاح الفلسطيني تمثيلاً جيداً؛ لأن الشاعر عناصر أحداً منهما، وشرب من الكأس التي قدم لهذا الشعب أن يشربها حتى التمام. ولقد عرفته أيام الطلب والدراسة؛ فكان هو التلميذة الفلسطينية التي تجري على لسان كل من يحب الشعر الفلسطيني. عرفته في الأوساط المتنبهات من القرن العشرين، وما زال، كما عرفته، كالتزيّنون صفاً وخضرة، وكعنب الخليل نظارة وعلاوة.

يهدف هذا البحث إلى رسم معالم هذين الوجهين في شعر المناصرة وكيف جعل الشاعر من كل منهما فناً، في بناء فني من اللغة والتصوير. وقد جاء عنوان البحث دالاً على مضمون هذه الدراسة «تحليل مضامين البناء وبناء المضامين في شعر عز الدين المناصرة».

### الوجه الأول : مضامين البناء

يدور شعر عز الدين المناصرة في محورين كبيرين هما: الوجود الفلسطيني، ورحلة السراب، التي كان ساوياً لها العذاب والعطش اللذين. وقد جعلت كل محور من المحورين في مطلب، سميت أولهما «حصان الزيتون» وسميت الثاني «رحلة السراب». وفي ما يأتي بيان ذلك مفصلاً.

#### الطلب الأول : حصان الزيتون

وصفت الحصان الفلسطيني بقية حسان الزيتون كشفاً وروياً في شعر المناصرة، ومن ذلك قوله:

إن ينهني أحد غير الزيتون  
شجر كفتار لمي بحيني  
من طر الأيام الصعبة  
أغضض أعضر  
كان شجاعاً صلياً كالزيتون

إن النوص في أعمال المناصرة ينشأ من وجود عوامل في الوجود الفلسطيني، تجعله غير قابل للقاء، على الرغم مما بذله الصهاينة، وقوى الاستكبار العالمي، لتفريق الأرض من أهلها، وتفريق الفرد الفلسطيني من تماسك حروفه الفلسطينية، وتفريق أجياده الوجود من الشعب الفلسطيني بأسره.

عز الدين المناصرة لا يذكر عوامل بقاء الشعب الفلسطيني فقط، ولكنه - بالإضافة إلى ذلك - يجعلها فناً قائماً بذاته، يعبر عنه شعراً، أي أنه يعبر عن الفن بالفن. هذه العوامل هي: التشبث بالبقاء، والأمل، وبقطة الوعي، والرفض، والتعدي، والمواجهة. وهذا بيان ذلك مفصلاً:



## ١- في النظر بالبيت

التشبيث بالوقاء شيء، ونحن التشبيث به شيء آخر - الشاعرة حريص على أن يفسف تشبيث الفلسطينيين بالبقاء، وكأنه يمارس قذا من الفنون، وهو يتمسك ببقائه، ويتشبيث بوجوده، إنه لا يمارس التمسك بوجوده مجرد ممارسة، كما يفعل سائر الناس، عندما يحقق بهم خطر محقق، إنه يقن في ذلك، انظر في قول الشاعر:

تختلط الظلمة بالور  
في هذا الوطن الممور  
مع هذا يا حبة عيني  
قلبك محفور في السور

فالتمسك بالهوية (وهي التي عبر عنها الشاعر بقوله: قلبك) أكبر حتى من المحيط الذي يحيط بالناس، والواقع الذي يعيشونه، كيف يكون التمسك بالهوية؟ ليس عندما يحل الظلام، ولكن عندما تختلط الظلمة بالور؛ فلا يعود الناس يفرقون بين ضلماً وصواب، ولا بين حل وباطل، ولا بين عدل وظلم، ولا بين مقبول ومرفوض، إنها الحالة التي لا يكون فيها التشبيث بالهوية مطلباً عند الآخرين، إنها الحالة التي يكون مطلب الإنسان فيها - عادة - أن يتجو بريشه - عندما يتمسك الإنسان بالهوية، ويتشبيث بها، ويحل من حوله على ضحو ما وضعنا، يكون تمسكه بالهوية وتشبيثه بها قذا مبقراً، لا يستطيع الآخرون أن يؤذوه.

ويكون التمسك بالهوية قذا كذلك، عندما يفرض الإنسان من أجل الهوية، في الوقت الذي يكون الناس فيه معجزين، في مثل هذا الجوا، تشبيث الفلسطيني بهويته ووجوده.

يقتر الشاعر بعد ذلك أن قلب الأرض محفور في السور. هذا التعبير فيه ما يشبه قلباً لبعض التصورات الأولية، فالأرض هي التي تكون في القلب، وليس قلبها هو الذي يكون محفوراً في السور. وما ذهب الشاعر إلى ذلك، إلا لأن ذلك يحقق المعاني الآتية:

أولاً، إن السور فاصل، ولكنه في الوقت نفسه مانع من العدوان، ولما قرر الشاعر أن قلب الأرض محفور في السور، كان معنى ذلك بالضرورة، أنها هي الفاصل بين الوجود وعدم الوجود، بين البقاء وعدمه، وهي في الوقت نفسه الواقعي والحافظ لهذا الوجود.

ثانياً، إن الناس يرون هذا الاسم محفوراً كلما مروا بالسور أو رأوه، وهذا يعني أن ضماخ الأرض لم يشبع الالتئام إليها والاعتزال بها.

ثالثاً، إن حفر اسم الأرض على السور يعني بقاء السور، فلا تظهر الأرام، ولا تزله.

وأخيراً، إن السور يشير إلى التاريخ؛ فقد كانت كل مدينة تحفظ نفسها بأسوارها في التاريخ، وما زال التاريخ ناطقاً على أسوار القدس، شاهداً على بقاءها، على الرغم من حداثات الزمن وعصبيات العصر، وكان الشاعر يريد أن يقر أن بقاء الهوية قضية تاريخ طويل، لا يزول باختلال الحظن.

## أدب الشاعر البقاء، وفاء الشاعر، مع شعر من أدب الشاعر

إن، فلسفة ليست مسألة بقاء فقط، ولكنها ضرب من التفاني في التشييد بهذا البقاء، وهي ليست مسألة انتماء فقط، ولكنها ضرب من التفاني في الحفاظ على ذلك الانتماء، والبقاء والانتماء أمران واضحا في معظم أعمال غزاليين الشاعر، ومن ذلك قوله:

مأزال - ما ألق - ما أرح  
مأزال كنعان في القلعة القديمة تحت أماني البيوت  
بلحيته البيضاء  
سمعة الزواني عذراء من البيع بعد غروب الشمس  
سمعة بشعر العاري في حفر الدمر  
سمعة في حلق الزواني يغني لشجرة البوملي  
كل حبة - مشرب إلى الأعلى  
رأيت الزواني من حوزة النور المنسوبة  
بمشكج كالبطريق مستندا على جذع شنف  
رأيت بفر من ضربه الشبد في التري  
فرسة حديدية اللون وسرته زرقاء  
لكن يستيقظ المرح من نومه في سحرة الصبا

يعرض الشاعر هنا جملة من الشخصيات التي تعجب كلها في حجب واحد، هو التشييد بالبقاء، لقد استعمل الشاعر اتصالا على على البقاء، مأزال... ما ألق... ما أرح، وكان أي فعل منها يكفي دلالة على الإشارة إلى التشييد بالبقاء، ولكن الشاعر قدم هذه الأفعال الثلاثة، ليشير إلى تصور كل وسائل التشييد بالبقاء والصلافة عليها، والأفعال الثلاثة هذه تشير إلى ما هو أكثر منها؛ فلما كان الفعل الواحد منها كافيا دلالة على التمسك بالهوية، ولما لم يكف الشاعر بفعل واحد، كان ذلك إشارة إلى القارئ، ليفتح باب تصور على كل ما يدل على التشييد بالأرض، فيجعله أداة للتعبير عنه.

ثم جعل الشاعر كنعان في القلعة التي هي رمز الحفظ والصون والشموخ؛ فهو باقي في هذه القلعة محفوظة مصونة بشموخ قلعة، وأما أن القلعة قديمة كما جاء في وصف الشاعر، فذلك إشارة إلى بقاء التاريخ شاهدا في الأجيال، على الرغم من انتشار الحضارات، وزوال الدول والأنبياء، ذلك الزوال الذي أشار إليه الشاعر بـ «تحت أماني البيوت»، ننظر مرة أخرى في قول الشاعر «مأزال كنعان في القلعة القديمة تحت أماني البيوت بلحيته البيضاء»، فنجد كنعان ذا التبعة البيضاء، فالقاء، على الرغم من كل دمار، وعلى الرغم من بعد الزمان والتضائل، ولحيته البيضاء تشير إلى الصفاء والثبات، يعطى ما تشير إلى العمر.

النساء العائدات بالجزائر على رؤوسهن، وقد ملأها بالقاء من البيع، سمعن كنعان وأخته، أما اتبع الذي ملأ من الجرار، فهو إشارة إلى الأجل والهوية والانتماء. وأما رجوعهن بعد الغروب،

هناك إشارة إلى الحفاضة على الهوية في وقت تحول نظام فقدان الهوية، الذي كان من الممكن أن يفقد الناس هويتهم. لاحظ كيف جعل الشاعر كل حبة يوملي وكلتها ... مشروب إلى الأعلى:

- يعني لشجرة البرملي  
كل حبة ... مشروب إلى الأعلى

يشير الشاعر بذلك إلى الشطاح إلى الأعلى، على الرغم من كل دواعي السقوط وأسبابه. لقد كان كتمان «تمشكح» (لاحظ هذا الفعل المعاصر الذي يدل على التمسك والعزة والأنفة وعدم اللياقة). كان كتمان يستند على جذع ناشف لا يصلح لأن يعتمد عليه في القيام، لأنه قابل للانكسار. إذن، كتمان كتمان ذاتي، ولا يعني لنا أن نؤكد في أن قيامه كان بسبب اعتماد على هذا الجذع، لأنه جذع ناشف ولا يصلح للاعتماد عليه. وهذا يعني أن التثبيت يهويته، القوي بالتمسكه، يظل أقوى من كل ما يمكن أن يعتمد عليه في قيامه.

لقد خرج كتمان بالهوية من القيود والمخاض، فمضت إلى القرى والمدن هويتها، ثم قال الشاعر: «قرسه حمامية اللون». لم يصف الشاعر قرسه بأنها بيضاء، بل قال: حمامية اللون. وهذا يعني أنه أراد أن يتجاوز اللون الأبيض، الذي يرمز إلى السلام والرواحة، يشير إلى أشياء أخرى، ومنها الحب والتمزق. لأن الحمام يرمز إليها، وعلى ذلك تكون قرسه ذات طابع وجداني، وعلى أساس الوجدان تقوم العلاقة بينهما.

ARCHIVE  
http://Archivebeta.Sakha.net

وتظهر قسرة الشاعر على جعل التثبيت بالهوية هنا هي قرنه  
رحل الأحباب... بقيت هنا وحيدتي  
مثل الزيتون ينموا في الصحراء  
لم يتحدث الشاعر عن رحيل الناس، بل تحدث عن رحيل الأحباب، لأنه الرحيل الذي تقارب فيه الغرب الناس إلى أنفسهم... إنهم أحبابنا، رحيل الأحباب إما مؤلماً، وإما تشويقاً، والنتيجة واحدة وهي خلو الأرض من أهلها. وهذا وحده كاف لإلغاء الهوية. ولكن الشاعر يقول «بقيت هنا وحدي» للدلالة على الصمود. على الرغم من وجود ما يدعو إلى ضمه. وهو رحيل الأحباب، الصمود سيكون قاسماً ساعته، ولكنه خيار التثبيت بالبقاء، فلا مفر من العمل به واختياره دائماً. وهذا يدل على التحليل الأخير: على أن رحيل الأحباب لم يعد سبباً للخلع عن الهوية، على الرغم من أنه كذلك في العادة. ثم يصف الشاعر بقائه وصموده مثل الزيتون ينموا في الصحراء. وهو بذلك يعني أن التعامل هنا يفوق التصور المعتاد: مثل الزيتون الذي يتحمل تقلب الظروف الجوية والبرية القاسية، وقد أشار الشاعر إلى هذه الظروف بأنها الصحراء. مثل الزيتون ينموا في الصحراء. وهكذا حال الشاعر الذي يمثل حال الشعب الذي ينتمي إليه. فإنه يتحمل ما لا يتحمله غيره، ويبنى مع ذلك متعلماً بالهوية. وللتعبير عن الزيتون ينموا في الصحراء، وجه ثالث آخر: فكما أنه من القريب أن نجد زيتونة في الصحراء، كذلك فإن تثبيت الشاعر والشعب التمسكطي بأرضه وهويته غريب في زمن السقوط والانهيار.

## ثابت صاعبة الياء، هناك الصاعبة رسم شعر من الياء الصاعبة

ألفد قابل الشاعر بين القطيع، رحيل، وبقيته، للإشارة إلى أن معادلة الوجود والبقاء لا تكون برحيل الناس كثيرين، وبقاء فئة قليلة. ولكن المعادلة تكون بعقبتن الصراع الذي يكون بين منطق الرحيل والبقاء. فإذا قلب منطق البقاء على منطق الرحيل، بقي صاعبة منطق البقاء وحيدا منفردا.

وقابل الشاعر بينه وبين الأحباب (رحل الأحباب... بقيت هنا وحدي) للإشارة إلى أن الزوال هو نصيب من يرحلون، وليس نصيب من يتشبثون بالبقاء. والشاعر عندما يتحدث عن نفسه يضمير المتكلم، فإنه لا ينزع عن قوس الذات المقروءة، بل الذات الجماعية المتكسبة في الفرد.

### ٢- في الأمل

الأمل مفهوم يجمع بين الرجاء والرغبة والحاجة. وعلى ذلك يمكن تعريفه بأنه رجاء تحقيق رغبة أو حاجة، فإذا كانت الحاجة ملحة، أو كان الرجاء قويا في تحقيق الرغبة أو الحاجة أصبح الأمل أمية. والأمل عند أكثر الناس سلوك عادي لا تفن فيه ولا إبداع، عز الدين المناصرة لا يرسم الأمل على أنه مجرد رجاء في تحقق رغبة أو حاجة، ولكنه يصوره باعتباره مما ياتي به المستقبل بصورة مؤكدة، من غير أن يستعمل أي أداة من أدوات التوكيد أو التحقيق، يقول الشاعر:

عند باب القدس سأنت، حذري

وهي تحكي لشجيرات العلي

عن زمان سوف يأتي

وعلى خديه شامات الغضب

بعدها ذات صباح سترون على

بعض ليون الراجلين

لقد تزامنت المعاني في هذه الأبيات، ومن ذلك أن الجدة تموت، والجدة إشارة إلى عهد ماض، عهد الضعف والخور، وموتها إشارة إلى انقضاء ذلك العهد. وهذه أول خطوة على درب الأمل. ثم إن الجدة هي التي تموت، لا الجد ولا غيره، لأن الجدة، وإن ماتت، لا تنسى بسبب تعلق أحفادها بها، فهم بالتمسك إليها أمل لا يموت. وهذا يعني أن البقاء والخلود سيطلقان درب الأجيال وسنة الحياة فيهم، وهذه خطوة ثانية في رسم درب الأمل، وابن كان الموت؟ عند باب القدس: للإيعاز بأن الأجيال ضيعتها وقوبها تتعاقب الحياة على باب القدس، القدس التي لا تموت ولا تزول، وإن مات الناس على أبوابها. هذه خطوة ثالثة في رسم طريق الأمل. وكيف ماتت الجدة؟ ماتت وهي متعلقة بالأرض، ماتت وهي تحكي لشجيرات العنب عن زمان يتعصر عليه الضمير المغلوب على أمره. هذه خطوة رابعة على طريق الأمل الذي لا يموت يموت الأشخاص، ثم إن موت إنسان وهو يخطب الأرض، أو يخطب الشجرة التي هي رمز لحياة

الأرض، دليل على أن الأمل أقوى من أن يشهر. هذه خطوة خامسة من الأمل على الطريق الطويل. ثم إن الجدة ماتت وهي تعني لشجيرات العنب: أي أنها استمرت في بث رسالة أملها حتى الترقق الأخير. فلو أن لم يكن نهاية، ولكنه انطواء مرحلة ليس إلا. تلك خطوة سادسة على درب الأمل. إن موت الجيل الضعيف الذي ينقضي يعني أن يراهم جديدة سوف تثبت في حاكموته. ولذلك جعل الشاعر الجدة تخاطب الشجيرات - شجيرات العنب إشارة إلى تلك البراعم الجديدة، هذه خطوة سابعة على هذا الدرب. ثم إن الموت موت فرد في مقابل حياة الجماعة. وكيف يكون هذا التناوب على هذا النحو؟ إن شجيرة العنب الواحدة تحتاج إلى يد واحدة ترعاها. أما الشجيرات التي ستصبح أشجاراً فلها تحتاج إلى يد كثيرة، هي التي تعيا وتحيا بها الأرض. تلكم خطوة ثامنة على درب الأمل، ثم إن حياة الإنسان تنتهي بموته، ولكن وجوده باعتباره وعية المثبت في أحفاده، يظل قائما بعده. ولذلك قالت الجدة مخبرة عن زمان سوف يأتي بالنصر:

يعلما ذات صباح سيمرون على بعض قبور الراحلين

سيمرون على قبورها، ليخبروها بالنصر فتشرح كما يفرحون. تلك خطوة تاسعة على طريق الأمل. وهم سيمرون على بعض قبور الراحلين: أي أن هناك حياة قائمة: لا يضيرها أن ترى الموت للتمثل في القبور، وهذا هو الأمل الذي ما بعده أمل!

وإذا شئت أن تعرف كيف ينسج الأمل في شعره فليصبر قليلاً على السطور الشعرية الآتية:

أفزع بلبل  
فأما الحمر القلزم من أوجاع الصيف  
إلى حديقة الطلحة وريح السيف  
سأفكر في المطر وشر الكلبان  
أفزع فليل. أفزع بلبل. إلى عطشان  
وظل اللبنة تسألني في جلسته كيف؟  
اللينة مجرأ كالغريان  
السيدة الراضة الصعابة  
في ردهات قصر سدد كربي  
لكن الأنهار معي  
والأنهار معي  
حتى الحمر الصوان  
ينسج لي قلماً لم يفتح في أي زمان ومكان  
حينئذ ملئت جراسي

أطلقت النار على قطعتان التيل

الأشجار معي

والأنهار معي

ورحى الحبر الصوان

إن الشاعر هنا يرمم الأمل رسماً حتى يصبح فناً، هو مجرد ظاهرة نفسية أو حالة شعورية، فالشاعر عندما يضاهب للقلبي بقوله «أفتح قلبك» فإنما يريد أن يذهب عنه اليأس، لأن الدعوة إلى فتح الباب دعوة إلى عدم الانغلاق على النفس، والانكفاء على همومها، والانغلاق على النفس أول خطوة في اليأس.

وأفتح الباب ما يسوغه: فإن الأحلام في طريقها إلى التحقق لتصبح واقعا، ليس هذا هو الذي يستوفيتي هنا، إن الذي يستوفيتي أن الشاعر مزج بين الأحلام والأوجاع عندما قال «هاتان الحلم القادم من أوجاع الصيف» إن الأحلام التي تأخذ طريقها إلى التحقق إنما هي مبخاض الآلام والأوجاع. هذا هو الأمل الحقيقي، وهذا هو الأمل الفن.

أما لماذا وصف الشاعر الأوجاع بأنها أوجاع الصيف، فلأن الصيف كان شاهداً على كثير من الولايات التي حلت بالشعب الفلسطيني، ففيه خرجوا من ديارهم سنة ثمان وأربعين، ثم سيج وستين، وغير ذلك من الولايات التي حلت بهم.

لقد جعل الشاعر اللحظة نقطة انطلاق، وجعل اللحظة نقطة انطلاق مثل بريق الذهب والفضة. وطلب الشاعر من القارئ أن يفتح قلبه ويأمله، وهذه توجية مطلق عن توجيهه في مطلع هذه الأبيات، فهي المطلع قال: «أفتح بابك» وقال هنا: «أفتح قلبك... أفتح بابك» أما البدء بفتح الباب فلأنه أيسر، خاصة قبل ذكر مسوغات هذا الفتح. وأما بعد ذكر مسوغات الفتح التي ذكرناها، فإن المطلوب هو فتح القلب، ويكون القلب الثاني، وهو فتح الباب مطالبا ثانويا ساعته.

وهي القطع الذي أوردها معاصر شتى للقارئ في الأمل، غير الذي ذكرنا، منها أن الشاعر جعل الأشجار والنهار والحبر الصوان معه، وهو يعني الشعب الفلسطيني طبعاً، ومنها أنه عبر عن تجاوب الجراح بقوله «حيثك كلمت جراحى». وهذا يعني حينما يغني أنه استطاع التغلب على الجراح، والتغلب على الجراح باب عظيم من أبواب كبح جماح الحزن واليأس والأسى، هذه نتيجة. ثم إن الشاعر بعد أن تغلب على الجراح استطاع أن يتجاوزها إلى ما هو أهم من ذلك، وهو التغلب على القيل بكل ما يشير إليه من المعاني غير المستحبة. هذه نتيجة ثانية، يقول الشاعر «أطلقت النار على قطعتان التيل»، فالليل إذن قطعتان هاتجة من الظلم والظلام، ولكنه أطلق عليها النار، وكانت الأرض بأشجارها وأنهارها وحجارها معه، هذه نتيجة ثالثة.

هذه النتائج الثلاث تصنع الأمل، ليكون أشبه ما يكون بلوحة من المعاني الفنية.

## ٢- في المظلمة والحي

عندما يرسم الشاعر البقطة بمسودتها المتقطعة، لا يكون قد عبر عنها فقط، ولكنه يكون بالإضافة إلى ذلك، قد جعلها فنا يعبر عنه بالفن. يقول القصيدة:

أن يا منزلا عند باب الحليل  
أن تقول الذي لا يقال الذي لا شول  
أن تدب البراءة فينا ونعصر  
يطلع برش الجانور ونصف الشمول  
هي هذه المظلمة أطروحات كثيرة منها:

الأطروحة الأولى، إن الذي لا يقال ليس عيباً هي ذاته، ولكنه عيب لأننا لا نقوله. ولذلك فسر الشاعر «الذي لا يقال» بأنه «الذي لا نقول».

الأطروحة الثانية، إن من حق هذا الذي لا يقال أن يقال أصلاً، ولكنه عيب عن الوعي حيناً من الدهر. ثم جاءت الوعي بالكره، ولذا كان الأمر كذلك، فقد عاد لصاحب العمل «وهو الذي لا يقال» حقه. ومن أجل ذلك فمن حقه أن يقال الآن.

الأطروحة الثالثة، إن ثمة أسباباً تدعو إلى الإحباط من قول الذي لا يقال. فهل هو الخوف؟ ربما يكون الأمر كذلك، أو هل هو عدم الوعي؟ ربما كان هو عدم الكفاءة أو ربما هو محتمل. وهل هذه الأمور مجتمعة هي التي جعلت الذي لا يقال «الذي لا يقال»؟

الأطروحة الرابعة، مهما كانت الأسباب التي جعلت الذي لا يقال غير قادر على التفرغ إلى دائرة القول، فإنه لم يعد لهذه الأسباب، ولا لأي منها، أي مبرر. ولذلك فقد أن الأوان للوضع الأمور في نصابها الصحيح، وتجاوز هذه الأسباب.

الأطروحة الخامسة، لقد عبر الشاعر عن البقطة وعبء الوعي إلى أمته بقوله: «أن تدب البراءة ونعصر». قد يفسر إلى: «لأنه» - أن البراءة نفس الوعي والمظلمة هي السبق ولكن الأمر سيكون على خلاف ذلك عندما نعرف أن البراءة القصيدة هي قبض الحب والكره بمسودة اللون والطيف والشرط ليس في عبء الوعي إلى أمته ويقطعها. الأطروحة السادسة، إن البراءة المظلمة ليست مجرد صفة فقط، ولكنها، بالإضافة إلى ذلك، لغز وتعمق وتورق وتثمر. ولذلك قال الشاعر:

«أن تدب البراءة فينا ونعصر...»

ويصور الشاعر البقطة والوعي تصويراً جيداً عندما يقول:

أن يا منزلا عند باب الحليل  
أن ترمي حجراً في عين القرية  
ونزد الحويل الجاحشة الصنارة

## رواية الشاعر الجليل، وجه الشاعر في ضوء من النقد الشعري

فالمقصود برمي الحجر هي عين الغيرة أن نقفأ عنها حتى لا تعود ترائنا. وهذا لا يكون إلا إذا كان مسموفاً بوعي. وقد جاء التعبير عن حصول الوعي واليقظة بقوله: «أن ... أن نرهي حجراً ... إلخ».

ويقول الشاعر:

يا نساء القبائل ودعي كنعان قرن لأطفاله سيلوب الجليل

يا نساء القبيلة أرضعن الحالكين حليب التشيد

لقد وجه الشاعر الخطاب إلى نساء القبيلة من أجل أن يزرعن الوعي في الأطفال. ويظهر أن الجليل قد تراكم فوق مصاب القضية. وهذه خطوة أساسية في تكوين الوعي. وإنما وجه الشاعر إلى النساء دون غيرهن لأنهن أقدر على زرع ما يربونه في الأطفال. وعن القرى على إيصال مفاهيم الوعي واليقظة إليهم. وتوابع الجليل إشارة إلى تغير الأوضاع، وأنها ستكشف عما هو باق، تماماً كما يذوب الجليل فتكشف الأرض تحته. ويظهر وجهها الذي كان متخفياً. وأما إرضاع الأطفال حليب التشيد، فالمقصود به توعية الأطفال بالتشيد الوعي، والاعتناء، والبقاء، إنه تشيد التصبر الذي ينبغي أن يتعودوا تحسب أهليهم.

ويقول الشاعر في قصيدة أخرى:

شعر الشجاعة يخرج من كقول الرومان

من قروش بني كنعان الأبله

غضب الأشجار لا يوصف في كتب البلاغة

وقد يحيى زمن - وفاءً قوياً -

تنزع للأرض فخرها

شراً لا تكفي هذا

تتضمن هذه المنظومة الشعرية إشارات دالة على اليقظة. فقد تحدث الشاعر عن كنعان الذي مات، وقي من آثاره النقوش الخائبة الأبدية. والشاعر يشير إلى بحث كنعان الحفيد ويقظته من رقاد. وكيف لا يكون الأمر كذلك. والنقوش الدالة على علمه وحضارته وفكره باقية خالدة لقد كان هذا البحث يقظة من الرقود، حتى أن يقظته بعثت الحمية في الأشجار. وهذه إشارة إلى الأرض، فهي المقصودة بذلك لا الأشجار فقط. وكانت هذه الحمية أبلغ من كل وصف بلغ عرفته كتب البلاغة. ويشير الشاعر إلى أن اليقظة منعم الأرض التي مستقر عليها ثوب الخمول والسكون الذي تراكم عليها عبر سنوات الهيمنة والخذلان. وقد عبر الشاعر عن بلاغة الحمية والوعي واليقظة بقوله: «غضب الأشجار لا يوصف في كتب البلاغة». وعبر عن رؤيته لذلك الغضب برؤيته لبراديه إذ قال: «وما هو ذا» أي أنه يمدح مائة العيان بواديه.





## ٤- قد الرضى

الرضى هو نتيجة متوقعة للتباين بين موقفين، أو هو شعلة النور بين موقفين متناقضين، ويكون الرضى مقبولا عندما يكون منطقيا عقلانيا. ويكون مرفوضا عندما لا يكون مسموحا بمسوغاته المنطقية. وحتى تتبين أبعاد الرضى وإمكاناته، انظر في قول المناصرة:

خرجت صوب مدائن الزمر الكسبية استغيت  
الكل أقصر أن ينام

قد مر على ظمروم وشك لا ينام

حجر هو للثني وهو ان وشواى من رخام

لدينا في هذه المسطور مواقف متباينة تبينها فيما يأتي:

أولا: مظلوم يرضى ما حل به من الظلم، ومظلوم منتهب، فالبولطغان متناقضان تناقض رضى. ويكون الرضى هنا من قبل المظلوم.

ثانيا، موقف المظلوم طالبا للتصرف، وموقف من يتوقع منه أن يصبره من إغوائه. ولكن اصحاب الموقف الثاني يمزقون عن نصرة أخيرهم، ويضعون أن يتألموا.

هذا الموقف مرفوض - أول ما يكون الرضى- من قبل المظني. ومضى هذا أن الشاعر أراد أن يجعل هذه رسالة موجهة إلى القارئ من أجل أن يصل إلى هذه النتيجة. لكن هل يكون موقف هؤلاء الذين مزقوا عن نصرة أخيرهم مرفوضا من قبل المصنف الذي جاء، يستغيت بهم؟ غيرنا الشاعر يرضى هذا الطوارم لتخلي إغوائه عنه. لكنه لم يرض عنهم هم أنفسهم، بل رضى نوصهم ونفاسهم. قال الشاعر قد مر على ظمروم وشك لا ينام. وكان الراوي (المظلوم) لا يقبل نفسه التناقص، وإن قبل ذلك الآخرون لأنفسهم.

وقد أخبرونا الشاعر أن «الكل» قد أقسموا على أن يتألموا وألا ينصروه. نعم أقسموا حتى يعرفنا أن عدم نصرتهم له لم يكن مجرد غفلة، بل كان عن قصد وسبيل إصرار. وهو ليس قسم شخص واحد، بل الجميع أقسموا، مما يدل على أنه يشير إلى أن ذلك هو توجه الجميع، ومصدر اتهامهم في سلطة السياسية.

والقسم في هذا السياق له وجه دلالي آخر: فهي القسم تصعيد للموقف. وهذا يعني أن عدم التصبر قد بلغ نهايته. وحتى يكون رضى الطرف الآخر مساويا له في القوة وإن كان معاكسا في الاتجاه. فقد صعد الشاعر رضى المستبكت لوقت التخاذل. وكان ذلك بأن نشر عنه، بل عن كان مثله، صفة التخاذل والتناقص. فهي ليست من صفاته ولا أخلاقه، ومثل ذلك لا ينام. وحتى يصعد الشاعر رضى الراوي للتناقص والتخاذل، جعل هذا الراوي المظلوم أشد من الحجر ومن الصوان صلابة. هذه درجة أخرى من التصعيد تجعل الراوي لا يلزم بسبب إجماع الكل عن نصرته، إنها درجة في التصعيد أقوى من درجة تخذل من أقسموا أن يتألموا عن إعادة الحق إلى أصحابه، ولم يكف الشاعر بهذه الدرجة من التصعيد:

## تأليف: معاصلة أدباء، حوار: المعاصلة مع شعر من أدب المعاصلة

بل جعل التقني عن لحيته ومبارزه شوكة، إنه شوكة في خلق أعدائه، لكنه ليس مجرد شوكة، إنها شوكة من رطل، من أجل أن تكون أشد إيذاءً، أعلها بذلك ترد بعض الأذى الذي نزل بهذا التقني.

ويصور الشاعر الرفض تصويراً جيداً في قوله:

لماذا إذا الوجه منك لحنى

بيع الدمع لقرص وروماً

لماذا إذا الوجه منك شاطئ كالزرد من قبة شائعة

لماذا إذا جاز هذا الزمان علينا وجارت نواحيها مغلة

تؤذن في المؤمنين، ولأوجها في الرجال، ولأعنا كاللظى محرقة

وأنا بانتظار الذي سيأتي التوافق عند المساء

تؤذن في جرة الحرف، نرضع أطفالنا من نهر الجبال

وترقب السفن المارقة؟

إن الراوي يؤكد رفضه عن طريق الاستهزاء الإنكاري، الذي هو - في نظري - من أشد أساليب التوكيد توكيداً، وإن لم يقل بذلك أحد من قبل، موقف الراوي - وهو موقف الشاعر كذلك - إلا أن يرق ماء وجوهنا الشرق والغرب إذا تولدت بنا نواحيه نحن، وروستا، وموقف الآخرين أنهم يجرّون وراء أعداء الأمة في الشرق والغرب وهم يعلمون أنهم يريدون أن يخلوهم فقط، ونتيجة لتباعد بين هذين الموقفين كان الرفض على النحو الذي وضعته، وقد بقي الراوي من أجل الذي نزل به من يظنون ذلك بأنه بيع الدمع لقرص والروم. وهذا من شأنه أن يفسد روعة الرفض، بعبارة التصعيد التي جعلها هذه المصراع من الغزل.

وقد بين الشاعر بعد ذلك عدداً من المواقف التي تعاكس موقفه، وهي تبعاً لذلك مفروضة جميلة والتضيق، من هذه المواقف المفروضة ذلك الفسار المتك الذي يكون بين الإنسان ونفسه: ذلك أننا إذا جاز الزمان علينا نلعب أصعاب القضية كلاماً وخطاباً، نصرخ فيها كأننا نؤن، ولكننا في الوقت نفسه نعدن وروستا في الرجال من مواجهة الحقيقة، ونبكي كما يبكي النساء، نغير الشاعر عن ذلك فالتلا:

لماذا إذا جاز هذا الزمان علينا

وجارت نواحيها مغلة

تؤذن في المؤمنين، ولأوجها في الرجال، ولأعنا كاللظى محرقة؟

ومن المواقف المفروضة كذلك الحروف، الذي يجعلنا نحصر كلامنا، ونضيق دائرة انتشاره، حتى يبدو كأنه محصور في جرة. ولكن الشاعر لم يجعل الكلام على القضية مجرد كلام في جرة من الحروف، لقد جعله ذاتاً، ولكنه أذن لا يذات محيط الجرة، وقد فعل الشاعر ذلك من أجل التصعيد درجة التناقض بيننا وبين أنفسنا، نحن نتكلم ونرفع الأصوات، ولكننا تجعل ذلك في دائرة ضيقة، كالذي يؤن في جرة، هائي لذلك أذن أن يسمعنا هذه درجة عالية في التصعيد التناقض من أجل أن تكون الدرجة التي تعاكسها من الرفض عالية.

والشعر موقوف آخر موقوف، وهو أننا كلما نزلت بنا نازلة هربنا، ومعنا أملاكنا، وتركنا الدار والأرض، من أجل أن نخرج ونجوز أملاكنا. عبر الشاعر عن ذلك بقوله: نرضع أطفالنا من نهود الجبال. والشعر موقوف آخر موقوف كذلك، وهو أنه كلما اعتدى علينا أعداؤنا، أو نزلت بنا نازلة من الزمان، انتظرتنا السفن العابرة، من أجل أن نخرج بها البحر، خارجين من ديارنا وأرضنا. في هذا القطع من القصيدة مقارفة أراد الشاعر أن يضعها واضحة أمام العين، ذلك أنه يعرض أموراً سيئة واقعة، ويرفض أن تكون مقدمات أو أسباباً لأشياء أخرى. من ذلك مثلاً، أن اعتداء الوجه بسبب وبيلات الزمان ليس مقدمة صحيحة، ولا سبباً مقبولاً للتوجه إلى القوس والبروز. وهذا يعني أن الموضوع فريسة للزمان يمكن أن يسلم به ولو جديلاً. ولكن لا يمكن التسليم بالتوجه إلى القوس والبروز لأنهم أعداء حقيقيون. هذه واحدة، ويمكن أن نسلم ولو مكرهين بحسور الزمان، ولكننا لا يمكن أن نسلم بالخسوف أو التقصص، أو دهن رؤوسنا في الرمال. هرباً من مواجهة الحقيقة، هذه ثانية. ويمكن أن نسلم ولو مكرهين بأننا هربنا، ولكننا لا نقبل أن نستسلم للهزيمة هفر من ديارنا وأرضنا، ونظل رهينة السفن التي تنقلنا إلى الشاطئ في الأفق.

في القطع الأتي صورة ذكية من سحر الرفض، يقول الشاعر:

يا حقل القيروز

يا سطر التوروز

هل أنت ترطين

أن نبقى في الحقل

نعم الماشيق؟

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrif.com>

الصين في الثقافة العربية رمز للبعد المكاني، كما جاء في الخبر «طلبوا العلم ولو في الصين». وأما التطر في تعوز فهو رمز للبعد الزمني، لأن التطر في تعوز، وهو الشهر السابع من السنة بعد غير مألوف في الذاكرة العربية، وتعوز أصلاً هو إله الخصب عند اليونانيين الرومانيين. أما القيروز فقد جعله الشاعر في حقل، للإشارة إلى كثرة الخطأ والخطير، ومعنى ذلك أن الشاعر يخاطب غايات الزمان والخطأ، ويستلكر عليها أن يظل الفلسطينيين رهن النفي في أراضي الدنيا، إذ لا يظل أن يبلغ خطاء الزمان عبرتنا غايته، وإن نيل في النفي والتشريد غايتها.

©-2020

يظهر التحدي في صور شتى في شعر عزالدين المناصرة، من ذلك قوله:

معترف بي في كل مكان إلا في دائرة الصوت

ذلك في أحرهم من شدة صمتي

صمتي يشهد وأنا أركض مهموماً كالغش المطرور

## دائرة محاكمة البناء، ودائرة المحاكمة في شعر جر الدين الحامي

يشعر الشاعر في هذه السطور على لسان الراوي القضيبين هما سبب التعدي، أولى هاتين القضيبين أن الراوي يقرر أن الناس يشعرون به ما دام صامتاً لا يتكلم. وهذا الاعتراف لا يضمن ولا يفي من جرح لأنه لا يعيد حقاً مقتضياً إلى أصحابه، وثانية هاتين القضيبين التمثل في ما يشعره الراوي من أن شدة صمته تقلل الآخرين، لشدة شكهم وخوفهم من صمته، فهم يتصورون أنه بهذا الصمت سوف تقلهم.

وفي هذا السياق ترد قضيتان أخريان هما:

القضية الأولى: لما قال الشاعر على لسان الراوي «معترف بي في كل مكان إلا في دائرة الصوت» فإن ذلك يعني - أول ما يعنيه - أنه معترف به في دائرة الصمت والسكوت، وغير معترف به عندما يتكلم. لكنه يقول بعد ذلك «ذلك أنني أجرحهم من شدة صمتي» فكيف يمكن الجمع بين هاتين القضيبين وإزالة التناقض بينهما؟ قلت: المقصود من «دائرة الصوت» التي لا يعترف به فيها هي الدائرة التي يصرح فيها بفرقة، أو يطلب فيها استرجاع حقه، دائرة الصوت هذه مرفوضة عند الأعداء - ومن سار على دربهم - وإن فائدة الصمت التي لا يكون فيها هذا أو شيء منه دائرة مقبولة عندهم. أما الصمت الذي يجرح أولئك القوم فهو الصمت الذي يكون فيه تفكير باسترجاع الحق واسترجاع القول، وعلى ذلك يكون عندما صمتت في أحدهما بشر الظلم ويدعن له، وهذا مطلب الأعداء، والآخر يفكر فيه صاحبه في رفع الظلم. وهذا صمت مغيف وعذب يعالج بالجمع.

القضية الثانية: لقد جعل الشاعر كلمة «مهموم» متشعبة على النش الموتور. هذه الصورة لها وجهان، أحدهما يعطي الحركة للنش الجاهل غير المتحرك، والآخر يعطي عدم الانتظام لحركته المهمومة، ويظهر التعدي بصورة جميلة في قوله:

يا سيدي وأرى المداين في سبات

والدور العالي التبدل

وأرى الهضاب نصفا موج السيل

وأرى العصفور الجياح

أرى المراكب التي ثارت لشخص الحفول

وأرى زملا أعرض السمات

يوشك أن يقول

إن لم تشد الجبل ساجد

تحت الأرض البتول

إن لم تضرها وتسلعها لهراب

للسا الزرقا

تجبرت العنول

إن لم تزلها في وجههم  
ستصحو ذات يوم فوق سمراء الطلول  
يا سيدي إنى أرى ما لا يرى  
والشم رائحة  
أرى سما شهباء قدوة لفتنا هو في طعناك  
وأرى الخليل حبيبي لها لتجار أمدالك  
والشم رائحة  
فحازت إيمر حراء ظهر في النصول  
أعشى إذا طلع النهار تيمر يبروت الخليل

قد يمكن أن عبارة «بك يترسمون» قصد بها التحذير فقط، وهي هنا تستعمل للتحذير، ولكن العبارة نفسها تنطوي على إشغال قتل التحدي، لأن التنبيه إلى التعريض في هذا السبيل يرد به التحدي، بمقدار ما يرد به التحذير.

إن الخطاب في هذه الأبيات موجه إلى «السيد» العربي الذي يملك أن يقرأ عن أمته، وهذا الخطاب وإن كان يظهر في صورة من الشاذب، فإن جهة التعريض، لأنه يستعمل على امرئين هما: الاستغناء، وإظهار الخطاب (يفتح الظاهر) بعدم البصيرة.

وليس التعريض هو كل ما في هذه الأبيات، فإن الأعراس على سبيل المثال، «واضح في قول الشاعر: يا سيدي وأرى لقلبي في صبا» فهذا الأعراس صريح على سيادة السيدات في (المدائن) العربية، وتظهر في هذه الأبيات كذلك معارضة واضحة في قول الشاعر:

إن لم تزلها في وجههم  
ستصحو ذات يوم فوق سمراء الطلول

وبذلك تتكامل وجوه التحدي الثلاثة وهي: التعريض، والأعراس، والمعارضة.

والتحدي بمفاهيمه المذكورة أعلاه، مبني على استبعاد، وليس مجرد تعدد من أجل التحدي، فالراوي يقول عن نفسه إنه «يرى ما لا يرى»، وإنه «يشم رائحة»، ويرى «سما شهباء قدوة لفتنا»، وهذه كلها إشارات إلى تبصر الأمور.

إن تبصر حقائق الأمور هو الذي يدعو إلى كشفها، وهذا يشود إلى التحدي من دون شك، فالراوي يرى الغضب قبل أن تصبها السيول الهوج، يرأى كل ذلك قد وقع.

والراوي يكشف الغضب عن جوع العصفافير، وهذه إشارة إلى الجوع الشديد، لأن العهد بالعصفافير أنها لا نجوع، لأن الأرض كلها مائدة لها، فإذا كانت العصفافير جائعة فمعنى ذلك أنه ليس في الديار إلا الجاه.

ويصعد الشاعر كشفاً الحقائق عندما قال:

وأرى زماناً أخضر التسمات

يوشك أن يقول

إن لم نندد الخليل ساءت

لحنا الأرض البقول

إن لم نجرعها ونشعلها لهيباً

للسا المرقأ

لحجرت العزل

يظهر هذا التصعيد في أن الشاعر جعل الأرض نموج، إن لم تعد للأمر صفاته، وكيف نموج

الأرض؟ هذا أمر فحمة متروكة للمخاطب، وهو السيد.

#### ٦- في المواجهة

ثمة فرق كبير بين مفهوم المواجهة وفن المواجهة، فالمفهوم الأول لا يقتضي كبير وعي، ولا عظيم

تقدير، ولا دقيق حساب، أما فن المواجهة فيقتضي ذلك كله. وحتى يظهر المفهوم الثاني واضحا

نلق عند قول الشاعر:

في زمان القدي والساح

كنت أكثرهم في السباح

وما وقعت حصاة جريحا وحيدا

على صخرة في الظلام

فجاء طوفاني سكا كمنهم والساح

وحصرت بينهما على طاولات القمار

هل أبط القمار

عن أكثرهم هل أبط القمار؟

يا زمان القدي والساح

لقد انتهى الشاعر بها ابتداء به، ابتداء بالحديث عن الزمان: زمان القدي والساح، وانتهى

بمخاطبة هذا الزمان. إن ما بين البداية والنهاية حديث عن مواجهة، وقع فيها الراوي كما يقع

الحصان جريحا، فتخلله قوله، ويكون بذلك مستجابا إلى من يأخذ بيده فيقبل عثرته، ويعيد إليه

قوته. إنها المواجهة التي تستدعي ألا يترك صاحب الحق وحده، ولكنه ترك وحيدا، فهو قادر على

أن يعلم براحه، ويستعيد قوته.

لقد جعل الشاعر وقوع الحصان جريحا، وحيدا، على صخرة كسركته، في ظلام دامس، لا

يعرف أين وقع، ولا كيف ينهض، ولا إلى أين يتجه.

قلت إن الشاعر قد بدأ بالتحدث عن زمان التدي والسماح، وانتهى بمطاطيته، وهما في الواقع ليسا شيئاً والحد، بل هما زمانان مختلفان. أما الزمان الذي ابتداء به ظهور زمان التكرم الحقيقي والبيدل والتضحية والعطاء، دل على ذلك أن الراوي يقلل بين عطائه وغيره. في زمان كان البيدل والتكرم فيه شيئاً مألوفاً، ولكن الراوي يصف نفسه بأنه كان أكثرهم عطاءً: أي أنه كان فوق الدافوف.

أما الزمان الذي انتهى به، وخاطبه بقوله «يا زمان التدي والسماح»، فهو الزمن الذي يعود فيه غير امتعاب الأرض بالأرض، ويمطونها أو يبيعونها للأعداء، ثم يدعون أنهم دافعوا عن البلاد والعباد: مما وضع الراوي في مواجهة معهم: ليكشف أكاذيبهم. وفي هذا ما فيه من تعميد الواجهة، ورفع درجة توترها.

وتبرز الواجهة باعتبارها مترباً من التصوير الدال في الأبيات الآتية:

يا هذه المدن السنيه عندك الخير اليقين

أنت التي خلقتي فمرا طريدا دون بيت

إن الزمن الشهير صغرا الزوجه

ورغمنا بالخصت في ذاك اليك

وأنا أريد بني أسد

قلوا لي واستأندوا

يا هذه المدن السنيه، يا قلواها نجاج

أسبعتي ملحا أجاج

بيني وبينك خيط فاطمعه - فاطمعه

فاطمعه

أول ما في هذه الواجهة إمطاة التلام عن صبيغوا وجوههم، وتلفعوا بالصمت فلم يتصروا مطلقاً. وقد عبر الشاعر عن التثوب بعبارة «خلقتي فمرا طريدا دون بيت»: لإحداث مفارقة بين ما هو كائن، وما ينبغي أن يكون. فما هو كائن أن القصر صغار طريدا من غير بيت. وما ينبغي أن يكون هو أن يظل القصر مطلاً على كل بيت، وفوق كل بيت. أما أن يكون غير ذلك فتلك مفارقة، وأما أن يكون مطرداً مع كونه طريداً، فذلك لتعميد تلك المفارقة.

ويحكي الراوي كيف أن المدن المعشيه فكتت أبا الشاعر، في إشارة إلى حكاية مقتل ملك كند، والد الشاعر امرئ القيس. ثم استأند القوم عليه واستضعفوا، وسقوه الملح الأجاج. وذلك إشارة إلى ما نزل بالشعب الغلوب على أمره، من مر العيش، وعظم الحبال.

ويختتم الشاعر هذا المقطع بدرجة فيها لتعميد في الواجهة، عندما يطلب من تلك المدن، أن تلتصق خيط الود الذي بينه وبينهم.



ويكرر الشاعر كلمة (الطعمية) ثلاثة مرات، ليس من أجل التوكيد كما قد يظن، ولكن لإحداث تصعيد في هذا الموقف.

ولكن التواجية وتصعيدها يبرزان واضحين في الأبيات التالية:

وبها شعر العنقوان اللذيذ

زرعدا زرعدا زرعدا

وهم دائما يقطنون النبيذ

مطر حامض سوف يغسلنا بالذهب

مطر حامض في السحب

مطر حامض في القلوب

مطر حامض سوف تشرب منه الرعول

مطر حامض في السيول

مطر حامض في صهيل الخيول

مطر حامض في النورع

مطر حامض في العيون

مطر حامض في نورة الخمر

بعد ذلك تأتي الأبيات الثلاث الأخيرة:

في هذه الأبيات ثلاثة درجات من التواجية هي: التثنية بالعنقوان، وتصعيد التواجية، وشمولها. أما التثنية بالعنقوان، فقد عبر عن الشاعر بقوله: «وبها شعر العنقوان اللذيذ». وتتعلل حقيقة التثنية بالعنقوان سيكولوجية، في هذا السياق طبعاً، بمقدار ما يرفع من ألم الحرمان والتشرد، فإذاً اقتربنا من الألم الناجم عنهما قد بلغ عشر درجات مثلاً<sup>14</sup>، فإن رفع أي درجة من هذه الدرجات العشر، يستحق منه درجة أو أكثر تقابلها من اللذة، وعلى ذلك، فالثنية هنا مخطئة تماماً من اللذة السابقة. إنها اللذة الناجمة عن تقليل بين الألم ورفضه. وتكون اللذة أقوى عندما يقوم من وقع عليه الألم، يرفع هذا الألم عن نفسه بنفسه. فهو بذلك يتأني له وجهان من اللذة، أحدهما بسبب رفع الألم وحصول لذة بذلك، والآخر بسبب أن جهوده لم تضع سدى.

وقد عمل الشاعر على تصعيد التواجية درجة فدرجة، فقد بين حصول فعل الإعصار الذي أشار إليه بالفعل (ينبأ) ويكرر مرتين آخرين، لا لجره التأكيد كما قد يظن، بل لأن الإعصار نفسه تكرر، وعلى ذلك، فالتكرار هنا للتعبير عن تكرار الحدث نفسه، وليس للتوكيد فقط، وقد شغف الآخرون لمار الإعصار «وهم دائما يقطنون النبيذ».

(14) أي مقياس سيكولوجي خاص في قياس اللذة والألم، وهو في طور الدراسة، وسأصدر فيه كتاباً في شاء الله تعالى قريباً.  
والدرجات العشر المذكورة هنا لها أسماء خاصة، وما يقابلها له أسماء خاصة كذلك.



وهذا حدث من شأنه أن يدفع إلى المواجهة، لقد جاء ذكر الطمر الحامض سبع مرات في هذا القطع، وهذا التكرار من شأنه أن يبعث المواجهة وما يدور إليها، والتكرار هنا يقدم التوتر، وأما شمول المواجهة فتتجلى مما أمطر به الأعداء والأصدقاء، الشعب المفلوج على أمره في كل شيء، فمطر حامض في السمول يحرق أخضرها ويابسها، ومطر حامض في القلوب يثقلها، ومطر حامض كالسبيل الجافة، ومطر حامض من الدموع المتحجرة، ومطر حامض في العيون المحترقة.

ولكن شمول هذا الطمر يقتضي أن يشرب منه بعض من حملوا على إنزاله بالطلوسين، «مطر حامض سوف تشرب منه الوعول» بل إن العير قد تشرب المطر الحامض، وسيفلق ويتفجر في وجوههم. سامنتك اكتشاف المواجهة عن نصر يتمثل في قوله «بعد ذلك تأتي الأناشيد والثريرة الصالحات» وتظهر المواجهة هي قول الشاعر:

زبد أن نسحق اليهار  
سما لمن دفوا رؤوس أطفالنا بالمعارة  
ثم لا نكتفي يا مهدد الرموز هذا  
ثم لا نكتفي يا أربب الصيد هذا  
ثم لا نكتفي يا كنعانيات الدمع هذا  
ثم لا نكتفي هذا  
ثم لا نكتفي هذا  
ثم لا نكتفي هذا



إن اليهار ليس سما. ولكن الشاعر يعطيه شمة، فذلك إشارة إلى جعل كل شيء سما حتى اليهار، وقد تكون إشارة إلى جعل السم بهاراً للأعداء الذين دفوا رؤوس الأطفال بالمعارة، إن شمة لشبهة بين دف الأعداء ورؤوس الأطفال، ودف اليهار إلى درجة المعلق، وهذه درجة من درجات التصعيد، ومن الدين القاصدة موقل في الرمز والغرض. ولكنه هنا كشف نفسه، فأصبحت عباراته كلها من دون إيهامات. لذا فعل ذلك لأن دف رؤوس الأطفال بالمعارة لا يحتاج إلى رمز ولا إيهام. اسمع الشاعر نفسه للعريف شمة تلمح، فالتكشف عباراته كلها بعد ذلك. وهذه طريقة في التعبير، وليست خروجاً عن المنهج الذي اختطه الشاعر لنفسه، كأن الموقف عندما يكون هائلاً عظيماً، يكون التعبير عنه بالرمز إغناء لهولة ومطامعة. وهذا مزالق خطير، ما أراد الشاعر أن يوقع نفسه فيه، وقد أحسن أنه لم يفعل.

وردت عبارة «ثم لا نكتفي بهذا» ست مرات في القطع الذي نتحدث عنه؛ لا لأنه أراد أن يؤكد عدم الاكتفاء، بل لأنه أراد أن يجعل مساحة عدم الاكتفاء أوسع؛ بحيث تتجاوز الرموز، «ثم لا نكتفي يا مهدد الرموز بهذا»، وتتجاوز الخوف والشعير الخوف، «ثم لا نكتفي يا أربب الصيد بهذا»، وتتجاوز الدموع والأحزان، «ثم لا نكتفي يا كنعانيات الدمع بهذا»، وتتجاوز

## تأليف: مفاهيم البنا - دكتور، المواجهة مع شعر من أدبية المناصرة

الحدود التي تضيق دائرة الاكتفاء. ولذلك فقد جعل عبارة «لم لا نكتفي بهذا» مفتوحة في السطور الثلاثة الأخيرة:

ونحنم حديثاً عن المواجهة بقول المناصرة:

سأقول الذي لا يقال

بعد أن وزعتنا طيور الحريد

وحرمتنا السؤال

عن الورد والفضة والصوت والنبوة للنبوة

إن القضية ليست هي أن يقال أو لا يقال الذي لا يقال. إن القضية هي أن هذا الذي سيقله الشاعر أكبر من كل ما حرم السؤال عنه. وهذا يعني أن المواجهة واقعة لا محالة. ولكنه هو المبادئ بها هذه المرة. وهو الذي سيسعدنا، لأنه سيقل الذي لا يقال.

### المطلب الثاني: قصيدة العراب

هذا هو الوجه الثاني من القضية. وهو الوجه الذي يجعل بعض القراء يعتقدون أن عز الدين للمناصرة يوشح أعماله الشعرية بوشاح أسود مقتطع من التشاؤم واليأس. وليس الأمر كذلك. فالشاعر كان يسجل كل ما يجري لهذا الشعب من حرمان وتشريد وضياع ومأساة وهذاب حيثما حل ولارتحل. ثم إنه لم يقتصر عليه كما وضعنا في البحث الأول.

استمدت رحلة العذاب أيضاً، قسماً بنهايات القرن العشرين أو المأساة الغريبة لعميل على اقتلاع الشعب من أرضه: لإحلال اليهود في فلسطين. وإقامة دولة صهيونية لهم في الأرض المقدسة. وكان التشاؤم على أشده بين المثقفة لتتفقد الحلم الصهيوني. وأنت في فترة الحرب الباردة بين المعسكر الغربي والمعسكر الشرقي. كان الخلاف بين المعسكرين على كيفية التنفيذ، لا على جوهره وأساسه. وكان هذا الشعب القلوب على أمرة. يدير على طريق من الأسئلة يقول المناصرة:

العنة أشواك

العنة أشواك وزجاج مكسور

قشي القنار عليه

الحرب الأصفر يا مولائي حفر وجسور

تعاثر في جنبيه

وأيا ينها مضرب مفرور

فالتطريق أشواك وزجاج مكسور: يشير بذلك إلى أن الرحلة دامية في طريق دامية. وهي كذلك مطوّلة بالعصر: يشير بذلك إلى المهالك في هذه الرحلة. وأما الجسور فهي تشير إلى البلدان والممالك التي من السير تجاوزها واختراق حدودها. طريق هذا شأنها، لا يكون تجاوزها أصراً ميسوراً. وأما أن الرجل قد أصبح مصفوراً مفروراً، فإنما هي إشارة بعيدة إلى أن الجو نفسه لا

يمكن تجاوزه من البرد الذي يجعل الحصفور مشرورا خبير قادر على الطيران، ومعنى ذلك أن الأرض منطقة أمام هذه الرحلة، وأن الجو مغلق كذلك، وبجعل ذلك بين طياته أن الطريق كلها منطقة برا وجوا، وليس هذا بأمر ولا محاولة للتسريب اليأس إلى القارئ، ولكنه الواقع كما يراء الشاعر، وإنه واقع.

في الأمانة من الناس سطحية، تسعيها الاستعمالات السائلة على الأمانة «فئة الأنهرامية»، ولم يكن هؤلاء أقل خطرا على القضية من الأعداء أنفسهم، فقد كان هؤلاء يعتقدون أن إقامة الكيان الصهيوني أمر محتوم، وقضاء لا مرد له، وفكر ليس له دافع، إنهم يسيرون من مواجهة العدو، لم يكن هؤلاء ليخطوا شيئا للقضية، ينصرونها به أكثر من الكلام، كانوا كثيرون الكلام، قليلي الفعل، يقول الشاعر:

لأن حرب من فكر أخرج لا يموت  
لأن البلاء إذا حارب مثل عيون المذات تحت الجلاء  
لأن كنت كثير الكلام كثير السكوت  
لأن سظل هنا في الفكر تحت البحار التي لا تعيش  
تعمر وفوت هنا قبل يوم الخروج وتل قلوب الجيوش

إن هؤلاء يسيرون من الوهم الذي ينصرونه شعرا، وقد حذر الشاعر من هذا الوهم بأنه قدر الصرخ، وإنه لا يموت، أما أنه صرخ، فلأنه وهم لا يقوم على ما يؤيد قيامه، ويكون سببا منطقيًا له، وأما أنه لا يموت، فلأنه صرخ، إما لأن المذات (تتبع المذات) يتصوره كقولها التي أنه يتصوره ذات ديمومة وبقاء غير قابلين للموت والقضاء أو الزوال، وإلا لأن الوهم لا يموت، حتى يموت سلبي.

هذا هو البلاء، وقد عم، وأصبحت المذات (الدول) خارقة في عدم التصور الواقع على حقيقته، فقلت غرقت في انعدام الرؤية، وقد جعل الشاعر عيون المذات منطقة وهي في الجلاء، من أجل أن لعل منطقة، فإنها تظل وأصحابها في قاع البحر، فأتى لها أن تنصرف وتل من يقف عند قول الشاعر، لأنك كنت كثير الكلام كثير السكوت، يعني أن فيه شيئا من التناقض، وليس الأمر كذلك، فإن المقصود بقوله «كثير الكلام» الكلام الذي لا يكون معه فعل، ولا يؤدي إلى فعل، وأما «كثير السكوت» فالمراد به هنا من لا يفعل شيئا، وقد جعله الشاعر كثير السكوت لا لمجرد الدلالة على عدم فعل شيء، فقط، بل لإقرار العظم، فإن السكوت علامة الرضا، وهو في هذا السياق هو الرضا، فقد نجح الشعب الفلسطيني في غريته ورحلته التمريرية منارة التشرد، وأصبح طلبا للحاكم، وانصرفت الأمة من مجاهدة الأخطار المتدفقة بها، يقول الشاعر:

أمر على العرب فترديني  
وطلبني الملقوس للحاكم  
ولكن حين لا أذكر أهل بني  
فكر نركب الجبول مع السراير

## ليلة حياضه الياء، ويا، الحياضه مع شعر من الحية الناصره

إنها صغرة من صور ضعف الأمة بأسرها. كيف لا وهي التي تركت الحيدل ترفع مع البهائم  
السائمة، بدلا من أن تجهزها للعربية

وقد فلتت الرحلة السراوية أعلاهم، وقادتهم إلى النجاشي أو النجاشي، وقادتهم إلى تشرد أو آخر، يقول الشاعر:

غلبت رمادا يفرقثر في النهر

أو مجزرة

وفي كل قطر لنا منيرة

وأجثار كل غلط المحنود

لأصغر على رحلة أو شهيد

أفهم على وطن في الهواء

حشرت بذكريتي خاصة

ومثلت الهزائم متلازمة، وظل هذا الشعب مناعيا للتشرد إثر كل هزيمة وتكية، يقول الناصره:

رجعت من المنفى

في كني خلف حدين

حين وصلت إلى المنفى الثاني

سرقوا مني الحقون

وقد صور ذلك في حلقه آخر، عندما جعل الشاعر الهذلي مرادفا لقواقل التشرد واللجوء،

كلما وضعت قافلة النرويج أو زارها المظلمة فاقلة أخرى جديده، يقول الناصره:

ألا لا أقول أنني

جعل الريح تنكي، تنهت، سر قود

ألا لا أقول انتهت، فما زالت في غربي

مرتها لقواقل، ما زالت باب لجوء

ولم تكن حالات النزوح رحلات نزهة، بل كان الضوم يعدون المغالبة في كل مستقر، وما هو

بمستقر، يقول الشاعر:

أسطلي بالوهم دوما بانتظار السحرة

جندكم من ساحل الموت ومن قلب الأخطي

ولنا أخرى وأخرى، أزوع الحب وهمر

تظنون الشرة

يحسبون الكلب ظل الشجرة

لقد كان الوهم مغنا كبيرا من معالم رحلة السراب، ومن الطيور أن يكتوي الواهمون بنار  
الوهم، حتى أنهم سيخربون عن الوهم الماكوف، ليصيروا إلى الوهم شهر الماكوف، كان يتوقع

الحدود، أمرا خارقا من ساحر- لقد ذهب الشاعر إلى أن أولئك الواهمين ينتظرون سحر السحرة، مما ليس له صلة بعقل أو منطق، وهذا ضرب من تصعيد الوهم، التصعيد يكشف عن مفارقة هائلة في انتقال الواهم من وهم إلى وهم أسوأ منه.

يتحدث الشاعر في الأبيات السابقة عن صورة من صور هذاب التشرد؛ فقد ظل الشعب يجري ويجري، يتكرر الفعل الضارع (يجري). تكرار هذا الفعل قد يجعل الدلالة واحدة. وبذلك يكون المعنى أن يجري لم يتوقف. وقد يدل التكرار على اختلاف مطعون الكلمة الأولى من الثانية. وبذلك يكون المعنى أنه ظل يجري، وبكـ.

وصف الشاعر الشعب الفلسطيني بأن الأعداء لم يجعلوا له إلا طيار الأسوأ دائما، يقول الشاعر:

هل أنزع نفسي؟

أمر أنزع نفسي؟

أمر أنزعها؟

خيارات ثلاثة هي في حقيقتها طيار واحد، وهو الموت المتعارف.

لقد ظل الفلسطيني وحده. وقد عرض الشاعر ذلك بصورة جيدة فقال:

تجمع عيني وحدي

أشكر وحدي

أنتي في الشارع وحدي

أزيع شجر الحب وحيدا

وهي رحلة السراب وقع الناس أبصرى التفريفة والتشويخ بينهم وبين إخوانهم. لقد كان الأعداء حريصين على أن يتفعلوا في كل صغيرة، حتى تصبح حربا دامية، يقول الشاعر:

كلمات قال فتكبر شر تروح

والذي بينا

حبة كثرها ضارت فروح

مرة يحدث الارتداد

إنما دنا ليس ماء

دنا ليس ماء

في خضم الرحلة السراب ظل الكبراء يسيغون الكلام على الناس، ويتعمدون على المحرومين بالعود والخطب الرنانة. حتى تحول الأمر إلى ما يشبه الهياس، وعجزت الأمة عن مجابهة أعدائها. وقد قال الشاعر عن أصحاب تلك الخطب الرنانة:

لن تصلي تحت رأس المنيّة

قبل أن قطع على الإنيّة

## زيادة مساحة البناء، وجمال المعاني، مع ضم من البيت الشعري

وكان من بين مظاهر رحلة السراب أن كثيرين كانوا يلهثون وراء انتماءات عقلانية وأفكاراً لأنهم كانوا يمشون فيها سبيل الطلائع الوحيد لهم والشعبيهم. وكان هؤلاء يلوكون تلك العقائد والبدائن، في الوقت الذي كان العدو يفتك فيه بأفراد الشعب، يقول الشاعر:

كانت خطوات الموتى في الليل تن  
حول كؤوس البيرة والجن  
كما نفاكر قتلاً في حفل التشنج  
ومضغاً بين الفكين الأعلى والأسفل، لينين  
كمر أكره قسماً كمر أكره قسماً  
وإذا أسمع خطوات الموتى في الليل تن  
حول كؤوس البيرة والجن

إذا نظرت في قول الشاعر، بمضغاً بين الفكين (الأعلى والأسفل) لينين، تستجد الكلمات المترونتين (الأعلى والأسفل) قد جاءت لتؤدب وظيفة في هذا الواقع. فالمعروف أن كلمة (الفكين) تعني الفك الأعلى والفك الأسفل. فالتوضيح إذن لحصول حاصل لا قيمة له، تماماً كما أن أولئك مبادئ لينين لا قيمة له. وهذا أبلغ بكثير من أن يوصف التمتع والتعذاب بلوك مبادئ لينين بأنه لا قيمة له. وعلى ذلك، فإن هاتين الكلمتين (الأعلى والأسفل) وإن كانتا لحصول حاصل، من حيث كونهما معلومة من المعلومات، لهذا كذلك من حيث أداء بعض أغراض بصورة غير مباشرة. وقد عبر الشاعر عن حالة الصدام التي تجري داخل النفس الإنسانية، بحيث إن الواحد يحتقر نفسه، وهو يواصل مع أولئك الذين يلوكون مبادئ لينين، في الوقت الذي أصبح فيه أكثر الناس كالأموال:

كمر أكره قسماً كمر أكره قسماً  
وإذا أسمع خطوات الموتى في الليل تن  
حول كؤوس البيرة والجن

من الصور التي عرضها الشاعر في رحلة السراب ما يظهر في قوله:

يتزق قلبي لصهيل الزورم  
وزوراء الزورم الزورم - الزورم  
فلاقي الطعانت نوحه وجهك يا زورم؟  
وبالي الساعات الخورم؟

لقد جعل الشاعر الصهيل الزورم لا يخبوهم؛ حتى يكونوا من شدة حقنهم وغضبهم كالخيل لصهيل في الحرب، ثم إنه جعل الزورم صنفين: فصنف هم الزورم الحظويون، سماعهم الشاعر «الزورم الزورم»، وصنف آخرهم الزورم الأتباع والعلاء الذين ياتمون بأمرهم.

في ضوء ذلك كله، أصبحت الندابات لإنتقاد الأرض والشعب من دون مستوى نقد ضاعبت الأصوات سدى:

كنا نهرح عطرنا والأرض تندهنا

فلا تصغي لها

الأرض تندهنا فلا تصغي لها

لا تندهي نهرور

إن الليل في هذا النصول يطول- يصبح كالزبد

لا تندهي والذهب في كل النروب

وأنا وأنت تصبح في الدنيا سدى

لا تندهي- ما في حذا

عطر السواحل قد تنحوا عن موافقهم

وتنصر طهوتون

لقد كان من أسوأ مظاهر رحلة النروب في الساحة المصرية الخوف، وعدم الثقة، وانكفاء



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhalin.net>

الإنسان على نفسه، ومثل هذا واضح في قول المناصرة في قلبى الإنسان

لا أمكها إلا للميطان الصماء

أرضي أن أمكها للفرز

ذلك أن لسانى يا أعيان متفول

هكذا يفعل الخوف، وعدم الثقة، لا أمكها إلا للميطان الصماء، إلى درجة أن الواحد يتصور

الأخر غولا سبأكته- وإلى درجة أن ينكس الإنسان على نفسه عندما يفلل لسانه.

### المبحث الثاني: بناء الحضاريه

لمز الدين القاصصة طريقته الخاصة في بناء مضامين قصائده.

وستبحث في هذا المبحث المطالب، الألية، الزمن، والاستحضار التاريخي،

والإيقاع الدرامي.

### المطلب الأول: الزمن

من المألوف أن يستعمل الشاعر أمرا ما وزما لظنية معينة، أو شطط معج- ومثل ذلك أن

يرمز أحد الشعراء بالمندهاء إلى من لا يحط رحاله بمكان لكثرة الترحال، ومثله أن يرمز

شاعر ما بـ «سينيف» في الأسطورة اليونانية الذي ظل يروح تحت الصخرة، إلى من كان

شائه كذلك من الأفراد أو الجماعات أو الشعوب. ومثله كذلك أن يرمز شاعر آخر بشهرزاد

أو البراءة التي لم تكف من محادثة الملك شهرزاد، وتسلية بالكف ليلة وليلة، إلى من كان شائه

## تأليف: هنادية البنا - وجاء: المناصرة في شعر مرز الدين الناصري

كذلك، ويشير إلى أن من كان فيه بعض سماته، قلت، هذا كله أمر ثانوي. والدليل على ذلك أن هذه الأسماء تتكرر كثيرا عند الشعراء المشهورين كالسياب، ونزار قباني، ومحمود درويش، وهز الدين الناصري.

والأحسن في استعمال الرمز أن يضمن الشاعر في قصيدته مضمون قصبة الاسم الذي استخدمه رمزا، بدلا من أن يذكر الاسم فقط. وحتى أبعث ذلك أقول من الأفضل فيها، أن يجعل الشاعر حياته رحلة لا تنتهي، وأن يقص علينا أطرافها يفصلها أو يجمعها من رحلته، بدلا من أن يصف نفسه مجرد وصف بأنه العنيد.

ينسج مرز الدين الناصري الرمز بطرائق متعددة نجعلها فيما يأتي:

## الرمز التاريخي:

يستعمل الناصري الرمز للتكثف في كثير من أعماله، والمحمود بالرمز للتكثف، ذلك الرمز الذي جعل بين جنبه دلالات كثيرة، ويحمل ثوبا لذلك تأويلات كثيرة، كلها صمغ باعتبار وجهته في التأويل. وليس مطلقا من الشاعر أن يلم بتأويلات الناقد كلها، ولا أن يكون أراؤها كلها حقا. هذه ليست وظيفة الناقد والمثالي.

يكثر الحديث عن (كتمان) في شعر الناصري، وكتمان هو الأصل، ولكنه يرد بأشعاره فرعا، ويرد في شعره كذلك باعتبار صفاته، وكذلك باعتبار بقاءه وديمومته. إذن فاجتماع (الأصل) والفرع (والصفات) هو البقاء، حارب من التكثيف الذي ينته عن البيان المباشر، ويعيد الإفصاح عنه.

أما كتمان الأصل، كتمان التاريخ، الذي يردد في أحسن الجعفر أيد، فانظر إليه في قول الشاعر، في قصيدة بعنوان: كتمان:

<http://Archivebeta.net>

وفي ليلة كاتمة

توهج كتمان بين حقول الشعير

توهج كتمان وردا وغرقا وغبرا وشابا

على ثلة قرب برقة المنحدر

إن الشاعر هنا لا يكتفي بأن يكون كتمان تاريخيا، ولا أصلا فقط. فهو على خلاف التاريخ كله مازال يتوهج. ولذلك جاء عنوان القصيدة على هذا الشكل، وهذين القطعين «يتوهج كتمان». إنه على خلاف التاريخ كله يتوهج في الجغرافيا. يتوهج في الليل فيجعله قدرا على الأعداء، يتوهج في حقول الشعير فيجعلها كتمانية. يتوهج في البرد فيعيق شذاه فيه، ويتوهج حتى في الخوف، وفي المائل وهي المشرب، إنه التاريخ البسيط، لا التاريخ النائم. هذه اللامني مكثفة بطريقة تدل على مهارة خاصة، وقدرة على التكثيف. يخاطب الشاعر كتمان في قصيدة له بعنوان «تقبل التعازي» في أي منفي، فيقول:



وأما كنعان = كنعان = قد عرضوا كثيرا

إنه وكلف هذا طبع التاريخ لا يستثيرهم من يعملون هذه التهمة فقط بل يستثير منهم كذلك، ولهميز الطارقة بين كنعان الذي يعني ويقيم ما معنى أن يعرض أهله للبيع والشراء، ومن يزعمون أنهم يعملون طبع التاريخ، ولا يفهمون ما معنى أن يعرض أهل كنعان لصفقات البيع والشراء. إن هذه المعاني مشكلة كلها في هذا الخطاب الذي يتوجه به صاحبه إلى كنعان الأصل والتاريخ والمعرفة.

إن الشاعر يلج في كثير من أعماله على أن يظل كنعان التاريخ والأصل من بين أعضائه الجغرافيا ليجعل ملكية للأرض كالمظاهر الجغرافية التي لا تقبل التحول، يقول الشاعر:

كنعان يخرج فخرًا

كتر حصة في حجر

ويقول:

وكنعان نخل وحرور وسط إذن

وأكثر من ذلك، فإن ديوانين من ديوانين الشاعر يعملان اسم كنعان هما: كنعانيات، وروبيات كنعانية.

أما كنعان (الضوء) فقد ورد في كثير من قصائد الشاعر. يقول في قصيدة له بعنوان «مروج الكنعانيات»:

الكنعانيات بعض

يصلون على الجبل المزدك يدع الأبد

<http://Archivebeta.Sakhal.com>

المروج سيف الأعداء

المبتل سيف الأعداء

إلى أن يقول:

وبكين وأطقن وغاريد الزينون

الزينون بعض الزينون

ساهر لظن في حبه

قلت إحدى الكنعانيات هنا دمه

واشتدت قرات الطفل

لما دمه الذهب على حيطانك يا بيروت

وأما كنعان الصنات فظاهر في قول الشاعر:

يحييك كنعان ملتحيا بالتوج

يطير البسار على كتفيه

على فرس أصهب ليلة الأجناس

وبسبحته صافى لحبي - وحيته من حرير

يجيدك كنعان

كشيرة من زجاج وحيته غافلين

في هذه السطور الشعرية بعض صفات كنعان فهو يجي، ملتعباً بالتلوج، لا يقصده بذلك، يباحث القضية فقط؛ فثمة معان أخرى مكتشفة في هذا الوصف؛ فببإيض التلج هو التفاء، والصفاء، وببإيض التلج هو الذي يفسر الأرض، فيلشر عليها من صفاته، حتى لا يورى من الأرض إلا صفاء البياض ونقاءه، ذلك الصفاء الذي لم تعالطه الألوان فتغير من طبيعته - هذا هو شأن بياض التلج، وهذا هو سميت كنعان، و(كنعان) بطيور اليمام على كثافته؛ لأن وداعته مثل وداعة الأرض نفسها التي يحط عليها اليمام، ومثل وداعة الأشجار التي يطير إليها اليمام - إنه - باختصار - الحالة التي تتحد فيها صفات الإنسان بصفات الأرض التي هي له، وهو منها في الوقت نفسه، هذا، والرمز الكثيف في شعر القاصدة أصناف شتى، وفيما يأتي شرح موجز لأهمها وأكثرها دوراً في شعره:

#### ١- التكيف البيئي (١٠)

المقصود بالتكيف الرمزي التذييل أن الشاعر يستعمل رمزا معينا، ثم يشرحه في الحاشية شعرا، يقول القاصدة: وأنا أول من وضع الهماس في ذيل القصيدة (١١)، ليس الهم في هذا السياق أن يشرح الشاعر كلمة أو رمز في الحاشية، بل في هذا هو المقصود من التكيف الرمزي التذييل، يكون التكيف الرمزي مذكرا عندنا بشرح شعرا في الحاشية برمز آخر، في قصيدة «روسيا قبل المطر» بعد الأخر - ستة رموز مكتشفة، شرحها في الحاشية، هذا واحد منها:

قال الشاعر:

ويترني عند طرح السلام

أما طرح السلام فقد جعله الشاعر رمزا لميل الراوي إلى السلام والمحبة والمودة، وقد شرح هذا الرمز المكتشف بالتذييل الآتي:

أنا تشهد زينا من الآخرين

ظلمة نعة نعة شرابي القصور

يضيئون أحوالهم في القصور

وأنا لثوب الزيت في المعصرة

أضيف له كغراء الرحيل

وحيز الطيور

(١٠) مصطلح وضعه الدراسة ابن التاج الرمزي.

(١١) «مرايا» القاصدة «الأعمال الشعرية» - حاشية ص ١٣٧.

والخذ من حركاتي نذرة

والتيب لها حرفة الطيبين

هذه السطور تشرح سبب ابتزاز العدو للرواي السليم الوديع؛ فهو يشرع أرضه؛ لأن هذا العدو:

1- لا يملك الأرض ولا زيتونها؛ ولذلك فهو يشهد الزيت من الآخرين لتلبية حاجة. أما الرواي فهو يشرب الزيت من المعصرة لأنه يملك الأرض وزيتونها.

2- ليس عنده من الزيت ما يضيء في ظلام الليل، أي أنه كان يعيش في ظلام دامس دون رصود حضاري. أما هو فعاش في الزيت الذي كان يضيء به في الظلام. وهذه إشارة إلى الإرث الحضاري للرواي. وعدم وجود إرث حضاري للمغتصب.

3- المغتصب يريد أن يصادر كل شيء، حتى النصوص فإنها لا تسلم من المصادرة والسروقة، عندما يعرفها لمصلحته ويفسرها كما يريد، وهو يقصد بذلك تزوير الحقائق التاريخية. وقد وردت كلمة (أمنوا نعم) سخرية واستخفافاً. ومع ذلك، فإن هذا الرصود الذي يملك الرواي من الأرض والحضارة، لم يضع كهرماء الرحيل والتشريد من أن تصعبه يعيش في حروقة هو والآخرين من المستغصبين من أمثاله.

4- التكيف البحر الخنة<sup>(\*)</sup>

اقصود بهذا النوع من التكيف أن يكون الرمز مقبلاً على حقائق علمية أو تاريخية، أو أراد سائلك وذلك كما في قول المعاصرة:

جدي كنهاني بحر بلقي

بورج الحروف الجديدة والفتات تغير التاريخة

فيل، جاء على فرس من عسير

وعلى مركب أبيش من كريت

فيل، مهر من اليمن في مدينة أثينا

يعرض الشاعر هنا مسألة الأصل الكنعاني للفلسطينيين؛ فيجعل ذلك رمزاً مكلفاً يلفه بأراء وحقائق تاريخية؛ فجعله بشوياً متجولاً. ويبر عن هذا التجوال بأن وصفه بأنه «بحر بلقي»؛ أي يطلع به من التجوال في الصحراء الذي قد يكون ضياعاً، وقد جعله بحاراً؛ لأن الإبحار فن وعلم ورصود حضارة. وجعل الشاعر كنعان يوزع الحروف؛ إشارة إلى ابتكارها، واللغات غير الدارجة؛ إشارة إلى أن الكنعانية كانت أصلاً لعدد من اللهجات العربية غير الدارجة «اليانعة». ثم يشير إلى بعض الآراء في منبت كنعان؛ إذ قيل إن أصله من قلب الجزيرة العربية، وقيل إن أصله من اليمن. أما القول الذي ذكره الشاعر. وهو أن أصل الفلسطينيين من جزيرة كريت، فقول لا يستند إلى حقائق علمية ثابتة، ولكنه رأي يأخذ به بعض المؤرخين.

(\*) مصطلح يشهده لدراسة أحمد أنوار الرمز.

## تأليف: مناصرة البنا - ديان المناصرة في شعر من أدوية المناصرة

وعلى كل حال، فإن التكليف الرمزي للفتح يشغل حيزاً كبيراً من شعر المناصرة، ويكفي هذا المثال الذي ذكرناه.

### 1- التكليف الجزئي (القصيدة)

يقصد بهذا النوع من الرمز ما كان منه مكثفاً ومفصلاً في آن معاً، وذلك مثل قول المناصرة:

بالأخضر كغناء  
بالأحمر كغناء  
بالأبيض كغناء  
بالأسود كغناء

يقصد الشاعر أن التشديد قد كثر بالحياة الفلسطينية كلها: بالزيتون الأخضر، وبدم الشهادة الأحمر، والصفاء والتقاء الأبيضين، والحزن الأسود.

وهذا النوع من الرمز المكثف شائع جداً في شعر المناصرة، وهذا المثال يكفي لبيان الدلالة عليه.

### 2- التبريد الحكائي

من خصائص شعر المناصرة أنه يجعل الحكاية رمزاً لمنش من المعاني، وكثيراً ما نجد الشاعر قد ألفه حكاية، يرمز بها إلى المعنى الذي يريد، من مثلاً مثلاً قوله:

الأخضر لو عدني، والأخضر حين يقول،

يفعل ما قاله حينه الأخضر

والأخضر حفر للأرض

صديق الشمس الخضراء

الأخضر صوت الطير الناري

وصوت الأمل

الأخضر رسال النار إلى النار

والأخضر يولد حين يموت

فالأخضر هنا هو الزيتون، هذا الزيتون الأخضر بعد، ومن خصائصه أنه إذا وعد صديق وعد، وكان وعده مثل وعد الحبيبة الخضراء، وهي الأرض الفلسطينية الخصبة. كل شيء في فلسطين أخضر، بأشجارها، والحجارة البركانية السوداء، وشمسها، فالخضرة والخضرة والغطاء هي التي تبعث الحماسة والفؤاد في أبناءها المتوقفين حساسة وحساسة وإياه، هذه الخضرة هي الحياة التي تظل مستمرة في وجه الحياة «والأخضر يولد حين يموت»، فهو مستمر في حياته، دائم في وجوده، ولا يستطيع الموت أن يمسحوه.

(\*) مصطلح يشتمل لوصف أحد أنواع الرمز.

## ٦- معاهدة الرموز

من المألوف جدا أن نجد الرمز في شعر المعاصرة مصدرا لسلسلة من رموز تتوالد منه. وقد سميت هذا النوع من الترميز بسلسلة الرموز، أو الرموز المتوالية *generative symbols*. وحتى توضح هذه القضية بمثال من شعر المعاصرة ننظر في قصيدته «يا غيب الخليل» التي جعلها أما لأحد دواوينه وعنوانا لذلك الديوان.

لقد جعل الشاعر غيب الخليل مثالا للحرية والإبداع ورمزا لهما فقال:

سبحان عمر ليل الصيف أغنية خيلية

تقول: يا غيب الخليل الحر... لا تنثر

وإن أنثرت كن ساء على الأعداء لا تنثر

فهو رمز للخليل، بل الفلسطيني الحر، ولهذا وصفه الشاعر بأنه حر. ولما كان الأمر كذلك فهو مطالب ألا ينثر، وإذا أنثر فليكن سما على الأعداء. هذا رمز لما ينبغي أن يكون عليه الإنسان الفلسطيني كما قلنا، ولكن الشاعر جعل غيب الخليل ورمزا لهذا المعنى.

بعد ذلك ولد الشاعر من غيب الخليل مجموعة من الرموز، فقد جعل نداء البياضين عليه هي المزاد، ورمزا لمن باعوا الديار بثمن يابس، كالشمن الذي يفتضح أي إنسان أن يدفعه لما أراد شراءه من الغيب الخليلي. وقد عبر الشاعر عن ذلك بقوله:

غيب بندالي وبانعة دأكل في الزقاق وثقل فخرنا

لأن الحبيب

<http://Archivebeta.Sakhaft.com>

يرثي من نور الغيب

لقد جعل الشاعر بحر الحبيب رمزا لصفقة البيع، أما كيف كان ذلك؟ فهذا بيانه: إن البياضين ينادون ضالعين «يا غيب... يا غيب أي يوزن، فاعلمن- فاعلمن. وهذه التضخيم هي تضخيم بحر الطيب. وهذه الصفقة التي رمز إليها بالطيب هي التي أجبرت على البياضين أنهارا من الذهب.

ثم ولد الشاعر من غيب الخليل ورمزا آخر: فقد جعله رمزا إلى عمق الانغماس في الأرض، فجعل الغيب الخليلي ضاربا في أعماق التاريخ: فقد كانت كروم غيب الخليل للكنعانيين،

من دمع كروم الكنعانيين

ثم أخذ يصف شروح خليلي من بني نعيم لسلاسل الغيب، وكيف تمتد سلاسل الكرامة كما يمتد التاريخ، يشير بذلك إلى قدم امتداد الإنسان الفلسطيني الذي غرس كرامة الغيب في أرضه وبلده:

كان نعيمى ينثر بخله في أول غيط القصر

يشرح لي عن سلسلة من نسب لسلاسل أجداد الكرامة

بشعر اللون والطول والطعم والأسماء

## تأليف: معاصري الحياة - وديع المعاصري - تم نشره من الجزء المعاصر

واختار الخليلي الذي ينسب إلى بني نعيم اختيار موهل: لأن أولئك من قبيلة عربية قديمة هي الجزيرة العربية - ثم إن التفرق بالكون، وبالطول، وبالطعم، وبالأسماء - إشارة إلى خصائص الإنسان الفلسطيني وسماته وقسماته.

وولد الشاعر رمزا آخر من عشب الخليل: فجعله رمزا لبعض العلاقات الإنسانية بارزة: فهي التي تأكل من خيراتها - وجعله كذلك رمزا لحسن استغلال أهل الأرض لأرضهم فقال:

الخليل فضله في الصباح زيبا وديسا إذا كان  
ملبته صليبا كينيات الشاعر  
لكي لا تغار من المورد من حمرة الوجنتين  
ولبن التمر

أما الآخرون فلا يحسنون استغلال الأرض، ولا يمدحون كيف يستثمرون الأرض الفلسطينية يقول الشاعر:

ونحن الأعراب نعتشها كرامة تتجلى خلالها في التمر  
فترمها في الصواني  
إذا على هذا الصنيع على الكائنات  
وتلفها في ديسر  
في عهد عيسى عليه السلام

وهذا رمز لما يخلقه زود الحفلات في حفلات عيد الميلاد الجديد، في الوقت الذي يغفلون فيه عما يخطط لهم أعدائهم.

هذا الأسلوب من توليد الرموز، بعضها من بعض، يتجلى في كثير من أعماله عز الدين المناصرة.

### ٧- البحر الضميري

يكون الرمز الضميري عندما يستخدم الشاعر عبارة مأثورة أو نسا من القرآن الكريم، أو الحكم، أو العبارات المحفوظة. وهذا الرمز يرد كثيرا عند المناصرة، من ذلك قصوده في قصيدة الحجر:

وما رميت إذا رميت - ولكن الله رمي  
فقد جعل الشاعر الآية الكريمة «وما رميت إذا رميت، ولكن الله رمي» رمزا لأمر عدة منها:  
أولا، إن الرمية كانت ممددة، لأن الرامي هو الله عز وجل.  
وثانيا، إن الجندي الإسرائيلي الذي جرح في السلاح هو الضمير، والرامي هو الضوي.  
ومن هذا القبيل قوله في قصيدة «أضاعوتي»

قلت المداين، بعضهم ذاق التصادم

من عيون الشعر

يرجي والدي

والآخرين تنكروا، انذهب وريدك قتلا

إنه يرمز بالآية الكريمة «انذهب أنت وريدك قتلا» إلى حال الأمة. وقد استعمرت التخلف عن

قتال الأعداء، وهي القصيدة تسميها عدد من الرموز التضمينية، فقد جعلها قول

الشاعر العربي

أضاعوني، ولجني فني أضاعوا

ليوم كريمة وسدا غفر

فقال التناصر:

قال الشاعر الخفي حين يكن:

«أضاعوني

ولجني فني أضاعوا»

يرمز بذلك إلى أن العرب قنعوا في حق قنسططين حين ضاعت من أعينها، واختصمها

المحتلون، وضعن الشاعر القصيدة قول امرئ القيس:

والله لا يذهب ملكي بأحلا

على امرئ القيس

<http://Archivebeta.Sakhrif.com>

فقال:

وكنهم ما مرحلوا تلك الذنون

على قنات مراكبي

«والله لا يذهب ملكي بأحلا»

غير أن الخلاف كبير بين ما رمى إليه امرئ القيس من قوله هذا، وما أرادته التناصر من إيوار

هذه العبارة في هذا السياق. فامرئ القيس يقسم على أخذ الثار ممن قتل أباه. أما التناصر فقد

أورد العبارة على لسان من كانوا يضحكون على ذنون أمتهم، بأنهم سيثأرون ممن الخضب الأرض

وأخرج أهلها منها.

وبمن المقصورة عبارة امرئ القيس المشهورة، عندما علم نبأ مقتل أبيه: «اليوم خير ولدا امر» فقال:

وأقول اليوم خير ولدا يا غرياء

استكثروا يا غرياء

أرفصوا يا غرياء

فوزاء الكار ما خطباء

## تأليف: د. محمد عبد الله، د. محمد عبد الله، د. محمد عبد الله

لقد استقطب الشاعر كلمة «امرء» من قول امرئ القيس: «ولمّا امرء» لأنه لا يريد أن يورد على لسان من يهينهم، وعدا باني أمر مهمل كان كأنهم في نظره ليسوا من أهل ذلك، وما ينبغي لهم، وفي القصيدة نفسها تضمين آخر من قول المتنبي:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على بهزله الدهر  
فقد قال الناصب:

وسمعت واليها يقول وعينه  
فيها الخلق

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى  
حتى تقال على مسامحة الخطب

هذا رمز تضميني يجعل بين طياته تعريضا واضحا، بمن الشعراء الأمة من خطيئهم التناقض. ومثل ذلك ما قاله الشاعر في حديثه عن كافور:

يكنى المتنبي والهاجر  
حديثا عن عقلة كافور

قال يجب شيوخ الشعراء ويكرههم

هذا في عبارة يجب مديح الشعراء ويكرههم، ليست عبارة محفوظة بلصحتها، ولكنها معروفة بمضمونها، فهي في حكم التلميح المحفوظ، أو هكذا أوردتها الشاعر، فقد كان كافور يجب مديح الشعراء ويكرههم، وعلى ذلك يجري هذا المنهج في مجرى الرصيد التضميني. وقد استعملها الشاعر لتكون رمزا، لأن القصود هم الكبراء الذين يحبون المديح، ويكرهون الشعراء.

### الخطبة التي: الإسقاط النهائي

أعني بالإسقاط التاريخي أن يستحضر الشاعر شخصية معينة من التاريخ، ليستقطب عليها بعض ما يجري من الأحداث المعاصرة. وشعر عز الدين القاسرة فيه كثير من الإسقاطات التاريخية: فقد اقتبس عددا من الأسماء التاريخية، وما جرى معها، وصرف ذلك كله إلى القضية التي كرس شعره كله لخدمتها.

والإسقاط التاريخي متصل بالرمز التضميني. لكننا سنركز في دراسة الإسقاط التاريخي على سمات الشخصية، والأحداث التي جرت منها، أكثر من تركيزنا على دراسة ما يهتم بدراسة الرمز التضميني.

استحضر الشاعر شخصية امرئ القيس، ابن ملك كندة، وما جرى له بعد مقتل أبوه، وضيق ملكه، إذ توجه إلى ملك الساسانية، ليستعين به في الثأر ممن قتلوا أباه وأولاد دولته. لقد ذكر الناصب امرأ القيس، وقصة انصرافه في البلاد ساعيا إلى ملك الروم، في قصائد متعددة، فهي قصيدة له بعنوان: «فلما نيك» (وهذان أول كلمتين في مقالة امرئ القيس) يجعل الناصب هاتين



الكلمتين ميزانا القياس بكاء بيكاداً\*، وشكنا ما بينهما، فاصرف القيس بيكي ولا يكلف من المتعبدية بالتأثر لدم الباء. وأما بكالينا نحن على ما أضمتنا فالتأثر مختلف جداً، ذلك أنه:

تسريح تعالينا من لمرول الرخاء  
 هذا أقوى مع القليل لو يسمع الزمل وضع خطي التعاء  
 لهورر السماء ترلينا في السماء

هناك سمعي، وهنا تعالاب خاملات، ويكفي أن تكون (تعالاب) للدلالة على ما أراد الشاعر، فكيف إذا كانت تعالاب خاملاتة من ذا الذي سيقالاب بالتأثر صاعته؟

واستعشر الشاعر شخصية امرئ القيس في قصيدة أخرى عنوانها فاصرف القيس يحمل فجة إلى قانا الجليل، وصما قاله فيها:

صرخت... ولم يستجب لي أحد  
 ليس وهيجل غير اضطرى  
 صرخت... ولم يستجب لي أحد  
 ثم قال:

إنهم ضلوا والذي وألا خارد في حنابة الضلوع

من المعلوم أن لامرئ القيس حبيبة اسمها فاطمة، وزد ذكرها في المعلقة:

أحدث عز الدين الفاضلة من فاطمة أمه فقال  
 فاضلها هذا بعض هذا الضلال

<http://Archivebeta.Sakhi.org>

وإن كنت قد أزعجت صرني فاجلني  
 كان عرس هذا الجليل واطمة الآن

فتح باب الطوع

خداوها وخلاخيلها والعطور

وتقسم ألا تكون عزمي الضحى

والصا صرنا أنها فاطمة امرئ القيس لا غيرها، لأنها هي الموصوفة بأنها تؤوم الضحى. في معلقة امرئ القيس: - - - تؤوم الضحى لم تتطرق عن تعضل.

وقد جعلها الفاضلة تقسم بأنها أن تكون تؤوم الضحى، إشارة إلى المعلقة التي استندت عليها موجباتها.

واستعشر الشاعر زرقاء اليمامة الفتاة العربية الشهيرة التي كانت تبصر الأشياء من أمثال كثيرة. استعشر الشاعر شخصيتها، وجعلها رمزاً لمن كان يرى الوقائع العظيمة، والويلات الكثيرة.

(\*) مطلع معلقة امرئ القيس: هذا ليد - - - إني لبي ابتاد، على حدة الباء على الأختالي - مع ذلك فقد نقل الشاعر هاتين الكلمتين، واستخدمهما الهدف الذي أراد استخدامه بهما.

## تخليد معانيه البقاء، وبناء الشخصية في شعر من أدب العاصرة

قبل أن تحل بالأمة، فيطيرهم بها لهاشوا حذرهم حتى لا يالغتهم الأعداء على حين غرة. وقد سماها الشاعر جفرا الكنعانية.

فقال في قصيدة عنوانها «زرقاء اليمامة»:

لكن يا جفرا الكنعانية

قلت لنا إن الأشجار تسير

على الطرق

كجيش مستند تحت الأنظار

أقرأ سطرًا سطرًا زغر الصوى

لكن يا زرقاء العيين وبيا لحة عتتنا الحمراء

كنا نلث في صحراء التيه

كبنى منكسرين على مائدة الأعداء

ولهذا ما صدقك سولي، لهذا كنت الناجي

واستحضر شخصية الأئمة الأربعة الشاعر الجاهلي المعروف صاحب القول المشهور:

ذهب الذين أحبه وبيت مثل السيف فردا

استعار المقصورة الشطر الأول من هذا البيت، وجعله عنواناً لإحدى قصائده التي يشكو فيها

ضيق الوطن.

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Bakheit.com>

وطني يضع ولا أقول

أه من الليل الطويل

ذهب الذين أحبه

وبيت مثل السيف فردا

واستحضر شخصية عبدالله العروبي الذي قال:

"أنا عروبي، ولي حتى ألتاعوا لي مر كربة وسدات نحر"

وجعل عبارة «أنا عروبي» عنواناً لإحدى قصائده

واستحضر شخصية أبي مخنف الثقفي، وجعله رمزاً للمعزوم من أرضه. المتروكة عنه وسائل

الدفاع عن أرضه ووطنه.

لقد كان القصيدة شفوها باستحضار الشخصيات من التاريخ العربي، يلي عليها رموزاً، ويقيم عليها قصائده، بدلا من أن يلجأ إلى الشخصيات الأسطورية في الثقافات الأخرى. كما فعل آخرون من الشعراء. لقد شغل القصيدة طريقته إلى تمثل الثقافة العربية في شعره، في مرحلة مبكرة من حياته الشعرية. وتقدم على كثير ممن عاصروه في هذا المجال. وربما كانت ثقافة التي تحصل عليها كثيرا منها من دراسته في دار العلوم، قد فتحت له هذا الباب، ليدخل منه بشخصية

مستقلة، وليس معيّن، ولا شك في أن اطلاعنا على المجموعات الشعرية العربية، ومنها ديوان الحماسة وغيره، قد أسهم في بناء توجهه هذا.

### الخطبة الثالثة: الإيقاع الدرامي

تكثر الإيقاعات الدرامية في شعر الناصرية، إلى درجة يوشك فيها ذلك أن يكون في خاصة شعروا سمة مميزة. رسمنا واضعاً، وسوف أوضح كيف يكون القصيدة الواحدة بألوان شتى من الإيقاعات الدرامية المتفاوتة في تدرجها وثماها. فقرة قصيدة عنوانها «مدينة تدور حول نفسها».

إن الدوران حول النفس صورة درامية، تظهر الإنسان، كأنه مركز الدائرة في هذا الضيق؛ ذلك أنه أصبح يحيط به من كل الجهات، فإذا طبقنا ذلك على المدينة، وهذا هو الذي يريده الشاعر - كانت المدينة غارقة في عدم معرفة ما تريد، وما يريد لها، يقول الشاعر في هذه القصيدة:

قريباً من المجلس البلدي

بعيداً عن المجلس البلدي

انكأن على حائط بارد

مثل مقبرة السج



ARCHIVE

كنت وحيداً وتحرني أهلي والهم والافتقار  
في هذه السطور صفات كثيرة، يعلّق الإيقاع الدرامي، فلا حاشية تظهر في القريب والبعيد، أو الأسمى والأقصى؛ فلا القرب من الهيئة الحكامية التي يحتلها المجلس البلدي، ولا البعد عنها، منع من أن يهاجر، فينكأن على حائط بارد، لا يقيه من البرد. وظل الراوي - باعتباره ممثلاً لكل من في المدينة - ضائعاً، وظلت المدينة تدور حول نفسها. فاستوى القرب والبعيد عن المجلس البلدي، في عدم القدرة على إنقاذ المدينة، من أن تدور حول نفسها. هذا ضرب من التفكير يجعل الضعف هو الدار الذي تدور المدينة فيه حول نفسها، وتكون النتيجة أنها لا المقربون قادرون على أن يفعلوا شيئاً، ولا البعيدون عن المجلس قادرون على ذلك، فهو ضياع من هنا، ضياع من هناك، ضياع من كل اتجاه، هذه إحاطة واضحة ذات إيقاع درامي.

هذا كله لا يخلو من الإيهام: إيهام بأن الضدية والتناقض الموجودين في المدينة لم يفلتاها، ولا انتقدا أهلها، من الدوران حول النفس، وإيهام بأن أهل المدينة يدورون بفكر الزان، حتى أصبح الواحد منهم قريباً من السقوط، ومن أجل الإنقاذ من هذا السقوط جاء الفعل «انكأن» ليكون ميمناً على البناء والاستمرار، مهما كان الزمان فيها ضعيفاً.

وشمة قدر من المشاركة يظهر في ذلك، فالمرء عندما يضعف من الوقوف أو القيام فإنه يستند إلى جدار قوي. ولكن الجدار الذي استند إليه الراوي ملكاً عليه بارد - بمعنى أنه ليس فيه قدر من

## تأليف: معاذ عبد الباق - دكتور في اللغة العربية

حرارة الخيول، يتفاعل به من يتكئ عليه، ويستند إليه، وهو هنا يشير إلى الحائط الذي اتكأ عليه الفلسطينيون، فما وجدوا فيه غير البرودة التي هي هنا انطفاء العاطفة.

وهي الآيات تصعيد يتمثل في تشبيه الجدار البارد بمقبرة السحق؛ وهو تصعيد سلبي؛ لأنه يصعد الظاهرة السلبية - وهي برودة الحائط من حيث إنه لا حرارة فيه - في المقبرة التي لا حياة فيها، فبدلاً بالجدار الذي لا حرارة فيه؛ لينتهي إلى المقبرة التي لا حياة فيها، بل هي رمز الموت والعدم، وما كانت المقبرة هي سفح الجبل إلا من أجل أن يجعلها الشاعر مظلة ظاهرة.

ويظهر التصعيد في قوله: كنت وحيداً وحيداً، فليس المقصود بتكرار الكلمة تأكيداً بأنه كان وحيداً، ولكن في ذلك دلالة على تصعيد درجة الوحدة؛ وتصعيد استمراريتها.

وهي الآيات تعدد الوصف الذي يظهر في قوله: ويخونني الهم والوهم والانتظار - أي أن مظاهر المعاناة كانت تدور في تلكه أطر، أولها: الهم مما كان قد وقع فيه، وهو هنا يشير إلى الهموم التي تورثت على الشعب الفلسطيني. وأما الهمم فيتمثل الحاضر الواقع، من حيث إن أبواب الحياة الكريمة قد أصبح مغلقاً، فليس أمامه، فهي وهم، ليس إلا. وأما الانتظار فهو باب آخر من العذاب، ولكنه يمثل المستقبل. وبذلك يكون الشاعر قد جعل العذاب مؤزناً بين ماضٍ (وهم) وحاضر (وهم)، ومستقبل (انتظار).

ويقول الشاعر:

أفارق بين الخليل وبين الخليل

جسور قرفاً جزراً من جملته

ومجموعاً حول حامية الحاج والانتظار

ظفرت ترسعت في لحظة

لن حراً

وراء المدينة حتماً سيأتي

رأيت المجرع ترأب أفتاً

من الزهر والكبرياء

وقال صديقي

الذي يحسب الاحتمالات

زار بظفره بعد زلزل

استعمل الشاعر في هذه السطور أسلوب الكشف والتغطية لإيهام فكرته. أما الكشف، فيتمثل في المقارنة بين الخليل ومدينة عربية تشبه الخليل، فكانت كل واحدة منهما الخليل، من حيث تاريخها وغموم أبنائها، فليس بين الخليل وتلك المدينة سوى جسور الوحدة، أما التغطية فواضحة في كون جسور الوحدة هذه غير فاعلة، فبدلاً من أن تكون جسور وحدة أصبحت فاصلة بين دولة

والأخرى، وبين سياسة وسياسة، فكانت جسور قطيعة وجفاء. إن جعل الشاعر جسور الوحدة جسور  
فرقة شرب من الإيقاع الدرامي، وقد كان من نتائج هذه القرينة أنهم جميعاً يجمعون على ماكل  
واحد، في ملادة واحدة هي الملح. وما زال الجميع ينتظرون ملادة تأتيتهم من السماء.

أراد الشاعر أن يستعمل أسلوب «الكشف» مرة أخرى فقال: نظرت وانظر وسيلة البصر وطريق  
للإدراك ثم عاد ليفضي ذلك ففعل «توهمت»، فكانت لم يجعل للنظر نتيجة إيجابية، تتفق مع  
توجهه في درامية الحدث. واستعمل «الكشف» مرة أخرى، عندما جعل الجماهير - وهو هنا يعني  
الجماهير العربية - تتربص فتحاً جديداً، أو تغييراً إيجابياً، لما فعل الشاعر ما يمكن أن يؤدي إليه  
البصر من إدراك حقيقي حين قال: نظرت، توهمت، يتفق مع توجهه في جعل الحدث درامياً.

واستعمل الشاعر الأسلوب نفسه من الكشف حين قال:

رأيت جموعاً تراباً ألفاً

من الزهر والكبرياء

ثم عاد ليفضي ذلك فيلجئه، حين نسب إلى صديقه قوله:

وقال صديقي، الذي بحسب الاحتمالات

زار بطنه فر بعد زار

فهو لم ينسب الحكم إلى نفسه، بل جعله يجري على لسان صديقه؛ لا لأنه هو نفسه يتردد في  
إصدار الحكم، ولكن لأنه يريد أن يجعل في هذا القطع حركة درامية، يشترك فيها هو وبغيره،  
حركته هو، باعتباره ناظراً في الموقف السلبي للجماهير التي تكنظ بالترقب والانتظار، وحركته  
صديقه ذات الإيقاع الصامتة والتي جاءت على شكل حكمة تختلج بالحدث، وتترد إلى قانون  
كوني اجتماعي، هو أن جعل التغيير مجرد احتمال قابل للوقوع وعدم الوقوع، إنما هو تعبير عن  
تعبير الجماهير، مجرد تعبير ليس إلا.

ويقول الشاعر في القصيدة نفسها:

نظرت إلى جبل الوحش

كيف الزبانات قريبها يهتار

ولكن - وقاضيت دعوي الغرار

ولكنه صابراً ظل ثم أشار إلى صحراء

كمي أفارها زوايا

ثم أحضنها ثانياً

وأقبلها ثالثاً، رابحاً حلساً

وأعادتها سادساً

وأعادها سابعاً

وأشد أنفاسها شامتا  
ثم أقرأ ميزانها شامتا  
ثم ألهي دمي لعملاقها عاشرا  
لمجدك لينة كالصعينة بين يديك  
ففرغها بالراحين والتمين والبرغال الحزين  
وشراً شعراً الصخرتها والمصور  
تعلت: أنشأت على القلب: أعصره كالطير  
أناحت: وقالت: أما زلت تهذي  
بأن الثراب يدور

إنه: انتمى بالإيقاع الدرامي ينشئ في عروق كلمات هذه المصنوعة: فالوحش جيل منطرت إلى جيل الوحش.. والنباتات قمرها جفرا. ولكن هذه التباينات الجميلة مجرّد بنائيات، ليس فيها من يحس، وليس فيها من يعجب. ولذلك أخذ الوقت على الشاعر، وفجأته دموعي الغزير.. حدث هذا وصاحبه صامت ينظر إليه: كان الإيقاع الدرامي إنما يكون بالبناء، كما حدث مع الشاعر، وبفصحة الصمت: كما حدث مع صاحبه الذي أشار إلى مصفوفة (يرمز بها الشاعر إلى أهل الأرض). والرمز بالمصفوفة يدل على الصلابة والقوة والفتنة. مثلاً يدل على رسوخها في الأرض. ولذلك لا يكون من السهل إقلاقها منها.

أنشأ الشاعر - باعتبار: أوب - علاقة جديدة متبادلة بينه وبين تلك المصفوفة. والتخرج ينشئ إيقاعاً متدرجاً: فالغزارة أولاً من أجل إقامة جسر للعلاقة، ثم تكون الخطوة الثانية بعد ذلك، وهي الاستجابة التي إذا حدثت ضمتها إلى صدره. وكل واحدة من الخطوتين الأولى ذات حركة واحدة. أما الخطوة الثالثة، فهي ذات حركة متكررة، كل واحدة تكون أشد حرارة من سابقتها وأقلها تأنقاً. رابعا، خامسا، وهذا في ذاته تصعيد الحركة الإيقاع الدرامي.

لا يطيب الغرام إذا ظل غراماً استأنفكها لا حركة فيه. ولذلك تبدأ حركة المد والجزر في غرام الشاعر الراوي: مواضعها سادسا، وأصلها سادسا. والصلابة التي تعقب العفافة تجعل الحب أكثر فاعلية. وحركته أشد إيقاعاً.

يستمر الإيقاع في التطور، حتى تصبح المصفوفة ذات كيان إنساني، فيصبح لها أضلاع لتسد بعينها الحب. وهذا كله، وإن كان كثيراً، شهر كافد، إذ لا بد من أن يؤخذ هذا الحب بالتراميل، وضوابط ميزانه: فيستشهد الإنسان في سبيل هذه الأرض.

ويستمر الإيقاع الدرامي في النمو على هذا النحو: فيتحوّل الدم ذو العفوان إلى فاكهة ناكها المصافيير. ثم يتحوّل الراوي المسكون بأحلامه وحبه، وإذا الحب كأنه ضرب من التهذيان، من شدة عشقونه، أناحت، وقالت: أما زلت تهذي، بأن الثراب يدور..

يشتهر الإيقاع الدرامي متوهجا في قصيدة «متوهج كعاز» ، إن العنوان نفسه يدل على إيقاع درامي. فهو يجعل بين جيلاته التاريخ الذائب في السنين، وهو هنا (كعاز)، والعمود متبلق في وهج البعث من التوت والرقود. هذا كله يجعل إيقاعات درامية مبنية على التعاقب بين سكوت التوت وحركة البعث.

يقول الشاعر في هذه القصيدة:  
أحلول دار وحأكورة وسماه  
سمعت الجنود يقولون  
أين التي قد من جبل  
واستعذت برقعة ورگضت رگكورا  
وراهي خنازير مية  
شمر هانت توك مثل التيا  
رگكعان نخل وحرور وسط يذن  
سوف تلج بحرا يهاجر رمل  
وتلج سورجا يذهب طوحة هذا الخطأ  
أحلول أن اتبع سورجا أجدادنا الطيبين  
رگمر حلول البحر شحلول مرارة قرد رمل الكلا  
أحلول أن أسج الحزن من رجة  
قد علاها الصدا



بدأ الشاعر هذا القطع بقوله «سمعت الجنود يقولون: أين الذي قد من جبل؟» من أجل أن يجعل الحركة الدرامية تبالغ غابتها. فالجنود لم يسألوا (إلا من أجل تعذيبه وقتله، بل من أجل التشجيع في ذلك. دلنا على ذلك أنهم لما سألوا عنه وصفوه بأنه قد من جبل؛ أي أنهم سينتكون به بمقدار مضاد لصلابته وقوته. وقد استعاض الراوي بزيوشنة واحتمس بها؛ فالزيوشنة رمز الخضوية، ورمز الثبوت في الأرض. ثم إنه لم يهرب، بل رگض؛ لأن الرگض لا يدل على انهزام؛ وإنما هو هنا حركة لاتخاذ مواقع. وقد كان الجنود خلفه مثل الخنازير البرية. وإنما وصفها بالبرية؛ لأنها هوج غير منضبطة. وهو بذلك يساعد إيقاع الحدث الدرامي ويرفعه.

فلت الخنازير البرية نظريتها ولكلها استطاع أن يغتلفي ويتوارى عن الأنظار. يشتهر بذلك إلى أنه أقدر على الحركة منهم؛ من حيث أنهم قطعان خنازير برية ليس لها أدنى ارتباط بالأرض. أما هو فيستطوع أن يغتلفي عن الأنظار؛ لأن الأرض أمه، وهي التي تخفيه بين جوانحها. هذا هو إيقاع الحركة الدرامية في هذه المسطور الشعرية.

## زينة صاحبة البيت، بيت، الصحابة، دم شعر من الدية العاصية

يقول الشاعر بعد ذلك: «وهانت نوامد مثل التبا» لأنه جعل سرعة ولاية النار التسلطية بسرعة انتشار التبا، وهذه السرعة في الولاة ليس شمة ما يشبهها. لأنها - وإن كانت سريعة - فإن الأصول معقدة من التاريخ، وكل ما على الأرض ما زال يشير إلى كنعان وأحفاده، وملكية الأرض له ولهم «وكنعان نخل وحبور ومنطق لذن» أي أن الأرض كنعانية، وكل ما عليها كنعاني. والتركيز على الانتماء الكنعاني ظاهرة بارزة في شعر الناصورة. وهو بذلك يشير إلى بعدين الأول: أن الصراع بين كنعان وأعدائه اليهود قديم. والثاني: أن التشييد بالأصل الكنعاني إشارة إلى التشييد بالأرض.

حتى الألوان - التي لها بعد استثنائي - ذات صق درامي عند الناصورة. عمق درامي يصاحبه إيقاع درامي خالص، من ذلك قوله في القصيدة «دموع الكنعانيات»:

الزيتون يغني الزيتون

سهم لنفي في حبيبه

الزيتون الأخضر أحمر

بل دمه أخضر

بل أسود بل أصفر

أصفر مثل الكر كمر

قلت إلهي الكنعانيات هذا دمه

واشدت نقرات الطبل

لأدومه اللهب على حيطك بالبرودة

إن عنوان القصيدة «دموع الكنعانيات» ذو طابع درامي لأنه يعيدنا الزمن والمكان: فويضي بكاء الكنعانيات على الجدار التي ارتكبت في أماكن وأزمنة متعمدة. وأما أن الزيتون أحمر، كعنا جاء في وصف الشاعر له، فإنه يرمز إلى أن الأرض الخضراء قد ارتوت من دماء الشهداء. فزيتون الزيتون هنا حتى أصبح لونه أحمر. وأما أن دم الشهيد أخضر، فإشارة إلى أن هذا الدم قد تشرب بخضرة الزيتون، وخضرة الأرض. وهكذا تصبح وحدة الوجود، بين الأرض وصاحبها، وحدة تبادلية، يجري في أحدها ويرويه، ما يجري في الآخر ويرويه. واستخدام الألوان في هذا المجال يقدم هدف الشاعر في تقرير وحدة الوجود هذه. فالألوان توحدت وأمتزج بعضها ببعض، وتبادلت مواقع وجودها بشكل درامي مؤثر.

أما أن دمه (أسود بل أخضر)، فلأن دم الشهيد جزيين على ما حل بالأرض وأهلها، من سلب وتشريد وسفك دم. فالأسود يشير إلى هذا العزيم. وأما أن دمه أصفر، فلأن الصفرة إشارة إلى الضعف. أي ضعف هو القصود إلى ضعف العزيم الذي أشير إليه بالمواد.

عند تداول الألوان الذي يشير إلى ما ذكرناه نلاحظ شدة الإيقاع الدرامي، ممثلة في شدة النقرات على الطبل والشدت نقرات الطبل. تكون هذا الإيقاع تأنيها ليهودوت التي تلطعت جدرانها بالدم المسفوح، بكل الألوان التي ورد ذكرها في هذا المقطع.



يظهر الإيقاع الدرامي بالآثوار واضحا في قوله:

بالأحمر كنته

بالأحمر كنته

بالأحمر كنته

بالأسود كنته

هناك من يظهر أربع مرات للشهيد الواحد: كل مرة بلون، فقد كلفنا بخطر الزيتون الدائمة، وكلفنا بدمه. وكلفنا بمسافاته الأبيض. وكلفنا بالحزن الأسود.

يميز الإيقاع الدرامي عند الشاعر، في الحكاية والقصص، والإطالة والإسهاب في أكثر قصائده، متناهيان من قبل أن الشاعر يدخل من باب الحكاية والقصص، فيبقي على ذكر تفصيلات كثيرة. ويستم نفسه لذلك: فيذكر تفصيلات، ربما كان ذكرها مما لا يحتاج إليه. ولكن بما أنه أحدث إشباعا متناهما في القصص، جاء ذكر هذه التفصيلات نتيجة لتنامي الإيقاع. ملكما هو من تفلح الحكاية والقصص. وفي الحكاية، قد يطن الإيقاع الدرامي على الحدث نفسه. ومن أجل توضيح هذه الفكرة أقدم مثالا لها مما جاء في قصيدة «محاورات الباب العالي». فعنوان القصيدة نفسه يوحي بإطالة لأنها (محاورات) ملكما يوحي بأن أحداثا وإشباعا درامية ستأخذ موقعا في القصيدة. وكيف لا يكون الأمر كذلك، والحوار مع الباب العالي الذي قد لا يقلل هذا الحوار اختلافاً جعل الشاعر يضع لهذه القصيدة مقدمة صنف فيها الشعراء فقال:

كذلك نسائي عن بلاز بعيدة <http://Archivebeta.Sakhi.fr>

وعن شاعر مات في الجاهلية

وعن شاعر - لا أقول اسمه الآن -

عاش خيرا وما زال يكتب شعرا

وشرب قهره في القضا

كذلك عن شاعر في النفاي يحوم

وعن شاعر عطفه الجحور

ثم ختم هذه المقدمة بقوله:

وعن صوت فيروز إن كان يكتبي لصدا الجحور

الحديث عن الشعراء في هذه المقدمة لا يخلو من درامية: فتممة شاعر - والمقصود شعراء لا شاعر واحد - مات في الجاهلية. والجاهلية هنا هي زمن ضياع البلاد، وإقامة دولة الكيان الصهيوني، هؤلاء الشعراء لم يفعلوا شيئا سوى أنهم بكوا على الأطلال. وهؤلاء، لا يليه لهم ولا لشعرهم: لأن الفرق عظيم بين أن تفعل شيئا، وألا تفعل شيئا سوى أن تقول الشعر. ولا يحدد

## تأليف الشاعر الجاهلي، عبد الحميد بن جابر عن الدرة العنبرية

الشاعر أن هؤلاء الشعراء قد ماتوا بالضرورة حين قال جرير «ومن شاعر مات في الجاهلية». ولكنه يقصد أنهم احترقوا في ذلك العهد؛ فلا يستطيعون أن يذكروا بعد ذلك.

وثمة شاعر لم يفعل له الشعر سوى أنه أبقاه فقيرا، وهو هنا يقصد نفسه؛ لأنه قال «لا أطول اسمه الآن». ومثل هذا الشاعر ليس مستكسبا بالشعر؛ ولذلك سيظل فقيرا. وهذا الشاعر يشرب قهوته في الفضاء. وهو يعني القطاء المجهول المفتوح أبوابه لهجرة إثر هجرة، وتشرد إثر آخر. ولا يطول الزمان بين الهجرة واختها، إلا بمقدار ما يشرب به فتجان الشهوة. هذا الشاعر ما زال يكتب الشعر؛ لأن وظيفة الشعر عنده مختلفة عما هي عليه عند «شاعر مات في الجاهلية». ولذلك سيظل هذا الشاعر يكتب الشعر على الرغم من موانعه؛ لأن استعمال «ما زال» يعني أنه يضعه على الرغم من موانع قوله من فقر وتشرد. ولكونه يتحدث الموانع التي يمكن أن يظن أنها موانع لقول الشعر؛ فإن ذلك يوحى بأنه سيظل على ذلك التحدى. ولو قال عمر الفخر.

ولمة شاعر أطر التفت حوله نجوم المغرب والقاء. هذا الشاعر لن يعرف من القضية الوطنية أكثر من أن يكتب شعره ليهنيه النجوم. وقد عرض الشاعر بهذا الصنف من الشعراء قتال «ومن صوت فيروز إن كان يغني لصعد الهجو».

تصنف الشعراء على هذا النحو في هذه التصنيفات، يوحى بأن الشاعر يريد أن يجلي الإيقاع الدرامي الذي يمكن أن يكون من الخيال نفسه. مثل الشاعر في التصنيفات، ثم جعل نفسه بين يدي الباب العالي فغاضبه بما قد يقول له قهر.

جئت من أقصى جبل في الشام

لا أشك إلا ما يملكه أماني

فراء ونخيل مزهوا وكروم

شر حدائق فوق السطاح خورم

لكني لما جئت كنت طري العود

أزصف كأنك أعطف حبة ضحي

أشعل كأنك لون الأصفر كأنك السورود

أما أنه جاءه من أقصى جبل في الشام (جبل الخليل في جنوب بلاد الشام) فمعناه أنه جعل الباب العالي غاية في رحلة طويلة شاقة متعبة. وهنا قد يدعو الباب العالي نفسه إلى أن ينظر إليه بشيء من البهجة والشفقة. قد يقال إن هذا ليس حدثا دراميا، قلنا، بل هو كذلك؛ لأن الذي يأمل أن يبدل قلب الباب العالي بالبهجة والشفقة، كمن يزعم أنه قادر على تحويل الباب العالي إلى نقير ما عليه صفاته. وهنا سينال الوقت بين يديه صفاته الراسخة فيه، وهي صمم الإحساس. وهذا نزاع يستدعي وجود قدر كبير من الدرامية التي تتطلب إنطلاقا عاليا.

يستمتع الشاعر الباب العالي بقوله له: إنه لا يملك إلا ما يملكه الناس جميعاً وهو ضوء القمر، والتخل (وهو إشارة إلى العزوبة الزهيدة) وكروم العنب، كأنه بذلك يريد أن يستشير فيه الهمة، فقد جاء من البلاد التي تدر العذبات، وهي إلى جانب ذلك مغمورة بعزوبتها. ويملك الشاعر «حمامات فوق السطح تحوم» بشعر بذلك إلى أنه مسلم. هذا الإنسان يملك كل هذا، ولكنه يصف نفسه بأنه لا يملك إلا ما يملكه أمثاله. يستمتع الشاعر في الضرب على وتر الإيقاع الترامبي فيشبه الشعب الطرود من أرضه بالتملة التي تحطط حبة القمح طلقاً من الأرض. ويبحث القوم في كل بقاع الأرض: يبحثون عن ملوك لهم، وعن لقمة العيش. ولكن هؤلاء كالقطب الثمود الذي إذا حاصره تحول إلى أسد.

يبحث الإيقاع الترامبي في هذه القصيدة، حتى يبلغ ثلاث نواهي:  
الذروة الأولى: حين يبرز شاعرنا الباب العالي، وهو يستمتع للشاعر، ثم يغير به ويلقي على رأسه حبراً:

ضحكت طفلكي وكنت بشوفا

نمر جلست أحدث نفسي

عن طريق العلياء كالماء

لكن يا مولاي

أنت المجر على رأسي وأنا نمر

ثم جعله ترجساً مدياً، بل أن هذا الأخوان قد

طرفت بالي فندم الصبيان وقاروا

الرجس بوزاي

وضحكت على نفسي لما شئتك همس في أذني

كمر عشق شعري

ولحب للفتي وللأختل والشعر العذري

العرجي وأنتك الضليل

وإن شئت أن تصب من مزرعة الترجسية لدى الباب العالي، فتعجب لها أن الأطفال -حتى الأطفال- يعرفونها، لشدة وضوحها وغياها صاحبها، ويصحب الشاعر مشومات الفهم والفكر من عطرة الباب. عندما يقول أنه ضحك على تقصه من سماع الباب العالي، وهو يقول إنه يحب الشعر والشعراء.

الذروة الثانية: عندما فصح الشاعر أمره على الباب العالي، فهذا كأنه مثائر بما جرى لهؤلاء المتكبرين -يقول الشاعر:

اعتذلت قائم أفتاً سيجارة في دوح التوبة

لنن الذكرى والساعة والأحلام



ويكون مثلي، ثم سمر في جلسته لم يمس إلا الصمت  
قلت: علامات الصوفية والقانة والوزراء

إن قالوا فعلوا

أو صمتوا فعلوا

أو صمتوا للكل أو صمتوا

لقد أطلق الشاعر باقتدار، شحنة إنتاج الحدث، عندما قال «لم يمس إلا بالصمت».

ولكنه عاد فجعل هذا الصمت باباً لتمر مستظير، فكان الإلقاء نفسه أصبح طريقاً للدلالة على

صمت أمياً من القول والفعل. إنه صمت الفكر والحيلة والدهاء، والتدبير، من أجل التمييز «إن

قالوا فعلوا، أو صمتوا فعلوا».

الضرورة الثالثة: وهي ضرورة ما بعد الصمت، ولكن هذه الضرورة سيرقاعها الشاعر نفسه هذه المرة.

إنها إذن بعبارة مرحلة جديدة:

أنتيك راجل نة الرحيل

سأنتيك قبل الرحيل وبعد الرحيل

فاما كما نزعن الجفن قبل عويل الشجر

سأنتيك في الشعر المحترق

سأنتيك ككوس رعب، يدق العنق

أما أنه سيأتيه قبل الرحيل، فبأنه يريد أن يدق له طعنات الخطر. وأما مجيئه بعد الرحيل،

فهذا هو إسدال الستار على نهاية المسرحية، ويكون ذلك كما قرع الجن، فيلنشر عويل الشجر

الذي سيحرق الأخضر واليابس.